


اقرأ

أحمد الصاوي محمد

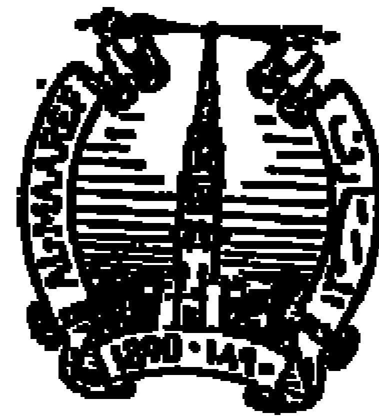
عذراء الأندلس

أحمد الصاوي محمد

عذراء الأندلس

اقرأ ١٢١
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ١٢١ - فبراير ١٩٥٣



١

لا ينفض عيد الكرنفال فى أسبانيا ، كما ينفضّ عندنا ، فى الساعة الثامنة من صباح يوم « أربعاء الرماد » . . . فإن هذا الرماد الذى يذرّه رجال الدين على رؤوس العابدين ، تذكيراً لهم بأنهم من التراب ، وإلى التراب يعودون ، لا ينشر رائحة القبور على مسرات « أشبيلية » الشائقة إلا مدى أربعة أيام ، ثم تعود إلى عيد المرافع الحياة . . .

فكنت ترى عامة الشعب وقد غيروا أزياءهم ، والصبية متألبين فى جماعات ، صارخين ، قد اتخذت ملابسهم ، من الخرق المهلهلة ، اختلفت ألوانها بين حمراء وخضراء ، وزرقاء وصفراء . . . كانت من قبل كلات وستائر وثياباً نسوية ، فأصبحت تهفهف فى الضحى على أجسامهم الصغيرة الخمرية . . .

واجتمع الأولاد من كل صوب وحدب ، وكوّنوا فرقاً ترتفع جلبتها ، وراحوا يهزون فى أيديهم عصيهم المنتهية بقطع من النسيج كالكرابيج ، ويقتحمون الأزقة متنكرين بنُقُب ينبعث من كل ثقبين فيها سرور العينين ، صائحين فى

الرجال ، هاتفين للنساء . . فيفسح الناس الطريق لهذه الغزوة المنكرة المتنكرة . . .

وتزاحمت فى النوافذ والمشارف و « المشرفيّات » الرؤوس السمراء ، وأقبلت بنات الضواحى فى ذلك اليوم على مدينة « أشبيلية » يحنين تحت الضياء رؤوسهن المثقلة بالشعر الغزير . . . فتنصب أوراق « الكونفتّى » متناثرة فوقها كالبرَد ، بينا المراوح فى أيديهن تلقى ظلها السماوى على الخدود . . .

صيحات . . . نداءات . . . ضحكات تدوى أو تعوى فى الأزقة . . .

إنه ضجيج بضعة ألوف من الناس فى عيد المرافع الأندلسى ، وإن دونه ضجيج باريس كلها . . .

وكان اليوم هو الثالث والعشرين من شهر فبراير عام ١٨٩٦ ، وكان يوم أحد . . .

وكان « أندريه ستيڤانول » يحس فى نفسه شيئاً من الحسرة واللهفة لقرب انفضاض العيد . . . لأن هذا الأسبوع ، الذى هو أسبوع الغرام خاصة ، لم يتمخض له عن حادث طريف من حوادث الحب ، على كثرة ما تردد طويلا على أسبانيا ، وعرف فيها كيف تبرم وتنقض ، فى سرعة وصراحة ، أحكام الهوى ، على هذه الأرض التى ما زالت بكراً . . .

وساءه سوء حظه ، وساءه أن الفرص لم تسنح ...

لم يكن ما وقع له يتجاوز معركة دارت بينه وبين فتاة بثعابين الورق من الطريق إلى النافذة ، فنزلت تجرى بعد أن أشارت إليه ، وقدمت له طاقة صغيرة من الزهور الحمراء ، وقدمت له أيضاً عبارة صغيرة فى لهجة أندلسية :

« شكراً جزيلا أيها السيد »

ثم صعدت مسرعة ! ...

هذا إلى أن « أندريه » قد خابت آماله فيها ، لما استبانه عن قرب من ملامحها ، فوضع الزهرة فى عروة صدره ، دون أن يضع المرأة فى ذاكرته ...

وعاد يومه فبدا له أشد فراغاً ...

* * *

دقت الساعة الرابعة ، أعلنتها عشرون ساعة حائط كبيرة مثبتة فى أعالى البيوت ، فاخترق « أندريه » ممر « ردريجو » حتى وصل إلى الرصفة ذات الأشجار الباسقة الممتدة على طول نهر « الوادى الكبير » المزدحم بالسفن ، حيث كان أروع مظهر لعيد الكرنڤال ...

لم تكن الطبقة الموسرة فى « أشبيلية » من وفرة الغنى بحيث تتناول دائماً ثلاث وجبات من الطعام فى اليوم ،

وكانت تؤثر الصيام على الحرمان من زخرف المظهر ، وقوامه عندها مركبة وجوادان مطهمان . . . نعم ، فقد كانت هذه المدينة الريفية الصغيرة تضم نحو خمسمائة وألف مركبة خاصة ، هى غالباً من طراز غير حديث ، وإن كان حديثاً بجمال الخيل . . هذا إلى ما يشغلها من وجوه نبيلة ، تحول دون السخر مما يحوطها

فاستطاع « أندريه ستيڤانول » ، بعد لأى ومشقة ، أن يشق له طريقاً فى غمار الجماهير المحتشدة على جانبي الطريق الواسع المترب

وكان صياح الباعة الصغار يعلو كل صوت :

« بيض . . . بيض . . . »

فقد بدأت معركة البيض ! . . .

« بيض . . من يريد بيضاً ؟ ! . . . الدستة بقرشين ! . . »

وكان البيض فى أكوام مكدسة فى سلال من الخيزران الأصفر ، وقد فرّغ من بياضه وصفاره ، وملئ بأوراق « الكونفتى » ، ولصق بورق شفاف

وكان البيض يُقذف بلا انقطاع ، ككرات التلاميذ ، كيفما اتفق ، على أية وجوه مرت بها المركبات المتثاقلة ! . وقد وقف الرجال والنساء على مقاعد زرقاء يجاوبون الجمهور

المحتشد ، فى حين احتمى الغوانى جهدهن وراء المراوح الأنيقة
وبدأ « أندريه » يحشو جيوبه من هذه القذائف غير المؤذية ، ويقاتل بحمية وجذل . . .

كأن هذا فى الواقع عراكاً . . . ذلك أن البيض ، وإن لم يجرح ، كان يصيب دائماً بقوة قبلما ينفجر ويتساقط كالبرَد على ألوان شتى . . .

ولم يلبث « أندريه » أن فطن إلى أنه يقذف البيض بحدة زائدة ، حتى لقد شطر مروحة رقيقة من الصدف شطرين . . .

لكن . . . فيم الظهور ، فى مثل هذا العراك الناشب ، بمروحة لا تُحمل إلا فى الحفلات الراقصة ؟! هذا من قبيل وضع الشىء فى غير موضعه ! . . .

ومضى غير مكترث ، لا يلوى على شىء . . .

ومرت المركبات ، مركبات النساء ، ومركبات العشاق ، والعائلات ، والأولاد ، والأصحاب . . . و « أندريه » ينظر إلى هذا الشعب المرح يمر أمامه فى موكب من الضحك الرنان ، تحت شمس الربيع الباكرة . . .

وكم من مرة وقعت عيناه على عيون فاتنة . . . ولم تكن بنات « أشبيلية » باللواتى يغضين أو يغضضن من أبصارهن . . . بل إنهن ليتقبّلن تحيات النظرات التى يستوقفنها طويلا . . .

واستغرق هذا العبث ساعة ، فكف « أندريه » أو كاد . . وجعل يدير بيده آخر بيضة معه ، متردداً . . . وإذا به يرى على حين فجأة الشابة التى كسر مروحتها ، وكانت فتنة الناظرين . . .

وكانت قد تجردت من درعها الذى كان يحمى محياها البديع البسام ، وأضحت من كل ناحية عزلاء ، عرضة لمهاجمة الناس والمركبات المجاورة ، فاعتزمت القيام بدورها فى النضال . . . ووقفت فى عربتها ، تدفع عن نفسها ، وتهاجم غيرها ، وهى تلهث ، وقد تشعث شعرها ، واحمر وجهها من الحر ، ومن المرح . . .

وكانت تبدو فى الثانية والعشرين ، وهى فى الحقيقة لم تعد الثامنة عشرة . ولم يكن هناك ريب فى أنها أندلسية ، فكانت لها الصورة الساحرة من بين الصور جميعاً ، وليدة اختلاط الأعراب بالأعجام ، والجرمان بأولاد سام ، فى تلك البقعة التى تجمع فى واد ضيق من أوربا ، بطريقة خارقة ، كل ضروب الكمال المتعارضة فى الجنسين !

وكان جسمها اللدن الطويل ينطق كله بأفصح لسان . . . حتى إن المرء ليكاد يشعر بأنها لو احتجب وجهها لأمكن إدراك ما يجول بفكرها ، وأنها تبتسم بساقيها ، كما تتكلم

بخصرها . . !

فنساء الشمال، اللواتى يبقين طوال فصول الشتاء لا يرمن ولا ينحرفن عن النار، ليست لهن هذه الرشاقة ، ولا تلك الطلاقة

كان شعرها كستنائى اللون ، وإن كان يبدو من بعيد أسود متألقاً . وكانت وجنتاها الناعمتان تبدوان مصبوغتين بلون الزهر الزاهى ، الذى تعرفه فى بشرة اللواتى وُلدن من أبوين أوربيين تحت هجير شمس المستعمرات . وكان بعينيها كَحَل بديع . . .

ودفعت الجماهير « أندريه » إلى مركبتها ، حتى موطئ قدمها . . . فحدجها بنظرة طويلة ، ثم ابتسم مضطرباً . . .

وأنذرته خفقات قلبه السريعة بأن هذه المرأة من النساء اللواتى سيلعبن فى حياته دوراً ! . . .

وكان موج المركبات ، الذى وقف ، يهدد فى كل لحظة بالطغيان والفيضان . . . فأراد ألا يضيع وقتاً ، فتقهقر ما استطاع ، وتناول من جيبه البيضة الأخيرة ، وكتب على قشرتها بالقلم الرصاص ستة أحرف « Quiero » : « أريدك ! . . . »

وانتهز لحظة كانت فيها المجهولة الحسناء شاخصة ببصرها

إليه ، فألقى إليها بالبيضة ، متلطفاً ، كأنما يلقى بوردة . . .

فتلقفتها الشابة بيدها . . . « Quiero » . . . فعل مدهش، يحوى كل المعانى : يريد ، ويحب ، ويشتهى ، ويتمنى . . . وإنه يرغب ، وإنه يعزز . . . فهو تارة وتارة ، وتبعاً للهجة التى تعطى له ، ينطق عن الهوى الآمر المسيطر ، أو النزوة الخفيفة العارضة . . . وهو أمر أو رجاء ، وهو اعتراف أو توسل . . . وقد لا يكون أحياناً إلا تهكماً ! . . .

وكانت النظرة التى شفع بها « أندريه » تلك الكلمة تفصح ببساطة عن قوله : « أحب أن أحبك ! . . . »

وكأنما أحست الشابة أن قشرة البيضة تحمل رسالة ، فدستها فى كيس صغير من الجلد ، معلق فى مقدمة عربتها . . . وكانت بلا ريب ستعود فتنظر وراءها ، ولكن سرعان ما تيامن بها تيار المهرجان الجارف ، وتبعتها مركبات أخرى ، فغابت عن بصر « أندريه » قبل أن يتمكن من خوض غمار الجماهير فى أثرها . . .

فابتعد عن الرصيف ، وتخلص جهده ، وجرى إلى الطريق المعارض ، ولكن الزحام الذى كان الشارع يغص به لم يمكنه من أن يغذ السير فيمضى قدماً . . .

ولما تمكن من الصعود على مقعد يشرف منه على المعركة

كان رأس الفتاة التى يبحث عنها قد اختفى . . .

فاكتأب . . وعاد يسير فى الشوارع الهوينا . . وبدا له المهرجان وقد انطفأ زهوه . . . فطفق يؤنب النفس لعبوس القدر الذى قطع عليه واقعة الغرام . . . ولأنه لو حزم أمره لشق طريقاً بين العجلات وسط الجمهور الأول . . .

أما الآن . . . فأين يجد ثانية تلك المرأة ؟ أواثق هو من أنها تسكن « أشبيلية » ؟ ! فإذا لم تكن من أهلها فوا سوء طالعه ! أين عساه يجدها ؟ ! أفى « قرطبة » ؟ ! أم فى « جيرس » ؟ ! أم فى « ملقة » ؟ !

وكان ذلك ضرباً من المحال . . .

ثم جعلت صورتها ، شيئاً فشيئاً ، تطل من خلال قلب أسيف ، فتزداد فى نفسه فتنة . . . وكان من شأن بعض تقاطيعها ألا يسترعى إلا فضلة انتباهة منه ، فأصبح فى ذاكرته مدعاة إلى حنان حزين . . . وكان كذلك قد لاحظ أنها قد جعدت سوالفها ، ولم يكن ذلك بدعاً منها ، فكثيرات من « الأشبيليات » يعنين عنايتها هذه ، إلا أن طبيعة شعرهن كانت بلا شك لا تصلح لذلك كما كان يصلح له شعر هذه الغادة المجهولة ، وليس يذكر « أندريه » شبيهاً لذلك . . . فضلا عن أنه كان بجانبى شفتيها حركة دائبة ، فهما تتخذان

فى كل آونة شكلا كأنه أسلوب من التعبير : تكادان تغيبان ، ثم تكادان ترتفعان ، فى استدارة أو رقة ، فى شحوب أو سمرة ، وهما مشتعلتان دائماً بلهيب متغير . . . إى والله ! . ولقد كان يمكن التعنّت فى وصفها ، وإثبات أن أنفها ليس إغريقيًّا ، وأن ذقنها ليس رومانيا . . . لكن لم يكن يسع المرء إلا أن يستمتع بمرأى جانبى ثغرها . . .

وما إن وصل تيار أفكاره إلى هنا حتى التجأ إلى باب مفتوح ، إذ سمع صوت حوذى يطلب الطريق . . . ومرّت مركبة تمشى خبباً . . .

وكانت فى تلك المركبة صبية ، لم تكد تتبين « أندريه » حتى ألقت إليه بخفة بيضة كانت فى يدها ، كأنما تلقى بوردة . . . ولسعد طالعه وقعت البيضة أرضاً ، وتدحرجت ، ولم تنكسر . . . لأنه — وياالذهوله التام من هذا اللقاء الجديد ! — لم يتحرك ليلقف البيضة قبل وقوعها . . .

وكانت المركبة قد دارت حول زاوية الطريق عندما انحنى ليلتقط الرسالة ، وكانت كلمة « أريدك » : « Quiero » ! . . .

ولم يكن على قشرة البيضة الناعمة المستديرة كلمة سواها ، والحروف الأولى من إمضاءة ثابتة ، تخالها رسمت بسن دبوس ، كأنما هى تجيب عمداً على رسالته بالكلمة نفسها . . .

٢

وفى تلك الأثناء كانت المركبة قد لفت حول ركن الشارع ، حيث لم يكن يسمع وقع حوافر الخيل إلا وهناً على بلاط طريق « لاجيرالد »

فجرى « أندريه » فى أثرها خشية ضياع هذه الفرصة الثانية التى سنحت ، وقد تكون الأخيرة . ووصل فى الوقت الذى دخلت فيه الخيل ، خطوة خطوة ، بيتاً بلون الورد ، فى ساحة « النصر » — لابلازا دل ترينفو — ففتحت قضبان الباب الحديدى السوداء ، ثم أغلقت على شبح امرأة مسرعة . . .

لا مراء أن حسن الفطنة كان يقضى عليه بالتريث ، والسؤال عن اسمها ، وأسرتها ، وحالها ، ونوع معيشتها ، قبل أن يندفع خبط عشواء . . . ولكنه آثر الاندفاع . . . واستوثق من حسن سمته وهندامه ، ثم دق الجرس بلا تردد . . . فظهر كبير خدم القصر وراء القضبان ، دون أن يفتح :

— ماذا تطلب يا سيدى ؟

— أوصل بطاقتى إلى السيدة

فمضى الخادم يقول ، بصوت هادئ ، لا يعكر الشك كثيراً من صفو ما فيه من احترام :

— إلى أية سيدة ؟

— إلى التى تقطن هذا البيت ، على ما أظن ؟ !

— ولكن . . . ما اسمها ؟

فنفد صبر « أندريه » ، ولم يجب . . . فعاد الخادم يقول :

— هل لسيادتك أن تتكرم بتسمية من تقصدها ؟

— أعيد عليك القول بأن سيدتك تنتظرنى !

فانحنى كبير الخدم ، ورفع يديه قليلا ، علامة الاستحالة ، ثم تراجع دون أن يفتح له الباب ، أو يتناول البطاقة . . .

فذهب الغيظ عندئذ بأدب « أندريه » . . . فقرع الجرس مثنى وثلاث ، كأنه أمام باب مورّد بضائع ! . . .

قال فى نفسه : « إن امرأة سريعة الجواب على من يبوح لها بالميل إليها ، على هذه الصورة ، لا يحق لها أن تستنكر اقتحام بيتها . . . إنها كانت وحدها فى نزهتها ، فلا شك أنها وحيدة هنا ، والضجة التى أحدثها لا يسمعها سواها »

ولم يخطر له أن مهرجان المساخر الأسبانى يبيح حريات عارضة ، لا يسوغ امتدادها إلى الحياة العادية المنتظمة ، ولا تلقى هذا الحظ نفسه من القبول

فظل الباب مغلقاً ، والسكون مخيما على القصر ، كأنه مهجور ! . فما العمل ؟ ... لقد تمشى قليلا فى الساحة أمام النوافذ ، والشرفات ، مؤملا رؤية الوجه المنشود مشرقاً . . . وهو يتوقع إشارة . . . لكن شيئاً من ذلك لم يحدث . . . فتقبّل ذل الرجوع . . .

ومع ذلك فإنه قبل أن يغادر الباب المغلق على كثير من الأسرار اتجه غير بعيد منه إلى بائع كبريت كان جالساً فى ركن مظلم ، وسأله :

ــ من يسكن هذه الدار ؟

فأجاب الرجل :

ــ والله ما أدرى ! . . .

فوضع « أندريه » فى يده قطعة نقود ، وأضاف :

ــ قل ! قل !

ــ ليس فى وسعى أن أقول ، وإلا غضبت علىّ السيدة ، وأمرت غلمانها بشراء ما يلزم لقصرها من جارى الذى يبيع علبه نصف فارغة ! . . . على أننى ، يا سيدى ، لا أذكرها بسوء ، فلا شىء سوى اسمها ، ما دمت تريد معرفته فهى « السنيورة دونا كونسبسيون پريز » حرم « دون مانوئيل جارسيا » . . .

– فزوجها إذن لا يسكن « أشبيلية » ؟ !

– إن زوجها فى أمريكا . . .

فاكتفى « أندريه » بما سمعه ، وألقى فى حجر البائع بقطعة نقود أخرى . . . وعاد أدراجه فى الزحام إلى فندقه ، وهو فى حيرة من أمره . . . فما زال هناك ، ولو أن الزوج غائب ، سر خفى . . . ولم ير الظروف كلها مواتية . . . فهذا البائع الحريص يعرف دون شك أكثر مما يبدى ، ولكنه تحفظ ، وتركه يعتقد وجود عشيق آخر ، مختار من قبل . . . ولم يكن مظهر الخادم يكذب ما ساوره من الوساوس !

ووجد « أندريه » أنه لا يزال أمامه خمسة عشر يوماً قبل التاريخ المحدد لعودته إلى باريس . . . فهل تراها كافية للحظوة بنعمة القرب من تلك الصبية ، التى لا ريب فى أن حياتها قد سبق أن حظى بها المسعد المجدود ؟ . . .

وكذلك كانت تنال منه هذه الشكوك ، وهو يعبر مدخل الفندق . . . وإذا بالبواب يستوقفه ، ويقدم إليه خطاباً . . . وكان الغلاف بلا عنوان . . . فسأله :

– أواثق أنت من أن هذا الخطاب لى ؟

– إنهم سلّموه إلىّ اللحظة : للسيد « أندريه ستيفانول »

فلم يتردد « أندريه » فى فضّه . . . وكان يتضمن هذه

السطور البسيطة ، على بطاقة زرقاء :-

« رجاء إلى دون أندريه ستيڤانول ألا يحدث شَغَباً ، وألا يذكر اسمه ، وألا يعود فيسأل عن اسمى . . . فإذا تمشى غداً فى نحو الساعة الثالثة ، على طريق « أمبلم » . . . فستمر مركبة ، ربما وقفت »

فقال « أندريه » فى نفسه : « ما أطيب الحياة ! . . . »

وفى صعوده سلم الطابق الأول ، تكشَّفت له ، سلفاً ، المودَّات الدانية القطوف . . . وطفق يبحث عن المصغَّرات المحبَّبة لأجمل الأسماء : « كونسبسيون . . . كونشا . . . كونشيتا . . . شيتا . . . » !

٣

استيقظ « أندريه ستيانفول » فى صباح اليوم التالى جذلا مستبشراً . واكتسح النور نوافذ « المشرفية » الأربع . وارتفعت جلبة المدينة : من حوافر الخيل ، وصياح الباعة ، وجلاجل البغال ، ونواقيس الأديرة . . . وجمعت فى الساحة البيضاء دويها ، دليل الحياة . . .

لم يذكر أن مرّ به ، منذ بعيد ، صباح سعيد كهذا الصباح . فتمطى بقوة ، ثم ضم ذراعيه ، كأنما هو يعلل النفس بالعناق المنتظر . . .

وكرر فى نفسه مبتسما : « ما أسهل الحياة ! . . . بالأمس ، فى مثل هذه الساعة ، كنت وحيداً ، بلا غاية ، ولا فكرة . . وهأنذا ، فى هذا الصباح ، قد صرت اثنين ! . . . فماذا يجعلنا نسمى التمنّع أو الاستمهال من جانب النساء صدّاً أو إهمالا ؟ ! إننا نسأل ، وهن يمنحن . . . ولِمَ لا يكون ذلك كذلك ؟ »

ونهض ، وأمر بإعداد الحمام . . . وفى انتظاره وقف إلى النافذة ملصقاً جبينه ببلورها ، ناظراً إلى الساحة المغمورة بنور

النهار . وكانت بيوت « أشبيلية » ملونة الجدران بتلك الألوان الخفيفة التى تشبه ألوان ثياب النساء ، فكان منها : الأصفر ذو الإطار الأبيض ، والوردى الخفيف ، والأخضر المائى ، أو البرتقالى . . . وبعضها بنفسجى شاحب . . . ولم تكن العيون تقذى فى أى مكان بمنظر الشوارع القاتمة العابسة ، كشوارع « قادس » أو « مدريد » . . . فلا أثر لذلك فى « أشبيلية » ، كما أنه لا أثر فيها للون الأبيض الزاهى ، الذى تزوغ منه الأبصار . . .

وكانت فى الميدان شجرات برتقال مثقلة بالثمار ، وينابيع جارية ، وفتيات ضاحكات ممسكات أطراف شيلانهن بكلتا اليدين ، كما تضم المرأة العربية ملاءتها . . .

وفى كل مكان من أركان الميدان ، من منتصف الطريق ، ومن آخر الأزقة ، كانت ترن جلاجل البغال . . .

فخيل إلى « أندريه » أنه لا سبيل إلى العيش فى غير « أشبيلية » . . .

وبعد أن أتم زينته ، وشرب متمهلا فنجاناً صغيراً من الشوكولاتة الأسبانية الدسمة خرج إلى حيث تسوقه المصادفات . . .

أما المصادفات الغريبة فقد جعلته يتبع أقرب طريق ، فسار من فندقه إلى « ساحة النصر » حيث كان قصرها . . .

ولكنه ذكر الاحتياطات التى أشير عليه بها ، وسواء أكان قد خاف تكدير « خليلته ! » بمروره رأساً أمام بابها ، أم أنه حذر أن يمزقه اشتهاء رؤيتها وشيكاً ، فقد تابع الرصيف المقابل ، دون أن يلتفت إلى يساره . . . فوصل إلى متنزه كانت معركة « الكرنفال » ، بالأمس ، قد غطّت أرضه بالورق وقشر البيض ، مما جعل الحديقة الفخمة أشبه شىء بالمطبخ . . . وكان المكان قفراً ، لأن الصيام بدأ . . .

غير أن « أندريه » رأى فى إحدى الطرقات الممتدة إلى الضاحية عابر سبيل يقصده ، فعرفه ، وقال مادّاً إليه يده :

— صباح الخير يا « دون ماتيو » . . . ما كنت أتوقع رؤيتك مبكراً هكذا !

— وما حيلة المرء يا سيدى إذا ما كان وحيداً ، مُهْمَلا ، عاطلا . . . فإنى أتنزه صباحاً ، وأتنزه مساء ، وأقرأ بالنهار أو أذهب إلى ملعب الثيران . . . وهذا هو الوجود الذى اتخذته لنفسى . . . وإنه لكئيب !

— لكن إذا صدق ما يدور من الهمس فى المدينة كانت لياليك تعزى الأيام !

— إذا كانوا لا يزالون على هذا الرأى فهم مخطئون . فإنه منذ اليوم إلى يوم أن يقضى « دون ماتيو دياز »

لن تُرى امرأة عنده قط . . . لكن دعنا من الحديث عنى ، وقل لى كم من الزمن تقضى أيضاً بيننا ؟

وكان « دون ماتيو دياز » هذا أسبانيًّا فى الأربعين ، أوصى « أندريه » بالاتصال به لأول عهده بالنزول فى أسبانيا لمكانته وجاهه . . . وكان كالكثير من أبناء جلدته يتكلم بإشارات وعبارات خطابية بالفطرة . . . فالتفخيم فى الكلام عند الأسبان كالثنايا الكبيرة الأنيقة فى المعطف الفخم . . . وكان رجلا مهذباً ، حالت ثروته الطائلة وحدها بينه وبين الحياة العملية . . . وعرف خاصة بتاريخ غرفة نومه ، المشهورة بكرم المثوى . . . ولذا دهش « أندريه » لما سمعه منه عن زهده الطارئ . . . فلم يلح فى الاستجواب . . .

وتمشيا معا فترة على شاطئ النهر ، حيث كان « دون ماتيو » يملك أرضاً معاً على ضفافه . وكان وطنيًّا لا يمل الإعجاب به . . . وبعدما تغنى بمديح نهر « الوادى الكبير » هذا ، وفضّله على النيل والفرات ، خاض غمار السياسة . . . وكان ملكيًّا ، ساخطاً على الأحزاب المعارضة ، يرى ضرورةً أن تجتمع قوى الوطن حول العرش لمعاونته على إنقاذ الميراث السامى لتاريخ مخلد . . . وقال :

— يا للحِطة ! ويا للشقاء ! . أبعدما نملك أوربا ،

وبعد مُلك شرلمان ، وبعد مضاعفة ميدان العمل فى الدنيا ، باكتشاف أمريكا ، هذه الدنيا الجديدة ، وبعد تملّك أمبراطورية لا تغرب الشمس عن أملاكها ، وأكثر من هذا كله بعد أن نكون أول من هزم أمبراطوركم « نابليون » . . . أبعد هذا نلهث الآن تحت عصىّ شرذمة من قطاع الطرق المولّدين؟ ! . . . يا لمصيرك ياإسبانيا ! . . .

وما كان المجال يسمح بالرد عليه بأن أولئك اللصوص هم إخوة « واشنجتون » محرر أمريكا ، و « بوليڤار » محرر كولمبيا وبوليڤيا ، فقد كانوا فى نظره سفلة لا يستأهلون حتى الشنق !

ثم هدأ واستطرد :

— إنى أحب بلادى . . . أحب تلك الجبال والسهول ، أحب اللغة والثياب ، وإحساس شعبها . . . ولجنسها صفات من جوهر ثمين ، فهى بنفسها نبالة ، بمعزل عن أوربا ، جاهلة كل ما عداها ، محصورة فى أرضها ، كالحديقة فى سورها . . . وأنت تعلم أنهم يطلقون على الأسبانى القح « هيدلجو » ، أى : السلالة النقية الخالصة من كل خليط بالدم المغربى . . . وهم لا يريدون التسليم بأن الإسلام ، فى مدى سبعة قرون ، قد أصّل جذوره فى أرض الأسبان . . .

أما أنا فقد كان من رأيى دائماً أنه جحود أىّ جحود أن نتبرأ من أمثال هؤلاء الأسلاف . . . ولسنا مدينين لغير العرب بالصفات الاستثنائية الممتازة التى رسمت فى التاريخ صورة ماضينا العظمى . . . فهم أورثونا ازدراءهم المال ، وازدراءهم الكذب ، وازدراءهم الموت . . . كما أورثونا أنفتَهم التى تُعجز الوصف . . . وقد أخذنا عنهم ترفعنا عن الصغائر ، وكذلك استهانتهم بالأعمال اليدوية . . . والحق أننا أبناؤهم ، وليس عبثاً استمرارنا على رقصهم الشرقى ، على أنغامهم الحماسية . . .

* * *

وطلعت الشمس فى سماء طلقة صافية ، وظهرت من خلال رؤوس الأشجار العتيقة القاتمة خضرة الغار والسعف . . . وزادت سحر الصباح الشتوى ، فى بلد لا يطمئن إليه الشتاء ، لفحات دافئة مفاجئة . . .

قال « دون ماتيو » : أرجو أن تتناول اليوم عندى طعام الغداء ، فبيتى هناك على مقربة من طريق « أمبلم » ، نبلغه فى نصف ساعة . . . فإذا سمحت استبقيتك حتى المساء ، وعرضت عليك خيولى الجديدة

فاعتذر « أندريه » بقوله :

— أرانى سأثقل عليك ، حسبى أن أقبل الغداء ، وأعتذر

عن قبول النزهة ، لأنني ضربت هذا المساء موعداً لا يمكنني التخلف عنه

ــ امرأة ؟ ! . . . لا تخف . . . فلن أستجوبك . . . وأنت حر ، ولك الفضل إن أنت مكثت معى حتى يحين موعدك ، وما كنت فى سنّك ألقى إنساناً فى أيامى التى أصون سرّها . . . فآمر بإحضار الطعام إلى غرفتى ، وتكون التى أنتظرها » أول مخلوق أحادثه منذ استيقاظى

وسكت قليلا ، ثم قال بلهجة الناصح :

ــ آه يا سيدى ، حذار من النساء . . . ولا أقول لك اهرب منهن ، لأننى أنا نفسى أفنيت حياتى معهن ، ولو أن حياتى تعاد لأردت أن أحيا مثل تلك الساعات نفسها . . . ولكن احترس ، احترس منهن . . .

وكأن « دون ماتيو » وجد تعبيراً عما فى ضميره ، فأضاف فى أناة :

ــ نوعان من النساء ، على المرء أن لا يعرفهما مهما يكلفه ذلك : اللواتى لا يحببننا ، واللواتى يحببننا ! . . . وبين هذين الطرفين ألوف النسوة الفاتنات ، ولكننا لا نعرف كيف نقدرهن . . .

وكادت الكآبة تخيم على الغداء ، لولا حرارة « دون ماتيو »

فى الكلام ، واندفاعه الخطابى فى القول ، لأن « أندريه » كان مشغول القلب بذات بلابله ، ولم يكن يصغى إلا لمأما ، وكلما دنا الموعد ازداد خفقان فؤاده شدة وإسراعاً . فكأن نداءً مصما ، وأمراً صارما ، يطرد من ذهنه كل شىء ، خلا المرأة المنشودة . وكان يبذل كل شىء فى سبيل تقدم عقرب الساعة — الذى ظل بصره مثبتاً به — خمسين دقيقة فقط ! . . . ولكن الساعة التى ينظر إليها الإنسان تقف جامدة . ولا يجرى الزمن بأسرع مما يجرى مستنقع راكد . . . وأخيراً ، لما كان مضطراً للمكث ، وكان كذلك غير قادر على أن يطيل سكوته ، قال فجأة لرب البيت ، ودل بما قال على حداثة سنه :

— دون ماتيو . . . إنك كنت لى دائماً خير ناصح . . . فهل تسمح لى أن أبوح لك بسر . . . وأن أسألك رأيك ؟

فقال « دون ماتيو » بلهجة أسبانية ، وهو يقوم عن المائدة فى طريقه إلى قاعة التدخين :

— إنى رهين إشارتك

فتمتم « أندريه » قائلا :

— حسناً ، إليك سؤالا ما كنت لأسأله إنسانا سواك . . . أتعرف فى « أشبيلية » من تدعى « الدونا كونسبسيون جارسيا»؟..

فقفز « ماتيو » صارخاً :

— كونسبسيون جارسيا ؟ كونسبسيون جارسيا ؟ . أيتهن ؟ أفصح . . . فى أسبانيا ألف كونسبسيون جارسيا . إنه اسم عادى مثل : جان دوڤال ، ومارى لمبير ، عندكم . . . بربك قل لى ما اسم أسرتها . . . أيكون : بـ . . . پريز ؟ . . . قل . . . أهو پريز ؟ كونشا پريز ؟ ولكن تكلم ! . . .

فبهت « أندريه » لهذا الاضطراب الباغت ، وتسلط عليه شعور بأن الأوْلى كتمان الحقيقة ، ولكن سبق لسانه إرادته ، فأجاب بسرعة :

— أجل ! . . .

عندئذ استرسل « ماتيو » فى الكلام ، يفصّله بدقة ، كمن يمزّق جرحاً :

— « كونسبسيون پريز دى جارسيا » — ساحه النصر — ثمانية عشر عاماً ، شعر يكاد يكون حالكاً ، وثغر . . وثغر ! . . .

فقال « أندريه » :

— أجل ! . . .

— لقد أحسنت بمحادثتك إياى عنها . . . أحسنت يا سيدى . . . وإذا استطعت أن أقفك عند بابها أكون قد أحسنت صنعاً ، وجلبت لك هناءً نادراً

ــ لكن من تكون ؟

ــ كيف ؟ أفلا تعرفها ؟

ــ إنى صادفتها أمس ، لأول مرة ، ولم أسمع حتى حديثها . . .

ــ إذن فلا يزال فى الوقت فسحة . . .

ــ أهى عاهر ؟

ــ كلا ! كلا ! . . . إنها على الجملة امرأة طاهرة ، فليس لها من العشاق أكثر من أربعة أو خمسة . . . وهذا يعدُّ فى عصرنا عفافاً ! . . .

ــ ويْ !

ــ زد على هذا حظاً موفوراً من الذكاء ، وعقلا نيِّراً من أدق العقول ، ومعرفة فائقة بالحياة . . . ولست أحرمها كل ثناء ، فهى ترقص رقصاً فصيحاً ، جذَّابا ، خلاّبا ، غلاّباً . . . وتتكلم كما ترقص . وتغنى كما تتكلم . أما جمال محياها فأظنك لا تشك فيه . . . أما فمها . . . لعل هذا يكفى . . . أقلتُ ما فيه الكفاية ؟

فاهتاج « أندريه » ، ولم يجب ! . . .

ثم أمسك « دون ماتيو » بأكمام سترة ضيفه ، وقال ، وهو يقسِّم جمله ، منتفضاً مع كل كلمة :

— إنها ، يا سيدى ، شر النساء . . . أسامع أنت يا سيدى ؟ ! إنها شر نساء الأرض ! . ولا أمل لى ، ولا عزاء لقلبي ، إلا أنها فى يوم موتها لن يغفر الله لها ! . . .

— مع هذا ، يا « دون ماتيو » ، ليس لى أنا أن أتكلم عنها ، كما تتكلم . . . ولا حق لى فى أن أخلف الموعد الذى ضربته لى ، أأكون بحاجة إلى أن أكرر عليك أننى بحت بسرى ، ويؤسفنى اضطرارى لفراقك قبل اطلاعى على سرك ؟...

ومدّ إليه يده ، فوقف « ماتيو » أمام الباب معترضاً :

— أصغ إلى : أستحلفك أن تصغى . فمنذ قليل ، كنت تقول إننى رجل ناصح ، أصيل الرأى . فلا أقبل هذا الحكم . وما أنا بحاجة لأن أكلمك بهذه الصفة . ولقد نسيت حتى مودتى لك . وكانت مع ذلك كافية لتفسير إلحاحى

— وبعد ؟ . . .

— إنى أخاطبك مخاطبة الرجل للرجل ، كما يستوقف أى إنسان عابر سبيل لينذره بخطر داهم فى مجاهل الطريق . . . وإنى أصرخ فيك : لا تتقدم ! . . . ارجع أدراجك . . . انس من رأيت ، ومن خاطبك ، ومن كتب إليك ! . وإذا كنت تعرف السلام ، والليالى الهادئة ، والحياة الخالية ، وكل ما نسميه هناءة ، فلا تقرب « كونشا پريز » ! . وإذا

أردت ألا يشطر هذا اليوم ماضيك عن مستقبلك شطرين ، من سرور وكرب ، فلا تدْنُ من «كونشا پريز»! . وإذا لم تكن تريد أن تذوق الجنون ، الذى تولده هذه المرأة إلى منتهى الجنون ، وتبقيه فى قلب المفتون ، فلا تقرب هذه المرأة ! . . . اهرب منها ، كما تهرب من الموت ! . . . دعنى أنقذك منها ! . وكن بنفسك رحيما !

ــ دون ماتيو . . . أأنت إذن تهواها ؟

فمر الأسبانى بيده على جبينه ، وتمتم قائلا :

ــ إيه . . . كلا ! . . . فقد مضى كل شىء وانقضى ، ولم أعد أحبها أو أكرهها ، وما فات مات . . .

ــ على هذا ، فلست أجرحك شخصيًّا ، إذا أنا لم أتبع نصيحتك ؟ . إنى أضحى بارتياح تضحية مثل هذه لأجلك ، بيد أنى ما كنت لأرضاها لنفسى . . . فماذا ترى ؟

فنظر « ماتيو» إلى « أندريه » ، وانقلبت ملامحه فجأة ، وقال له مداعباً :

ــ ليس للرجل أن يذهب ، يا سيدى ، إلى أول موعد تضربه له المرأة . . .

ــ ولماذا ؟ . . .

ــ لأنها لا تجىء فيه ! . . .

فابتسم « أندريه » لذكرى مرت بخاطره . . . وقال :

— هذا صحيح أحياناً . . .

— فى أغلب الأحيان . وإذا كانت بالصدفة تنتظرك الآن فثق أن غيابك عنها يزيدها ميلاً إليك . . . ولا أعنى بهذا شخصاً معيناً ، فكذلك تكون الفتاة ، ولو كان اسمها « لولا » أو « روزا » . . . إنى أوصيك بالجلوس فى مقعدك ، فلا تتركه من أجلها . . . ودعنا ندخن سيجار « هافانا » ونشرب عصير الفاكهة المثلجة ، وهو مزيج قلما يعرف فى مطاعم باريس

ومضت فترة سكوت . . . وكان كلاهما جالساً إلى جانب من خوان صغير عليه كأسان ، ومنافض للسجائر . . .

وسأل « دون ماتيو » :

— والآن ؟ فيم نتكلم ؟ . . .

فأشار « أندريه » إشارة معناها : « أنت أدرى ! » . . .

فقال « دون ماتيو » بصوت أشد انخفاضاً :

— ابدأ إذن ؟ ! . . .

واختفى السرور الزائف ، الذى بدا عليه منذ هنيهة ، وراء سحب ملبدة . . .

٤

منذ ثلاثة أعوام لم يكن الشيب قد وخط رأسي كما ترى . . . وكنت فى السابعة والثلاثين ، أحس أنى فى الثانية والعشرين . . . ولم أشعر فى أية لحظة من حياتى أن شبابى يمضى أو يولى . . . ولقد سمعتَ عنى أننى زير نساء ، فهذا محض افتراء . ذلك أننى كنت أجِلّ الحب ، فلا أتردد على دور الفجور ، وما حظيت إلا بالمرأة التى شعرت نحوها بعشق مبرّح . . . ولو أننى عددت لك أولئك لدهشت لقلة عددهن . ولوأننى لو أطلقتهن أمام ذاكرتى لما مرّت بينهن شقراء . وسأبقى جاهلا سر هؤلاء الشاحبات . والحق أن الحب عندى لم يكن مجرد تضييع وقت وترويح نفس ، أو كما هو عند بعض الناس من عبث الأمور . إنه كان حياتى نفسها ، ولو أننى محوت من ذكرياتى الأفكار والأعمال التى كانت المرأة غايتها لما بقى إلا الفراغ . . .

بعد هذه المقدمة ، يمكننى أن أسرد عليك الآن ما أعرفه عن «كونشا پريز» .

منذ ثلاثة أعوام ونصف عام ، فى فصل الشتاء ،

كنت عائداً من فرنسا فى ٢٦ ديسمبر ، فى جو شديد القر ، بالقطار السريع الذى يمر حوالى الظهر بجسر نهر « البيداسوا » ، وقد تراكم الثلج ممسكاً « ببياريتز » و « سان سيباستيان » ، وتأخرت القاطرة ساعتين فى « زمرقة » حيث أخذ العمال فى تنظيف الطريق ، فقام القطار ليقف مرة أخرى فى قلب الجبل ، واستغرق إصلاح ما أضر به سقوط الثلج ساعات ، واستغرق ذلك الليل بطوله ، وتلبد الجليد على زجاج المركبات ، وأخفت من صوت القاطرة التى سارت تخترق تلك التلال المتراكمة فى طريقها ، فى سكون زاده الخطر جلالا !

وفى صباح اليوم التالى وقف القطار عند « أمفيلا » متأخراً بنا ثمانى ساعات . وصمنا يومنا . وعلمنا أخيراً أن علينا أن نقضى فى هذا المكان أربعة أيام ! . . .

وعند الساعة الثامنة مساء ، فى كبد ليل قر ، حرمت أيضاً طعام العشاء ، فرجعت إلى ركن من مؤخرة العربة ، وشعرت بكرب لا يحد ، وكان فوق احتمالى قضاء ليلة ثالثة مع السياح الإنجليز الأربعة النائمين فى الديوان ، الذين تبعونى من باريس . . . فتركت حقيبتى ، وحملت غطائى ، ودخلت مركبة من مركبات الدرجة الثالثة ، وكانت غاصة

بنسوة أسبانيات من بنات الشعب ، وبحّارة ، وراهبتين ، وثلاثة طلاب ، وراقصة ، وشرطى . . .

وأنت تراه خليطاً ، يتكلم بصوت مزعج ، فى نَفَس واحد ! . ولم يمض ربع ساعة حتى عرفت حياة كل من كانوا حولى . . . ومن الناس من يهزأ بمن يروى حياته هكذا على رؤوس الأشهاد . . أما أنا فأشفق على هؤلاء البسطاء ، الذين يعوزهم تفريج همومهم بإذاعتها ، فتذهب صرخة فى واد !

وعاد الجليد فدهم القطار الذى تجره البغال ! . . . ولما وثق الركاب من أن القطار لن يتحول من فوره عن ذلك المكان طلبوا من الراقصة النورية أن ترقص ، فرقصت . . . وكانت فى نحو الثلاثين من عمرها أو تزيد . . . وكانت دميمة جداً ، ولكن لكأنما كانت فى خصرها حتى ساقيها نار تتلظى . . .

فنى برهة نسينا البرْد والبرَد ، والليل البهيم . . . واجتمع الركاب حولها ، وجعل الذين فى الصف الأول منهم يصفقون على نغمة الرقص ! . وعندئذ لحظتُ فى ركن بنية صغيرة تغنى . . . وكانت ترتدى ثوباً وردياً . . . فأدركت أنها أندلسية ، لأن بنات شمال أسبانيا يؤثرن الألوان القاتمة . . . وقد غطى كتفيها وصدرها « شال » أصفر . وكانت معصبة بمنديل معقود تحت ذقنها . . . وعرف الركاب أنها تلميذة فى دير « سان جوزيه داڤيلا » ، وأنها تقصد « مدريد » لزيارة

أمها ، وأنها لم يكن لها خليل ! وأنها تدعى « كونشا پريز » . . .

كان صوتها يثقب الفؤاد . . . وكانت تغني دون أن تتحرك وهى تكاد تكون مضطجعة ، مسبلة الجفنين . . . ولكنى لا أحسب أن الأغانى التى كانت ترددها قد تعلمتها عن الراهبات ! . وكانت تختار من الرباعيات المشهور عند الشعب، وفيه كل عواطفه. .. ولكأنى الآن أسمعها بصوتها الحنون :

إن فراشك ياسمين
وغطاءك ورد أبيض
ووسادتك زنابق
وأنت وردة ناعسة...

فلما لاحظتُ أن هذه الأغانى الرقيقة لا تتفق وصورة تلك الراقصة النورية البشعة غيرتُ نغمتها بأغان تهكمية :

يا بنت! . . . يا ذات العشرين خليلا
إلا واحداً وعشرين ! . . . .
لو أنهم نظروا إليك بعينى . . . .
لتركوك قائمة ، فبقيت وحدك ! . . .

فحارت الراقصة الغجرية فى أمرها ، بادىء بدء : أتضحك أم تتشاجر ! . واجتمع الساخرون حول الصغيرة المنافسة . . . ولم تكن الراقصة من وفرة الذكاء بحيث تدافع عن نفسها ، فسكتت وهى تصر على أسنانها . . . فازدادت

الصغيرة جرأة وابتهاجاً . . . فانفجر غضب الراقصة ، ورفعت يديها ، وقد التوت أصابعها ، وصاحت بها :

— إنى أفقأ عينيك ! . . . أخرجهما على أصابعى ! . . .

فأجابت «كونشا» بكل هدوء ، وقد رفعت حاجبها دون أن ترفع جفنها :

— يا ويلى ! . . . .

وفى وسط سيل الشتائم أضافت بصوت هادئ ، وكأنها أمام ثور فى ملعب :

— أيها الحراس ! آتونى بمهمازين ! . . .

فانفجرت العربة سروراً ، وصاح الرجال :

— الله ! الله ! .

ونظرت النساء إليها حناناً . . . فلم تضطرب الصبية إلا عند شتمة واحدة ، إذ قالت لها الراقصة :

— يا بنت ! . . .

فأجابت وهي تضرب على ثدييها الصغيرين :

— إننى امرأة ! . . .

ثم تماسكت المتحاربتان ، وهما تذرفان دموع الغيظ ! . . .

— ففصلتُ بينهما ، لأننى لم أطق رؤية امرأتين تتشاجران ، وجمهور لا يكترث ، فالنساء شر الناس شجاراً ، لا يعرفن ضربة اليد التى تسكت ، ولكنْ ضربةَ الظُّفر التى تعمى . . . فما أشنع عراكهن . . .

فصلت بينهما إذن ، وما كان ذلك علىّ هيناً . ثم اتخذت كل منهما ركناً وهي تخبط بقدميها ! . . . ولما سكن كل شيء طلع علينا شرطي غليظ القلب من الديوان المجاور ، ودخل فى وسطنا ، وألقى نظرات الحماية على ساحة القتال التى سادها السلام . وبثبات الشرطي المعصوم ، الذى يظلم عادة الأضعف ، صفع «كونشا» الصغيرة المسكينة صفعة وحشية طائشة ، ومن دون شرح لهذا الحكم أخذ البنت إلى ديوان ثان ! . ثم رجع وتربع ، ووضع يده على سيفه بارتياح ، كأنه أعاد إلى جيشه النظام ! . . .

ثم سار القطار ، ومرّ بمناظر عجيبة ناصعة فاتنة ، وكأن القمر الزاهى هو روح الوادى المثلج ، ولم أره فى أى مكان أزليا كما رأيته فى تلك الليلة . . . كانت السماء مكفهرة ، وهو والثلج دون غيرهما يلمعان . . . فظننت أنى فى سبيل استكشاف القطب ، فى قطار خيالى ساكن بلا حراك ! . . .

وكنت أرى وحدى هذا السراب ، وقد نام جيرانى . . . فقلما يعبأ الناس بالمناظر الطبيعية الجميلة . . . وفى العام الماضى وقفت على جسر «تريانا» أتمتع بأجمل غروب للشمس فى العام ، فلا شيء يماثل روعة «أشبيلية» فى تلك اللحظة . . . فإذا المارة منصرفون إلى أعمالهم يتكلمون ويتنزهون ويتضجرون ، لم يعر أحدٌ منهم ذلك المنظر التفاتاً ، ولم يشهد أحدٌ تلك الليلة الظافرة ! . . .

وبينا أنا أتأمل القمر والثلج فى الليل ، وقد شبعت عيناى من ذلك المنظر الناصع الساطع ، عبرت قلبي صورة تلك المغنية الصغيرة ، فعذبتْ قلبي . . . أين تراها الآن ؟ . . . وأطللت من حاجز عربة القطار ، فوجدتها قريبة فى متناول يدى : نائمة كطفل أضناه التعب ، وقد ألقت برأسها على كتف راهبة ، فوددت لو صدقت أنها امرأة ، كما قالت عن نفسها . . . لكنها كانت فى نومها كطفلة عمرها ستة أشهر ! . . . وكانت سوالفها مرسلة على خديها المستديرين ، وجذب بصرى ثغر صغير ، سمين الشفة . . . فساورتنى الشكوك فى أحلامها : أكانت تطلب ثدى المرضع ، أم فم الحبيب !

وبعد قليل دخلنا المحطة ، مع نور الصباح . . . فساعدت «كونشا» الصغيرة فى جمع ستة طرود ، وتقدمت لمعونتها فى حملها ، فرفضتْ . وحملتها وحدها كيفما قدرت ، ثم انطلقت تجرى ، وما لبثت أن غابت عن بصرى . . .

وها أنت ذا ترى أن هذا اللقاء الأول لم يكن له معنى خاص ، بل يكاد يكون غامضاً . . . لفتت نظرى وملأت نفسى فترة عارضة ، عدت بعدها إلى ميدان أعمالى ، فألهانى عن التفكير فيها . . .

٥

وفى الصيف التالى لقيتها فجأة فى «آشبيلية» فى شهر أغسطس

كنت وحدى فى بيتى ، البيت الذى ملأته النساء مدى سنين .. وكان إذ ذاك خالياً خاوياً ، وهو شىء لا أطيقه .. فهربت من الضيق بعد ظهر يوم شديد الحر ، وذهبت لزيارة مصنع «السجائر» .. وكدت فى الطريق أموت من القيظ ، حيث لا يوجد فيه إلا الكلاب ، والفرنسيون

دخلت المصنع وحدى ، دون مرشد أو دليل ، وهو إكرام خاص آثرونى به ، لأكون حراً فى ذلك الحريم الهائل ، الذى يضم نحو خمسة آلاف عاملة .. متبذلات فى لبسهن وكلامهن .. أكثرهن قد كشفن من شدة الحر عن الصدور ، وبعض الأفخاذ .. فكان مشهداً خليطاً من عجائز ، وفتيات ، وبنات .. بين سمينات ونحيلات ، وحبالى ومرضعات ، غليظات وهزيلات ، لا يكاد ينقصهن إلا نوع واحد ، فيما أظن ، وهو العذارى الطاهرات ...

وكان منهن جميلات . . .

فاخترقت صفوفهن ، وهن يرمينني ببذيء القول ، أو يطلبن إحساناً ! . وفيهن من اضطربن لرؤية رجل بينهن ، فأشرن إشارات منكرة ، فلم أعرهن التفاتاً . ولكنهن على ، رثاثة ملابسهن ، معتنيات أشد عناية بشعرهن ، وقد صبغن بالأحمر خدودهن ، وأطراف أثدائهن ، وصبغن بالأبيض وجوههن إلى ما تحت النهود . . . وليست منهن من لم تشبك شعرها بالدبابيس وتضع وردة حمراء . . ولم تكن منهن واحدة ليس فى منديلها علب البودرة والأحمر الصغيرة . . كن كممثلات فى ثياب سائلات ! . . فمنحت الأمهات نقوداً ، وأعطيت الصبايا ورداً . . . ولم يكن منهن أكثر من خمس عشرة فتاة أعجبنى جمالها ، بل هذا كثير ! . . وعند ما كنت أقطع القاعة الرابعة ، فى طريقى إلى الخارج ، سمعت بين الأصوات والضحكات صوتاً قوياً يقول لى :

— أيها الفارس ! إذا أنت أعطيتنى صلدياً غنيت لك

فعرفت فيها — ويا لدهشتى — «كونشا» . . . وكانت ترتدى قميصاً محتشماً ، وبيدها زهرة رمان . . . فسألتها عما جاء بها إلى ذلك المكان ، فقالت :

— الله أعلم ! . . ولست أذكر ! . . .

ــ ولكن ماذا جرى فى « مدرسة الراهبات » ؟

ــ عند ما ترجع إليها البنات من الباب يخرجن من الشباك !

ــ وهل منه خرجت ؟

ــ كلا ، أيها السيد ، لأنى شريفة . فلم أدخل الدير بتاتاً ، خشية أن أرتكب الخطيئة ! . والآن أعطنى « خمسة صلديات » فأغنى لك . . . والمراقبة بعيدة عنا !

ولم تكترث «كونشا» بنظرات زميلاتها ، فاسترسلنا فى الكلام :

ــ ومع من تعيشين فى « أشبيلية » ؟

ــ مع أمى

فارتجفت ، لأن عاشق البنت قد يتقى الله فيها . . . أما الأم الإسبانية ، فالله يستر ! . . . قالت «كونشا» :

ــ إنى وأمى مشغولتان : هى بالكنيسة ، وأنا هنا أصنع اللفائف . . . وهذا فرق السن !

ــ وهل تأتين كل يوم ؟

ــ تقريباً . . . وإنما . . . عند ما لا يهطل المطر ، ولا أكون فى النوم راغبة ، وقد سئمت النزهات . . . فالعاملة حرة هنا ، ويكفى مجيئها قبل الظهر . . . ومنا من لا يأتين إلا يومين فى الأسبوع . . . وما أتفه مكسبنا هنا . . . ومنا

من لا يستيقظن إلا عند إغلاق الباب ! . . .

— وكم تكسبين ؟

— ٧٥ دانقاً فى الألف سيجارة . . . فأعطنى قطعة أخرى ، أيها السيد ، لأغنى لك أغنية لم تسمعها من قبل

فرميت لها جنيها ذهباً ، وشددتها من أذنها . . . وانصرفت

وفى شباب المسعدين ، يا سيدى ، لحظة حظ معينة ينقلب فيها البخت ، ويرتد معه الصعود هبوطاً ، ويبدأ فصل النحس . . . وكان ذلك نصيبى ، فقطعة الذهب التى ألقيتها إلى تلك الصبية كانت كرمية الزهر القاضية فى المقامرة . . . وإنى أؤرخ من تلك اللحظة ، وفى ذلك المكان ، حياتى الحاضرة الخاسرة ، وبدء سقوطى الأدبى ، وكل ما ترى على جبينى من الحزن ! . وستعرف كل شىء ، وإن كانت الحكاية عادية بسيطة إلا فى نقطة واحدة ، قتلتنى بها . . .

خرجت إذن من المصنع ، وسرت الهوينا فى الشوارع المحرومة من الظل ، وإذا بى أسمع وقع أقدام مسرعة من خلفى ، فالتفت ، فإذا بها قد لحقت بى ، وقالت :

— شكراً يا سيدى !

ولحظت فى صوتها تغيراً . . . ولم أفطن ، لأول وهلة ، إلى تأثير منحتى الذهبية ، غير أنى الآن لاحظت أن تأثيرها

كان عظيما ، فإن جنيهاً عندنا ثمن باقة من الورد ، وهو عند عاملات السجائر مرتب شهر . وفوق ذلك كان الجنيه قطعة من الذهب ، والذهب لا يرى فى أسبانيا إلا فى معارض الصيارفة . فأحييت عندها ، من دون قصد ، كل اشتهاء الغنى . . . فتركت بالطبع السجائر ، واللفائف ، والعلب ، واقتفت أثرى ، بعد ما أحسنت من هندامها ، وعثرت عليّ . . . قالت :

— تعال ، فأنت حبيبى . سرْ بى إلى أميمتى ، فاليوم فسحة ، والفضل لك

— وأين تسكن أمك ؟

— فى شارع « مانتاروس » ، على مقربة منا . . . لقد كنت ظريفاً معى ، ولكنك لم تقبل أيها القاسى غنائى ! . وعقاباً لك عليك أنت الغناء ! . . .

— أما هذا فلا !

— بل هو حتم عليك ، وإنى ألقنك !

ومالت على أذنى وقالت :

— ردد لى هذه الأنشودة :

— أيسمعنا أحد ؟ — لا !

— أتحبين أن أقول ؟ — نعم !

ـــ ألك عاشق آخر ؟ ـــ كلا !

ـــ أتحبين أن أكون ؟ ـــ نعم . . . »

ولكن أنت تعلم أنها أغنية ، وليس هذا جوابى ! . . .

ـــ أحقا ؟

ـــ كل الحق

ـــ ولماذا ؟

ـــ احزرْ !

ـــ لأنك لا تحبيننى ؟

ـــ لا ! . فإنى أراك ظريفاً !

ـــ ولكن لك صاحباً ؟ !

ـــ كلا ، ليس لى

ـــ إذن ، فهى تقوى ؟

ـــ إنى تقية ، ولكنى ، أيها الفارس ، لم أنذر لله نفسى !

ـــ فليس عن برودة طبع ؟

ـــ لا يا سيدى ! . . .

ـــ لدى أسئلة لا أستطيع أن أوجهها إليك ، فإذا كان لديك مانع فقولى . . .

ـــ آه . . . كنت أعلم أنه يصعب عليك حزر السبب !

ـــ وبعد ، فما يكون السبب ؟

ـــ إنى عذراء ! . . .

٦

وقد قالت هذا بثبات وحزم أدهشانى وأزعجانى ! .
ترى ، ماذا يدور فى هذا الرأس ، رأس الطفلة ، ووراء ذلك الوجه ، الشديد التحريض ، والشديد المقاومة ، الذى تزينه عينان صريحتان صادقتان ، وفيه ثغر شهوانى كأنه يتمنع ليغرى وينفث الاشتهاء ؟

وحرت فى أمرها وأمرى ، ولكنى أدركت مدى إعجابى بها ، وأنى فتنت بعثورى عليها ، وأننى سأخلق الفرص لأراها فى كل آن . . .

ووصلنا إلى بيتها . . . وكان بالباب بائع فاكهة ، فقالت :

— اشتر لى « يوسفيا » لأقدمه لك عندى !

ثم صعدنا . . . وكان البيت مريباً ، لا يبعث على الاطمئنان . . . وعلى الباب الأول بطاقة عليها اسم امرأة ، من دون أية حرفة . . . وفى الدور الثانى تقطن بائعة ورد ، وبجانبها شقة منفصلة ، يخرج منها دوى ضحكات . . . فتساءلت : « أترى الفتاة تقودنى إلى موعد مفهوم ؟ » . . . ومع ذلك تريثت فى الحكم ، لأنى لا أحب الحكم على الناس باسم

الشارع الذى يقطنونه

وقفتْ الفتاة عند الطابق الأخير . وضربتْ بقبضتها ثلاث ضربات على باب قاتم ، فتح بجهد :

— أماه ! . افسحى لنا ، فهذا صديق ! . . .

وكانت الأم امرأة سمراء ذابلة ، عليها مسحة جمال غابر . . . فنظرت إلىّ بغير ارتياح . . . ولكن الطريقة التى دفعت بها الفتاة الباب ، ودعوتها إياى للدخول ، أظهرتا لى أن شخصاً واحداً هو سيد هذا الكوخ . . . وأن الوالدة الملكة قد تنازلت لابنتها عن عرشها ووصايتها . . .

— انظرى يا أماه : اثنتا عشرة برتقالة ! . وانظرى أيضاً : جنيه ذهب ! . . .

فقالت الأم ، وقد شبكت أصابعها :

— رباه ! . ومن أين لك ذلك كله ؟

فذكرت بإيجاز مقابلتنا فى القطار ، وفى المصنع . . .

— ثم حوّلت مجرى الحديث إلى شؤونهما الخاصة ، فكانت لا تنتهى . . . فادعت الأم أنها أرملة مهندس تركها بلا معاش ولا مال ، وأنها عاشت أربعة أعوام عيشة وضيعة مما ادخره زوجها . وسواء أكانت حكاية صادقة أم كاذبة فقد سمعتها عشرين مرة ! . . . وكانت تنتهى بهذه الشكوى :

— ما العمل ؟ إنى لا حرفة لى ، ولا أعرف غير تدبير منزلى ، والصلاة للعذراء . . . وقد أشاروا علىّ بالخدمة كبوّابة ، ولكن كرامتى تأبى أن أكون خادما ، فأنا أقضى أيامى فى الكنيسة ، وأوثر تقبيل بلاطها على أن أكنس ما وراء الباب . . . وأنتظر أن يشد ربى أزرى فى آخر عمرى . . . إننا امرأتان وحيدتان معرضتان ، وأى تعرض ، لسوءات الزمان ! . . . آه أيها السيد . . . إن الغواية ليست قليلة لدى من يعيرها أذنا صاغية . وقد كنا نصبح من الأغنياء ، أنا وابنتى ، لو أننا اتبعنا طريق الضلال ! . ولكانت لدينا أحذية عالية ، وعقود غالية !. ولكن المعصية ما قضت عندنا ليلة ! . . . نفوسنا مستقيمة كأصبع سيدنا يوحنا ، وأملنا عظيم فى الله الذى يعرف أحبابه !

وكانت « كونشا » أثناء ذلك الحديث قد أتمت زينتها بلباقة ، والتفتت ، وابتسمت منشرحة ، فتجلى ثغرها الوضّاء ...

ومضت الأم تعول وتنوح :

— آه ! يا للّهم الذى ينال منى عندما أرى ابنتى ذاهبة إلى المصنع فى الصباح ! . ويا للمثل السيئة التى تراها هناك ! . . ويا للكلمات البذيئة التى تتعلمها ! . . . فأولئك بنات لا حياء فيهن . . . ولو أن ابنتى أصغت إليهن لذهبت عنى من زمن طويل . . .

ـــ ولِمَ تُشغِّلينها هناك ؟

ـــ هناك وغيره سواء!... وأنت تعلم ، يا سيدى ، ما يقع بين عاملتين تجلسان معاً اثنتى عشرة ساعة ... وفيم تتكلمان ؟ فى المحظور إحدى عشرة ساعة وثلاثة أرباع ، وتصمتان باقى الزمن ! ...

ـــ إذا لم يكن غير الكلام فليس ثمة كبير ضير .

ـــ إن من يقدم قائمة الطعام يقدم معها الشهية ! . ونصائح النساء تفسد البنات أكثر مما تفسدهن نظرات الرجال ! ... ولست أطمئن إلى أحكم حكيماتهن ، فإن تلك التى تحمل المسبحة فى يدها تخبئ الشيطان فى كمها ، فلا صديقة بين العجائز ، ولا بين الصبايا ... وذلك ما أريده لابنتى ، ومعها فى المعمل خمسة آلاف ! ...

فقاطعتها قائلا :

ـــ إذن فلا داعى لرجوعها إلى المعمل .

ثم أخرجتُ ورقتين ماليتين وضعتهما على المنضدة

تعجبات ! ... أيادٍ مشتبكات ! ... عبرات ! ... وتنهدات ! ...

فلما وقفت هذه التأوهات صرّحت الأم ، وهى تهز رأسها ، بأنه مع ذلك لا بد من عودة البنت إلى مصنع

السجائر ، لأن هذا المبلغ وأكثر منه دين عليها لصاحب البيت ، والبقال ، والصيدلى ، والدلالة !

وقصارى القول أنى دفعت ورقتين أخريين ، واستأذنت على الفور ، وولَّيت الأدبار ! . . . وكبحت طبعاً جماح عواطفى فى ذلك اليوم ، حساباً وحياءً . . .

* * *

وفى اليوم التالى ما دقت الساعة عشراً حتى طرقت بابها ، فقالت لى « كونشا » :

ـ لقد خرجت أميمتى إلى السوق ، فتفضل يا حبيبي !

ونظرت إلىّ ، ثم انفجرت ضاحكة :

ـ أتعرف ؟ إننى ألزم الجد بحضرة أمى . . . فماذا ترى ؟

ـ هذا صحيح !

ـ لا تحسبن هذا تأدباً ! فإنى ربيت نفسى بنفسى ، وهذا من حسن حظى ، لأن أمى المسكينة ما كانت لتقدر على تربيتى . . . إنى شريفة ، وهى تفخر بذلك . . . ولكن لو أنى كنت اضطجعت على حافة الشباك ، وناديت المارة ، لتأملتنى ، معجبة ، وقالت : « يااللطف ، وخفة الروح ! » . . . وإنى لأعمل كل ما يعجبنى من الصبح حتى المساء ، والفضل لى وحدى فى أننى لا أتبع ما يدور فى نفسى من الأهواء ،

لأن أمى لا تستطيع أن تمنعنى ، رغم ما سمعته من كلام !

— إذن ، يا صبية ، إذا جاءك عريس فهو يفاوضك أنتِ رأساً ! . . .

— نعم يفاوضنى أنا ! . . . فهل تعرفه ؟

— كلا ! . . .

وكنت جالساً أمامها على كرسى مكسورة يده اليسرى . ولكأنى الآن أرانى وقتذاك وظهرى إلى الشباك ، والشمس تلقّى أشعتها المتكسرة على أرض الغرفة . . .

وجلست «كونشا» على ركبتىّ فجأة ، ووضعت يديها على كتفىّ ، وقالت :

— أحقاً لا تعرف العريس ؟ !

فلم أجب ، وبالغريزة ضممت ذراعىّ حولها ، وبيد جذبت رأسها إلىّ . . . فسبقتنى ووضعت بلهفة فمها المحرق على فمى ، ونظرت إلىّ ، فى حبتىْ عينىّ . . .

نزقة ، غامضة ، وكذلك عرفتها . . . أما حنانها الفجائى فقد طاح برأسى كالمسكر . . . فزدت فى ضمها إلىّ ، فكان خصرها يلين تحت ذراعىّ . . .

ثم هبت قائلة :

— لا ! لا ! . . . فاذهب !

– سأذهب ، ولكن معك ! . . . فهيا بنا !

– أأتبعك ؟ وإلى أين ؟ ! إلى بيتك ؟ هيهات ! . لا تحسب يا صاحبي لمثل هذا حساباً ! . . .

فأخذتها ثانية بين ذراعي ، ولكنها تملصت وصاحت :

– لا تمسّنى وإلا ناديت ! ثم لا أراك ولا ترانى مرة أخرى !

– كونشا ! . كونشيتا ! . يا صغيرتى ! . أأنت مجنونة ؟ كيف ؟ أأجيء إليك كصديق ، وأخاطبك كغريبة عنى ، فترمين بنفسك بين أحضانى ، ثم تهمينى ؟

– إنى عانقتك لأننى أحبك ، ولكن ليس لك أن تعانقنى من دون أن تحبنى !

– وهل تحسبين أننى لا أحبك يا بنيّة ؟

– كلا . . . إننى أعجبك . . . أرضيك . . . أسليك . . ولكنى لست عندك بالوحيدة . . . أليس كذلك أيها السيد ؟ ! إن مثل شعرى الأسود على رؤوس بنات كثيرات . . . وفى الطريق تمر عيون نجلاء . . . ومصنع السجائر لا تنقصه بنات يماثلننى جمالا . . . والناس لا يخفون عنهن ذلك . . . فافعل ما بدا لك معهن ، وإذا أردت أعطيتك أسماءهن . . . ولكن « أنا » هى أنا ، ولا يوجد إلا « أنا » واحدة ، من « سان روك » إلى « تريانا » ! . . . ولذلك لا أريد أن أشترى كعروس

لعبة فى السوق . . . ومن يشترينى على ذلك فلن يجدنى !

وسمعتُ فى السلم خطى صاعدة ، فتحولت إلى الباب وفتحت لأمها ، وقالت :

— لقد جاء السيد يسأل عنك يا أماه ، لأنه رآك أمس شاحبة ، فحسبك مريضة . . .

* * *

. . . وخرجتُ بعد ساعة ثائراً مهتاجاً . وأنا أشك فى العودة يوماً من الأيام . . .

وا أسفاه ! . . . لقد عدت ، ثم عدت . . . ثم عدت . . . لا مرة واحدة ، ولكن ثلاثين مرة . . . وبرّح بى الهوى ، وكنت عاشقاً عشق الشباب ! .

لعلك عرفت مثل هذا الجنون ! . ماذا أقول ؟ لعلك تشعر به فى هذه الساعة التى أخاطبك فيها ، وتفهمنى جيداً . . . كنت فى كل مرة أغادر غرفتها أقول فى نفسى : « عشرون ساعة حتى الغد ! ؟ » . . . فما كانت تنتهى هذه الألف والمئتا دقيقة ! . . . ثم تدرجتُ حتى صرت أمضى النهار بطوله معهما . . . وكنت أدفع نفقاتهما ، حتى الديون التى أظنها باهظة إذا حكمت بما سددته منها . . .

وسرعان ما وثقتُ من أنني كنت أول صاحب لهاتين

المرأتين الوحيدتين الفقيرتين . ولم أجد صعوبة فى الامتزاج بهما ورفع الكلفة بينى وبينهما . وما كنت أشك فى الفتاة لعدم وجود أى حجاب بيننا . فكان بابهما مفتوحاً أبداً أمامى ؛ وكانت « كونشا » دائمة العطف مقيمة الود ، ولكن فى تحفظ . . ولم تكن تحول دون رؤيتى إياها خلال زينتها أو أثناء رقادها فى فراشها ، لأنها كانت تصحو متأخرة منذ أصبحت عاطلة . فكانت أمها تخرج ، وتجلس هى القرفصاء فى سريرها ، وتدعونى إلى الجلوس بجانب ركبتيها المضمومتين !

وكنا نتكلم دون أن أسبر غور قلبها ! . ولقد رأيت فى « طنجة » نساء مغربيات محجبات لا يبدو منهن غير أعينهن ، ولكنى كنت أرى من بريق تلك العيون صميم قلوبهن . . . أما « كونشا » هذه فلم تكن تخفى شيئاً ، لا من حياتها ، ولا من شكلها ، ومع ذلك كنت أشعر بأن بينى وبينها حائطاً سداً !

ولاح أنها تحبنى . . . . وربما أحبتنى . . . وحتى الآن لا أستطيع الحكم على ذلك . . . وكانت ترد دائماً على تضرعاتى بكلمة واحدة : « فيما بعد » ! . . . فلا أستطيع مخالفة هذه الكلمة ... وكنت أهددها بهجرها فتجيبنى بقولها : « اذهب » . . . ! وكنت أتوعدها بالعنف ، فكانت تقول

لى : « إنك لا تستطيع أبداً » ! . . . وكنت أغرقها بالهدايا ، فتقبلها معترفة بالجميل ، عند حد رضاها . . . ومع ذلك كنت إذا دخلت عندها انبعث من عينيها نور لا أثر فيه للخديعة . . . وكانت تنام فى الليل تسع ساعات ، وفى النهار ثلاثاً . . . وفيما عدا ذلك لا تفعل شيئاً ! . فإذا استيقظت فإنما لتتمدد فى قميصها على حصير رطب ، وتحت رأسها وسادتان ، وتحت جنبها وسادة . . . ولم أستطع أن أشغلها بشىء ، فلا إبرة ، ولا لعبة ، ولا مَرَّ بيدها كتاب من اليوم الذى أخطأتُ فيه بإخراجها من المصنع . . . ولم يكن تدبير البيت يعنيها ، فكانت أمها تنظف الغرفة ، وتعد الفراشين ، وتهيء الطعام ، وتقضى كل صباح نصف ساعة فى تسريح شعر الفتاة الصغيرة وهى شبه ناعسة . . . وظلت مرة فى فراشها أسبوعاً ! . . . ولم يكن ذلك لمرض أصابها ، بل لأنها اكتشفت أنه ما دام سيرها فى الشوارع ، دون قصد أو غرض ، لا فائدة منه ، فالأحرى ألا تكون ثمة فائدة من تكلف الخطوات الثلاث بين سريرها وحصيرتها ، وما تتكبده من لبس يتلف عليها لذة الكسل والاسترخاء ! . . . والأسبانيات كلهن على هذه الشاكلة ، يحس من يراهن بين الناس أن رنة أصواتهن ، ونار أعينهن ، وخفة حركاتهن ،

تتولد من ينبوع فائر على الدوام . . . ولكنهن رغم ذلك لا يكدن ينفردن بأنفسهن حتى يستسلمن إلى الراحة التى هى لذتهن القصوى ، فيرقدن على كرسى طويل فى غرفة مسدلة الستائر ، ويحلمن بالحلى والجواهر التى قد يملكنها ، وبالقصور التى يجب أن يسكنَّها ، وبالعشاق المجهولين الذين يردن أن يكونوا لهن فرساناً . . .

وهكذا تمر بهن الساعات . . .

وكانت « كونشا » من جهة إدراكها لواجباتها اليومية أسبانية أصيلة . ولكنى لا أدرى من أى بلد أتاها إدراكها هذا للحب . فإننى بعد اثنى عشر أسبوعاً من العناية المتواصلة بها وجدت فى ابتسامتها ، فى وقت واحد ، تلك الوعود الخلابة ، وذلك الامتناع القاسى ، والمقاومة المضنية . . .

فحدث أن خرجتُ يوماً عن طورى ، إذ ضقت ذرعاً بعذاب الانتظار أكثر مما انتظرت ، والهيام بها فى كل لحظة ، ذلك الهيام الذى زعزع حياتى إلى درجة أصبحت معها حياةً فارغة تافهة ، بعد مضى ثلاثة أشهر على تلك الحال !

فانتحيت بالمرأة العجوز جانباً ، فى غيبة الفتاة ، وفتحت لها قلبى ، واندفعت فقلت لها إننى أحب ابنتها ، وإن فى نيتى ربط حياتى بحياتها ، وإنه لأسباب يصعب بيانها لا يمكننى

الارتباط بها رسمياً ، ولكنى أعتزم مشاطرتها حباً خالصاً عميقاً ، فلا حق لها فى الشكاية . . .

وختمت كلامى بقولى : « أعتقد أن « كونشيتا » تحبنى ، غير أنها على حذر منى . فإذا لم تكن تحبنى فلا أريد أن أرغمها على ذلك . . . وإذا كان ذنبى عندها أنها تشك فىّ فأقنعيها . . . »

وأضفت إلى هذه النجوى أننى فى مقابل ذلك أكفل لها حياتها الحاضرة وغناها مستقبلا . . . ولكى أبرهن على صدق تعهداتى أعطيت العجوز رزمة ضخمة من الأوراق المالية ، وأوصيتها أن تعمل بحكمتها على إقناع ابنتها بأن لا خوف عليها من خديعة أو خيانة . . .

وعدت إلى بيتى أشد ما أكون اضطراباً ! . ولم أذق تلك الليلة للنوم طعماً ، وبقيت أذرع الدار روحة وجيئة ، فى ليل بديع منعش ، لم يهدئ من ثائرتى جماله . . . فقد كنت أرسم خطط الوصول إلى السعادة . . .

وعند طلوع الشمس أمرت بقطف تلال من الزهور نثرتها على عتبة البيت ، والسلم ، وردهة الاستقبال . . . لأمهد تحت قدمى الحبيبة طريقاً من أرجوان ومن ذهب . . . ورحت أتصورها فى كل مكان : واقفة إلى جنب شجرة ، أو مضطجعة

فى مقعد ، أو مستلقية على العشب ، أو متكئة على السياج ، أو رافعة ذراعيها نحو الشمس ، تهز إليها جذعاً مثقلا بالثمار . . . فكأن الحديقة والبيت قد تشكلا بشكلها ، وانطبعا بروحها ! .

وبعد ليلة انتظار لا تحتمل ، وصباح شعرت أنه لا يمر ، وصلنى حوالى الساعة الحادية عشرة خطاب بالبريد ، فيه بضعة أسطر ما زلت أحفظها عن ظهر قلب :

« لو أنك كنت قد أحببتنى لانتظرتنى . . . نويت أن أهبك نفسى ، ولكنك طلبت أن أباع لك . . . . فلن ترانى بعد اليوم . . . كونشيتا »

وبعد دقيقتين امتطيت جوادى ، فبلغت عند الظهر « أشبيلية » وأنا أكاد أهوى إلى الأرض من الحر والكرب ، فصعدت السلم مسرعاً ، وطرقت الباب عشرين مرة . . .

سكوت . . . سكوت . . .

وأخيراً فتح باب ورائى فى الطابق نفسه ، وأفهمتنى جارة أن المرأتين قد سارتا صباحاً فى طريق المحطة بأمتعتهما ، وأنها لا تعلم فى أى قطار سافرتا . . .

فسألتها :

ـــ وهل كانتا وحيدتين ؟

ـ نعم ، كانتا وحيدتين
ـ لا رجل معهما . . . أأنت واثقة ؟
ـ رباه ، إننى ما رأيت عندهما رجلا سواك !
ـ ألم تتركا شيئاً لى ؟
ـ لا شيء ، فأظنهما على خلاف معك !
ـ ولكن . . . هل تعودان ؟
ـ الله أعلم . . . فما قالتا شيئاً
ـ أظن أنه لا مناص من عودتهما لأخذ أثاثهما ؟
ـ كلا ، فالبيت يؤجر بأثاثه ، وقد حملتا كل ما كان لهما . . . وهما الآن على مسافة شاسعة من هنا يا سيدى

٧

ومرّ الخريف وتبعه الشتاء ، وذاكرتى لم تنس شيئاً قلّ أو كثر . . . وظلت ذاكرتى تعذبنى . وكنت أحسبنى سأحيا حياة جديدة وأتمتع بالحب ، فهدم كل شىء فى حسبانى قبل أن يواتينى الزمان . . . وما تذكرت لحظة واحدة اتصلت فيها بهذه الصبية أو ارتبطت . . . لا شىء كان بيننا . . . أىّ شئ . . . ولا حتى ما يغرينى فى مجرد الوهم والخيال . . . فإذا كنت قد خسرتها الآن فلا عزاء لى فى أنى حظيت بها يوماً ما ، بحيث لا ينُزع ذلك التذكار منى !.

وكنت أحبها !. . . أواه ! . . . لشد ما أحببتها يا ربّاه !. ووصل بى الأمر إلى الاعتقاد أن الحق بيدها ، وأنى الملوم ، وأنى تصرفت بخشونة مع تلك العذراء الباسلة ! . وكنت أقول لنفسى : « لو أن الله ينعم علىّ برؤيتها مرة أخرى لجلست عند قدميها حتى تومئ إلىّ ! . . . ولانتظرت السنين الطوال لا أزعجها ولا أكدر خاطرها ! . فإنى أفهم ما تشعر به . . . كانت عالمة بأنها من طبقة تؤخذ نساؤها محظيات ، فأبت أن تعامل معاملة دون ما ترفعها إليها أخلاقها ! . وأرادت

أن تمتحنني ، وتتأكد من محبتي ، حتى إذا وهبتْ نفسها لا تكون قد أقرْضتها قرضاً سيئاً . . .

فلتكن إرادتها ! . وسأطيع رغباتها ! .

ولكن أتراني سألقاها ثانية ؟ !. هذا ما كان يمزق نياط قلبي ، ويشد بالضيق وثاق صدري !

ثم رأيتها ! . . . مساء يوم من أيام الربيع ! .

كنت أتمشى الهوينا ، في سكون الليل ، بشارع « تريجانو » ، وأنا أدخن . . . فإذا بصوت ناعم يناديني باسمي :

ــ دون ماتيو !

فارتجفت . . . والتفت ... فلم أجد أحداً ... ومع ذلك ما كنت حالماً ولا واهماً . . . فصرختُ :

ــ كونشا ! . . . أين أنت يا كونشا ؟

ــ أيها الصغير ! . . . أتريد أن تصحو أمي ؟

وكانت تخاطبني من شباك مرتفع ، ذي قضبان حديدية ، يبلغ أسفله إلى ارتفاع كتفي . . . ورأيتها في مباذلها ، وعلى كتفيها شال من الحرير ، وهي متكئة على القضبان من الداخل . . . وقالت بصوت خافت :

ــ أهكذا عاملتني يا صديقي ؟

وكنت عاجزاً عن الدفاع والاتهام . . .

– ميلى علىّ قليلا ، فإنى لا أكاد أراك فى الظلام . . .
اقتربى من ضوء القمر . . .

ففعلت ، صامتة . . . وسكرت زمناً لا أعرف مداه بخمر رؤيتها ، وقلت لها :

– هاتى يدك !

فأخرجتها من القضبان ، فمررت بشفتى على أناملها ، وراحة يدها ، ومعصمها العارى الدافى ، وكأن بى مساً . . . لا أكاد أصدق أن ذلك كان لحمها ، وأن تلك كانت بشرتها ورائحتها . . . وأنها كلها كانت تحت قبلاتى بعد ليالى الأرق الطويلة . . . فعدت أقول :

– هاتى فمك . . .

فهزت رأسها ، وسحبت يدها قائلة :

– فيما بعد ! . . .

ويلاه من تلك الكلمة التى طالما سمعتها من قبل ، وها هى ذى تعود فى أول لقاء بيننا ، كسد منيع ! . . .

فزحمتها بأسئلتى :

ماذا فعلت ؟ ولمَ كان ذلك السفر المفاجىء ؟ فلو أنها كانت قد أخبرتنى بما تريد وتقضى لما عصيت لها أمراً ، ولا رددت لها حكماً . . . أما سفرها هكذا ، بعد خطاب

بسيط ، فقد كان قاسياً . فأجابتني بقولها :

— الذنب ذنبك ! . . .

فوافقتُ . . . وما الذى كنت لا أعترف به أو أسلّ ؟ ! .

ولزمت الصمت . . .

ومع ذلك كنت أريد أن أعرف ما جرى لها فى ذلك الزمن المديد ، ومن أين هى آتية ، وكم مضى عليها فى ذلك المكان . . .

وقد أجابت :

— لقد ذهبنا بادئاً إلى « مدريد » وفيها أقارب لنا ، ثم عدنا إلى هنا . . . وهأنذا ! . . .

— أتسكنين البيت كله ؟

— نعم ، وهو على صغره كبير علينا . . .

— وكيف استطعت استئجاره ؟

— هذا من أفضالك ، وكانت أمى تقتصد من نفحاتك

— ولكن تلك حال لن تطول . . .

— لدينا ما يكفل لنا الحياة الشريفة شهراً

— وبعد الشهر ؟

— بعده ؟ أيدور فى خلدك حقاً ، يا صديقى ، أنه سيُسقط فى يدى ؟

فلم أحر جواباً ، وإنما وددت بكل جوارحى لو قتلتها ! .

وعادت تقول :

ـ أفلا تسمعنى ؟ . . . إذا أردتُ المكث هنا عرفت ما أفعل . . . ولكن أنَّى لك أن تعرف إرادتى فى البقاء أو الرحيل ؟ فقد قضيت فى العام الماضى ثلاثة أسابيع نائمة تحت أسوار المدينة أفترش التراب ! . وشملنى الحارس بعطفه ، فحفظنى أن يعتدى علىّ معتد أثناء نومى . . . وكل ما أصابنى من الأخطار لم يخرج عن حد الكلام ! . . . وأستطيع من الغداة أن أعود إلى ذلك المكان ، أو إلى عملى فى مصنع السجائر ، أو إلى أى مكان آخر . . . فإنى أعرف بيع الموز ، وشغل الإبرة ، وتنميق طاقات الزهور . . . كما أعرف الرقص الهولندى والإسبانيولى . . . فاذهب يا « دون ماتيو » فى سبيلك ، فإنى أعرف لنفسى خلاصها

وكانت تخاطبنى بصوت منخفض ، ومع ذلك سمعت رنين كل كلمة منه ، كما لو كنت أستمع إلى وحى يوحى ! . وكنت ، فى الطريق الخالى المضىء بنور القمر ، أنظر إلى حركات شفتيها أكثر مما أصغى إليها . . .

فقالت ، متنهدة ، وهى معتمدة برأسها على يدها ، تتخلل شعرها الغزير بأصابعها :

ـ سأكون يا « دون ماتيو » بعد غد خليلتك !

فارتجفت ، قائلا :

— هذا بهتان !

— لقد قلت !

— ولمَ التوانى يا حياتى ما دمت قد قبلت ، وأنت تحبيننى ؟

— لقد أحببتك دواماً . . .

— ولمَ لا يكون ذلك فى الساعة التى نحن فيها ، وثمة فرجة بين القضبان والحائط تمكننى من الدخول . . . انظرى . . .

— تدخل منها مساء الأحد ، فإننى اليوم مثقلة بالذنوب أكثر من الغجرية راقصة القطار . . . ولا أريد أن أصبح امرأة على هذه الحال المحرمة ، فإذا جاء لنا ولد كتبت اللعنة على الولد ! . أما غداً فإنى سأطـّهر من إثمى ، وأعترف للقسيس بذنوبى ، وأتسلف منه المغفرة لما سوف أفعله . . . أليس ذلك أسلم عاقبة ؟ . . . وفى صباح الأحد أتناول القربان ، فإذا ما سرى سرّ المسيح فى قدمى سألته أن يسعد مسائى ، وأن أحب طول حياتى ! . . . آمين !

نعم إنى أعرف أن هذا مذهب تعتنقه بعض الأسبانيات . . . يعتقدن أن المغفرة تنتظرهن إذا اعترفن للقسيس بأعز أسرارهن ! . . . فلو كان هؤلاء الأسبانيات على حق فانظر

كم يكون عدد اللواتى يأسفن يوم القيامة على حياة الزهد والعفاف !

وعادت «كونشا» تقول :

ـ دعنى يا « دون ماتيو » فأنت ترى حجرتى خالية ، فلا تكن غيوراً أو ملولا . . . وستجدنى هنا يا حبيبى مساء الأحد فى ساعة متأخرة من الليل . . ولكن عدنى ألا تخاطب أمى ، وأن تنصرف فى الصباح قبلما تصحو ، وليس ذلك خشية أن ترانى ، فأنت تعرف أننى سيدة نفسى ، ولا تعوزنى نصائحها ، سواء كانت لك أو عليك . . . فأقسم لى على ذلك !

ـ لك ذلك !

ـ أحسنت . . . فارتبط بهذا . . .

ونكست رأسها ، وأسدلت غدائر شعرها من القضبان ، كأنها جداول من العطر . . . فأخذتها بيدى وألصقت بها فمى ، وأغرقت وجهى فى أمواجها الدافئة السوداء . . .

ثم أفلتت الأمواج من أصابعى ، وأغلقت النافذة . . .

٨

مر على ذلك صباحان ، نهاران ، ليلان، لا ينتهيان . . . وكنت سعيداً ، متألماً ، قلقاً . . . وأظن أن من بين المشاعر المتناقضة ، التي كانت تخالجني كلها في وقت واحد : الفرح ، ذلك الفرح الضجر الذي يكاد يكون ألماً ، وكان يغمر بقية المشاعر . . . في هذه الثماني والأربعين ساعة مثلت لنفسي مائة مرة « ما سيجري بيني وبينها » . . . المشهد ، الكلام ، وحتى السكوت . . . وكنت ، على رغمي ، ألعب في مخيلتي الدور الذي ينتظرني . . . فرأيت نفسي بين ذراعيها . . . وفي كل ربع ساعة يعود المنظر نفسه فيتمثل بكافة تفاصيله في مخيلتي المنهوكة . . .

واقتربت الساعة . . .

وكنت أضرب في الشوارع هائماً ، ولا أجسر على الوقوف تحت شباكها خشية إساءة سمعتها .. ومع ذلك ضاق صدري لعلمي أنها من وراء زجاج النافذة تنظر إلي ، وتدعني مختنقاً باضطرابي . . .

وأخيراً نادتني :

— ماتيو ! . . .

وفى تلك اللحظة كنت كأنى فى الخامسة عشرة وورائى عشرون عام غرام كأنها حلم من الأحلام ! وهيأت لى الأوهام أننى سألصق فمى بفم امرأة لأول مرة ، وأشعر بحرارة جسمها الغض يلتوى ويثقل فوق ذراعى . . .

ودخلت من الشباك ، كممثل دور المحب على المسرح ، وعانقتها ، وكانت واقفة ، ملتصقة بى ، تحنو آنة وتقبل ، وتجفو آنة وتدبر . . . وكان رأسانا مرتبطين بالفمين ، يميلان معاً ، ويترنحان ، والجفون مسبلة . . . وما أدركت ، إدراكى تلك اللحظة ، فى حالة الدوار والهوس التى كنت فيها ، المعنى المراد التعبير عنه حقاً بكلمة « نشوة القبلة » . . . وما عدت أدرى من كنا ، وماذا جرى ، وما الذى سيحدث لنا ؛ فالحاضر كان يستغرق الماضى والمستقبل معاً . . .

وكنت أشعر من وراء ثوبها بالنار المشتعلة من هيامها . .

وغمغمت قائلة :

— إنى أشعر بألم ، فأتوسل إليك أن تنتظر . . . أظننى سأقع ، فتعال معى إلى البهو لأتمدد على الحصير الرطب . . . انتظر . . . إنى أهواك . . . ولكن يكاد يغمى علىّ . . .

فاتجهتُ إلى باب ، فصاحت :

ــليس هذا ، فهذه حجرة أمى.. فتعال من هنا .. سأقودك

وكانت كواكب السماء تنير مربعاً من البهو ، وباقى القاعة يسوده الظلام كاتم الأسرار . فتمددت «كونشا» كامرأة شرقية على الحصير ، وجلست بجانبها ، فتناولت يدى ، قائلة :

ــ أيها الحبيب . . . أتهوانى ؟

ــ أتسألينى فى هذا ؟

ــ وإلى متى تبقى على العهد ؟

وإنى لأشفق من تلك الأسئلة التى توجهها النساء جميعاً إلينا ، ولا تجد رداً عليها منا إلا بالمراء ! . . .

ــ وهل تصبر على حبى إذا ذوى جمالى ؟ . وهل إذا بلغت سن الكبر ، ونال منى الهرم ، تظل تحبنى ؟ .. قل لى يا قلبى ! ؟.. ولو لم يكن ذلك صدقاً وحقاً فقله ... لأنى بحاجة إلى سماعه منك لأشتد به أزراً . . . إن الليلة موعدنا ، ومع ذلك فوالله ما أدرى هل أجد من نفسى شجاعة ؟ . . . ومن لى بأن أعرف أنك حقاً خليق بذلك الذى تمنحه المرأة مرة واحدة فى حياتها .!.. أوّاه !.. وحق العذراء « مريم » لو أننى كنت مخدوعة فيك فيا لضيعة حياتى !. فلست من

البنات الخليعات اللواتى لا يرددن يد لامس ، فلن أحب بعدك أحداً ، فإذا هجرتنى قضى على قضاء مبرماً ! . . .

وعضت على شفتيها ، وهى تكظم التأوهات ، وتحدق فى الفضاء ، ثم تبسمت :

— إن عودى ينمو منذ ستة أشهر ، حتى لقد ضاقت علىّ ثيابى . . . فافتح هذا المشبك ، وتأمل محاسنى ! . . .

لو أننى كنت قد طلبت ذلك منها لأبت واستكبرت . . . وخالج الشك قلبى فى أن تنتهى هذه الليلة من الكلام إلى الغرام . . . ورددت يدى دون أن أمسها ، فدنت منى ، وقد حسرت عن صدرها . . .

أسفاً على ما كان ! . فإن الثديين اللذين كشفت عنهما كانا كثمرتين من أرض كنعان ! ولست أدرى أيضارع ثدييها فى الجمال ثديان ؟ ! بل إنى لم أرهما فيما بعد بمثل جمالهما فى تلك الليلة . . . فالأثداء أحياء لها دوران من نضارة وذبول . . : وأظننى رأيت ذينك النهدين فى ذروة اكتمالهما :

وأخرجت تميمة تداعبها ، وتقبلها بشغف المتقين ، وهى ترقبنى أثناء ذلك من طرف خفى :

— إذن ، فأنا أعجبك ؟ !

فضممتها إلىّ ، فقالت :

ــ لا . . . ليس الساعة !

ــ ماذا بعد ؟

ــ لست على استعداد !

ثم أقفلت مشبك صدرها . . .

يا الله ! . . . لشد ما عانيت ! . . .

وتضرعت إليها متلهفاً ، وأنا أغالب يدها التى تحميها ، أريد أن أعزها وأولمها فى وقت واحد ! . أما إصرارها على أن تفتننى وتصدنى فهو دور شيطانى ، ظل عاماً ، وتضاعف فى تلك اللحظة المشهودة التى كنت أنتظر فيها الخلاص ، فخيب حنوى الصبور . . .

وعندئذ قلت لها :

ــ أراك يا بنيـتى تلعبين بى ، فحذار من أن أملّ !

ــ أهكذا ؟ . . . إذن فإلى الغد ، يا « دون ماتيو ! . . . »

ــ إنى لن أعود إليك أبداً . . . .

ــ إنك ستعود غداً

فوضعت قبعتى على رأسى ، وخرجت ثائراً ، مصمماً على أن لا أعود فأراها . . .

وتمسكت بعزمى حتى ساعة النوم ، ولكن استيقاظى كان مؤلماً يرثى له !

ياله من يوم لا تمحى ذكراه !

فبالرغم من عهدى الذى قطعته لنفسى سرت فى طريق «أشبيلية» مجذوباً نحوها بقوة لا تقهر . . . وخيل إلىّ أن إرادتى قد تلاشت ، حتى لم أعد أستطيع توجيه خطاى أنّى أشاء !

وبقيت ثلاث ساعات أعانى الحمى ، وأعارك نفسى ، رائحاً غادياً فى طريق «آمور دى ديوس» ، خلف الشارع الذى تسكنه «كونشا» . . . أوشك أن أقطع الخطوات العشرين التى تفصلنى عنها ! . . . وأخيراً انتصرت على نفسى ، فسرت مهرولا إلى الريف ، دون أن أطرق شباكها المعبود !.. ولكن ياله من انتصار مخذول ! . . .

* * *

وفى اليوم التالى كانت عندى قائلة :

— أما وقد أبيت المجىء فهأنذى قد جئت إليك . أتقول بعد الآن إنى لا أحبك ؟

فكدت أرتمى تحت قدميها . . .

وأضافت :

— هيا ، أسرع وأرنى حجرتك . . . فلا أريد أن تتهمنى اليوم بالكسل . . . هل تحسبنى أيضاً لم ينفد الصبر منى ؟ !

لو علمت ما يدور بفكرى لنالت الدهشة منك !

على أنها لم تكد تدخل حتى قالت :

— كلا ! ... ليس فى هذه الغرفة ! ... ما أكثر ما مرّ بهذا الفراش الملعون من نساء ! . وأراها ليست بالحجرة اللائقة بعذراء ... فلنستبدلها بأخرى ، بحجرة ضيوف ، ليست خاصة بأحد ... أتريد ؟

وكان علينا الانتظار ساعة طويلة حتى يتم تنظيم الحجرة وإعدادها ... ثم صعدنا إليها ...

ولا أجسر على القول بأننى كنت واثقاً من النجاح تلك المرة ، ولكن كانت آمالى واسعة ، فهى عندى بمفردها ، بلا سند ، بإزاء شعورى اللهفان المتأجج نحوها .. وبدا لى أنه يبعد عليها المخاطرة بالحضور قبلما يستقر رأيها على التضحية التى تتظاهر بتقديمها إلىّ ...

فلما اختلينا فكت أزرارها وتجردت بكل بساطة ، وأعترف لك بأننى بدلا من مساعدتها فى ذلك كنت أعرقل عملها ، وأننى استوقفتها عشرين مرة لأقبل ذراعيها العاريتين ، وكتفيها المستديرتين ، وأتأمل محاسنها تتكشف لى شيئاً فشيئاً ، وألقيت فى يقينى أن ذلك البدن الثائر المتمرد قد آن أن يستسلم لى ...

قالت :

ــ والآن ألم أف بوعدى ؟

وأمرتْ بإغلاق النوافذ ، لأن النور الفضّاح يضايقها فى تلك الحجرة . . .

فأطعت . . . وفى تلك الأثناء رقدت صامتة فى السرير العميق ، فرأيتها من خلال الكلة الرقيقة كرؤيا مسرحية خلف ستار شفاف ! . . .

وبعد . . . فماذا أقول لك يا سيدى ؟ لسوف ترانى ولا ريب فى هذه المرة أيضاً موضع السخر والتلاعب والعبث. . . فقد قلت لك إن هذه البنتْ شر النساء ، وإن بدعها القاسية تفوق كل حد ! ؛ بيد أنك حتى الآن لا تعرفها حق المعرفة ، وإذ تابعتُ حديثى رأيتَ فى كل مشهد منه وعرفت «كونشا پريز » !

هأنتذا تراها جاءت إلىّ لتهب نفسها كما تقول ، وسمعت حديث حبها وعهودها ، وأنها وقفتْ حتى اللحظة الأخيرة موقف العذراء الوالهة ، أو العروس الصبية التى لا تجهل ما ستمنحه ومع ذلك فهى مضطربة رزينة . . . ولكن تلك الصغيرة الشقية كانت فد تدرعت بلرع من نسيج قلاع المراكب الخشن الصلب الغليظ ، كان محزوماً على وسطها بشرائط معقدة

مختلفة بحيث لا يمكن بأى حال حلها . . وهــذا ما اكتشفته وأنا ذاهل العقل تائه الرشد من حرارة الوجد ، وهى تشرح لى بلا اضطراب :

ــ سأتهوس عند ما يريد الله ، ولكنى لن أتهوس عند إرادة الرجال ! . . .

فشككت لحظة من دهرى فى نية خنقها . . . ولكنى أقول الحق دون خجل : ألقيت بوجهى بين يدى منتحباً !

إن ما كنت أبكيه ، يا سيدى ، هو شبابى الذى أشهدتنى تلك الطفلة ذهابه إلى حيث لا رجعة ! . وبين الثانية والعشرين والخامسة والثلاثين مذلات يتجنبها جميع الرجال ! . ولا أحسب أن « كونشا » كانت تعاملنى بمثل ما عاملتنى به لو أننى كنت أصغر مما كنت بعشر سنين . . . فهذا الدرع ، هذا السد ، قد لاح لى أننى سأراه من ذلك الحين على كل امرأة ، أو أنهن يردن لبسه قبلما يقتربن منى ! .

فقلت لها :

ــ اذهبى ، لقد فهمت . . .

فانزعجتْ فجأة ، وطوقتنى بذراعيها الصغيرتين القويتين ولكنى رددتهما بصعوبة ! . فقالت لى ، باحثة عن فمى :

ــ أفلا تحب كل ما أمنحه لك من نفسى ؟ ! فإن

بين يديك شفتيّ ، وشعرى العطرىّ . أفلا يكفيك هذا ؟ إذن فلست أنا التى تحب ، ولكن ما أمنعه . . . إن كل النساء يستطعن أن يعطينك إياه . . . فلمَ تطلب منى ما أرفضه ؟ ألأنك تعرف أننى عذراء ؟ فهناك كثيرات غيرى من الأبكار ، حتى فى « أشبيلية » ! . وأقسم لك يا « دون ماتيو » أننى أعرف بعضهن . . . ولكن أحببنى كما أريد أن تحبنى ، قليلا قليلا ، وصبراً جميلا ! . . . فأنت تعرف أننى لك ، وأننى حافظة نفسى لك وحدك . . . فماذا تريد منى أكثر من ذلك؟ ! . . .

فاتفقنا على أن نلتقى عندها أو عندى ، وأن يسير كل شىء طبق إرادتها . . . ورضيتُ مقابل وعدى ألا تلبس بعد اليوم ذلك الدرع الفظيع من تيل القلاع . . .

وهذا كل ما نلته منها ، بل إنها فى أول ليلة خلعته زادت عذابى !

هذا إذن مدى العبودية الذى وصلت بى إليه تلك الفتاة !

وإنى فى حديثى إليك أمر مرّ الكرام بطلباتها الدائمة للمال ، وإذا تركت هذا جانباً كانت لعلاقتنا قيمة خاصة . . . إذ كنت أحظى بعناق فتاة فى الخامسة عشرة ، إن كانت قد تربت عند الراهبات فقد كانت بالجسم والروح أبعد ما تكون

عن الفضيلة . . . وتلك الفتاة المشغوفة ، المتحمسة كما تهوى النفس ، كانت تعاملنى وكأن الطبيعة نفسها تحول بينها وبين إشباع ميولها !

ولم يكن لها عذر واضح له قيمة تبديه لمثل هذه المهزلة التى تمثلها ، وستعرف بنفسك سر هذا فيما يلى

وكنت محتملاأن يُسخر منى هكذا ! :

فلا تغتر ، أيها الشاب ، قارئ القصص ، وممثل وقائع الهوى مع أنصاف البكارى ، على شواطىء البحر ، بما أنت عليه من سلطان . فإن الأندلسيات من نسيج آخر ، لامزاج لهن للحب المصطنع ، وهن عاشقات مفطورات على الحب الأصيل ، دقيقات الحواس ، لا يتأثرن بالمداعبة والغزل إن لم يكن صادراً عن حب عميق ، وعندئذ تعرف ما يعرفنه من فنون الغرام . . .

ولم يقع بينى وبين « كونشا » شىء ، أى شىء . . . فافهم معنى أى شىء . . . واستمر هذا أسبوعين كاملين !

وفى اليوم الخامس عشر ، وكنت قد منحتها فى العشية ألف ريال لتدفع ديون أمها ، عدت فوجدت البيت خالياً ، ينعى من بناه ! . . .

٩

كان ذلك فوق الطاقة . . .

ومن ذلك الحين صرت أرى جلياً ما يدور فى خلد الصغيرة الخبيثة ! . . . لقد لعبت بى كأننى تلميذ ! . وكان خجلى أشد من ألمى !

ومحوت من ماضى حياتى هذه البنت الشقية الغادرة ، واجتهدت فى نسيانها من اليوم التالى ، إلى الأبد ! .

وبقوة إرادة طارئة ، ونية من النيات غير المألوفة التى تتوقع النساء دائماً فشلها ، سافرت إلى « مدريد » ، معتزماً أن أتخذ من أول شابة أصادفها وتلفت نظرى خليلة !

وتلك مناورة عتيقة يخدع بها العشاق أنفسهم ، وقلما تفلح

وظللت أبحث ، أدور من صالون إلى صالون ، ومن مسرح الى مسرح ، حتى لقيت راقصة إيطالية ، فتاة كبيرة ذات ساقين عضليتين ، تصلح لمقصورة حريم شرقى ، ولكن تنقصها الصفات اللازمة فى خليلة وحيدة !

ولقد بذلت كل ما فى وسعها ، فكانت ذات عطف ودماثة ، وعلمتنى ما كنت أجهله من فحش نابولى . وتفننت

لتستبقيني ، ولم يكن همّ حياتها المادية هو الباعث الوحيد على حنانها الرقيق الحار !

وا أسفاه ! ليتني استطعت أن أحبها ! . ومع ذلك لم يكن لى ما ألومها عليه ، فلم تكن خائنة ولا ثقيلة ، وظلت كأنها جاهلة عيوبى ، ولم تسبب لى خلافاً مع أصحابى . . وكانت لا تدع غيرتها تظهر ، وإنما تحزر . . . فيا لها من امرأة لاتقدر ! . . ولكنى ما شعرت نحوها بشىء! . .

وظللت أعيش شهرين مع « جوليا » تحت سقف واحد، فى غرفة البيت الذى استأجرته ، فى بيئتها ، لى ولها ، فى غابة شارع « أوبا دى ڤيجا » . . . فكانت تدخل ، وتمر ، وتسير أمامى دون أن أتبعها ببصرى . وكانت أثوابها وفساتين رقصها وقمصانها تلقى على الأرائك فلا تحرك شعرة فى بدنى . . .

وقضيت ستين يوماً فى فراش دافئ إلى جنب ذلك الجسد الأسمر ، فإذا ما انطفأ النور شعرت — فى خيالى — بحضور شخص آخر . . .

وبعدها انطلقت يائساً من ذات نفسى ! . فعدت إلى « أشبيلية » ، فلاح لى بيتى كأنه محلة أموات ! . فرحلت إلى « غرناطة » حيث ضقت ذرعاً ! ، ثم إلى « قرطبة » فوجدتها مقفرة محرقة ! . ثم إلى « جيريس » الساطعة التى

يفوح منها النبيذ ، ثم إلى « قادس » فألفيتها واحةً بيوتها في البحر !

كنت مسوقاً على طول طريقي ، من بلد إلى بلد ، لا بمزاجي ، بل بسحر بعيد لا يقاوم ، ولا أشك في وجوده ، كما لا يشك المؤمن في وجود الله !

أربع مرات في أسبانيا الواسعة قد لقيت « كونشا پريز » ، فما كانت سلسلة مصادفات عمياء ، لأنني لا أعتقد في رميات زهر يتولى المصير ! . فكأنما كان مقدوراً أن تأخذني هذه المرأة وتضعني تحت يدها مرة خامسة . . . وأن أرى كل ما سأحدثك به يمر مروراً في حياتي . . .

* * *

وكان ذلك في « قادس » ، إذ دخلت ذات ليلة مرقص البلد . .

كانت هناك ، يا سيدي ، ترقص أمام ثلاثين صياداً ، ومثلهم من البحارة ، وبعض السخفاء من الأجانب . فلما رأيتها ارتعشت ، وأظن أن وجهي اغبرّ فصار أشد سوادا من الغبراء ، وقطعت عليّ أنفاسي ، ووهن العظم مني . . . فجلست على أول مقعد إلى جانب الباب . ووضعت مرفقيّ على الخوان ، واستوعبتها بنظري من بعيد كأنها مبعوثة !

واستمرت في الرقص : شائقة ، ملتهبة ، وجهها بلون

الأرجوان، ونهداها مجنونان، وهى تضرب الصاجات الرنانة . .

وكنت واثقاً من أنها ترانى ، وإن كانت لم تنظر إلىّ ! .

وأتمت رقصها فى حركة مثيرة عنيفة ، وكأن تحريض ساقيها وجسمها يقصد شخصاً معيناً فى جمهور المتفرجين !

ثم وقفت بغتة وسط صيحات الطرب والإطراء ، وكانت القبعات تتطاير على المسرح ، والصالة واقفة كلها على قدم ، فكانت ترد التحيات ،وهى لا تزال تلهث،بابتسامة فاترة ، فيها الظفر والاحتقار معاً !

ونزلتْ كالمتبع بين صفوف الشاربين لتجلس جانباً حتى تقوم راقصة أخرى بدورها على المسرح ، وهى عالمة بأن هناك فى ركن القاعة رجلا يعبدها عبادة ، ويتقبل السجود عند موطئ قدميها أمام الدنيا قاطبة ، وقد تألم حتى ليكاد يصرخ بين الناس من شدة الألم . . . فمرت ، على عينيه ، من خوان إلى خوان ، ومن ذراع إلى ذراع !

وكانوا كلهم يعرفونها باسمها . وكنت أسمع كلمة « كونشيتا » فأشعر أنها تمر بقشعريرة من أخمص قدمىّ إلى مفرق شعرى ! .

وكانوا يقدمون إليها الشراب ، وكانوا يلمسون ذراعيها العاريتين ! . وقد رصعت شعرها بزهرة حمراء أعطاها إياها بحار ألمانى !

وشدّت شعر راقص من رجال الملهى فتقرّد أمامها ، وتظاهرت بالهيام أمام فتى سخيف يجالس نساء ، ولاطفتْ خدّ رجل

وددت أن لو أقتله . . .

ولم أنس حتى الآن شيئاً من كل ما أتته فى تلك الدقائق الخمسين من الحركات والإشارات التى كانت توسعنى ألماً ! .

ومثل هذه الذكريات هى التى تملأ حياة الناس !

ثم تقدمتْ نحو خوانى بعد ما زارت كل المناضد لأننى كنت فى آخر الصالة . ولكنها على أى حال جاءت . . . فهل تراها كانت مرتبكة ؟ أم متظاهرة بالدهشة ؟ ! ! كلا البتة ! . . . إنك لا تعرفها ! . وجلستْ أمامى ، وصفقت للجرسون ، قائلة :

— تونيو ! فنجان قهوة !

وتحملت نظراتى بهدوء عزيز . فقلت لها بصوت شديد الخفوت :

— أما تخشين شيئاً يا كونشا ؟ أما تخافين الموت ؟

— كلا ! . . . ولست أنت الرجل الذى يقتلنى !

— أتتحدينى ؟

— هنا يا دون ماتيو ، وأينما تشاء ! . . . إنى أعرفك كما لو كنت جنيناً حملته تسعة أشهر ! . . إنك لن تمس شعرة واحدة من رأسى ! . وأنت مصيب ، لأننى لم أعد أحبك !

— أتجسرين على القول بأنك أحببتنى يوماً ؟

— اعتقد ما شئت ، فأنت وحدك المذنب !

إنها هى التى تعتب علىّ ، وكان علىّ أن أتوقع تلك المهزلة !

فعدت أقول :

— مرتين ، كررت معى هذا مرتين ، فأخذت كل ما أعطيتك من صميم قلبي كاللصة ، ورحلت من دون كلمة ولا رسالة ، ودون أن تكلفى إنساناً أن يقرئني السلام . . . فماذا فعلتُ لتعاملينى بمثل هذا أيتها الشقية ؟ . . . الشقية !

وكان لديها عذرها :

— ما فعلته أنت ؟ إنك خدعتنى . ألم تقسم أننى فى أمان بين يديك ، وأن تدعنى أختار ليلة خطيئتى وساعتها ؟ أتذكر آخر مرة ؟ أتحسبنى كنت نائمة ؟ أتحسبنى كنت غير شاعرة ؟ إننى كنت مستيقظة يا « ماتيو » ، وأدركت أننى إذا قضيت ليلة أخرى إلى جانبك فلن أنام دون أن أستسلم لك بغتة . . . وهذا سر فرارى !

وكانت تلك حقا حماقة !. . ولكنى هززت كتفى وقلت :

— أهذا كل ما تؤاخذيننى عليه وهأنذا أرى الحياة التى تحيينها ، والرجال الذين يمرون بحياتك ؟

فنهضت نافرة :

— هذا غير صحيح ! وإنى أحظر عليك هذا القول يا « دون ماتيو » . وأقسم لك بقبر أبى أننى عذراء كما ولدتنى أمى . . . وإننى أمقتك ، لأنك ارتبت فىّ ! .

فبقيت وحدى لحظات قمت بعدها فانصرفت !

١٠

قضيت سواد ليلي حائماً حول سور المدينة . وكان هواء البحر يلطف الحمى التى أصابتني ، والجبانة التى أذلتنى ! . أجل ، فقد شعرت بأنى جبان أمام تلك المرأة ! . وكنت لا أحس غير احمرار الخجل كلما فكرت فيها وفى نفسى . . . وكنت أسب نفسي بأشنع ما يمكن أن يوجه إلى إنسان !

وبعد كل ما وقع لم يكن لدىّ غير واحدة من ثلاث : أن أتركها ، أو أقهرها ، أو أقتلها . . .

ولكننى آثرت الرابعة ، وهى أن أتحملها ! . . .

وكنت أعود كل مساء إلى مجلسى من الحانة كطفل مطيع ، أنظر إليها ، وأنتظرها . . .

وزادت دماثتها شيئاً فشيئاً . . . دماثتها ؟! أعنى أنها لم تحمل لى موجدة أو توجه إلىّ لوماً على الضر الذى أوقعته بى ! !

وكان وراء المسرح غرفة كبيرة بيضاء ينتظر فيها أمهات الراقصات وأخواتهن وهن يتمايلن من النعاس . . وسمحتْ لى « كونشا » بالبقاء فيها ، وذلك امتياز خاص كانت كل فتاة

منهن تستطيع أن تمنحه لحبيب الفؤاد !

وهو وسط بديع كما ترى ! . وكانت الساعات التى قضيتها هناك من أشد ساعاتى نكداً !

إنك تعرفنى ، فوالله ما عشت قط عيشة الحانات السافلة هذه ، وأنا متكىء بمرفقىّ إلى خوان ! . لقد تقززت نفسى من نفسى . . .

وكانت السنيورا بريز ، أمها ، هناك كالأخريات ، وقد أظهرت لى جهلاً بما حصل فى بيت « تريانو » الذى هربت وابنتها منه ! . . . أتراها كاذبة هى أيضاً ؟ ! إنى ما عنيت بذلك ، وكنت أصغى لمساراتها ، وأدفع ثمن خمرها !

وكانت رقصات « كونشا » الأربع هى لحظات سرورى الوحيدة ، فأقف بالباب المفتوح الذى تدخل منه المسرح ، وفى خلال الحركات القليلة التى تدير فيها ظهرها إلىّ أتوهم أنها ترقص لى وحدى ! . . . وكانت تبلغ الأوج فى رقصة « الفلمنكو » . . . وأى رقصة يا سيدى ! وأى تراچيديا ! . . . إنها العاطفة كلها فى ثلاثة فصول : يشتهى ، ويفتن ، ويحظى . . .

فلا توجد أية قصة تمثيلية تبدى الحب النسوى بالقوة واللطف والعنف كما تبديه تلك المشاهد الثلاثة . ولم يكن

« لكونشا » فيها مثيل . . . وهذا النوع من الرقص لابد لإتقانه فيما يقال من ثمانية أعوام طوال . . . وهذا معناه — إذا حسبنا سرعة النضج عند نسائنا — أنهن عند ما يتقنه يكن قد ذوى حسنهن . . . ولكن « كونشا » ولدت بفطرتها راقصة مجيدة ! . ولم تكن متمرنة وإنما كانت ملهمة . . . وأنت تعرف راقصات « أشبيلية » ، فليس فيهن من بلغت فيه شأو الكمال ، لأن تلك الرقصة الشاقة تستمر اثنتى عشرة دقيقة بلا انقطاع ! . فانظر أين تجد بين راقصات الأوبرا من تستطيع هذا ، فتمثل ثلاثة أدوار لا رابطة بينها : دور الساذجة ، ودور العاشقة ، ودور ممثلة المأساة ! . يجب أن تكون فى السادسة عشرة لتمثل الدور الأول ، كما يجب أن تكون فى الثلاثين لتمثل آخر الفاجعة ! . . .

وكانت « كونشا » تعد المرأة الوحيدة التى هى هى فى كل تلك الأدوار الشاقة ، إبداعاً وكمالا . . .

كنت أراها دائماً تتقدم وتتأخر بخطى صغيرة ، متوازنة ، وتنظر من طرف خفى جانبى ، من تحت كمها المرفوع ، ثم تنحنى فى أناة بصدرها وجنبها وساقها ، وتنظر بعينيها السوداوين من فوق ذراعها . . . فأراها رقيقة أو مولعة ، وعيناها ممتلئتان خفة روح أو مثقلتان إعياء ، وهى تدق بكعبيها خشبة

المسرح.، وتفرقع بأصابعها فى آخر كل حركة كأنما هى تعطى صيحة الحياة لكل ذراع من ذراعيها المتموجتين !

إنى أراها تخرج من المسرح فى حالة اهتياج وتراخ تزيدها جمالا ، ومحياها الأرجوانى مغطى بالعرق ، ولكن عينيها متألقتان ، وشفتيها مرتعشتان ، وثدييها مضطربان ! ، وكل ذلك يجعل لها مظهر الشباب الملتهب بالحركة والحيوية . . . إنها كانت آية الآيات . . .

واستمرت علاقتنا هكذا شهراً . . . فكانت تسمح لى بالجلوس خلف المسرح ، ولم تمنحنى حق صحبتها إلى باب بيتها ! . وما كان لى أن أمكث بجانبها إلا بشرط ألا أعتب عليها أى عتب ، لا عن الماضى ولا عن الحاضر . . . أما عن المستقبل فقد كنت أجهل ما كانت تعده له . . . وما كانت لدىّ أية فكرة عن أى حل لهذه المغامرة التى يرثى لها !

وكنت أعرف ، معرفة غامضة ، أنها تسكن مع أمها بالضاحية الوحيدة بالمدينة ، قرب ميدان طوروس ، بيتاً كبيراً أبيض أخضر ، يضم عائلات ست راقصات غيرها . أما ما كان يجرى فى تلك المدينة النسوية فلا أجسر على تصوره ! . ومع ذلك فإن راقصاتنا يحيين حياة منظمة ، فهن من الثامنة

مساء إلى الخامسة صباحاً فى المسرح ، ثم يعدن إلى بيوتهن عند الفجر وقد أجهز عليهن التعب ، فينمن وحيدات غالباً حتى وقت العصر ، فلا يبقى أمامهن للتبذل إلا آخر النهار ! . ثم إن الخوف من الحبل المتلف يردعن ، ولا يستطعن فوق ذلك أن يزدن ليلهن تعباً على ضنى . . .

بيد أنى ما كنت أفكر فى ذلك دون قلق ! . وكان « لكونشا » صديقتان لهما أخ أصغر منهما يعيش فى غرفتهما أو غرف جاراتهما ، ويشعل نار الغيرة بينهن على ما شهدته غير مرة . وكن يسمينه : « الأسمر الصغير السن » ! . وبقيت لذلك جاهلا اسمه . وكانت « كونشا » تدعوه إلى مائدتها وتطعمه على حسابى ، وتأخذ من سجائرى فتضعها بين شفتيه ! . وعن كل حركات تذمرى كانت تجاوبنى بهز كتفيها ، أو بعبارة باردة تضاعف آلامى :

— إن « الأسمر الصغير السن » للناس جميعاً . فإذا اتخذت عاشقاً كان لى وحدى ، كخاتمى فى أصبعى . . . وأنت تعرف ذلك يا « دون ماتيو » . . .

فكنت ألزم الصمت . . . غير أن الأقوال التى كانت تدور حول حياة « كونشا » الخاصة كانت تمثلها بحصن لا يقتحم ! ، وكان بودى لو أعتقد ذلك ! . ولم يكن يدنو

منها رجل وينظر إليها نظرة العاشق المعنوية لمن يلقى بين الناس المرأة التى قضى معها ليلة البارحة . . . وقد تشاجرت بسببها مع طالبى حبها الذين كنت بلا ريب أضايقهم ، ولكن لم يحدث أن تشاجرتُ قط مع رجل تباهى برؤيتها متجردة . . . وكثيراً ما حاولت أن أدفع صاحباتها إلى الكلام ، فكان الجواب دائماً : « إنها عذراء . . . وهى على صواب »

أما أنا فلم يفتح أمامى قط موضوع القرب منها والوصال ! وما كانت تطلب شيئاً ، وما كانت تمنحنى شيئاً . فأصبحت تلك التى كانت فيما مضى اللعوب المرحة : رزينة قليلة الكلام . . . فماذا كان يجول بخاطرها ؟ وماذا كانت تنتظر منى ؟ . وكانت محاولة قراءة ذلك فى عينيها ذاهبة سدى ! . وما كنت لأرى جلياً فى روحها أكثر مما أرى فى عينى هرة مكنونتين ، مغمضتين ! .

* * *

وفى ذات ليلة ، تبعاً لإشارة من مدير المرقص ، غادرتْ المسرح مع ثلاث من زميلاتها ، وصعدتْ إلى الدور الأول ، لتنام قليلا ، على ما قالت لى . . . وكثيراً ما كانت تتغيب ساعة مثل هذه ، فما كان يخالجنى فى ذلك شك . . . لأنى رغم كذبها وزيفها كنت أصدق أقل كلماتها : « أما ونحن

نتعب فى الرقص ، فهم يتركوننا لنستريح قليلا ونستجم ، وإلا كنا نروح على المسرح فى عالم الأحلام »

فلما صعدت كعادتها خرجت أستنشق هواء أنقى ، وتركت القاعة نصف ساعة ، وفى عودتى صادفت فى الممشى راقصة ساذجة ، وكانت فى تلك الليلة نشوى ، وقالت لى :

ـ لقد بكرت فى العودة !

ـ ولماذا ؟

ـ لأن كونشيتا لا تزال فى الدور الأعلى !

ـ سأنتظر يقظتها ، فدعينى أمر . . .

فبدا عليها أنها لم تفهم . . . وقلت :

ـ نعم ! . . . وما بك ؟ !

ـ ولكنها غير نائمة ! . . .

ـ إنها قالت لى . . .

ـ أقالت لك إنها صعدت لتنام ؟ . آه . حسن ! حسن !

وبدأت تتحفظ ، ولكن بالرغم من ضم شفتيها فإن الضحك انفجر من فمها . . . فبهت ، وصرخت فيها ، وأنا قابض على ذراعها :

ـ أين هى ؟ قولى سريعاً !

— لا تؤذنى أيها السيد ! . إنها تعرض حسنها على السُّيّاح الأجانب . والله يشهد أنها ليست غلطتى . فلو عرفت أنك تجهل ذلك لما قلت لك . . . فلست أريد مغاضبة أحد ... وإنى لفتاة طيبة القلب أيها الفارس !

فبقيت بلا حراك ، وقد أغار علىّ برد شديد . كما اندست بينى وبين ملابسى أنفاس كهف مثلجة . . . ولكن صوتى لم يرتعش ، فقلت :

— سيرى بى إلى فوق

فهزت رأسها . فأعدت عليها :

— لن يعرف أحد أنك خاطبتنى ، فأسرعى ، إنها حبيبتى ، وأنت فاهمة ، فلى حق الصعود . . . سيرى بى !

ووضعت فى يدها جنيهاً ذهباً

وبعد برهة كنت وحدى فى شرفة مطلة على فناء داخلى ، فرأيت ، يا سيدى ، مشهداً جهنمياً ! .

كانت هناك قاعة رقص أخرى أصغر من السفلى ، وأسطع نوراً ، ولها مسرح صغير . . . وفيها موسيقيان يعزفان ، وفى وسطها كونشيتا عارية البدن ، وثلاث نساء أخريات متجردات أيضاً ، يرقصن رقصاً جنونياً ، أمام سائحين أجنبيين جالسين فى أقصى القاعة . . .

كانت عارية ، بل أكثر من عارية ! . وقد لبست جورباً أسود اللون طويلا ضارباً فوق ساقيها ، وفى قدميها حذاء صغير رنان يضرب على خشبة المسرح . . . فما جسرت على وقفها عن عملها ، وخشيت أن أقتلها !

يا أسفا ! . . . يا رباه ! . . . فما رأيتها قط بمثل هذا الجمال ! . . . فلم يكن الأمر أمر عينيها وأناملها ، إن جسمها كله كان متأثراً كأنه وجه . . . وكان رأسها ملقى على كتفها كأنه لا فائدة منه ، وهو مغطى بشعرها . . . فكانت فى ثنايا جسمها بسمات ، وفى استدارة أعضائها احمرار خدها ، وكأنما ينظر صدرها بعينين سوداوين نجلاوين ثابتتين . . . إنى ما رأيتها قط بمثل ذلك الحسن ! فثنايا الملابس على جسم الراقصة تعكس جمال حركة الجسم الطبيعية المؤثرة . . . ولكنْ هنا إشراق . . . فكنت أرى الحركات ، والرعشات ، واهتزازات الذراعين ، والساقين ، والقوام اللدن ، والخصر العضلى ، تتولد بلا انقطاع من ينبوع منظور ، هو قلب الرقص : بطنها الصغير الأسمر ! . . .

. . . فطعنت الباب !

أن أنظر إليها عشر ثوان وأمسك نفسى عن قتلها ، هذا كلّ ما وسعنى . . . أما الآن فلا شىء يمنعنى ! .. وقوبلت

بصيحات ثاقبة ، ولكنى اتجهت تواً نحو «كونشا» وقلت لها باختصار :

ــ اتبعينى ، ولا تخافى شيئاً . إنى لا أريد بك شراً ، ولكن تعالىْ حالا ، وإلا فاحذرى !

آه ! كلا ! إنها ما كانت تهاب شيئاً . فاستندت إلى الحائط ، وبسطت ذراعيها على طولها ، وصاحت :

ــ لن أغادر مكانى أكثر مما غادر المسيح صليبه ! ولن تمسنى ، لأننى أحظر عليك التقدم أبعد من هذا المقعد . . . دعينى أيتها السيدة . انزلوا جميعاً ، فلا حاجة لى بإنسان ، فإنى كفيلة بتسوية الأمر بينى وبينه !

١١

وتركونا وحيدين . . . وكان أولَ من اختفى السائحان الأجنبيان . . .

وإنى حتى تلك الساعة ، يا سيدى ، كنت أعد الرجل الذى يضرب المرأة ، أيا كان ، رجلا شقياً . ولا أدرى بأية قوة استطعت أن أملك نفسى أمامها . فكانت أصابعى تفتح وتقفل كأنها تريد أن تخنق عنقاً . . . فنشب عراك عنيف بين غضبى وإرادتى !

أواه ! . إن العصمة التى تدرع بها النساء إنما هى الرمز العالى لقدرتهن على كل شىء . . . إن امرأة تسبك فى وجهك ، وتهينك ، فحيها ! ... فتضربك ، فاحم نفسك وتحاش أن تجرحها ! . . . فتنزل بك الخراب ، فدعها تفعل ! . . . فتخدعك ، فلا تفش شيئاً خشية أن تفضحها ! . . . فتحطم حياتك ، فانتحر . . . من فضلك ! . . . ولكن لا تمس بشرة المخلوقات الناعمة المتوحشة فى آن ، أولئك اللواتى يلذهن الألم عن الإشهاء ! . . .

ونرى الشرقيين ، الذين يبذون أهل الأرض جميعاً غراماً

واشتهاء ، لا يرعون لهن الحرمة التى نرعاها ، فقلموا أظافر النساء ليجعلوا عيونهن أشد عطفاً ولطفاً ! . . . وإنهم ليكبحون جماح خبثهن ، ليطلقوا مكبوت ميولهن . . . وإنى بهم لمن المعجبين ! .

ولكن « كونشا » بقيت ، فيما يتعلق بى ، كحرم مصون !

فلم أدن منها . وخاطبتها من بعد ثلاث خطوات . وظلت هى واقفة عند الحائط ، يداها مشتبكتان خلفها ، وصدرها منتفخ ، وقدماها مضمومتان ، معتدلة القامة ، منتصبة فوق جوربها الأسود ، كأنها زهرة منبثقة من زهرية بلورية رقيقة . . .

فبدأتُ الكلام :

— والآن ؟ ... ما قولك ؟ ... هلمى ! . اخترعى ! ... دافعى عن نفسك ! ... اكذبى ! . إنك لتحسنين الكذب !

فصاحت :

— آه ! إن هذا لقول عجاب ! . إنه يتهمنى الآن ! ... فهو يتسلل إلى هنا من النافذة كاللص ، محطما كل شيء ، ويهددنى ، ويفسد على رقصى ، وينفر منى صحبى . . .

— صمتاً . . .

— . . . وربما تسبب فى طردى من هنا ، وعلىّ الآن أن أجيب ! . . . إننى أنا التى أحدثتْ الضر . . . أليس

كذلك ؟ . . . هذا المشهد السخيف ، كأنما أنا التى أحدثته ...
أواه ! . . . دعنى ! فما أحمقك ! . . .

وكان العرق ، بعد هذا الرقص الهائج ، يتصبب فى لآلىء على جسمها اللامع ، فأخذت من المقصف منشفة وفركت جسمها ، من بطنها إلى رأسها ، كأنها خارجة من الحمّام ! . . .

– أكذا أنت تفعلين فى هذا البيت الذى أراك فيه ؟ . . . أهذه حرفتك ؟ ! أهذه هى المرأة التى أهواها ؟ !

– إيه ؟ إنك إذن لم تكن تعرف شيئاً أيها البرىء ! . . .

– أنا ؟ . . .

– لا ! لا سمح الله ! . إن أسبانيا كلها تتحدث بذلك وتردده ، وهذا شىء معلوم من باريس إلى بيونس إيريس . . . وأول صبى فى الثانية عشرة تلقاه فى « مدريد » يقول لك : إن النساء يرقصن عرايا فى أى مرقص من مراقص « قادس » . . . أما أنت فتريد أن تفهمنى أنه لم يقل لك أحد شيئاً ! . أنت... الذى ليس متزوجاً . . . أنت . . . يا ابن الأربعين حولا !

– كنت قد نسيت . . .

– إنه قد نسى ! . . . إنه يأتى إلى هنا منذ شهرين ، ويرانى أصعد إلى الصالة الصغيرة أربع مرات فى الأسبوع . . .

— اسكتى يا «كونشا» . . . إنك تؤلميننى أشد الألم !

— بدورك إذن ! . فإنى سأنتقم يا « ماتيو » لما فعلته بى هذا المساء ! . لأنك قد أسأت إلىّ إساءة فاضحة بغيرتك الحمقاء . . . وإنى لأتساءل : بأى حق ؟ ! من أنت ؟ . . . من أنت أخيراً لتعاملنى هكذا ؟ ! أأنت أبى ؟ كلا ! . أأنت زوجى ؟ كلا ! . أأنت عشيقى ؟ ! . . .

— أجل ! . أنا عشيقك ! . . . أنا هو . . .

— أحقاً ؟ ! . . . إنك لتفرح بالقليل ! . . .

وانفجرت ضاحكة !.. فشحب لونى من جديد :

— كونشا ! . . . يا ابنتى ! . قولى لى . . . حدثينى : ألك غيرى ؟ . فإذا كان لك آخر فإنى أقسم أن أتركك ! . كلمة منك تكفينى !

— إنى لنفسى . . . وإنى لحافظة عليها . . . فليس لدىّ شىء أثمن من نفسى . . . « دون ماتيو» ! . . . لا يوجد إنسان من وفرة الغنى بحيث يشترينى من نفسى !

— ولكن أولئك الرجال . . . ذانك الرجلان اللذان كانا هنا منذ قليل ؟ . . .

— وماذا بعد ؟ . . . أأعرفهما ؟

— أحقاً ؟ أفلا تعرفينهما ؟

— كلا ، إننى لا أعرفهما ، وأين تحسبنى رأيتهما ، فهما أجنبيان جاءا مع دليل الفندق ، ويسافران غداً إلى « طنجة » ... ولم يحدث تواطؤ ، يا صاحبى ! ...

— وهنا ؟ هنا بالذات ؟

— سبحان الله ! ... انظر ! ... أهذه غرفة ؟ . فتش فى المنزل كله ، أتجد سريراً ؟ ... وبعد ، فإنك رأيتهما يا « ماتيو » ... وكانا فى ثياب السهرة السوداء كتمثالين من خشب ، على رأسيهما قبعتان ، وذقناهما على العصى ... إنك مجنون ! ... أقول لك إنك مجنون لتأتى بمثل هذه الفضيحة ، وليس فى الأمر ما يستحق الملام !

لو أنها كانت دافعت عن نفسها بأسوأ من هذا لبرأتها ، ورأيتها محقة ! . فلشد ما كنت فى حاجة إلى مثل هذا الصفح ! وما خشيت إلا اعترافاً جديداً منها ! . وكان ثمة سؤال آخر يؤلمنى سلفاً قبل توجيهه ، فوجهته مرتجفاً :

— و « المورنيتو » ؟ ... قولى الحقيقة يا « كونشا ! » ، فإنى أريد هذه المرة أن أعرف ، أقسمى أن لا تخفى عنى شيئاً ... إنك لا تتحرجين من القول إذا كان هناك شئ ... أتوسل إليك يا بنيتى الصغيرة ! .

— المورنيتو ؟ « الأسمر الصغير السن » ؟ ! ...

إنه كان فى سريرى هذا الصباح . . . !

فبقيت برهة بلا رشد ، ثم ضممت ذراعى حولها ، وضغطتها ، وما أدرى أنا نفسى أكنت أريد خنقها أم خطفها من شخص وهمى ! . . .

وفهمتْ ذلك ، فصاحت ضاحكة :

ــ دعنى : دعنى يا ماتيو ! إنك لخطر هذه اللحظة ! . فأنت تقهرنى فى نوبة غيرة . . . والآن ، ابق حيث أنت ، فسأفسر لك الأمر يا صاحبى المسكين ، ولا حاجة إلى ارتجافك هكذا ! . أؤكد لك . . .

ــ أتزعمين ؟

ــ إن « الأسمر الصغير السن » يسكن مع أختيه ، وهم فقراء . ليس لديهم غير سرير واحد لهما وله ، لا يسعهم جميعاً . . . ومنذ اشتداد الحر آثرت الأختان ألا تناما مضمومتين بعد رقص ثمانى ساعات ، فهما تبعثان بالصغير إلى الجيران . . . وفى هذا الأسبوع بقيت أمى تواصل صلاتها الدائمة بالكنيسة ، فلم تنم معى . ولذلك سألتنى إحداهما عن مكان لدىّ لأخيهما ، فأجبت طلبهما ، ولا أرى فى ذلك ما يدعو إلى قلقك !

فنظرت إليها دون أن أنبس ! . فعادت تقول :

— إن كان هذا كل شيء فليطمئن بالك ! ...
فإني لا أرضى بأكثر مما ترضى به أختاه ... وإني لصادقة فيما أقول ... فهو لا يقبلني أكثر من أربع أو خمس قبلات قبل النوم ، ثم أدير له ظهري ... كأننا متزوجان ! ...

ثم شدّت جوربها على فخذها الأيسر ، وأضافت في أناة :

— كما لو كنت معك ، سواء بسواء ! ...

أيكون هذا عدم إدراك من هذه المرأة ، أم يكون جرأة ، أم يكون خبثاً ... لأنني لا أدري علام أحمل ذلك ؟ ! . إذ أن هذه كلها قد أضلت شعوري ، وإن لم تخفف من آلام نفسي ، فكان شقائي أشد وأنكى من تخبطي ، ولكنه شقاء مبك . . فأخذتها على ركبتيّ ، بكل حنان ، فاستسلمت :

— اسمعيني يا ابنتي ... إنني لا أستطيع بعد أن أعيش هكذا كما عشت على هواك ! فعليك أن تكلميني بكل صراحة ... وقد يكون ذلك لآخر مرة .. فإني آلم ألماً فاجعاً ! . وإذا لبثت يوماً آخر في هذا المرقص ، وفي هذه المدينة ، فلن تريني بعد ... أفتريدين ذلك يا «كونشيتا» ؟

فأجابت بنغمة جديدة ، حتى خيل إليّ أنني أستمع إلى امرأة غيرها :

— دون ماتيو ! إنك لم تفهمني بعد . فقد زعمتَ أنك تطاردني ، وأنني أرفض أن أكون لك ، في حين أنني أنا التي أحببتك ... إنني أحبك ، وأريدك طول حياتي . . . فاذكر « مصنع السجائر » : أأنت تقدمت إليّ ؟! أأنت سرت بي معك ؟! لا . . . بل أنا جريت وراءك ، وسقتك إلى أمي ، وتمسكت بك بقوة ، بقدر ما كنت أخشى أن أفقدك . . . وفي اليوم التالي . . . أتذكر ؟ . . . لقد دخلتَ عليّ ، وكنت وحدي ، فلم تقبّلني ! وإني ما زلت أراك إلى الآن جالساً في المقعد الكبير ، وظهرك إلى النافذة ، فارتميت عليك ، وأخذت رأسك بين يديّ ! . . . ولكني كنت — وما قلت لك ذلك من قبل — لا أزال حديثة السن . وفي خلال تلك القبلة يا « ماتيو » شعرت لأول مرة في حياتي بالنشوة تسري في كياني . . . وكنت على حجرك كما أنا الآن . . . .

فضممتها إليّ ضاغطاً عليها ، وقد حطمني التأثر ! . إنها استردت سلطانها عليّ بكلمتين . . . كانت تلعب بي كيفما تشاء ! . وعادت تقول :

— ما أحببت قط ، ولن أحب أبداً سواك . أحببتك منذ ليلة ديسمبر تلك التي رأيتك فيها في عربة سكة الحديد ، وأنا خارجة لساعتي من مدرسة الراهبات !.. وقد أحببتك بادئاً

بجمالك . . . وأن لك عينين فيهما من اللمعان والحنان ما جعلني أتخيل كل النساء مفتونات بعينيك . . . آه ! . لو علمت كم من ليال قضيتها أفكر في هاتين العينين ! . . . وبعد ذلك أحببتك خاصة لطيبة قلبك ! . وما كنت أريد أن أربط حياتي بحياة رجل جميل ، أناني . . . وأنت تعلم أني أشد حباً لنفسي ، بحيث لا أرتضي نصف السعادة . . . وكنت أريد الهناءة كلها ، وسرعان ما لاحظت أنني لو سألتك إياها لأعطيتنيها . . .

— فلماذا إذن هذا السكوت الطويل ؟

— لأني لا أقنع بما تكتفي به غيري من النساء ! . وإني لا أنشد الهناءة كلها وحسب ، بل أريدها طول حياتي . . . أريد أن أتزوجك يا « ماتيو » حتى أحبك . . . ولو حين تزهد في حبي ! . لكن لا تخف شيئاً ! ، فلن نذهب إلى الكنيسة ، ولا نقف أمام مسجل العقود ! . إني مسيحية تقية ، ولكن الله يحمي الحب الصادق . وسأدخل الجنة قبل كثير من المتزوجات ، ولا أطلب منك أن تتزوجني أمام الناس ، لأنني أعلم أن ذلك لا يمكن أن يكون . . . إنك لن تدعوني قط : « الدونا كونسبسيون دي دياز » ، المرأة التي رقصت عارية في بيت الرجس المروع الذي نحن

فيه ، أمام كل الأجانب الذين مروا بهذه المدينة . . .

وانفجرت باكية ، فقلت لها مضطرباً :

— كونسبسيون ، يا ابنتى ، هدئى من روعك ، فإنى أحبك ، وأعمل كل ما تريدين . . .

فصرخت فى شهقة ناحبة :

— لا ! لا أريد ذلك ! . . . هذا أمر مستحيل ! . لا أريد أن تدنس اسمك باسمى . . . فانظر ، أنا الآن التى لا تقبل كرمك ! . ماتيو ، إننا لن نتزوج للناس ، ولكنك ستعاملنى كامرأتك ، وتقسم لى أن تقيم معى دائماً ، ولست أطلب منك أمراً إدًّا ، ولا أجراً . . . ولكن أسألك بيتاً صغيراً لى ، بالقرب منك ، وصداقاً ، الصداق إللى تقدمه لمن تتزوجها . . . وإنى مقابل ذلك لا أجد ما أعطيه لك ، لا شىء ، إلا غرامى الأبدى . . . مع عفافى الذى صنته لك رغم كل الناس ! . . .

١٢

ولم يسبق لها أن خاطبتنى بمثل تلك اللهجة ، بكل هذا التأثر ، وكل ذلك الإخلاص . . . فشعرت أننى استخلصت روحها الحقيقية من وراء قناع التهكم والكبرياء الذى حجبها عنى دهراً طويلا ، وأن حياة جديدة فتحت لنقاهتى الأدبية . . .

ورجعنا إلى « أشبيلية » ، وقد اتخذت ثانية صوتها الساخر وابتسامتها المعنوية . . .

ولكن هذا لم يزعجنى ، لأن المرأة كالحرّة لمن يتعهدها . . . ولقد عنيت بها العناية كلها ، وكنت سعيداً بأن تمكننى من ذلك . . واستطعت إقناع النفس بأن طريقها كان دائماً متجهاً نحوى ، وأنها التى تقدمت إلىّ أولا . . . وراحت تفتننى شيئاً فشيئاً ، وإذا كانت قد هربت فلا مجال للظن السيء بأنها فعلت ذلك لدواع خسيسة ، وإنما الذنب ذنبى وحدى ، لأننى حنثت بعهدى ! . . . وقد عذرتها على رقصها الشائن زاعماً أنها قد ضاع أملها فى أن تحقق معى حلمها . . . ولا تستطيع العذراء فى « قادس » أن تعيش من دون أن

تتخذ على الأقل مظاهر بنات الهوى ! .

أما بعد ، فما عسى أن أقول لك ؟ إنى كنت أحبها ! ...

وفى يوم عودتنا إلى « أشبيلية » اخترت لها داراً فى حىّ ساكن ، يكاد يكون فى الصيف قفراً ، ولكنه رطب وارف الظلال . وكنت أراها سعيدة فى هذا المكان الجميل الواقع إلى جوار الحى الذى كان يلتقى فيه « دون چوزيه » بعشيقته « كارمن » الشهيرة ! . وكنت أريد الإسراع فى تأثيث البيت ، وهى تزينه وتزخرفه كما تميل بها مئات النزوات . . . ومضى أسبوع وكأننا نحضّر للزفاف ! . . . واستأذن الحنو على قلب « كونشا » شيئاً ما ، وهى وإن كانت قد تمنّعت فقد فعلت فى لطف ، كأنها لا تنسى ما قطعته على نفسها من العهود . . . ولم أتشدد معها فى ذلك !

ولما جاء يوم تحديد المهر تذكرت احتشامها يوم سبق الكلام على هذا الرهن لثبات المستقبل ، فخفت أن لا أحسن الرد على هذا ، فأجزلت لها العطاء ، ونفحتها مائة ألف « دورو » ، فقبلتها كما تقبل درهماً صغيراً ! . . .

وأتى آخر الأسبوع ، فضقت ذرعاً ، وما أظن خطيباً اشتاق مثلي بحرارة إلى ليلة العرس ! . . . ولم أعد منذئذ أخشى رجوعها إلى تجنيها ودلالها السابقين ، فقد كانت لى ،

وقرأت هذا فيها . . . وأمنت على اشتياقها الخاص لحياة سعيدة ، بلا عتاب ولا ملامة ! . . .

فكان الحب الطليق والهناء ينتظراننا لسنين طويلة ، فى هذه الدار ، دار العرس البيضاء . . . أما هذا الهناء فستعلمن نبأه بعد حين ! . . .

وأرادت بنزوة منها ، أعجبتنى ، أن تدخل الدار قبلى ، وتنتظرنى ، حتى أدخل عليها ، فى منتصف الليل ، كزائر خفى مستهام . . .

وجئت . . . فوجدت الباب الحديدى الخارجى موصداً بالرتاج ! . فدققت الجرس . وبعد بضع دقائق نزلت «كونشا» ، وابتسمت لى ، وهى فى ثوب وردى ، وشال أصفر ، وقد زانت شعرها بوردتين حمراوين كبيرتين . . .

فرأيت على نور الليل كل تقاطيعها . . .

واقتربت من القضبان ، دائمة الابتسام ، بلا عجلة ... وقالت :

— قبّل يدى ! . . .

والقضبان ما زالت مغلقة . وكان صوتها رناناً وقد عادت تقول :

— قبّل أيضاً طرف ثوبى ، وأخمص قدمى فى شبشبها ! ...

ثم قالت :

— أحسنت ! . . . والآن فاذهب ! . . .

فسال على صدغى عرق الرعب . . . وخيّل إلىّ أنى حزرت كل ما ستقوله وتفعله :

– كونشيتا ، يا بنيتى ، أنت مازحة ، قولى إناك تمزحين ! .

– نعم ! . . . إنى أضحك ! . أضحك من كل قلبى ! . أفأنت مسرور ؟ . . . واسمع ، اسمع ، كيف أجيد الضحك ! ها ها ! . . . إنى أضحك كمن لم يضحك قط منذ عرفت الأفواه الضحك ! . . . إنى أذوب وأختنق وأنفجر ضحكاً ! . . . ولم يرنى أحد فى مثل هذا الحبور ! . إنى أضحك كما لو كنت ثملة ! انظر إلىّ جيداً يا ماتيو ، انظر إلىّ ، لله ما أشد فرحى ! . . .

ورفعت ذراعيها ، وضربت بأصابعها فى حركة راقصة :

– إنى حرة ! . حرة منك ! حرة طوال حياتى ! . . . سيدة جسمى ودمى ! . آه ! . . . لا تحاول الدخول ، فالقضبان صلبة قوية ! . ولكن امكث قليلا ! . فما كنت أكون سعيدة إذا لم أبح لك بكل ما يثقل قلبى !

وتقدمت قليلا ، ثم خاطبتنى عن كثب ، ورأسها فى أظافرها ، بلهجة وحشية :

– ماتيو ! . إنى أشمئز منك ! . إنى لا أجد الكفاية

من الكلمات لأقول لك كم أمقتك ! . . . ولو أنك كنت مغطى بالقروح والأقذار والديدان لما نفر جلدى من جلدك كما ينفر الآن ! . انتهى كل شىء ! . وقد كان من مشيئة الله أننى منذ أربعة عشر شهراً أهرب من حيث تكون ، وأنت تعود فتأخذنى ، وتلمسنى بيديك ، وتضغطنى بين ذراعيك ، وفمك يبحث عنى . . . ولن تعرف أبداً ما كنت أشعر به حين تدخل فراشى ! . أواه ! . . . لشد ما كرهتك واجتويتك ! . لشد ما لعنتك فى صلاتى لله ! . . . فتناولت القربان منذ الشتاء الماضى سبع مرات ، لتموت غداة خرابك على يدى . . . فلتكن إرادة الله ! . . . وإنى لا أكترث ولا أحمل هم شىء . . . إنى حرة ! . . . فاذهب يا ماتيو ! . لقد قلت كل شىء ! .

فبقيتُ بلا حراك ، كالحجر ! . . . فكررتْ قولها :

— إليك عنى ! . . . ألم تفهم ؟

فلما بقيتُ فى مكانى لا أستطيع كلاماً ، ولا مشياً ، وقد جفّ لسانى ، وتثلجت ساقاى ، اتجهتْ إلى السلم ، وسطع فى عينيها سُعار ، وصرخت :

— أفلا تريد الانصراف ؟ . . . أفلا تريد الانصراف ؟.

حسناً ! . سترى ! . . .

وفى نداء ظافر صاحت :

— مورنيتو ... أيها الأسمر الصغير السن ! ...

فارتجفت ذراعاى حتّى لقد اهتزت قضبان الحديد عند قبضة يدىّ المائتتين !

وكان هناك ... فرأيته نازلا ...

وألقت عن كتفيها شالها ، وفتحت له ذراعيها العاريتين :

— ها هو ذا عشيقى ! . انظر ... ما أجمله ! . وما أنضر عوده ! . ماتيو ! ... انظر إلىّ جيداً ! . إنى أعبده ! ... لشد ما أشعر بأنى به هائمة ! ...

وقالت له غير ذلك ...

وأخيراً ، وقد أحست بأن ما تراه من عذابى لم يكن كافياً ، ولم يبلغ أشده ... فـ ... فـ ... لا أستطيع أن أقول يا سيدى ... فاحتضنتْه ، وذابت فى أحضانه ، تحت عينىّ ... عند قدمىّ ...

وما زال فى أذنى دوىّ مثل دوىّ الاحتضار ، وخلجات الغبطة التى كان يرتعش منها فمها ، فى حين أن فمى كان يقطر مرًّا ... و ... ورنين صوتها حينما صاحت مرة أخرى ، وهى تصعد مع عشيقها :

— « القيثارة قيثارتى ، أعزف عليها لمن يعجبنى » ! ...

١٣

وإذا كنت لم أقتل نفسى عند عودتى إلى بيتى فهذا راجع بلا شك إلى أن فوق كيانى الممزّق سخطاً أشد من الموت يسندنى ويرشدنى !

وكنت عاجزاً عن النوم ، بل لا أكادِ أجد إلى الرقاد سبيلا !.. وطلع النهار وأنا أتمشى حائراً بين النوافذ والأبواب. . . ولما مررت أمام المرآة لاحظت ، غير مندهش ، أن شعرى قد اغبرّ لونه !

وفى الصباح قدموا لى طعام الفطور على خوان فى الحديقة . . . وبقيت عشر دقائق بلا جوع ، ولا ألم ، ولا فكر ، حتى رأيت شبحاً يدنو فى آخر الممشى ، كأنه آت من أقصى حلم عميق ، فتبينته ، فإذا به «كونشا» . . .

أوّاه ! . لا تعجب ، فلا شيء غير منتظر منها ! . إن فعالها دائماً تصيب الهدف ، وتحدث الدوار ، وتنطوى على الخباثة ! . فلما جعلتْ تدنو منى ساءلت نفسى مضطرباً : «ترى ، أى جشع يدفعها إلىّ ؟ . أيكون اشتهاء رؤية انتصارها علىّ مرة أخرى ؟ أم الشعور بأنها ، بحيلة

جريئة ، تكمل لفائدتها خرابى المادى ؟ !

وكلا التفسيرين معقول . . .

ومالت جانباً لتمر تحت فرع شجرة ، وطوت مظلتها ، ومروحتها . ثم جلست قبالتى ، ووضعت يمناها على الخوان

فذكرتُ أن وراءها ربوة ، وأن وراء الربوة فأساً لامعة ماضية مغروسة فى الأرض . . . وعلى مدى السكوت كنت نهب إغراءات تدفعنى إلى أخذ هذه الفأس ، وإلقاء المرأة على العشب ، وقطعها شطرين ، كدودة حمراء . . . .

— أتيتُ لأعرف كيف قضيت نحبك ! . وكنت أعتقد أنك تحبنى أكثر من ذلك ، فتقتل نفسك ليلا . . .

ثم صبتْ الشوكولاتة فى فنجانى الفارغ ، وغمست شفتيها المتحركتين ، وأضافت وكأنها تحدث نفسها :

— إنها غير ناضجة ، ما أردأها ! . . .

ولما أتمت فنجانها وقفت ، وفتحت مظلتها ، وقالت :

— فلندخل ! . إنى أحمل لك مفاجأة !

فلم أنبس . . . ولكنى قلت فى نفسى : « وأنا أيضاً ! »

وصعدنا سلم الشرفة . . . وكانت تجرى أمامى ، وتغنى ، متمهلة ، لتفهمنى ما ترمى إليه :

« إذا كان لم يبعث فى الاشتهاء:
فكيف كنت أعطيه ذراعى ،
ونحن فى طريقنا إلى ملعب الثيران ،
حاملين الزهور؟ . . . »

ثم دخلتْ من تلقاء نفسها إلى الغرفة ، ولست أنا يا سيدى الذى دفعها إليها ، ولم يكن ما حدث بعد ذلك صادراً عن إرادتى :

وكذلك كان قدرّنا . . . وإنه لقضاء محتوم !

وكانت الغرفة التى دخلتها صغيرة ، وسآخذك إليها بعد قليل ، وكانت مخنوقة بالسجاجيد والطنافس ، صامتة ، مظلمة ، كالقبر ، وليست بها أرائك مفروشة أو مبثوثة . . . وكنت فيما مضى أدخن فيها ، ثم هجرتها . . .

فدخلتها وراءها ، وأغلقت الباب بالمفتاح ، دون أن تسمع الصرير ! . وإذا بموجة من الدم تصعد إلى عينىّ ، وتجمع سخط راكمته الأيام ، يوماً فيوماً ، منذ أربعة عشر شهراً . . . فواجهتها ، وصرعتها بصفعة واحدة ! . . .

— أنت ! . . . أنت ! . . . يا ماتيو ! . . . تفعل بى هكذا ؟ . .

وفى وسط سباب عنيف ، صاحت :

ـ اطمئن ! . فلن تمسنى مرتين ! . .

وفتشتُ فى جوربها ، حيث يضع بعض النساء سلاحاً صغيراً .. فلويت يدها ، ورميت السكين جانباً ، ثم قهرتها على الجثو ، وأنا قابض بيدى اليسرى على رسغيها ، وقلت لها :

ـ إنك لن تسمعى منى يا «كونشا» سباباً ولا تعنيفاً . . . ولكن أصغى إلىّ جيداً ! . إنك عذبتنى عذاباً فوق الطاقة البشرية ، وقد ابتدعت وسائل إيلام معنوية لتجربيها فى الرجل الوحيد الذى عشقك عشقاً مبرّحاً . . . فاعلمى أنى سأنتصر هنا ، وأملك منك عنوة ما طاب لى . . . قبلما يجن الليل . . . أتسمعيننى ؟

ـ لا ... لا ... لا لن أكون لك ! . إنك تثير اشمئزازى ... وقد قلت لك ذلك . . . وإنى لأمقتك كما أمقت الموت ، وأكثر منه ! . فانحرنى إذن قبل أن تملكنى ! . . .

وعندئذ طفقت أضربها صامتاً . . . وكنتُ قد جننت حقاً . . . وما أذكر ماذا جرى . . . وكانت عيناى قد عشى بصرهما . . . وعقلى لا يكاد يدرك . . . ولا أذكر إلا أننى كنت أضربها ضرباً منظماً فى موضع واحد من رأسها وكتفها اليسرى . . . ولم يطرق سمعى قط مثل صراخها الفظيع . . . ولعل ذلك قد استمر ربع ساعة ! . . . فلم تفه بكلمة

طلباً للصفح أو الاستسلام ! .
وتوقفتُ عند ما زاد ألم قبضتى ثم تركت يديها ! . فوقعتْ جانباً ، وذراعاها ممتدتان أمامها ، ورأسها منكس إلى الخلف ، وشعرها مهدل ، وانقلب صياحها فجأة فصار كأنه صراخ بنت صغيرة ، على نغمة واحدة ، تطيل بكاءها بقدر استطاعتها ، دون أن تتنفس !.
وكنت أحسبها فى بعض اللحظات تختنق ، ورأيتُ كذلك الحركة التى تصدر عن كتفها الجريح ، ويداها فى شعرها تنزع الدبابيس ! . . .
وعندئذ رثيت لها ، حتى إننى خجلت من نفسى ، وكدت أنسى ما جرى منها بالأمس من مشهد مروع . . .
واعتدلت «كونشا» قليلا ، وما زالت جاثية ، ويداها على صدغيها ، رافعة بصرها إلىّ ، وكأنما لم يعد فى عينيها أثر للعتب ! . لا أدرى كيف أقول . . . بل صار فيهما معنى العبادة ! . وكانت شفتاها بادئاً ترتعشان حتى لا يمكنها أن تحركهما بكلمة . . .
ثم استبنتُ أنها تقول لى :
— آه يا ماتيو ! . . . لشد ما تهوانى ! . . .
وزحفت على ركبتيها نحوى ، وتمتمت :

— صفحاً يا ماتيو وغفراناً ! . . . فإنى أيضاً أحبك . . .

ولأول مرة كانت صادقة ! . . . بيد أنى لم أعد أصدّقها ! . . .

وأردفتْ :

— ما أحسن ضربك ! . وما أحلاه ! . . . عفواً عن كل ما فعلته فيك . . . كنت مجنونة . . . كنت غير عارفة . . . لقد تألمتَ كثيراً من أجلى؟! عفواً ! . عفواً ! . عفواً ! . يا ماتيو ! .

وقالت لى أيضاً بذلك الصوت الرخيم :

— إنك لن تأخذنى قهراً : . . فإنى أنتظرك . . . فساعدنى على النهوض . . . قلت لك إننى محتفظة لك بمفاجأة . . . وستراها لساعتك . . . ستراها . فإنى ما زلت بكراً . . . وما مشهد البارحة إلا مهزلة أردت بها أن أولك . . . ويمكننى الآن أن أقول لك إنى ما أحببتك قبل اليوم ! . ولكنى من الكبرياء بحيث لا أعشق أمثال « المورنيتو » ، ذلك الأسمر الصغير السن . . . إنى لك يا ماتيو . إنى سأكون امرأتك هذا الصباح ، إن شاء الله . . . فلتحاول نسيان الماضى ، وأن تفهم نفسى الصغيرة المسكينة . . . فإنى أضلّ فى معرفتها . . . وأظننى الآن أستيقظ . . . وأرى فيك إنساناً لم أره قبل اليوم ! . . . تعال إلىّ ! . . .

وحقيقة ، يا سيدى ، لقد كانت بكراً . . .

١٤

إن هذا ليكوّن للقصة ختامها ! . وكل ما ينتهى هكذا يكون خيراً . . . وا أسفاه ! . . . ليتنى أقف هنا ! . . . وقد تعرف يوماً ما أن الشقاء لا ينمحى بتاتاً على مرور الأيام . . . فالقرحة لا تشفى ، ويد المرأة التى بذرت الهموم والدموع لا يمكن أبداً أن تغرس الفرح وتتعهده فى ذات الحقل الممزق . . .

فبعد ثمانية أيام من ذلك الصباح — أقول ثمانية أيام ، وهذا لم يطل — عادت « كونشا » مساء ، فى يوم أحد ، فقالت لى قبل العشاء ببضع دقائق :

— احزر من رأيت ؟ . . . إنه شخص أحبه كثيراً . . . فابحث قليلا . . لقد سررت . . .

فسكتُّ . . . فعادت تقول :

— رأيت « المورنيتو » الأسمر الصغير السن . . . وكان ماراً أمام دكان « جاسكيه » ، فذهبنا معاً إلى « سرفشيرا » . . . وقد سبق أن ذكرته لك بالسوء ، ولكننى لم أقل كل ما فى فكرى . . . إنه جميل ، حبيبى « القادسى » الصغير . . .

وأنتَ قد رأيته ، وتعلم جيداً أن له عينين براقتين ، وأهداباً طويلة . . . إنى أعبد الأهداب الطويلة ، فما أشد ما تجعل النظر عميقاً . . . ثم إنه ليس له شارب ، وفمه مقسَّم ، وأسنانه بيضاء . . . والنساء جميعاً يسيل لعابهن عند رؤيته هكذا ظريفاً !

— إنك تمزحين يا كونشيتا . . . فهذا مستحيل . . . لأنك لم تلقى أحداً . . . قولى ! .

— آه ! . . . أفلا تصدقنى ؟ . . . كما تشاء . . . ولن أقول لك ما وقع بعد . . .

فقبضتُ على ذراعها وصحت بها :

— قولى لى حالا ! . . .

— لا تهيج ! . . . سأقول لك . . . ولن أخفى ما فعلته ! . . إنها مسرتى . . . وإنى لحريصة عليها . . . فقد ذهبنا معاً إلى خارج المدينة ، فى طريق منير . . . منير . . . منير . . . أتريد أن أتم كلامى؟ . . . لقد زرنا فندق «كروس دلكمبو» . وُطفنا بغرفه كلها ، واخترنا منها أجملها ديواناً . . .

ولما رأتنى أهم بضربها مضت فى كلامها وهى تحمى نفسها بيديها :

— هذا طبيعى ، فبشرته ناعمة ، وهو يفوقك فتنة وجمالا . . .

ماذا تريد يا سيدى منى ؟ . لقد ضربتها ثانية ، بوحشية ، بيد جامدة ، بطريقة تقززت نفسى منها . . . فصاحت ، وبكت ، وشهقت ، وجثت فى ركن ، ورأسها على ركبتيها ، ويداها ملتويتان . . .

ثم لما استطاعت النطق قالت وصوتها يغص بالعبرات :

ــ يا قلبى ! . . . ليس هذا صحيحاً . . . فقد ذهبت إلى « طوروس » لرؤية مصارعة الثيران ، وقضيت هناك النهار طولا . . . وتذكرتى فى جيبى . . . فخذها ! . . . وكنت وحدى فى صحبة صديقك « ج . . . » وزوجته . . . وقد خاطبانى ، ويمكنهما أن يشهدا لديك بذلك . . . وحضرت مصرع ستة ثيران ، دون أن أغادر مكانى ، ثم عدت من الملعب رأساً . . .

ــ ولكن لماذا قلت لى . . . ؟

ــ لتضربنى يا ماتيو ! . فإنى إذ أحس قوتك أحبك . . أحبك ! . . . ولا يمكنك أن تدرك مبلغ سعادتى عند البكاء بسببك ! . فتعال الآن ... فى قربك شفائى ! .

واستمر هذا ، يا سيدى ، إلى النهاية ! . . .

ولما اقتنعت بأن اعترافاتها الكاذبة لم تعد تخدعنى ، وأنه كانت لدى كل الأسباب التى تحملنى على الثقة

بإخلاصها ، ابتكرت أسباباً جديدة لتثير كل يوم سخطى . . .
وفى المساء ، فى الموقف الذى تقول فيه النساء جميعاً :
« أتحبنى طويلا ؟ » كنت أسمع أنا الجمل المدهشة على
حقيقتها : « ماتيو ! . أتضربنى جيداً ! . . . أتقتلنى ! ...
قل لى إنك ستقتلنى ! »

لا تعتقد مع ذلك أن ميلها الشاذ الغريب هذا كان أساس طبعها . كلا ، فإذا كان يعوزها العقاب فإنها كانت أيضاً تحب الذنب ! . كانت ترتكب الشر لا للذة الخطيئة ولكن للذة إيلام إنسان ! . وكان دورها فى الحياة محدوداً : أن تبذر الألم ، ثم تنظر إليه وهو ينمو ويتكاثر . . .

وفى البداءة أظهرتْ غيرة من أصحابى ، ومن كل من حولى ، وكانت غيرة لا يتصورها عقل . . . وقد عاملتهم بقحة ، حتى قطعت علاقاتى بهم جميعاً وبقيت وحيداً ! . وكان منظر امرأة ، كائنة من كانت ، يثير سخطها ! . وطردت خادماتى كلهن على تأكدها من أننى لا أبادلهن كلمة . ثم طردت أيضاً اللواتى انتخبتهن بنفسها ! . واضطررت أن أغير كل من أعاملهم ، لأن امرأة الحلاق كانت شقراء ، وابنة الكتبى سمراء ، وبائعة السجائر تسأل عند دخولى حانوتها عن صحتى . . . وبعد زمن يسير كففت عن الظهور فى

دور التمثيل ، لأنى — كدعواها — إذا نظرت إلى الصالة فلكى أشبع عينى من جمال امرأة ، وإذا نظرت إلى المسرح فلأنى واقع فى هوى ممثلة ! . . .

ولهذه الأسباب بعينها امتنعت عن الخروج معها إلى التنزه ، لأن أقل تحية توجه إلىّ كانتَ تعدها اعتراف حب ! . . . وما كنت لأستطيع تقليب صور ، أو قراءة قصة ، أو النظر إلى تمثال العذراء ، لأنها كانت تتهمنى بالحنان إلى صاحبة الصورة ، أو بطلة القصة ، أو مثال التمثال ! . . .

وكنت أخضع دائماً مدفوعاً بقوة حبى ، وكانت فى بادئْ الأمر تذكى نار غيرتى بوسائل مفتعلة ، وأباطيل مصطنعة ، ثم انتهت إلى أن جعلتها حقيقة واقعة . . . فخانتنى ، وعنيتْ بأن أعرف خياناتها ، إثارة لشعورى ، أكثر منها رغبة فى الفجور ! . وبعد ذلك لم تكتف بالقول برهاناً على الخيانة ، بل صممت على إعادة مشهد البوابة الحديدية ، بلا اختلاق ، فأعدّتْ أسباب ذلك بحيث أتمكن من ضبطها متلبسة بالإثم !

وكان ذلك صباح يوم استيقظت فيه متأخراً ، فلم أجدها بجانبى ، وكان على المنضدة خطاب فيه هذه السطور :

« ماتيو .. يا من لم تعد تحبنى ! .. إننى استيقظت أثناء نومك ، وذهبت لمقابلة عشيقى فى فندق « . . . » فى الغرفة رقم ٦ . . وتستطيع أن تقتلنى هناك إذا أردت . فسأترك القفل مفتوحاً ، وسأطيل ليل الهوى حتى الضحى ! . فتعال إذن ، فقد يكون من حظى أن ترانى فى ضمة غرام . . . إنى أعبدك ! . . . كونشا »

فذهبت . . . ويا لها من ساعة يا إلهى ! . . .

وتبعت ذلك مبارزة ، وكانت فضيحة عامة ، لعلها بلغتْ مسامعك ! .

وحين أفكر فى أن هذا كله قد عملتْه « لتربطنى بها » أتساءل : « إلى أى حد يمكن مخيلة المرأة أن تعميها عن حقيقة حب الرجل ؟ »

وظل ما رأيته فى غرفة الفندق حجاباً مسدلا أبداً بينى وبينها . . . فبدلا من أن يُلهب هيامى بها ، كما كان أملها ، وضع هذا المشهد الفاضح على جسمها شيئاً كالغشاوة البغيضة لا يمحى !

وقد رددتها إلىّ ، لكن حبى ظل مهشما جريحاً ! . .

وزاد شجارنا ، واشتد عنفاً ووحشية . وكانت تتعلق بحياتى بغِلّ وسُعار ! . وهذا محض أنانية منها وأثرة شخصية ! .

وما كانت نفسها الشريرة تظن أن هناك طريقة للحب غير هذه!

وكانت تسعى إلى ضمى بين ذراعيها بأى ثمن ، وبأية وسيلة !. ولكنى هربت منها أخيراً . . وتم لى ذلك فجأة إثر إحدى حوادثها المنكرة المتكررة ، إذ أصبح ذلك فرضاً لزاماً !.

فقد حدث يوماً أن صعدتْ إلىّ من سلم الحديقة فتاة نورية ، لتعرض علىّ بضاعتها من سلال الخيزران . . . وهممت أن أحسن إليها ، فإذا « بكونشا » تندفع إلينا غاضبة ، فأشبعتها شتائم مقذعة ، واتهمتها بأنها آتية لتعرض بضاعة أخرى ، وأن عينيها تنمان عن صناعتها الحقيقية ! . . . وأنها تسير حافية القدمين لتعرض ساقيها ! . . . وأنها بلا حياء تتسكع من بيت إلى بيت ، ممزقة الثوب ، لتتصيد العشاق ! . . .

وأخذت تقذف شتائمها هذه بصوت منكر ، ثم انتزعت منها سلالها ، وحطمتها تحت قدميها ! .

وإنى أترك لخيالك عويل الفتاة الصغيرة المسكينة ورعشتها وفزعها... وقد ترضّيت البائعة طبعاً !

وليست هذه المعركة أنكى المعارك أو أشنعها ، أو أدعاها إلى الضيق والضجر ، ولكنها كانت الأخيرة . . . ولا أدرى إلى الآن ما السبب ! . . .

— أتتركنى لتتبع نورية ؟ !

— كلا ! . بل أتركك حباً فى السلام . . .

* * *

وبعد ثلاثة أيام وصلتُ إلى « طنجة » ، فلحقتْ بى هناك ! . فتوغلت مع قافلة حيث لا يمكنها ملاحقتى ! . وانقطعت عنى أخبار أسبانيا بضعة أشهر . . . ولما عدت إلى « طنجة » وجدت بانتظارى أربع عشرة رسالة منها . . . فأبحرت إلى إيطاليا . . . فوصلتنى تسع رسائل أخرى . . . ثم ساد الصمت . . .

ولم أرجع إلى « أشبيلية » إلا بعد سنة من رحيلى . . . فكانت قد تزوجت منذ خمسة عشر يوماً بشاب نزق ، من أسرة طيبة ، فبعثت به إلى « بوليڤيا » بسرعة ذات معنى . . . وكانت قد أبلغتنى ذلك فى كتابها الأخير :

« سأكون لك وحدك أو لمن يريدنى . . . »

وأظنها الآن تبر بوعدها الثانى . . .

لقد قلتُ لك يا سيدى كل شىء . . . فأنت تعرف الآن إذن من هى « كونسبسيون پريز » !

أما أنا فقد حطمت حياتى ، لأننى لقيتها فى طريقى ، ولست أرجو منها غير النسيان ! . . . على أن التجربة القاسية التى اكتسبتها بكل عناء تحتم علىّ أن أمدّ بها غيرى فى

حالة الخطر . . . فلا تعجب إذا قطعت على نفسى عهداً أن أقص عليك حديثها ! . وقد مات أمس عيد المساخر ، وعادت الحياة إلى مجراها الطبيعى . . . وهأنذا قد كشفت لك برهةً من الدهر قناع امرأة مجهولة !

* * *

فنهض « أندريه » ، وقال برصانة ، وهو يضغط على كلتا يديه :

— شكراً لك ! . . .

١٥

عاد أندريه إلى المدينة سيراً على القدمين ، وكانت الساعة السابعة مساء ، والأرض تنطف عطراً ، إذ تبدل تربتها ، من حيث لا تدرى ، تربة أخرى ، تحت ضوء البدر الساحر . . .

ولكيلا يعود فى الطريق نفسه ، أو لسبب خفى ، اتخذ طريق « أمبلم » الموعود . . . بعد دورة طويلة فى الخلاء . . .

وكانت رياح الجنوب تثيره بحرارتها التى لا تنضب ، والتى كانت ، فى تلك الساعة الأولى من الليل ، أشد ما تكون إثارة وفتنة . . .

ولما وقف ، يكاد يكون مغمض العينين ، ليستوعب لذّات الطبيعة الطريفة ، مرتجفاً من نشوتها ، مرّت به عربة ، ووقفت أمامه بغتة . . .

فتقدم . . . فسمع صوتاً يهمس :

— لقد تأخرتُ قليلا ، ولكنك من اللطف بحيث انتظرتنى . . . أيها المجهول الجميل الذى يجتذبنى ! . أينبغى لى أن أطمئن إليك ، فى هذا الطريق المقفر المظلم ؟ . . .

آه ! . رباه ! . . . فأنت ترى رأىَ العين أننى أشد ما أكون هذه الليلة زهداً فى الموت ! . . .

فألقى « أندريه » عليها نظرة من يرى فيها قدَراً مكتوباً ، ومصيراً محتوماً . . . ثم شحب وجهه فجأة وهو يتخذ مكانه إلى جانبها . . .

وسارت المركبة فى صميم الريف ، حتى جاءت بيتاً صغيراً أخضر فى ظل ثلاث شجرات من الزيتون . . .

وسرحت الخيول . . . وقضيا ليلتهما ! . . .

وفى الساعة الثالثة من بعد ظهر اليوم التالى عادت بهما العربة إلى « أشبيلية » ، ووقفت أمام رقم ٢٢ بلازا دل ترينفو « ساحة النصر » . . .

ونزلت « كونشا » أولا . . ثم تبعها « أندريه » . . . ودخلا معاً . . . فقالت « كونشا » للوصيفة :

— روزالى . . . أعدى حقائبى وأسرعى ! . . . إنى مسافرة إلى باريس . . .

— لقد جاء يا سيدتى فى هذا الصباح سيد سأل عنك ، وألحّ كثيراً فى الدخول ، ولم يسبق لى أن رأيته ، ولكنه قال إن سيدتى تعرفه من زمن طويل ، وإنه يكون سعيداً جداً إذا تفضلت سيدتى باستقباله . . .

— وهل ترك اسمه ؟

— كلا يا سيدتى

وعندئذ دخل خادم ، وقدم رسالة ، عرف « أندريه » فيما بعد أن فحواها :

« يا حبيبتى كونشيتا ، إنى أصفح عنك ، ولا أستطيع العيش إلا حينما تكونين . . . فعودى إلىّ ! . . . إننى أنا الآن الذى يتوسل إليك ، جاثياً . . . وإلى أقبل قدميك الحافيتين . . . ماتيو »

فهرس

اقرأ

محمود تيمور

أشطر من إبليس

دار المعارف بمصر

أشطر من إبليس

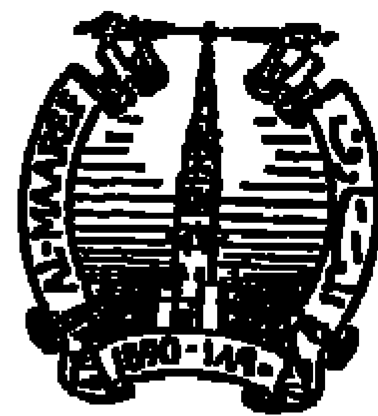
محمود تيمور

أشطر من إبليس

اقرأ ١٢٢

دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ۱۲۲ – مارس ١٩٥٣



أسماء الأشخاص

قطب الشياطين الأكبر .

بزَعبول : زعيم الشياطين ، وخليفة شيخهم الراحل .

أرقَط : عميد المستشارين فى مملكة الجن، تنساب على صدره لحيته ذات الشعب الخمس ، لكل شعبة لون .

إعصار : الأمين العام « لمجلس التشريع والأحكام » — (من الجن)

زمهرير : جنى من شيوخ المتزمتين، يرأس « مجلس التشريع والأحكام » .

سبائك : جنى أمرد ، يلتمع كالفضة، جانح إلى التجديد فى اعتدال .

أفعُوَان : رئيس الحراس فى قصر الزعامة الشيطانية .

أنابيب : عضو« مجلس التشريع والأحكام »، مفرط البدانة ، مترهل الجثمان ، منبعج الكرش، عليه سيماء الغباوة . منهوم بالطعام . لا تفتر عن الطحن أضراسه .

هلاهيل : زعيمة الطبقة الدنيا من الفقراء المعوزين— (من الجن)

طُغيان : هو « زبرجد » الأمير الإنسى ، المتنكر .

زُعرور : تابع « طغيان » ـــ أى الأمير « زبرجد » ، قزم إنسى أشـــوَه .

خَلوب : قهرمانة ـــ (من بنات الجن)

زغلولة : الساعد الأيمن « لخلوب » ـــ (من بنات الجن)

زَفّاف : من سادة الشياطين

سرعرع : خادم « زفّاف » ـــ (جنى)

حارس البرج ـــ (جنى)

الأميرة « بنفسج » : ابنة عم الأمير « زبرجد » ـــ(من الإنس)

قَرَنْفُل : صديق الأمير « زبرجد » ـــ(من الإنس)

ياسمينة : قهرمانة مسنة ، فى قصر الأمير « زبرجد » (من الإنس)

رئيس الخدم ، فى قصر الأمير « زبرجد » .

الفصل الأول

قاعة الزعامة الشيطانية فى الكهف الأعظم .

قطب الشياطين ممدد على وطاء من حسك ، لحيته الزرقاء تفترش صدره ، وقرناه الفارعان يتمايلان يمنة ويسرة ، وبين حين وحين يهتز ذيله فيحرك الغطاء الذى يتدثر به ، فتبدو قدماه ذواتى حافرين مشققين .

يتململ قطب الشياطين فى رقدته تململ المحتضر .

« أرقط » عميد المستشارين ماثل قبالة الفراش تغمره الحسرة . يتطلع حوله بين فترة وفترة مرتقباً أن يقدم أحد .

حراس على الفجوات المظلمة التى هى أبواب القاعة . شراذم من الشياطين تتجمع وراء هذه الفجوات مستطلعة ، ثم لا تلبث أن تتفرق .

يقدم رسول ، فيسر كلمة إلى « أرقط » .

قطب الشياطين : (متطلعاً فى جهد إلى عميد المستشارين) : إيه يا «أرقط» ! ألم يقدم « بزعبول » بعد ؟

أرقط : جاء رسول يا مولاى ينبىء بقرب مقدمه . إنه يجتاز المسالك العلوية . . .

القطب : حسناً . ضع يا « أرقط » تحت رأسى وسادة من حجر الصوان ، إنه ليطيب لى أن أريح رأسى عليه .

يعجل « أرقط » بالوسادة إلى القطب .

أرقط : أما من شيء ترغب فى أن تسره إلىّ ؟

القطب : سأفضى بسرى إلى من له السر .

أرقط : أمرك يا مولاى . . . ولكن ألست عميد المستشارين فى دولتك المجيدة : دولة الأبالسة العظام . أثمة شك فى إخلاصى لزعامتك ، وإخلاصى فوق الشبهات ؟

القطب : ترفّع عن صغائر الآدميين يا « أرقط »

أرقط : (فى لهجة المستنكر) : مولاى !

القطب : (فى ضعف وتخاذل) : أمتبرم أنت بقولى ؟

أرقط : (فى خشوع) : الطاعة لمولاى . .

يسمع قرع صنج يتوالى فى رنة مصمتة .
الشياطين تتجمع على الفجوات ترقب .

القطب : (يعلو برأسه قليلا يتسمع) : ها قد أقبل من فُرضت عليكم طاعته بعدى . . .

يبدو « بزعبول » الزعيم الفتّى ، خليفة قطب الشياطين . متحير النظرات . يرتمى عند قدمى قطب الشياطين .
« أرقط » يتباعد قليلا .
قطب الشياطين يوجه الكلام إلى « بزعبول » :

أى « بزعبول » . يا خليفتى من بعدى ، ويا من سيئول

إليك الحكم فى دولة الأباليس . . .

بزعبول : (وهو لايزال خافض الرأس فى غمرة الأسى يهمهم) : مولاى !

القطب : أمسك عليك وقتك لا يضع فى وداع يذهب سدى . إنى أعرف حبك إياى ، وإعظامك شأنى . أصغ إلىّ . عما قليل تخبو شعلة حياتى ، وما هى إلا أن أذهب روحاً زرقاء تأخذ مكانها فى برج الظلمات . اسمع . . .

« أرقط » يرهف السمع عن كثب . .
قطب الشياطين يوجه الحديث إليه :

يا « أرقط » . إن قرنىّ ما برحا كما ألفتهما قادرين أن يتصيدا بخفايا الصدور . . . أنت شديد الفضول .

يعلو برأسه جاهداً ويصيح :

فلينصرف من فى القاعة .

الأحراس ينحنون فى خشوع ويمضون .
ستر من الدخان ينسدل على الفجوات .
« أرقط » يخطو متثاقلا فى منصرفه . يقف أمام مقعد حجرى غليظ متشاغلا بإماطة الغبار عنه . القطب يصيح مرة أخرى :

ألم تسمع ما قلت يا « أرقط » ؟

أرقط : أيشملنى أنا أيضاً هذا الأمر يا مولاى ؟

القطب : أتريد أن أسلط عليك ذنَبي سوطاً تفهم به ما أعنى ؟

ينصرف « أرقط » على كره وذلة .

« القطب » يوجه الكلام إلى « بزعبول » :

سأحُور بعد لحظة دخاناً ، فأفارقكم إلى غير مرجع آخر الأبد !

بزعبول : (فى ألم وحسرة) : مولاى . . .

القطب : أصغ إلىّ يا بنىّ . إنى سائق إليك حديث الوداع ، فأحسن حفظه ووعيه ، ولا تحسبنّه من لغو القول

يبدو عليه الجهد

لقد تأمرت عليكم ألوف السنين ، فلم آل جهداً فى العمل وَفق شريعتنا المثلى ، ولم أتوان لحظة فى إعلاء كلمتنا على ربوع المشرق والمغرب .

بزعبول : (على حاله خافض الرأس) : هذا حق يا مولاى ، فقد ازدهرت فى عهدكم الأغر مملكتنا العتيدة .

القطب : ولكننى يا « بزعبول » لا أكتمك خبيئة نفسى : إننى غير راض عن جهدى ... إننى مستصغر ما صنعت يدى .

بزعبول : (يسمو برأسه دهشاً) : مولاى . . . لم يسبقك فى الحكم زعيم أتى ما أتيته . إن مملكتنا بفضل حزمك . . .

القطب : (مقاطعاً) : تريد أنى أحسنت القيام بواجبى نحو العشيرة ، وأنى أبليت بلاء عظيماً فى خدمة المبادئ الموروثة . . . ربما كان هذا حقاً . . . ولكن . . .

بزعبول : (زائغ النظرات) : أفصح مولاى .

القطب : إن قيامى بإغواء أبناء آدم ، والتغرير بهم — على نحو ما هو مفروض فى مبادئنا المقررة ، ومسجل فى دستورنا الأعظم — أمر بدا لى الآن غير ذى بال . . . ماذا كان من صنعى يستوجب أن أفاخر به ؟ أعترف جهرة بأنى لم أصنع شيئاً . . .

بزعبول : مولاى !

تسمع همهمة فى الخارج .
يقدم رئيس الأحراس « أفعوان » .

أفعوان : عاد « سبائك » من جولته فى الأرض . فهل يؤذن له فى المثول ؟

بزعبول : أنظره قليلا يا « أفعوان » . . .

القطب : ماذا ؟

بزعبول : (للقطب) : « سبائك » عاد من جولته فى الأرض يا مولاى .

القطب : فليقدم علىّ . شدّ ما أنا شيّق إلى معرفة ما كان من أمره

في دنيا الآدميين . . . وماذا بلغ من مغامرته هنالك .

« بزعبول » يشير إلى « أفعوان » رئيس الأحراس إشارة باستدعاء « سبائك » .
« أفعوان » ينصرف .

أتذكر مهمة « سبائك » ؟

بزعبول : أذكر أنك بعثت به إلى الأرض لكى يضلّ كبيراً من أهلها أمعن فى الصلاح والتقوى ، حتّى أصبح القدوة الحسنة والمثل المضروب .

القطب : أتذكر متى أرسلنا « سبائك » ؟

بزعبول : منذ عشرين عاماً ، أو يزيد .

القطب : واعجباً ! أعشرون عاماً تنقضى فى إغواء آدمىّ عُرف بالصلاح ؟ أنحن حقّاً أبالسة ؟

يبدو « أفعوان »

أفعوان : (صائحاً) : « سبائك » رسول الإفساد فى الأرض .

يقدم « سبائك » ملتمعاً كالفضة ، متقدماً نحو القطب ، ثم يركع مقبلا ذيله .
يبدو « أرقط » فى أثره .

القطب : انهض يا « سبائك » وأخبرنى بما تم على يديك من جلائل الأعمال .

سباثك : (ناهضاً) : مولاى مطلع على الظاهر والخفىّ. إنك لمحيط بكل ما كان . . .

القطب : أرغب فى أن يسمع « بزعبول » القصة من فمك . وليكن قولك موجزاً مفيداً . اذكر أن ليس فى وقتى سعة .

بزعبول : ماذا تم ؟

سباثك : لقد هوّى زعيم الصلاح والتقوى فى الخطيئة الكبرى ، حتى احتوته أعماق السجون .

بزعبول : مرحى ! هنيئاً لك ما قمت به من غواية وإفساد .

القطب : « سباثك » . . .

سباثك : مولاى .

القطب : كن صريحاً وقل . . . أجدير أنت بالتهنئة كاملة ؟

سباثك : مولاى ! ألم يأثم الرجل ويفتضح أمره ، بعد أن قضى حياة كلها طهر وعفاف ؟ !

القطب : ألم يتم لك ذلك بعد عشرين عاماً صحبته فيها ؟ . . أتعدّ هذا نجاحاً عظيما ؟ !

سباثك : ألم تزلّ قدمه بعد ثبوتها ؟ ألم تكن الخطيئة ختامه المحتوم ؟

القطب : حسناً . . . قصّ علينا قصتك .

سباثك : كان هدفى الأول منذ حللت الأرض ، ووقع بصرى

على الرجل ، أن أدفعه إلى اقتراف الموبقات الثلاث : الكذب ، والسرقة ، والقتل . وقد جهدت فى سبيل ذلك ما جهدت ، ولقيت من العنت ما لقيت ، وكدت أخفق فيما إليه هدفت ، لولا . . .

القطب : ماذا ؟

سباثك : لولا أن استعنت أخيراً بحكمتك العظمى يا مولاى ، وهى أن الأنثى بريد الخطيئة المأمون . . .

القطب : لم تكن حكمتى أنا وحدى ، بل هى حكمة الأزل ، منذ كان خروج « آدم » من جنة الخلد .

سباثك : أعترف بأنى غفلت عن هذه الحكمة بادئ الأمر ، ولكننى فطنت إليها من بعد ، فوسوست لعذراء من الغيد الحسان أن تغوى الرجل ، وكانت فقيرة مغمورة ، فأثرتُ فى جنبات نفسها غريزتين : غريزة الطمع فى مال الرجل وجاهه ، وغريزة حب التأمر عليه ، والاستئثار به ، فما عتمت أن اندفعت فى طريقها ناشطة ، وما أسرع أن انزلق الرجل فى حمأة الإثم .

أرقط : وأين من ذلك الكذب والسرقة وسفك الدماء ؟

سباثك : إن إغرام الرجل بهذه الغادة تردّى به فيما أردتُ له من شرور وآثام .

بزعبول : أكذّب وسرّق وكان قاتلا ؟

سبائك : من جراء تهالكه على هذه الغادة ، وابتغاء مرضاتها ، أتى كل منكر .

القطب : (فى شيء من التهكم) : وهذا كله بفضل غوايتك ؟!

سبائك : أتراني يا مولاى قصرت فى أداء واجبى ؟

القطب يتضاحك فى ضعف .

يبدو على « سبائك » الضيق والقلق .

أرقط : هلا تنزّل مولاى فأبان لنا فيم يضحك ؟

القطب : إنها لقضية طريفة حقاً ، وإنى لكاشف خباياها لك، وسيكون هذا آخر درس ألقيه عليك . . .

«سبائك » يرهف السمع

القطب : إن بطلك الآدمى العظيم ، أو بالحرَى غريمك العتيد ، عاش عمره متنكباً عن مغامرات الشباب . وكانت له زوج تكبُره ، فعاشرها خامد الحس ، ينظر إليها كما ينظر إلى أمه التى ولدته ، وفى قرارة نفسه عاطفة أصيلة نحو المرأة فى أنوثتها الجياشة . وكان حرمانه وكبت عاطفته يدفعانه إلى أن ينفس على الذين يستمتعون بالحب والجمال ، فلا يملك إلا أن يزرى بهم ، ويعيب سلوكهم ، متخذاً من حياة الحرمان والكبت التى

يحياها سوطاً يجلد به غير الكابتين والمحرومين . . . وطالما اتهمه من حوله بأنه فاقد الرجولة ، فاستوثقت فيه عقدة الدفاع عن نفسه ، وما إن سنحت له فرصة التعرف إلى هذه العذراء ، واجتلاء ما لها من مفاتن ، حتى ثارت كوامنه ، فأقبل على الفتاة فى غير حيطة ولا تبصر وما زال يتحدر حتى التقمته الهوة السحيقة .

بزعبول : إذن هو صريع نوازعه النفسية .

القطب : أصبت . إنه صريع ملابسات حياته ، وما تعقد من نزوات فى نفسه .

سبائك : نفسه ؟

القطب : أجل ! نفسه . . .

بزعبول : (بعد تفكير) : أى حق لنا إذن — نحن معشر الشياطين — فى أن نفخر بمهارتنا فى الإغواء والإفساد ؟

القطب : (منتشيا) : أصبت . وهأنذا أراك تنفذ إلى بواطن الأمور . إن الشيطان الأكبر لبنى آدم هو نفسه ، نفسه هو .

أرقط : أيكون « سبائك » قد أخفق إذن فى مهمته ؟

القطب : لقد نجح « سبائك » لا شك ، نجح فى تهيئة الأسباب التى لا بد منها لإفساد الرجل الصالح ، ولكنه نجاح

غير خليق بفخر عظيم .

يبدو على « سبائك » الضيق

لا تأس يا « سبائك » . لقد نهضت فى نطاق قدرتك بعمل لا يستهان به ، أيقظت فى هذا الآدمىّ نوازعه المستكنة . لا أغمطك حقك .

سبائك : مولاى !

القطب : لم يكن فى وسع غيرك من أبناء جلدتنا أن يفعل فوق ما فعلت . إنى أهبك «وسام الغواية» الأكبر . ها كه ...

يقذف بالوسام إلى « أرقط » ، فيتناوله ، ويعلقه على صدر « سبائك » .

والآن ، أرغب فى خلوة إلى « بزعبول » .

« أرقط » ، و « سبائك » ، ينحنيان لقطب الشياطين وينصرفان .
القطب يقول « لبزعبول » :

ها قد رأيت يا « بزعبول » .

بزعبول : مولاى !

القطب : اعترف لى بما تبينت ، ولا تكابر فيما سمعت . ماذا ترك لنا الأناسىّ من فخر ؟ ألا ترى أنهم تغالوا يا بنى فى مقدرتنا على الغواية والإضلال ؟ نحن اثنان لا ثالث

معنا . فلنتكاشف ، ولنعرض أعمالنا مع البشر . ماذا تقول فى هذه الشرور والآثام التى يقترفها الإنسان على وجه الأرض ؟ أتراها مما كسبت أيدينا ؟ تكلم «بزعبول»

بزعبول : (مفكراً) : كلا مولاى الزعيم .

القطب : إن الإنسان ليجنى الشر مطمئناً على عمد ، ثم لا يلبث أن يُنحى علينا باللائمة فى يسر ، وكأنه ينفض عن منكبيه غبار التبعة ، ويلقى على كاهلنا الوزر كله ، فتقر عينه بأنه من الذنب برىء . . . ونخرج نحن من المعركة بالشنعة وفضوح السمعة . . . ساء ما صنع بنا الإنسان اللئيم !

بزعبول : ولكننا ــ يا مولاى الزعيم . . .

القطب : خلّ عنك المكابرة ، ولاتعز إلى نفسك مهارة أنت منها خلىّ . ولا يكن مثلك مثل الذين يسرهم اكتساب الشهرة بالتلصص وإن لم يكونوا لصوصاً مهرة . . . ذلك ضعف آدمى ، فلتترفع عنه أنت ، يا من سيئول إليك الأمر من بعدى فى دولة الأباليس . لقد جاهرتك بالحق ، لتنجلى عن عينيك غشاوة الباطل . . .

يضعف صوته

بزعبول : وماذا تريدنى أن أفعل ؟ !

القطب : أريدك على أن تحسن التفكير والروية ، وأن تعمل .

يزداد صوته ضعفاً . يشير إلى قارورة
كثب منه

بزعبول : (يناوله القارورة) : إليك يا مولاى . . . فاسلم لنا وأقم بيننا ، لا عدمناك زعيماً .

القطب : (يشتف ما فى القارورة) : أسرفت فى قول معسول خير لى ولا لك فيه . حسبك . أما رحلتى عنكم وشـ فأمر واقع لا محالة . . . استمع إلىّ . إنى مستخلـ على هذه المملكة العظمى ، فماذا أعددت لها من مـ وخطة ؟ لا تقل إنك متأثر خطاى . لقد أوضحت أننى لم آت شيئاً يذكر فيشكر . . .

بزعبول : كيف أستبين طريقى إذا لم أحذ حذوك ، وأقفُ أثـ أفتنى يا مولاى فديتك . . .

القطب : افتح فتحاً جديداً ، وشق أفقاً بكراً .

بزعبول : مولاى !

القطب : ايت بمعجزة تثبت بها أننا أهل لغير الشر .

بزعبول : مولاى !

القطب : ليعلم البشر أن الشر منهم وإليهم ، وأن الشر فى بيئـ ناجم ، وفى نفوسهم كمين ، فليعفونا من تهمة نحن

بُرَآء، وليخلونا من مهمة لم تكن لنا بها يدان، ثم ليراجعوا أمرهم ، وليحملوا وزرهم . . . آن لهم أن يتحلوا بشيء من فضيلة الحق . . . وآن لنا أن نعدل إلى ميدان جديد !

يبدو جثمان قطب الشياطين وقد أخذ يحترق على مهل ، وينبعث منه دخان أزرق ، فيجثو « بزعبول » أمام الجثمان ، والدخان حوله يتكاثف ، فتخبو الأضواء وتعم الحلكة ، ثم يدوى صوت انفجار عنيف .

تنقشع سحب الدخان شيئاً فشيئاً ، وتعود الأضواء إلى سابق عهدها ، فيرى « بزعبول » على حاله جاثياً أمام السرير وقد اختفت جثة قطب الشياطين . ينهض « بزعبول » ، ويتلفت حوله ، ثم يتخذ لنفسه سمت الزعامة .

بزعبول : (صائحاً) : يا هيئة المستشارين، من أبالسة الجحيم . . . يا زعماء مملكة الظلام .

ينفذ من الفجوات رهط من زعماء الشياطين ، بينهم « أرقط » و « سبائك » و « زمهرير » ، و « إعصار » . ومن بينهم شخص ملثم ينتبذ مكاناً قصيا ، وقد تلفف فى عباءة خشنة فضفاضة .

« بزعبول » يعتلى المنصة ، وقد اعتمد بيده على مرزبة ضخمة :

إنى أحمل إليكم تحية زعيمنا الراحل ، تحية وداعه الأخير

تطاطىء الرءوس ، وتهتز الأذناب ضاربة الأرض ، وتسرى همهمة تفجع وأسى :

كان زعيمنا العظيم يفكر فى خيركم وحسن سمعتكم حتى النفس الأخير . . .

جمع الشياطين يرسل شهيق اللوعة والحزن

وقد أودع صدرى وصية جليلة ألزمت نفسى تنفيذها ، على عظم خطرها . فهل أنا واجد منكم — أيها الرفاق — ظهيراً أشد به أزرى ، وأستعينه على أمرى ؟

الجمع : كلنا لك عون وظهير .

أرقط : هل لمولاى الزعيم الجديد أن يبسط لخلصائه وأنصاره ، ماذا من أمر هذه الوصية الخطيرة ؟

بزعبول : إنها شديدة الإيجاز ، بعيدة المغزى : افتح فتحاً جديداً ، وشق أفقاً بكراً . وأت للناس بمعجزة تثبت لهم أننا أهل لغير الشر .

أرقط : عجباً ! إذا لم نكن نحن للشر وحده أهلا فلأى شىء نكون ؟ !

همهمة من هنا وهنالك تتجاوب بها أرجاء القاعة

زمهرير : (يتقدم منحنياً أمام « بزعبول » فى إباء) : وماذا يرى زعيمنا الجديد ؟

بزعبول : أريد يا « زمهرير » أن نثبت لبنى آدم أننا أبرياء مما يكسبون من إثم وعصيان ، وأن الشر فى بيئتهم ناجم ، وفى نفوسهم كمين ، فلا يظن أحد منهم بنا الظنون .

أرقط : وما لنا ولهذا كله ؟ وهل بيننا وبينهم ود نخشى أن تتقطع بنا وبهم أسبابه ؟

بزعبول : ولم لا نحاول أن نجلو للناس ما خفى عليهم من أمر أنفسهم ، فيكون لهم فى ذلك تبصرة ، ويكون لهم من ذلك صلاح .

الحاضرون يهمهمون ويسترسلون فى تضاحك مكبوت

أرقط : هذه محاولات لا تدخل فى نطاق ما توسدنا من عمل ، وما نيط بنا من مهمات ، فأنت تكلفنا ما لم نألف ، وما لا يقع لنا ببال . . . نحن نصلح البشر ؟!

يتضاحك

محاولة مكفول لها الإخفاق !

بزعبول : (غاضباً) : علينا أن نحاول وحسب .

أرقط : هذا مروق من دستورنا الشيطانى المقرر ، وتمرد على شريعة إبليس الأعظم !

بزعبول : (صائحاً) : لا مروق ولا تمرد . . .

أرقط : (متعالياً بصوته) : تلك حَيدة واضحة عن طريق السلف الموقر !

بزعبول : (وقد رفع المرزبة فى وجه « أرقط » فيدوى الرعد) : أثمة معارضة لباكورة أحكامى ؟ !

الصمت يغشى المكان

أرقط : لك الطاعة أيها الزعيم .

تجمع من الزعماء ، تسوده همهمة

بزعبول : إلىّ يا « إعصار » . . .

إعصار : لبيك أيها الزعيم !

بزعبول : تقدم فصارحنى برأيك .

إعصار : ليأذن لى الزعيم أن أجهر له برأيى فى غير مواربة ، أنت مثلى عليم بأن هناك تقاليد موروثة فى قانوننا المقدس ...

بزعبول : نصوص منها ما لا يقف عثرة فى سبيل أداء رسالتنا ، والمعول على الجوهر لا على المظهر . . . وإن قطب الشياطين الراحل كان يعرف من صنوالحنا فوق ما نعلم ، وقد ترك لنا من بعده وصيته ، وإنا لعاملون على تحقيقها

حتى ترضى عنا روحه فى برج الظلمات !

همهمة من الجمع

ما زلتم تهمهمون !

سباثك : لمست من قول الزعيم أنه يهدف إلى تبديل أصيل لقانوننا الأعظم .

بزعبول : نعم ! هذا ما هدفت إليه . . .

سباثك : ليس هذا التبديل إلا تجديداً شاملا فى مهمتنا . . . وما أنكر ضرورة التجديد .

زمهرير : بل إنه لأمر جد خطير . . .

بزعبول : فليبلغ من الخطر ما هو بالغ ، ولكن النفع كل النفع فيه . لقد لبثنا نحن معشر الأبالسة السنين بعد السنين ، بل القرون تلو القرون ، دون أن ينالنا من التطور نصيب . . . ألا بئس الجمود !

سباثك : التطور ليس منه بد .

أرقط : (لبزعبول) : ليس التطور ما أردت بنا أيها الزعيم ، إنما أردت بنا أن نهدم القواعد ، ونقلب الأوضاع .

زمهرير : إيانا والتطرف، فجنبنا مخاطر الجموح أيها الزعيم الجديد .

الشخص الملثم (يتقدم صائحاً) : ما دام الإصلاح والخير هدفنا

فلا اكتراث بشيء . . .

« زمهرير » ، و « أرقط » ، و « إعصار » ،
يتساءلون فى صوت خافت عن هذا الشخص الخفى

سباثك : ليس من الحكمة أن ننقل قدمنا خطوة قبل أن نقدر لها
موضعها ، فلا نستبدل بقديمنا جديداً حتى نستبين :
أشر يحيق بنا من جرائه أم رشد ؟

الجمع يتنازعون الآراء ، همهمة تستبين فيها
كلمة « التطرف » حيناً و « التدرج » حيناً .
أصوات تغمغم : « مجلس التشريع والأحكام . . .
لا بد أن يفصل فى الأمر بادىء بدء » .
التصايح يشتد

بزعبول : (صائحاً) : صمتاً !

الصمت يغشى المكان

دعونى أفكر وأدبر فترة . . .

يسود الظلام أنحاء المكان .
ضوء وردى يركز على رأس « بزعبول » فى حين نرى
بعض الأضواء تمر على هامات الشياطين ، فنراهم
وقد تفرقوا شيعاً يجادلون ويناقشون .
يعود الضوء إلى سابق عهده .

بزعبول : (وقد بسط قامته) : علام عولتم يا رفاق ؟ . .

زمهرير : وحق إله الجحيم إنى لا أعرف لتلك الفتنة داعياً ، ولا أفقه لهذا التشاحن كنهاً ، ما لنا ولهذا الخلاف؟ أجدّ شيء فى مجتمعنا يدعو إلى تغيير وتبديل ؟

الشخص الملثم : إنك لا تستشعر ما فى مجتمعنا من سوء يستوجب التغيير والتبديل . . .

همهمة من « زمهرير » ، و « أرقط » ، و « إعصار » ، وتساؤل عن هذا الشخص الخفى

زمهرير : أى سوء هذا الذى تتحدث عنه ؟ ماعلمنا لأحد من شكاة ، ولا لمحنا على أحد من تذمر . إن الشعب الشيطانى يحيا رافهاً فى حبور . . .

يتقدم الشخص الملثم جريئاً ينضو عن وجهه لثامه ، ويخلع عنه عباءته ، فيبدو فى أسمال .

الشخص المجهول : (مضطرم العينين ،قائلا « لزمهرير ») : انظر إلى أيها الشيخ العتىّ ، أهذه هى الرفاهة التى ينعم بها شعبك الشيطانى ؟

الجمع يهمهم : « هلاهيل »... « هلاهيل »

هلاهيل : أجل أنا « هلاهيل » ، زعيمة الطبقة الدنيا : طبقة الفقراء الكادحين .

توجه كلامها إلى « بزعبول » :

لم يكن لنا من حياة السعداء نصيب أيها الزعيم ، وقد عشنا فى غفلة طوال السنين ، وإنا لمستيقظون اليوم ، فمطالبون بحقنا فى حياة كريمة رافهة .

أرقط : (شامخ الأنف) : من أدخل هذه الوَقاح ؟

يلتفت إليها

كيف سوّلت لك نفسك أن تسربى إلينا ، وتنتظمى فى عدادنا ؟

هلاهيل : إنى أمثّل أهل طبقتى فى مملكة الشياطين ، ومن حقى أن أرفع ظلامتى إلى الزعيم .

أصوات : (فى غضب) : فلتخرج . . . فلتخرج .

سبائك : (فى ملاينة ، محاولا أن يطفىء ثائرة الغاضبين) : رفقاً يا كبراء الأباليس . . . أناة وحكمة !

إعصار : أى حكمة فى أن نصابر هذه الوَقاح ؟!

هرج ومرج ، وأصوات محتدة عالية

بزعبول : (رافعاً مرزبته صائحاً) : صمتاً وطاعة !

الجمع ينحنون

يتقدم « بزعبول » من « هلاهيل » يتفحصها

لا أذكر أنى رأيتك من قبل ! ألقِيتَ زعيمنا الراحل يوماً ؟

هلاهيل : جيل بينى وبينه أيها الزعيم الجديد . . . لقد حجبوا عنه ظلامتى .

« سبائك » ، وقد استهوته فتنة « هلاهيل » ، يحدق فيها مشغوفاً .
« بزعبول » يدور حولها هنيهة ثم يقف قبالتها ، مبتسماً .

بزعبول : إنى لأتبين خلف هذه الأسمال إشراقاً وصباحة . . . ليتك ترين من أمر نفسك ما نرى ، إذن لتعهدت نفسك بالرعاية ، وإذن لكان لك فى مجتمع الأبالسة شأن أى شأن !

سبائك : أنَّى لها أن تُعنى بنفسها ، وهى زعيمة طبقة تكدح لتجد الكفاف ؟

هلاهيل : أحسنت قولا ، فابسط قضيتنا لهؤلاء السادة الذين لا يعرفون كيف نحيا وكيف نجهد ؟

أرقط : (ثائراً) : جديدٌ ما نسمع اليوم . . . وإنها لهزة تصيب ما تعارفناه من نظام الطبقات .

سبائك : من حق هذه الزعيمة أن تفيض فى شكواها . إنها منا ،

عضو عامل فى دولتنا ، فلا نأخذ عليها الطريق .

بزعبول : سننظر فى أمرك يا « هلاهيل » ، فاهدئى بالا ، واطمئنى إلى أن ظلامتك ملاقية منا رعاية أىّ رعاية .

إعصار : حقًّا إن زعيمنا الجديد يقلب أوضاعنا الموروثة وتقاليدنا الموقرة رأساً على عقب .

أرقط : (بعد أن يغمز « إعصاراً » غمزة ذات مغزى) : ما دام مولاى يبغى أن يحدث حدثاً جديداً فى دستورنا المقرر وكياننا القائم ، فليسمح لنا ونحن أسناد مملكته ، ووجوه معشره ، أن نطلب إليه الاحتكام إلى « مجلس التشريع والأحكام » . . . وما بنا أن نعارضه فى أمر ، ولا أن نغالبه على رأى ، ولكن الروية خير ، والشورى سداد .

إعصار : بوصفى الأمين العام « لمجلس التشريع والأحكام » أوافق على دعوة المجلس لهذا الأمر العظيم .

زمهرير : وأنا بوصفى الرئيس الأعلى للمجلس أقر هذه الخطة .

بزعبول : تُجمعون على دعوة « مجلس التشريع والأحكام » . . . حسناً ، ولكن أتزعمون أن فى ذلك نفعاً لما نريده من تجديد النظم والأوضاع ؟

أرقط : أفى ذلك ريب ؟ تلك كانت سُنة سلفكم الراحل ، فكلما حزَبه أمر دعا المجلس له ، واستمع لرأيه فيه .

بزعبول : ما أذكر أن المجلس أجدى فى شىء مما عرض عليه .

زمهرير : إن المجلس يتألف من كبراء الأباليس ، وإنهم ليتطارحون القول فى حرية . فإذا أقروا أمراً كان زبدة الرأى . . .

بزعبول : ماذا أفاد المجلس فى ماضيه القريب أو البعيد ؟

أرقط : ألم ينظر فى قوانين ونظم لها كبير الأثر فى خير المملكة وضبط أمورها ؟

بزعبول : ربما كان القليل منها لا يخلو من خير وجدوى .

هلاهيل : أما أكثر هذه القوانين فإنما كان لرعاية المصالح الشخصية . . . مصالح الوجوه والكبراء .

جمع المحافظين يحدجها بعيون متقدة

أرقط : (لبزعبول) : أهذا مبلغ تقدير الزعيم الجليل لمجلس التشريع والأحكام ؟

هلاهيل : إنك لتذكر بالخير هذا المجلس العظيم ! وكيف لا وقد فسح لك مجال الدفاع عن صوالحك ؛ فأقر لك من النظم ما ييسر لك الثراء العريض ، ويحمى صوالحك الخاصة ؟ وكيف لا يقرك على ذلك رفقاؤك فى المجلس ، وهم على شاكلتك ذوو صوالح ، وأهل ثراء ؟ . . .

ضجة ، واحتداد من جماعة المحافظين

زمهرير : (موجهاً الكلام إلى الزعيم) : لقد كفلنا لكلٍّ حريته فى المعارضة والنقاش، فسلكنا فى ذلك سبيل الديمقراطية الحق .

هلاهيل : الديمقراطية ! كلمة رنانة خلاّبة حقًّا ، ولكن أين هذه الديمقراطية فى معناها الأصيل ؟ كل منكم يفسر معنى الديمقراطية والحرية على الوجه الذى يرتضيه ، متخذاً منها مطية لإدراك ما يهدف إليه . يا ويل الديمقراطية الحق ممن يتكلمون بلسانها ، ويتشدقون بمعناها !

زمهرير : (فى استنكار شديد) : كفى أيها الزعيم . . . !

بزعبول : أليست الديمقراطية أن نبيح لكل امرئ حرية القول ؟

زمهرير : إن ما نسمعه اليوم خروج على النظام العام ، وهدم لما تواضعنا عليه من عرف وتقليد .

بزعبول : وإنى أجيزه ، لأنه لا يخلو من حق .

إعصار : أتجيز القول بأننا لم نكنْ أمناء على مثلنا الأعلى فى الحكم ، أعنى الديمقراطية ؟

بزعبول : كفكف من حدّتك يا « إعصار » . . . تدبر مليًّا ما نردده من كلمات المثل العليا ، والفضائل الرفيعة ، واعلم إن لم تكن تعلم أن هذه المعانى لا وجود لها إلا فى رءوس الفلاسفة وأخيلة الشعراء ، أما عند التطبيق فكل فضيلة

من الفضائل الرفيعة تتخذ لون صاحبها ، وكل مثل من الأمثلة العليا يتشكل وفق أهواء من يتحلى به .

زمهرير : إذن لا رجاء لنا فى إصلاح ، ما دامت الفضائل الخالصة ، ليس لها فى الحقيقة وجود ، ولا يمكن اتخاذها كما هى فى مدلولها الصحيح .

بزعبول : إصلاح نظمنا فى الحياة وقف على إصلاح نفوسنا قبل كل شيء ، ونحن مجبولون على النقص ، وفى فطرتنا تكمن الآفات والعيوب ، فلكى نقترب من مستوى الفضائل ، وندنو من أفق المثل ، علينا أن نكافح أنفسنا ، حتى نعالج ما بها من عيوب ونقائص ، وإذن تصلح أحوالنا قليلا قليلا . . .

هلاهيل : لا مناص من تغيير أنظمتنا فى مجتمعنا المضطرب ، وإن الكثير من هذه الأنظمة ليعوزه التجديد أيها الزعيم . . .

بزعبول : سأضع برنامج إصلاح شامل ، وأرغب إليكم أن تعينونى على تنفيذه .

سباثك : (مستوضحاً) : دون استشارة « مجلس التشريع والأحكام » أيها الزعيم ؟

بزعبول : ألا ترى أن أساليب النقاش والجدل فى المجالس تعوق خطا الإصلاح ؟

أرقط : إنى ألمح أيها الزعيم فى قولك نزوعاً إلى معالجة الأمر على نحو يتجافى عن الشورى .

سباثك : هذا ما يسمونه فى الأرض مذهب « الدكتاتورية » .

بزعبول : لا عبرة بالأسماء . . . فما دام العدل أساس الحكم فليكن الاسم ما يكون ، ولتكن الصورة ما تكون .

أرقط : إنها لفكرة خطيرة أيها الزعيم .

بزعبول : عجباً ! كنت من أنصار هذا الرأى يا « أرقط » ومن قادة محبّذيه . . . ألا تذكر؟

أرقط : هذا صحيح . . . ولكن الآن . . .

بزعبول : ولكن الآن تغيّر رأيك ، إذ شعرت بأن منفعتك لم تعد مكفولة بهذا الرأى .

أرقط : إنى لا أنشد إلا المنفعة العامة . وحكم الشورى هو خير الأحكام .

بزعبول : ألا ترى أن حكم الجماعات فى كثير من الأحيان تعصف به الأهواء ؟

سباثك : مهما يكن من أمر — أيها الزعيم — فإن حكم «الديكتاتور» وإن صلح وقتاً لا يصلح فى كل وقت . . . شاهدت بعينى رأسى أمثلة من ذلك على وجه الأرض .

بزعبول : فلنترك أرضك وشأنها .

سباتك : أيسمح لى الزعيم أن أكون صريحاً ، وقد لمست فيه رغبة صادقة فى الإصلاح ؟

بزعبول : . . . . قل ما عندك .

سباتك : كن على ثقة أيها الزعيم أن الأرض منبت لكثير من طريف الأنظمة والآراء . وأنها ميدان عظيم تتصارع فيه الأفكار . فما ضرنا لو انتفعنا بما هنالك من تجارب؟

أرقط : نأخذ ما ينفعنا ، ونترك ما نخشى منه الضرر .

سباتك : وإنى لأرى أن أصلح نظام لنا هو الشورى على ما فيها من مغامز وهنات .

بزعبول : إذا ارتضيتموها جميعاً فلا مانع عندى من وِفاقكم عليها .

الجمع : نعم . . . إنا بها راضون .

بزعبول : سنجمع « مجلس التشريع والأحكام » وسنرى ماذا هو فاعل ؟

هلاهيل : أطلب أيها الزعيم أن أكون بين أعضاء المجلس لأعرض عليه مطالبى العادلة .

إعصار : لم يكن يعوزنا إلا أن تشركنا فى عملنا هذه الشّغوب !

أرقط : إن تقاليدنا تقضى ألا نشرك هذه الطبقة فى « مجلس التشريع والأحكام » .

بزعبول : أمركم عجَب . . . ما دمتم تطالبون بالشورى وباتخاذ

مثل الديمقراطية ، فكيف تمنعون عنصراً من عناصرنا أن يشارك برأيه فى المجلس ، ويعرض مطالبه عليه ؟

أرقط : إنها التقاليد ، ولها حكمها المقرر . . .

سبائك : مطلب « هلاهيل » لا ضير منه ، وإنى أرتضيه . لزام أن نسمع شكواها وننصفها . . . إن الطبقة التى تمثلها هى الطبقة العاملة الناشطة ، ولها خطرها فى مجتمعنا العتيد .

تصايح يختلط فيه الإنكار بالموافقة

بزعبول : (وقد رفع مرزبته صائحاً) : أتريدون دعوة « مجلس التشريع والأحكام » لإقرار الوضع الجديد ؟

الجمع : نعم . . . نعم .

بزعبول : إذن فلتقبلوا معكم « هلاهيل » ، ولتكن بين الأعضاء .

هرج ومرج ، وتصايح .
الضوء يتزايل . تسمع أنغام موسيقية صاخبة .
يسود الظلام على حين تتواصل الأنغام .
بعد فترة ينطلق النور ، فإذا القاعة قد تحولت قاعة « مجلس التشريع والأحكام » .
وفود الشياطين تملأ رحابها جماعات جماعات .
جماعة « أرقط » تضم « زمهريراً » ، و « إعصاراً » ، و « أنابيب » وهو لا يفتأ يحشو فه بالطعام .

« سبائك » مع « هلاهيل » ومن إليها ، فى
موقف ألفة وانسجام .

زمهرير : (متحدثاً إلى جماعته ، مشيراً إلى « هلاهيل » و « سبائك » وهما يتناقلان الحديث فى بشاشة وأنس) : ياله من منظر عجيب !

إعصار : مغازلة وغرام ، فى « مجلس التشريع والأحكام » !

أرقط : ما أسقم ذوقه !

إعصار : لم تبق لى ثقة « بسبائك » هذا ... إنه لطول إقامته فى الأرض عاد إلينا بجرثومة من جراثيم البشر !

زمهرير : أية جرثومة ؟

أرقط : جرثومة المغازلة !

أنابيب : حقًّا ما أسخفها . إنها لا تسمن ولا تغنى من جوع ، كان أولى به أن يأتى لنا بشىء مفيد .

إعصار : مفيد . . ؟ ماذا تعنى يا « أنابيب » ؟

أنابيب : مفيد . . . أعنى شيئاً يملأ البطون .

يحشو فمه بحفنة مما فى يده من الطعام متضاحكاً
«أفعوان» يقدم ، ويقرع الأرض بهراوة طويلة.
الجمع ينتبه .

أفعوان : (صائحاً) : زعيم الأباليس « بزعبول » .

« بزعبول » يبرز من بطن الأرض ناشراً جناحيه
الجمع ينحنى له تحية وتكريماً .

بزعبول : يا كبراء القوم : لقد جمعنا « مجلس التشريع والأحكام » وفق ما أشرتم به . فأناشدكم إله النار أن تعملوا معى فى أمانة وإخلاص ، وأثبتوا أنكم شياطين ، وأنكم بهذا اللقب خلقاء .

الجمع : مرحى . مرحى .

« أنابيب » يزدرد طعامه وهو فرح طروب

إعصار : أما انتهى لك مطعم يا « أنابيب » ؟

أنابيب : وماذا فى أن أطعم يا « إعصار » ؟

إعصار : نحن فى المجلس . خل عنك الطعام لوقت غير هذا الوقت . إن حزب المعارضة أمامنا بالمرصاد .

أنابيب : (نافضاً يده فى استياء) : حسن . حسن . . . لقد فرغتْ يدى . . . سوف لا أجد ما أطعمه !

بزعبول : أبدأ حديثى إليكم : أخبركم بأنى قد أعددت لكم طائفة من القوانين الجديدة التى تهدف إلى الإصلاح . ولكننى قبل أن أذيعها عليكم أذكركم بأن أحكم قانون وأهداه ينقلب إلى شر جسيم إذا أنفذتموه وفق الأهواء والمطامح (يلتفت إلى « سبائك ») « سبائك » !

سبائك : لبيك زعيمى . . .

بزعبول : حدثهم ماذا فعل « بنو آدم » بما أتيح لهم من جلائل القوانين . . .

سبائك : إن المولى الأعظم إله الأرض والسماء قد حبا الأناسيّ بقوانين أنزلها فى كتبه المقدسة ، قوانين إلهية لا ينفذ إليها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، لو عملوا بها كما تلقوها لما كان على ظهر الأرض من فساد .

إعصار : كيف كان صنيعهم بها فيما ترى يا « سبائك » ؟

سبائك : تناولها نفر من القادة والزعماء فنحلوها صبغة أهوائهم ، وأفاضوا عليها ما أفاضوا من ذات نفوسهم ، وقالوا ذلك هو مفهوم القانون السماوى ، وتلك هى حقيقة الشريعة المقدسة ؛ فلم تعصمهم من فساد ، ولم تهيئ لهم من أمرهم رشداً . . .

فى أثناء هذا الحديث ، يشغل « أنابيب » بالتحدث إلى جيرانه ، طالباً إليهم إسعافه بطعام ، فينحازون عنه ، ضائقين به ، مجتهدين فى إسكاته .

هلاهيل : إن القانون القوىّ يحور على يد الضعفاء هزيلا ، والقانون الضعيف يغدو على يد الأقوياء من المصلحين قويًّا بالغ الأثر .

سبائك : القانون يقاس بتنفيذه ، لا بوضعه وتشريعه .

بزعبول : فلنكن – أولا – صلحاء مخلصين ، تكن قوانيننا صالحة مفيدة . أتعاهدونني أن نعمل على هذا الأساس؟

الجمع : (صائحاً) : نعاهدك .

بزعبول : إذن لننتقل إلى جدول الأعمال يا « إعصار ».

في هذا الوقت ، يتدانى « أنابيب » من « إعصار » يريد أن يتحدث إليه .

إعصار : (« لأنابيب » ناهراً إياه) : ألا يهدأ لسانك لحظة ؟ بحق إله النار صمتاً ، ولتصغ إلى ما يقال .

« أنابيب » ينحني موافقاً في غضاضة ، ثم يتنحى ركناً ، ويجلس في استرخاء ، ولا يلبث أن يسبل جفنيه .

« إعصار » يخرج ورقة طويلة يبسطها أمامه ، ثم يقول :

جدول الأعمال ليس فيه إلا أمر واحد خطير : الزعيم يطلب أن تفوضوا إليه القيام بتجربة جديدة طريفة ، يثبت بها « لبني آدم » أن الشيطان ليس مصدر الشر ، بل إنه قادر على أن يبعث في الإنسان الخير كل الخير .

أرقط : فليسمح لي الزعيم أن أقول : إن لهذا الطلب شقين ، الشق الأول : مبدأ التفويض ، والشق الثاني : جعل مبدإ الخير من أعمال الشيطان .

بزعبول : أصبتَ . . .

أرقط : أيرغب سيدى الزعيم فى أن يسير وَفق قانوننا الأعظم ؟

بزعبول : هذا هو مبدئى فى الحكم .

أرقط : إذن ، يجب أن نتفحص الأمر بدقة فى غير تعجل .

سباثلك : ولكن الأمر واضح ، وهو كذلك عاجل ، ففيم التفحص والإمهال ؟

زمهرير : ربما كان الأمر كما تقول أيها الزعيم واضحاً ، ولكن الأمور التى تتعلق بالمبادئ العامة ليست من الأمور العاجلة ، وفقاً لما جرى عليه المجلس فى عهوده المتطاولة ، فلندرس ما أنت عارضه علينا دراسة خبرة وأناة .

بزعبول : وماذا فى أن تعدّوا الأمر عاجلا ، فتنظروا فيه الآن ؟

إعصار : لى اقتراح . . .

بزعبول : قل ما عندك .

إعصار : نحيل كل شق من الموضوع إلى لجنة خاصة تتولى إعداد تقرير فيه .

أرقط : أوافق على تكوين لجنتين لدراسة الموضوع .

بزعبول : أما زلتم تتعلقون باللجان ؟

سباثلك : اللجان مقبرة المشروعات ، وهذا ما يشكو منه أهل الأرض . . .

هلاهيل : أثبتت التجربة أن اللجان تعوق خطط الإصلاح ومشروعاته .

هنا يستيقظ « أنابيب » ... ويحتد فى التصفيق متهللا مرحباً بأقوال « هلاهيل » . ينظر إليه جماعة الحزب المحافظ ، فيسكتونه ، فى حين أن جماعة « هلاهيل » تتضاحك متغامزة .

إعصار : (« لأنابيب ») : لأى شىء تصفق يا غبى ؟ إنهم يعارضون فكرتنا .

أنابيب : حسناً . . . حسناً (لا يلبث أن يغفو)

سباتك : شر ما ابتُلى به النظام الديمقراطى كثْرة اللجان .

أرقط : لا يقول هذا القول إلا جاهل مأفون .

سباتك : جاهل مأفون ! ؟

زمهرير : (مشيراً إلى « سباتك ») : أطلب تنحية هذا العضو المشاغب عن المجلس .

هلاهيل : أئذا عرض امرؤمنا رأيه فى حرية ، تطلبون تنحيته ؟

بزعبول : سأمهلكم أسبوعاً . أسبوعاً واحداً لدرس ما عرضته عليكم ، ولى فيكم بعد ذلك رأى .

زمهرير : نشكر للزعيم رعايته للأوضاع الدستورية .

هنا يرى « أرقط » ، يتحدث جانباً فى اهتمام إلى « إعصار » .

سباثك : بذلك نكون قد اختتمنا هذه الجلسة .

هنا يعلو شخير « أنابيب » ؛ فيهزه من بجواره، فيستيقظ مندفعاً فى تصفيق ، وما إن يرى الجمع حواليه يرمقه بنظرات استخفاف وغضب حتّى يتمكن فى مجلسه .

أرقط : الجلسة ما زالت مستمرة ... وما فرغنا منه هو الأمر الذى عرضه علينا الزعيم . فلنا أن نفيد من انعقاد المجلس .

إعصار : لا شك أن هيئتنا الموقرة يسرها أن تنظر فى بعض المسائل المهمة ، واو لم تكن مدرجة فى جدول الأعمال .

أنابيب : (متعالياً بكرشه) : إننا أتينا للعمل لا للرقاد .

لا يلبث أن يطبق جفنيه

بزعبول : العمل خير ، فانظروا ما تريدون .

إعصار : إقرار مشروع القناطر المائية ، لتنظيم الرى فى منطقة « الشروان » الجدباء ، وإمدادها بالماء ، إنه مشروع كبيرٌ نفعه للمملكة .

بزعبول : وإلى من تكلون هذا المشروع ؟ من يقوم ببناء هـــذه القناطر العظيمة ؟

أرقط : (يتقدم فى حماس) : ليس فى المملكة أيها الزعيم من

يستطيع النهوض بهذا المشروع غير السيد « إعصار »

بزعبول : حسناً . . . حسناً . ولكن . . . يجب أن نحيل المشروع إلى لجنة .

إعصار : لجنة ! ولم ؟

أرقط : يجب البت فى الموضوع الآن .

سبائك : وفيم العجلة ؟

إعصار : لأنه أمر يفوق فى خطره كل أمر ، إذ هو وثيق الصلة بصالح المملكة .

هلاهيل : أوثيق الصلة هو حقًّا بصالح المملكة ؟ أم بصالحكم أنتم الثلاثة ؟

تشير إلى « أرقط » ، و « إعصار » ، و « زمهرير »

إعصار : (صائحاً) : ما هذه الأقوال الجارحة ؟ إنى أعلن استنكارى لهذا التهجم .

أنابيب : (مستيقظاً صائحاً) : نعم . نستنكر بشدة .

لا يلبث أن يغط فى نومه

بزعبول : لقد عرضت عليكم مطلبى فى شأن الإصلاح ، وهو أمر كما ترون عظيم ، فلم تطوع لكم أنفسكم أن تنظروا فيه ، بل رأيتم إحالته إلى لجنتين تدرسانه . وسوف تطول

لحاكم ، وتمتد أظفاركم ، قبل أن تَبَتُّوا فى شأنه .

أرقط : ما فعلنا إلا ما يمليه علينا نظامنا المقرر .

زمهرير : أوضاعنا تنص على هذا الإجراء الذى طالبنا به .

بزعبول : لست مخالفاً لكم نظمكم وأوضاعكم ، ولكنى مُنْظِركم أسبوعاً ترون فيه رأيكم ثم يكون لى من بعده قول فصل .

زمهرير : أما مشروع القناطر فإنه مستوجب الأخذ فيه منذ الآن، لخير المملكة . . .

هلاهيل : حقاً ، لخير المملكة . . . اسمعوا يا كبراء الأبالسة ،إن الذى سيفيد من بناء القناطر هو « إعصار » ، فإنه الطامح إلى القيام ببنائها ، وله من وراء ذلك كسب عظيم . وأما الذى سيفيد من تيسير الرى بعد إقامة هذه القناطر فهما السيدان المبجلان : «أرقط » ، و «زمهرير » ، فمنطقة « الشروان » الحدباء ليست إلا إقطاعية عظيمة لهذين السيدين . . . أهذا خير المملكة فيما ترون ؟ !

استنكار صاخب يبديه جماعة المحافظين .

تهلل وتصفيق بين جماعة « هلاهيل»

بزعبول : صمتاً يا قوم ! . . . . . الأمر الذى فيه خير المملكة تلقون به إلى لجنة ، لكى تقتله بحثاً كما يقول أهل الأرض ، حتى لا تقوم له قائمة . أما الأمر الذى فيه

مصلحتكم الشخصية فأنتم مسارعون إلى إنجازه فى سرعة البرق . . . ما بَرِحتم كما أنتم !.. قلت لكم وما زلت أقول : أصلحوا من أمر نفوسكم تنفعكم قوانينكم ، وتجرّدوا من أهوائكم تستقم أموركم . . .

« هلاهيل » ، و « سبائك » ومن معهما يصفقون .

الآخرون متذمرون .

يستيقظ « أنابيب » مصفقاً بعد ذلك فى جلبة فيسكته رفاقه .

أمَرْنا بوقف أعمال المجلس ريثما يتم إصلاحه على نهج جديد ، لكى يتطهر أعضاؤه من أهواء نفوسهم ، فنراهم يُعلون الصالح العام على الصالح الخاص !

يرفع « بزعبول » المرزبة ، ويلوح بها فى وجوه الجمع ، فيتكمشون أمامه طائعين . .

الفصل الثانى

على ظهر الأرض فى أطراف الوادى الأجدب .
برج سحرى الشياطين ، عن كثب من بحيرة « الأجاج » .
ثغرة فى الصدر ، يبدو خلفها ماء البحيرة ، وتتراءى منها سحب تتعاقب .
« خلوب » القهرمانة ، مع « زفاف » مساعدها .
« زفاف » يروح ، ويجىء ، متطلعاً من الثغرة ، ضيق الصدر ، يزفر .

زفّاف : (يعقد ذراعيه أمام « خلوب ») : أف . . . أف .

خـَلوب : ما هذاالوجه الجهم أيها السيد « زفاف » ؟ !

زفاف : ليس من المستغرب أن يكون وجهى على ما وصفت يا سيدتى القهرمانة « خـَلوب» ، بل إنى لأعجب كيف لا يزداد جهامة ؟

خـَلوب : إنلك سريع الاهتياج .

زفاف : ألا يحق لى أن أهتاج ، وقد طال انتظارنا للسيد الرسول؟ لقد أُمِرنا أن ننتظر ، وإنا منتظرون . . . كم لبثنا من الوقت على هذه الحال ؟

خلوب : خفف من غلوائك يا سيدى « زفاف»... عما قليل يأتى رسول زعيمنا «بزعبول» . أتراك ضائق الصدر بالانتظار ،

أم أنت ضائق بحياتك هنا معى على ظهر الأرض ، فى معزل عن موطننا الأصيل ، موطن الشياطين ؟

زفّاف : إن طاب لك قول الحق صارحتك بأنى ضائق بالأمرين معاً . . .

خـَلوب : ولكن انتقالنا إلى الأرض وسكنانا إياها ، شرف لنا أى شرف ، فإن « بزعبول » العظيم نـَدَبنا للإشراف على تنفيذ تجربته العظمى .

زفاف : حقـاً. إنه لشرف عظيم لنا أن نعاون الزعيم فى تجربته ، ولكن ماذا أنا مفيد من هذا الشرف العظيم ؟

خـَلوب : سمعت أنهم سيمنحونك « وسام الثعابين » الأكبر .

زفاف : أية ثعابين ، يا سيدتى ؟ . . . وما انتفاعى بذلك الوسام الأكبر ؟

خلوب : أتستهين بهذا التشريف يا « زفاف » ؟

زفاف : دعينى من شىء لا يغنى من جوع ولا يروى من ظمأ .

خلوب : ما أحقر أمانيك يا سيدى « زفاف » !

زفاف : تحتقرين أمانىّ ؟ فليكن ما تشائين ، فما يقع لى ذلك ببال . . . قصارى ما يعنينى أن أصيب كسباً ليومى ؛ ونفعاً فى غدى . . . لقد أعددت مشروعاً جليلا كنت أزمع تقديمه إلى « مجلس التشريع والأحكام » . . .

خلوب : أى مشروع تريد ؟

زفّاف : أن يستبدلوا بالأوسمة الشيطانية عطايا ومكافآت . . . أقصد الضياع والقصور وما إليها . . .

خلوب : إنى أعلم ما ترمى إليه يا « زفاف » . . . أنت راغب فى امتلاك البقعة الواسعة : بقعة الصحراوات الزُّرْق . . . ولكن لن يتحقق لك هذا المطمح اليوم . ذهب عهد الإقطاعيات الضخمة ، وإن الإصلاح ليقتضى أن تكون الأرض رقاعاً محدودة يمتلكها كثير من الناس . . .

زفاف : أترين ذلك خيراً يا سيدتى « خاوب » ؟

خلوب : وهل فى ذلك خلاف ؟ . . ألم تر ما كان من الاستغلال الطائش ، ومن الغنى الفاحش ؟

زفاف : أى استغلال تعنين يا سيدتى الطيبة القلب ؟ إن الاستغلال قائم منذ الأزل ، ولكنه يتخذ على تعاقب الأزمان شتى الصور والألوان . . . ثمة قوىّ وضعيف ، فلا بد أن يكون ثمة غِنًى وفقر . . . أتطمعين يا سيدتى فى أن يسود عالمنا عدل ومساواة ؟ . . هيهات !

خلوب : إنى أكره منك هذا التشاؤم . . . علينا أن نسعى سعينا ، ونحاول الإصلاح جهدنا . . . ذلك ما بنى زعيمنا عليه عزمه ، وهذا برنامجه .

زفاف : لك ما ترَين ، أما أنا فقانع بما أرى . . . ولست محاولا تغيير طبعي . أجدى علىّ أن أحيا وفق غرائزي ونوازعي .

خلوب : يا للضعة . . . يا للحقارة . . .

زفاف : ما أضيع الجدال معك فى هذه الشئون . . .

يتضجر ويزفر

متى يأتى الرسول ؟ لقد أعددنا التقرير منذ وقت طويل. أف . ضاق ذرعى بما أنا فيه .

خلوب : كنت أظن أنك تستمرئ حياة الأرض ، مثوى بنى « آدم » .

زفاف : أتسمّين مثابتنا هذه قطعة من الأرض أيتها السيدة « خلوب » ؟ أى أرض هذه التى نسكنها ؟ منطقة موحشة جرداء ليس بها من أنيس ! . .

خلوب : آه . . . فهمت . إنك تريد أن تسكن المدن فى صحبة البشر . لقد فتنتك ألوان الحياة هنالك منذ بعثك عميد المستشارين « أرقط » لتحبيب الخمر إلى الناس ، فلم تعد تطيب لك عشرة إخوانك من الجن . . .

زفاف : كبرت كلمة تهمينى بها أيتها السيدة « خلوب » . . .

خلوب : لقد أوفدوك لتنشر السكر بين الناس ، فلم يخفق

مسعاك ، ولكنك عدت إلينا مخموراً لا تفيق . . . إنى لأعجب من قوة هذا الآدمىّ على إضلال غيره . . . قادر هو على أن يفسدنا نحن . . . نحن الشياطين . بالأمس أرسلوا السيد « سبائك » ليفسد فى الأرض ، فعاد إلينا يحمل جرثومة الفساد الأكبر . . .

زفاف : تعنين جرثومة الحب !

يتضاحك

إن « سبائك » ما زال غارقاً حتّى أذنيه فى هذا الحب .

خلوب : وأنت تذهب إلى الأرض داعياً إلى الخمر ، فتعود إلينا وقد سرت إليك عدواها ، وتمكنت منك جرثومتها .

زفاف : بهتان . . . بهتان . . .

خلوب : (تميل عليه آخذة بيده) : اعترف لى ، ألست بالخمر ولوعاً ؟

زفاف : يا لها تهمة باطلة ! . . . أقسم لك . . .

مشيراً إلى رأسها

بهذه القرون البنفسجية التى تزين رأسك ، إنى . . .

خلوب : (مقاطعة إياه) : لا أسمح لك أن تقسم بقرونى البنفسجية . أنت شيطان مداور لا تصارح ، إنك

سكير وحق النار . ولقد نلت جزاء فعلتك ، إذ نفاك عميد المستشارين « أرقط » إلى الغار المهجور . . .

زفّاف : مظلوم أنا وحقك مظلوم . . .

خلوب : مظلوم ، أو غير مظلوم . . . لقد نالك من العقاب جانب ، ثم عفا عنك السيد « أرقط » من بعد ، ونَدبك هنا لتصحبني . . . نِعْمَ اختياره لى !

زفاف : ماذا تنقمين من اختياره ؟ . . إنه اصطفى لك خير من يعينك فى مهمتك على ظهر الأرض . . . أفى ذلك ترتابين ؟ . . . أجيبيني متى نفرغ من هذه المهمة ؟

خلوب : تسألنى متى نفرغ ، ونحن لـمَّا نبدأ ... اعلم أنه ليس من شأننا أن نعلم .

زفاف : زعيمنا الأكبر « بزعبول » صاحب عجائب . . . وما نملك معه إلا الإذعان والتسليم .

خلوب : إنى شديدة الإعجاب به زعيماً مطاع الرأى ، مَهيب الجانب . . . لقد تيسر له أن ينفذ فكرته ، وأن يظفر بالتفويض الذى طلبه ليزاول التجربة العظمى . . .

زفّاف : يريد إثبات أمر عجَب ، أن الشيطان فى مكنته القيام بغير الشر ، وأنه قادر أن يصنع الخير لبنى البشر . . . أليس هذا أعجب ما وقع فى عالم الشياطين حتى اليوم ؟

يرى جسم على شكل صاروخ كبير ، ينفذ من الثغرة فى صوت راعب . ينتفض الصاروخ فإذا هو الشيطان «سرعرع» ولا يلبث أن ينحنى أمام « خلوب » و « زفاف » .

خلوب ، وزفاف : أنت « سَرعرع » !

سرعرع : أحييكما أبهج تحية .

خلوب : طاب يومك . أين كنت فى غيبتك يا « سرعرع » ؟

سَرعرع : كنت يا سيدتى فى زورة قصيرة لموطننا الأكبر ، موطن الجن فى مغاوره السحيقة .

خلوب : أتترك الأرض دون أن آذن لك ؟ كيف تخليت عن حراستك ؟

سرعرع : أستميح مولاتى العفو . لقد حملتْ إلىّ الريح نبأ روّعنى . أخبرتنى أن أبى على شفا هلكة . فاستأذنت رفيقى ، وانطلقت عجلان لألحق بأبى ، أتزود منه بنظرة وداع .

خلوب : وهل أدركه الموت ؟

سرعرع : لقد أسعف قبل أن يحين حينه ، فتناول جرعات من ذلك الدواء الجديد « عصارة السموم السليمانية والحوامض الزرنيخية » ، وما هى إلا أن دبت الحياة فى أوصاله ، واستقرت روحه بين جنبيه .

زفاف : حسناً . . . حسناً . وما عندك من أخبار وطننا العزيز ؟

سَرعرع : إنه فى هِياط ومِياط . . .

زفاف : كيف ؟

سرعرع : تفجؤه كل يوم منازعات ومجادلات . . . مجالس تنعقد وأخرى تنفض ، بلجان تتألف وبلجان تُلغى . يا رب الجحيم : نجنا من الكرب العظيم ، نجّ أمة الجان من هذه اللجان ! . . وليت الأمر بنا واقف عند حد . . . إنكما لم تعلما آخر بدعة . . .

يغرق فى الضحك ممسكاً ببطنه :

حقّاً ما أحدثها بدعة . . . أرهفا سمعيكما لى . . .

خَلوب : ماذا ؟

« سرعرع » يتواصل ضحكه ويترنح

زفاف : قل . . . تكلم .

سرعرع : آخر بدعة ، يا خليلى ، هى إنشاؤهم مجلساً سموه « مجلس الأمن » !

زفاف وخَلوب : (يتبادلان النظر فى عجب) : « مجلس الأمن » ؟ ماهذاالخبَل ؟ !

سرعرع : (مؤكداً) : نعم أنشأوا « مجلساً للأمن » .

خلوب : لا أفهم ما الذى يقصدونه « بمجلس الأمن » هذا . . .

سرعرع : إنهم أقاموا هذا المجلس لفض المنازعات بين ممالك الجن وإنصاف دويلاته الصغيرة ، ومنح الحريات لشعوبه التي لم تنل حرياتها . . . وقصارى مهمة هذا المجلس : وقف الحروب وإقرار السلام .

خلوب : إنه إذن لمشروع عظيم .

سرعرع : (ضاحكاً ملء شدقيه) : مشروع عظيم ! . . . حَسْبُ هذا المشروع أنه من صنع « ابن آدم » وتفكيره . وأننا نتلقاه من يد السيد الموقر « سباثلك » . . .

خلوب : ما دام غرض المجلس تجنيب الشعب الشيطانى ويلات الحروب ، ونشر السلام فى ربوعه ، فلتكن الفكرة من وحى « ابن آدم » أو وحى « ابن آوى » !

سرعرع : يا سيدتى الطيبة القلب : كان علينا قبل اتخاذ هذه الفكرة أن ننظر ماذا صنع « مجلس الأمن » على ظهر الأرض ، أ أدى رسالته حقًّا أم أصبح بؤرة تتجمع فيها الضغائن والأحقاد ؟ أخشى أن يكون هذا المجلس كصنوه على ظهر الأرض : خير مستقر تنمو فيه بذرة الحرب وتترعرع !

خلوب : أوضح . . .

سرعرع : لم يكن «مجلس الأمن» إلا مجمع دول كبيرة تتنازع فيما

بينها على ابتلاع الدول الصغيرة باسم المحافظة عليها .

زفّاف : المحافظة عليها بابتلاعها ؟ !

سرعرع : نعم . هكذا يفعلون . . . المحافظة عليها فى البطون . وهل هناك مكان آمن من هذه البطون العظيمة ؟

خلوب : ويحهم كيف يحكمون ؟

سرعرع : والآن . بعد أن ابتلعت هذه الدول الكبيرة الأمم الصغيرة ووضعتها فى بطونها بأساليب المحالفات والمعاهدات ، ما زالت الدول الكبيرة تحس الجوع ، فهى تتلفت يمنة ويسرة لتبحث عما تتبلغ به ، فينظر بعضها إلى بعض شزراً . وإن كلا منها لتشحذ أسنانها، وتتلمظ بريقها، مرتقبة فرصة الوثوب على صاحبتها ، لتشبعها تمزيقاً وابتلاعاً .

زفاف : مدهش !... مدهش !

سرعرع : هـــذا هو « مجلس الأمن » الذى اجتمع على ظهر الأرض ليرفع راية السلام !

خلوب : وبعد هذا يزعمون أننا نحن الذين نوسوس لأهل الأرض بالحروب . قسماً بإله النار ، لو أنصفوا لتركونا وشأننا إبراء لنا من تهمة الإفساد . . .

زفاف : لقد بدأتُ أعتقد أن زعيمنا « بزعبول » على حق فيما فكر فيه وفيما أنفذه .

خلوب : ليثبت أننا — معشر الشياطين — لسنا مصدر الشر ، وأن علينا القيام بتجربة جديدة هى عمل الخير .

سرعرع : ألا بربك اشرحى لى ما فعله زعيمنا الأكبر فى تجربته العظمى . لا علم لى حتى الساعة بما كان من أمره .

خلوب : أنت شديد الفضول يا « سرعرع » ، ولكنى أعجب لك ما الذى تبغى أن تعرفه أيها البليد ؟ أتراك لا تدرى نبأ الأميرة « أزاهير » ؟

زفّاف : (وقد أشار إلى الثغرة ، تتراءى خلفها البحيرة والسحب) : انظر يا« سرعرع ».ألا تعلم يا غبىّ ما هذا الذى تشهده حيالك ؟

سرعرع : إنها البحيرة العظيمة المسماة : « بحيرة الأجاج » . لم تكن من قبل فى هذه المنطقة . ولكن زعيمنا « بزعبول » أوجدها من العدم بنفثة من نفثات السحر .

زفاف : والمنطقة التى تحيط بهذه البحيرة ؟ !

سرعرع : منطقة بشعة جرداء ، لا تصلح أن تكون مأوى لشىء ، حتى الحشرات والهوام . وإنها لقاصية عن العمران ، وقد تخيّرها« بزعبول» على هذا الوضع ليبلغ فيها غرضه المنشود .

خلوب : أية حكمة فى اختيار زعيمنا « بزعبول » تلك المنطقة على هذا الوضع العجيب لإجراء تجربته فيها ؟ !

سرعرع : هذا مايشق عليّ فهمه . لقد أنفقت طويل وقت أفكر ، فما استطعت إلى الفهم سبيلا .

زفّاف : ما أغباك !

سرعرع : فلنفرض جدلا أنى غبيّ ، ألا يحق للغبيّ أن يستنير ؟ أرجو منكما أن تكشفا الغشاوة عن عينيّ ، وأن ترفعا لى الحجاب عن هذا اللغز العصىّ .

زفاف : أمن العقل أن يجرى « بزعبول » تجربته فى منطقة عامرة بالسكان ، ليلمّ الناس بمشروعه فيفسدوه ، ويحيطوا بتدبيره فيحبطوه ؟

خلوب : ألست تراه قد أقام الأحراس حول البحيرة ، ليحفظها من أعين الآدميين أهل الفضول ؟ ألست أنت بين هؤلاء الأحراس الذين يحفظون هذه البقعة ، ويمنعون أن يقترب منها آدمىّ ؟

سرعرع : لقد حاول — مرات — بعض الصيادين الأغبياء أن يقتربوا من البحيرة بغية الصيد ، فأثرنا فى وجوههم الأعاصير العاتية ، حتى جلوا عنها . . . لقد آمن بنو « آدم » بأن هذه المنطقة عليهم حرام . . .

خلوب : من يدرى ؟ ربما عادوا يحاولون الارتياد ، فلزام أن نكون منهم على حذر .

سرعرع : (يهرش رأسه ، فى حيرة) : ولم يخشى الزعيم «بزعبول» على تجربته من « بنى آدم » ؟

زفاف : لأن ربيبته « أزاهير » من بنات الإنس . . .

خلوب : . . . لقد اختطفها الزعيم وما برحتْ طفلة رضيعاً ، اختطفها من كوخ يأوى إليه آدمىّ من معشر الرعاة ، ومالبث الزعيم أن أنزل الطفلة هذه البقعة ، حيث أقام لها القصر البلورىّ الفاخر وسط البحيرة ، وأحاط القصر ببستان يحفل بالطرائف ، ثم نشر السحب فوق سطح البحيرة ، إخفاء للقصر عن العيون .

زفاف : واستقدم لهذه الطفلة السعيدة جمع الحواضن والمربيات ، لينشئنها على أقوم السبل ، ويلقنّها الحكمة والخير ، ويبعدن عنها دواعى الشر ، ويجعلنها بحق جديرة بذلك اللقب الذى أطلقه عليها : « فُضلى العذارى » . . .

سرعرع : (مفكراً ، مهمهماً) : وفيم هذا العناء كله ؟

خلوب : (صائحة) : سحقاً لغباوتك !

سرعرع : (صائحاً) : لقد اعترفت جدلا بأنى أغبى أغبياء الجنّ ... ألا يحق لى أن أسأل ؟

زفاف : اسأل سؤالا معقولا .

سرعرع : وهل الغبىّ فى عرفكم يسأل سؤالا معقولا ؟ !

خلوب : ماذا تريد أن تعلم أكثر مما علمت ؟
سرعرع : أريد أن أتبين العلاقة بين ربيبة الزعيم التى يلقبونها « فُضلى العذارى » وبين التجربة العظيمة التى يقوم بها زعيمنا ليثبت للملأ أننا على عمل الخير قادرون .
زفاف : (يرهف السمع لصوت خفى ، هامساً فى انزعاج) : صمتاً . . . صمتاً . . .

يعود إلى إرهاف السمع :

أحس تموجات خاطفة فى الهواء !

سرعرع : (يرتجف وتصطك أسنانه) : تموجات فى الهواء . ماذا تعنى؟
خلوب : أعنى أن الرسول قادم .
سرعرع : إذن فاسمحوا لى أن أنصرف على الفور . سأعجل إلى مكانى فى الحراسة على شاطىء البحيرة .
خلوب : انتظر .
سرعرع : ماذا أنتظر ؟ . . . أنتظر السؤال والتحقيق ، والقذف بى فى السجن أسفلَ سافلين ؟ لا . . . لا ... دعنى !
زفاف : (هامساً بشدة ، شارعاً قرنيه) : قلت صمتاً .
سرعرع : أطعتُ . . . صمتاً . صمتاً .
زفاف : إن الرسول قادم يقيناً . . . ولكنى أتبينه رسولا له خطره .
سرعرع : (فى خوف بالغ) : ماذا تقصد بأن له خطره ؟

خلوب : أتقصد أنه . . .

زفاف : (يهمس بشدة) : قلت صمتاً .

يرهف قرنيه

سرعرع : أمرك مطاع ، إنا صامتون ، لاننبس .

زفّاف : رسول خطير الشأن . . . قرناى لا يكذِبانِى أبداً !

فى هذه اللحظة يهبط « أرقط » من السقف فى زفيف من الريح ، ولا يكاد يظهر حتّى يعدو « سرعرع » مستخفياً فى خوف

خلوب : السيد « أرقط » العظيم ؟

زفاف : عميد المستشارين . . .

« خلوب » ، و « زفاف » ينحنيان أمام « أرقط » فى إجلال بالغ له

أرقط : طاب يومكما .

زفاف وخلوب : يومك أطيب يا سيدى العميد .

خلوب : ظَنَنَّا أن الرسول من جماعة الرسل المألوفة ، فإذا بفخامة العميد يقدم هو نفسه !

أرقط : بعثنى الزعيم « بزعبول » لآتى له بنبإٍ يقين .

خلوب : وهل هو فى ريب من شىء ؟

أرقط : كلا . . . ولكنه . . . ولكنه يرغب فى أن أجلو له

حقيقة الأمر بعد عِيان منى .

زفّاف : أؤكد لفخامتك ، أن الأمور تجرى وفق ما رسمه زعيمنا العظيم . وكلنا فى خدمته فانون .

أرقط : سأتحقق ذلك بنفسى ، سأخبُر مدى إخلاصكم فى إنفاذ أمره . . . انصرف يا « زفاف » فطف بالبحيرة طوفة ، وتفقد أبراج الحراسة ، وعد لتنهى إلىّ ما ترى .

زفاف : الطاعة لصاحب الفخامة .

ينصرف « زفاف »

خلوب : أثمة ما يثير ارتيابك بشىء يا سيدى المستشار ؟

أرقط : لا . . . لا . . . إن هى إلا شائعات . . .

خلوب : أية شائعات هى ؟

أرقط : يقال إن إنسيًّا يلمّ بهذه البقعة .

خلوب : أيجرؤ امرؤ على أن يقترب من المنطقة ؟ لقد أيقن بنو « آدم » أن هذه البقعة تكفُلها الزوابع العاتية ، وأن الإلمام بها غير مستطاع لأحد .

أرقط : سينجلى الأمر بعد حين . . . أين تقريرك يا « خلوب »

« خلوب » تخرج من صدرها قرطاساً تقدمه إليه

خلوب : هاكه يا سيدى المستشار .

يتناول منها التقرير ، ويلقى عليه نظرة خاطفة ، ثم يدسه فى صدره

أرقط : ما أشبه التقارير بعضها ببعض !

خلوب : إنها تصور الواقع أدق تصوير .

أرقط : (يمس لحيته ذات الشعب الخمس) : علمتنى هذه اللحى الخمس التى أنبتها تجارب المئين من السنين ألا أسارع إلى تصديق ما تحويه أمثال هذه التقارير . . . هذه التقارير ! إنها تقليد آدمىّ ممقوت ، تسربت عدواه إلينا من البشر .

خلوب : سيدى العميد !

أرقط : اسمعى يا «خلوب» : نحن الآن مختليان ، وكلانا لصاحبه صديق قديم ، ومن حق الصداقة التى بيننا أن نكون صريحين . . . هذه التجربة التى يزاولها زعيمنا العظيم تجربة جدّ خطيرة ، وأنت تعلمين أنى كنت إزاءها من المعارضين . . . ولكنى الآن أود أن أعرف على الوجه الصحيح ماذا بلغت هذه المحاولة من مراحل التوفيق . أما التقارير فإنى أراها تتغالى فى وصف «أزاهير» — « فُضلى العذارى » — تتغالى فى الإشادة بهدوئها ، وصفاء روحها ، ونقاء طويتها !

خلوب : (متحمسة) : هذا هو الواقع يا سيدى العميد ، قسماً بلِحيَتى فخامتك الخمس : إنه لا مبالغة فى الوصف ولا غلو .

أرقط : دعينا من فخامتى ، ومن لحى فخامتى الخمس ، واصدُقينى القول ، وليكن قسمك بما بيننا من ود وثيق .

خلوب : (فى توكيد) : ثق يا سيدى العميد أن كل شىء يجرى وفق الخطة المرسومة . إن « أزاهير » ، منذ هبطت قصرها البلورى وهى طفلة ترضع ، حتى يومها الحاضر وهى فتيّة فى زهرة الصبا ، لم تقع عينها على رجل . إنها لم تعرف غير المرأة من صاحب وعشير . وإنها تحيا فى قصرها معنا نحن حواضنها ومربياتها ناجية كل النجاة من عوامل الشر وبواعث الألم . لقد أحطناها بجو من الطهر والصفاء ، وغرسنا فى قلبها حب الفضيلة والخير . حتى أصبحت أعجوبة الأعاجيب . إنها ــ حقّاً ــ ملك طهور .

أرقط : « أزاهير » ملك طهور ! . . . أيكون « بزعبول » زعيم الأبالسة ، قد استطاع حقّاً أن يجعل من نسل « آدم » ــ رمز الشر كله ــ ملكاً طهوراً ؟ !

خلوب : هذا هو الواقع يا سيدى العميد .

أرقط : أريد أن أجتلي الأمر بنفسى ... أين المرآة السحرية ؟

« خلوب » ترفع الستارة عن مرآة عظيمة فى ركن القاعة

خلوب : ها كها .

أرقط : دعيني أنظر « أزاهير » بنفسى فى قصرها العتيد .

الظلام يتغشى المكان ، المرآة تسطع ، تبدو « أزاهير » فى البستان على متكإ وثير ، مصغية إلى موسيقى هامسة وقد تراءت عليها وضاءة ونقاوة ، ومن حولها الوصائف .

الموسيقى تتزايل ، والظلام يتكاثف ، والستارة تنسدل على المرآة رويداً .

الإضاءة تعود إلى سابق عهدها .

خلوب : ما قول عميد المستشارين فيما رأت عيناه ؟

أرقط : (يخلل بأصابعه لحاه الخمس فى تفكير) : أمر عجيب !

خلوب : لقد نجحت التجربة .

أرقط : هذا ما كنت أخشى . . .

خلوب : مم خشيتك يا سيدى العميد ؟

أرقط : أنتِ لى صديق يا « خلوب » ، وما كتمتك أمراً منذ تعارفنا على عهد الصبا . . . فما أنا كاتمك الآن خبيئة نفسى . إنى لأخشى إن نجحت هذه التجربة أن يكون

فى ذلك قضاء مبرم على كل ما لنا من سمعة وكرامة . .

خلوب : سمعة وكرامة ؟ !

أرقط : أجل سمعتنا وكرامتنا التى طبقت الخافقين ، السمعة والكرامة التى يعرفها المشرق والمغرب لمملكة الجن وشعب الأبالسة . أليس كياننا يقوم على الشر والإفساد ؟ أوليس الشر صنواً لإبليس ؟ أوليس الإفساد معنى الشيطان ؟ فإذا نزعنا من كياننا هذا الجوهر الغالى فماذا أبقينا لأنفسنا من سمعة وكرامة ؟

خلوب : (مفكرة) : هذا حق . . . ولكن ما رأيك فى أن نعلن على الملإ : أننا أصبحنا أهل استقامة وصلاح ، فنستبدل بالشر جوهر الخير ؟

أرقط : الخير . . . الخير . . . الناس أجمعون يزعمون أنهم يعملون الخير ، وأن البشر على الخير مفطور . . .

خلوب : حقاً إنهم يزعمون هذا ويغالون فيه ، ولكن أحداً منهم لم يستطع أن يعمل الخير المحض ، ولم يستطع أن يدل على أنه جدير بعمل الخير دون مغنم . فإذا جئناهم نحن بالخير المحض ، وأقمنا البرهان على أننا أهل لعمل هذا الخير بلا رغب ولا رهب ، كسبنا المعركة من بنى « آدم » ، وطارت لنا شهرة جديدة ، يتغير بها وجه

الناموس الكونىّ العام .

أرقط : تعنين أن يصبحوا هم الشياطين ، ونصبح نحن الأطهار؟ هم دعاة الفساد ونحن دعاة الخير ؟ !

خلوب : أليست هذه هى الحقيقة أيها السيد « أرقط » ؟ إن ما يفعله « بزعبول » لا يعدو أن يكون وضعاً للأمر فى نصابه ، وعوداً بالحق إلى أربابه . وإذن تتجلى حقيقة طالما أخفاها بنو « آدم » ، إذ نسبوا إلينا الشر وهم الأشرار ، وجردونا من الخير ونحن الأخيار .

أرقط : هذه هى الحقيقة الكبرى . ولكن ما نفع الجهر بالحقائق الكبرى ؟ التمويه سائد منذ الأزل ، فلندعه على حاله . ما جدوى إرجاع الأمور إلى أصولها الصحيحة ، إذا كان الأمر الواقع هو المعوّل عليه فى التقدير والتدبير ؟ إن العالم العظيم الذى يضم الخلائق كلها من إنس وجن قائم كله على قلب الحقائق ، على الكذب ، على النفاق ، على الخداع . تلك هى العمُد الراسخة التى يقوم عليها مجتمعنا كله . فإذا حاولنا تغيير هذه الأوضاع ، انهار المجتمع ، وخرّ من قواعده . إن بنى « آدم » يشيعون أن يوم القيامة سيحل عندما يتفاقم الشر ويستفحل الفساد ، ولكننى أنا ، أنا « أرقط » عميد مستشارى

« مملكة الجن الأحمر » أقرر : أن يوم القيامة هذا لا يحل بنا إلا يوم تتوضح الحقائق ، وتنمحى آية التمويه والخداع !

خلوب : (مرتجفة) : إن ما تقوله يبعث فى نفسى الخوف .

أرقط : هى الحقيقة يا « خلوب » ... ولما كان قيام الساعة هو أذان بانقضاء دولتنا المكينة ، فعلينا إذن أن نسعى جاهدين لطمس الحقائق ، ونشر الأكاذيب . . . لا تنسى أننا شياطين ، شياطين . . . وسنظل أبداً شياطين ! . .

تنبت له أجنحة يعلو بها وهو يصيح مردداً كلمة « شياطين » حتى يتزايل شبحه من المكان .

خلوب : (مرددة فى اهتياج) : شياطين . . . شياطين !

يقدم « زفاف » فى عجلة واهتياج

زفاف : أين عميد المستشارين ؟

خلوب : (تحدق إليه حيرى ذاهلة) : إنى فى خوف . .

زفاف : أتراك علمت الخبر !

خلوب : أهناك خبر أروع مما أدلى به إلىّ العميد ؟ !

زفاف : ماذا قال لك العميد ؟

خلوب : حدثنى بيوم القيامة ، وأنه أذان بانقضاء دولتنا المكينة ...

زفاف : يا سيدتى « خلوب » أفيقى . . . أين نحن من يوم

القيامة ؟ إن يوم القيامة الذى تتحدثين عنه بعيد جدّ بعيد ، ولكن ثمة يوم قيامة آخر أشد هولا ، وإنه لـوَشيك .

خلوب : ماذا تعنى ؟ . . .

زفاف : أين عميد المستشارين ؟

خلوب : مضى عائداً إلى موطن الجن . . .

زفاف : أحمد لك يا إله النار الأعظم !

خلوب : ماذا وراءك ؟

زفاف : (يتكلم مبهور الأنفاس) : قرر أحراس البحيرة : أنهم لمحوا شبح إنسان جميل ، يرتاد البقعة ، متفحصاً متقصياً . . .

خلوب : إنسان جميل ؟ . . . وفيم ارتياده البقعة ؟

زفاف : ما أحسب أن له بنا حاجة . . . إن هى إلا شهوة التعرف ونزعة الاستطلاع ، تلك الخلة الذميمة التى لم يبرأ منها « ابن آدم » منذ الأزل .

خلوب : لزام أن نأخذ بتلابيبه على الفور . .

زفاف : ولكن علينا أن نكتم الخبر ، فلا يذيعه منا أحد .

يقدم « سرعرع » مهتاجاً

« زفاف » يقول له :

ما وراءك من الأخبار يا « سرعرع » ؟

سرعرع : وهل عندى خبر إلا خبر هذا الآدمىّ العجيب الذى لمحوه يرتاد المنطقة ؟

زفاف : ذلك نعلمه . . . أثمة من جديد ؟

سرعرع : لقد لمحت شبحه بعينى رأسى . بعينى رأسى أنا !

زفاف : ألم تأخذ به ؟

سرعرع : ما كدت أعجل إلى ناحيته ، حتى تزايل عنى ،فلم أجد له من أثر . . . لكأنه قد تطاير بخاراً فى الهواء !

خلوب : أكاد أوقن أنك واهم . . . ليس فى هذه البقعة من آدمىّ ، ولا ظل لآدمىّ ، كيف يستطيع أن يتزايل وكأنه يتطاير فى الهواء بخاراً ؟ أظننت أن له مقدرتنا على التزايل والتطاير ؟ أذهب عنك أنه آدمىّ من ماء وطين؟ مهما يكن من أمر فعلينا أن نضاعف اليقظة ، وأن نشتد فى الحراسة . إنى راجعة إلى القصر البلورىّ ، لأتفقد ربيبتى « أزاهير » .

تنصرف من الثغرة طائرة .
« سرعرع » ، و « زفاف » ، يزفران ، ويمسح كل وجهه فى جهد

سرعرع : يا لهذا اليوم النكد !

زفاف : متاعب وهموم يأخذ بعضها برقاب بعض . لقد جف

حلقى وتشقق . علىّ بقليل من ماء الحميم . . .

« سرعرع » يأتى له بابريق .
« زفاف » يجرع منه بعض جرعات ، ثم لا يلبث أن يمجها .

سرعرع : لماذا تمج الماء من فيك ؟ لقد تخيرته لك من ذوب النار المصفى .

زفاف : (حانقاً) : لا أجد مَساغه طيباً . . .

سرعرع : هذا ما أستطيع أن أقدمه لك أيها السيد « زفاف » . ليس عندى سواه .

زفاف : وهل رغبت إليك فى أن تقدم لى شيئاً غيره ؟

يغدو ويروح فى ضيق .
« سرعرع » يتناول جرعة من الإبريق ، ولا يلبث أن يمجها فى تأفف .

ماذا بك يا سيدى ؟

سرعرع : لا أجد مَساغ الماء يطيب لى . . . لماذا حرمت الخمر فى مملكة الشياطين ؟

زفاف : لأنها أس المنكرات .

سرعرع : وحق رءوس الأبالسة إنها لأطيب ما يروى من ظمإ . . .

زفاف : (صائحاً) : بل هى أم المساوئ جميعاً .

سرعرع : إن فيها لأمثالى سلوة وغناء . إذا أجهد المرء منا نفسه ، ثم تناول منها جرعة ، راجعه نشاطه . . . ثم لا تسل عن تلك البهجة التى تشيع فى أوصاله حين يدبّ فيها دبيب السكر .

زفاف : (صائحاً) : أمرى إليك أن تكف عن ذكر أم الخبائث ، لقد ثبت ضررها ، وأقر المجلس الأعلى تحريمها علينا .. إياك أن تلفظ اسمها مرة أخرى .

تسمع جلبة فى الخارج

اخرج ، وانظر ما شأن هذه الجلبة ؟

« سرعرع » ينصرف . « زفاف » يذرع المكان مهتاجاً ، يجوز بإبريق الماء . يرميه بنظرة حانقة . ثم لا يلبث أن يدفعه بقدمه .
« سرعرع » يقدم عجلا .

ماذا ؟ !

سرعرع : عفريت من الجن ، قُبض عليه متلبساً بجريمة .

زفاف : أية جريمة ؟

سرعرع : إنها جريمة . . . جريمة وكفى .

زفاف : (صائحاً) : قل . . . أية جريمة ؟

رئيس أحراس البرج يقدم ، ومعه ثلة من الأعوان يمسكون بجنى يترنح من السكر .

رئيس الأحراس: (مشيراً إلى الجنى السكران) : لقد ألفيناه ثملا يعربد .
الجنى الثمل: (متمايلا) : أنا ثمل أعربد ؟ . . أتجرؤ يا حضرة الضابط أن تتهمنى بأنى سكران ؟

يلتفت إلى « زفاف » مشيراً إلى قرنيه

وحق هذين القرنين العاليين إنى لم أذق فى حياتى هذا الماء المسمى خمراً !

يكاد يسقط من شدة السكر .
يتدانى منه « زفاف » متفحصاً إياه

زفاف : ما اسمك ؟!
الجنى الثمل : خادمك « طغيان » .
زفاف : من أى عشيرة أنت ؟
طغيان : من عشيرة الفتاكين البواسل .

يكاد يتهاوى

زفاف : استقم فى وقفتك . . .

يحاول « طغيان » أن يتمالك

من أين لك بهذه الخمر التى شربتها ؟
طغيان : أية خمر يا مولاى ؟ . . أجازت عليك فرية هذا السيد المأفون ؟

يشير إلى رئيس أحراس البرج ، فيرفع
رئيس الأحراس قبضته فى وجه « طغيان »
مهدداً

زفاف : وحق الجحيم لأنزلن بك عقوبتى . إن جرمك هذا يستوجب أن تُزَج ألف ألف سنة فى قمقم صغير .

طغيان : (صائحاً ، متضرعاً) : قمقم ؟ . . . أى قمقم ؟ . . . الرحمة ! . . . الرحمة !

رئيس الأحراس : أيريد مولاى أن ينزل به القصاص من فوره ؟

« زفاف » يفكر فى جيئة وذهوب

زفاف : (لرئيس الأحراس) : انصرف أنت ومن معك الآن . واترك هذا الجانى معى... سأقتص منه بنفسى . منحتك الوشاح الأكبر من « وسام اليقظة » . أما أعوانك فقد منحتهم « أنواط النشاط » . أهنئكم . شددوا الحراسة ، وكونوا عند حسن ظنى بكم .

رئيس الأحراس وأعوانه ينحنون شاكرين
وينصرفون

زفاف : (« لسرعرع ») : ألق على هذا الثمل قليلا من « حامض الكبريت الأزرق » ليعود إليه وعيه .

« سرعرع » ينفذ ما أمر به « زفاف »

زفاف : («لطغيان»): أما زلت ثملا ؟
طغيان : (وقد زال عنه سكره) : مغفرة يا مولاى . . .
سرعرع : (هامساً فى أذن «طغيان») : إذا أخبرتنى من أين أتيت بالخمر ، تشفعت لك عند السيد العظيم ليخفف عنك العقوبة .
طغيان : إذن لا مناص من الاعتراف !
سرعرع : تكلم واعجل . . .
طغيان : أعترف بأنى قد شربت الخمر .
سرعرع : هذا أمر لم أسألك فيه . . . أريد أن أعلم من أين أتيت بالخمر ؟
طغيان : هى بضع زجاجات سرقتها من حانة آدمية . . .
سرعرع : وهل شربت كل ما سرقته؟... ألم تبق لديك بقية ؟ !
طغيان : (ملتفتاً إلى «زفاف») : الرحمة . . . الأمان . سأعترف بكل شىء إذا وعدتنى بالأمان .
زفاف : أعدك به . . .
طغيان : لم يبق عندى سوى هذه ...

يخرج من عباءته زجاجة ، فيندفع «سرعرع» إليه ، ويجذبها منه . يتقدم «زفاف» فيتناول الزجاجة من يد «سرعرع» ، متظاهراً بالرزانة ، وينعم فيها النظر لحظة .

زفاف : (« لطغيان ») : لقد وعدتك بالأمان ، وسأفى بوعدى .

« لسرعرع » :

ناولنى هذا الكوب لأرى أى نوع من أنواع الخمر هذا الشراب ؟ لا بد من فحص وتحليل . . .

إظلام لحظات . . . الضوء ينطلق .
يشاهد « طغيان » قادماً ، وخلفه تابعه الخاص « زعرور » .
« زعرور » يحمل قنانى مترعة بالخمر ، يرصها على الأرض .
« طغيان » يعد القنانى ، ويتشمم ما تحويه .

طغيان : حسناً . . . حسناً ... يا « زعرور» . . . إنها من الخمر التى لا يدانيها فى حدتها شراب !

زُعرور : (وهو يمسح جبهته) : أنسيت يا سيدى الأمير تلك المادة السحرية التى جعلناها مزاجاً لهذه الخمر ؟ . . إن سيدى الأمير بلا شك . . .

طغيان : صه . ولا تلقبنى هنا بالأمير . هذه المادة العجيبة أكسبت الخمر نكهة طيبة منقطعة النظير . . .

زعرور : وإنها لتذهب بوعى شاربها على الفور ، فإذا هو فى سبات عميق . كن على طمأنينة يا سيدى الأمير .

طغيان : نهيتك يا « زعرور » ، أن تجرى على لسانك لفظ

الأمير . . . أنا هنا « طغيان » ، أنتمى إلى عشيرة « الفتاكين البواسل » .

زُعرور : من « الجن الأحمر » . . . هذا مفهوم . وأنا « زعرور » تابعك ، من عشيرة « الجن الأزرق » .

طغيان : ونحن نعمل فى خدمة الزعيم « زفاف » .

زعرور : وهو راض عنا كل الرضا . ما أعجب حالنا : أناس من البشر ، يستخفون فى زى الشياطين !

يحدق إلى الأمير

ياالله ! كيف تنكرت سماتك الجميلة فى هذا المظهر البشع ؟ معذرة يا سيدى عما أقول . لقد اتخذتَ لك سحنة من أبشع السحنات . وهذه اللحية . . . اللحية ذات الشعب العشر . . .

يتضاحك مهتزاً ممسكاً بجوانبه

طغيان : أما أنت يا « زعرور » ، فالحمد لله على أننا لم نلق جهداً ولا عنتاً فى سبيل تغيير سحنتك . . . لقد كانت لك بين البشر سماء العفاريت !

زعرور : ليس فى ذلك ما يضيرنى ، فإنى إذن مستطيع أن أجد لى عملا كريماً فى هذه المملكة العتيدة يلائم مقامى !

طغيان : لا ثرثرة ولا هذيان . . . لم نأت لنضيع الوقت فى

لغو الحديث . . . أول ما يجب علينا أن نذكره هنا أننا من زمرة الشياطين .

زعرور : شياطين أولاد شياطين. اطمئن ، سأذكر ذلك لا أنساه. وهل أنا من البلاهة بحيث أكشف عن سرك وسرى فى هذه البقاع السحرية التى يسيطر عليها الجان ؟ . . . حقاً لو كشفوا أننا من بنى « آدم » ! ..

طغيان : لا تذكر كلمة بنى « آدم » هنا ، وإلا كان نصيبك ...

زعرور : أن يشوى لحمى على السفود . . . أعلم ذلك . . . ولكن ائذن لى أن أقول لك شيئاً : كنت أحسب ، فى سالف أمرى ، قبل أن أعيش مع الشياطين ، أن هذه المخلوقات ماكرة خبيثة ، فإذا بى يتبين لى أنهم لا يعدون أن يكونوا مخلوقات ضعافاً لا حول لها ولا قوة .

طغيان : أتقول إن الشيطان لا حول له ولا قوة ؟ !

زعرور : ألم تستطع أنت يا سيدى ، بحيلتك ومهارتك ، أن تضحك منه ، وتستهزئ به ، فتستر عنه شخصيتك الآدمية ، شخصية الأمير « زبرجد » العظيم ، وتتخذ لك اسم « طغيان » ، وتبدو فى هيئة شيطان ؟

طغيان : لم أبلغ هذا المبلغ ، إلا بإتقانى الأساليب الشيطانية فى السحر ، وتخرجى فى كنف عميدة السواحر « نكباء »

زعرور : ما أعظمك وما أروعك يا سيدى الأمير « زبرجد »

مستدركا فى عجلة :

بل يا سيدى « طغيان » . . . ولكن . . . ولكن فيم كل هذا ؟ . . . فيم تعرض نفسك لهذا الخطر الجسيم ؟!

طغيان : حقًّا لا أدرى !

زعرور : أليس من دافع يحدوك على هذا العمل ؟ أليس من غاية تريد أن تبلغها ؟

طغيان : أتحسب يا « زعرور » أن لكل إنسان غاية ينشدها فيما يقبل عليه من مخاطر ، وما يتجشمه من صعاب ؟

زعرور : أوضح يا سيدى ، فإنى لا أفهم ما تعنى . . .

طغيان : ربما ألقى المرء نفسه فى أعظم مخاطرة ، لا لشىء إلا لنزوة طارئة . . . إنه ليجد نفسه مسوقاً فى طريقه ، لا إرادة له فى ذلك ولا خيرة ، يدفع خطاه باعث خفىّ مجهول . . . حقًّا إن نفس الآدمىّ لهى لغز الألغاز !

يصمت هنيهة ، ثم يستأنف قوله :

ولكن . . . هذا هو الإنسان ، وتلك ميزته التى تفرق بينه وبين خلق الله أجمعين . . .

فترة صمت ، ثم يعاود الكلام مناجياً نفسه :

لماذا أتيت هنا ؟ . . . لماذا أنا مقبل على هذه المخاطرة الطائشة ، لا أبالى العواقب ، ولا أخشى التبعات ؟

زعرور : أجل ، لماذا . . . لماذا ؟ !

طغيان : أتيت هنا مع الصيادين مرات ، فأحسست أن المكان يسوده جوّ من الأسرار ، وتشيع فيه ألوان من الغرائب .

يشير إلى الثغرة وخلفهما تتراءى السحب :

إنها سحب أكاد أحسبها جامدة !

زعرور : الحق أنها تمرّ يا سيدى . . .

طغيان : نعم تمر فى تباطؤ . . . هذا صحيح ، ولكنها لا تنقشع أبداً . . . إن المنطقة وسط البحيرة ، وهى دائماً مغشّاة بالسحب . . . ليت شعرى ماذا تخفى هذه السحب المتلاحمة ؟ !

يسمع صوت أشبه بمروق شيء فى الهواء

صه . . . فإننا على وَشْك استقبال . . .

يقدم « زفاف » ، ومعه « سرعرع » هابطين من الثغرة

زفاف : أنت هنا يا « طغيان » ؟

طغيان : قدمت وفق موعدنا المضروب أيها الزعيم .

« زفاف » يخلع عباءته وخفه ، ويسلمهما إلى « طغيان » . « سرعرع » يخلع عباءته وخفه ، ويسلمهما إلى « زعرور » . « طغيان » ، و « زعرور » يضعان الملابس فى كن حريز

زفاف : إنى أجدك — يا « طغيان » — شيطاناً نشيطاً ، تنهض بعملك خير نهوض .

طغيان : حسبى من الزعيم هذا الرضا ، وإنى به لفخور . . .

سرعرع : (« لزعرور ») : وأنا معجب بك أنت أيضاً أيها « الزعرور » وإنى أمنحك رضاى ، بالرغم من غباوتك !

يقول ذلك فى إمرة وتنفخ

زُعرور : رضا مولاى « سرعرع » هو كل ما أبغيه فى الحياة .

يبدى أمام « سرعرع » ألواناً من التلوى والانحناء ، مجتهداً فى إظهار الخضوع والتجلة ، حتى ليكاد ينقلب على ظهره .

سرعرع : حسبك . . . حسبك . . . أعرف إخلاصك وتمجيدك لمقامنا الكبير !

« زفاف » يعتلى أريكة فخمة عالية ، يتمدد عليها ، يخاطب « طغيان » الماثل أمامه فى احتشام وتوقير :

زفاف : إيه يا « طغيان » . . . والمهمة التى من أجلها بعثت بك

إلى الأرض ، أأصبت فيها توفيقاً ؟

طغيان : (وقد تدانى من « زفاف » هامساً) : كل التوفيق ، أيها الزعيم . . . لقد أحضرت القوارير معى ، واجتهدت فى إخفائها عن الأنظار ، فلم يدرك أحد الحراس من أمرها شيئاً .

زفاف : (متضاحكاً) : يا لك من ماكر جسور ، وحق إله النار لأمنحنك « وسام الثعابين المرقش » ! . . .

طغيان : زدت يا مولاى من عظمة ومجد .

زفاف : والآن جئنا بشيء مما أتيت به ، لنخبر ذوقك فى الاختيار . . .

يهرع « طغيان » إلى إحدى الزوايا ، فيرجع بقارورة ملئت بالخمر ، وما هى إلا أن يقدمها إلى « زفاف » فيكرع منها ، على حين يتحدث إلى « طغيان » حديث ملاطفة وإيناس فى صوت مخفوض .

« سرعرع » فى أثناء ذلك يتمدد هو الآخر على حشية بسطها له « زعرور » ثم يتبادلان حديثاً خاطفاً ، فنرى « زعرورا » قد أحضر قارورة أخرى من الخمر ، وجعل يسقى « سرعرعاً »

سرعرع : حقًّا . . . إنك لمن أمهر السقاة . ولكن هذا لا ينفى أنك نادرة الأغبياء . . . اعترف بذلك يا « زعزوع » !

زعرور : من يكون « هذا الزعزوع » أيها الزعيم ؟

سرعرع : أليس هو اسمك ؟ !

زعرور : اسمى « زعرور » أيها الزعيم .

سرعرع : (وقد جرع من الخمر جرعة وافية) : زعزوع . زعرور . بعرور . فليكن اسمك ما يكون !

زعرور : حقًّا فليكن ما يكون .

يتضاحكان

طغيان : (« لزفاف ») : عجيب ماأخبرتنى به أيها الزعيم : القصر البلورى . . . فُضْلى العذارى « أزاهير » . . . تجربة الخير والفضيلة . . . يا لإله النار من عظمة « بزعبول » !

زفاف : (وقد تثاقل لسانه) : ذلك سر لا يعرفه إلا زعماء الأباليس . . . وقد أفضيت به إليك ، لثقتى بك . . . حذار أن تبوح به لأحد !

رأس « زفاف » يسقط على الوسادة بلا حراك .
« طغيان » ينظر إليه مليًّا ، فيجده قد غشيه سبات . يهزه فى لطف فلا يتحرك . يهزه بشدة فلا يستجيب .
« سرعرع » تملكه غيبوبة ، كغيبوبة « زفاف »
« زعرور » يهز « سرعرعاً » فلا يتحرك . يمسك بذيله ويعضه فلا يستجيب .

طغيان : لقد غرقا فى سبات عميق لن يُفيقا منه إلا بعد ساعات طوال . . . هيّا « زعرور » .

زعرور : ماذا أيها الأمير ؟

طغيان : هيّا ، ولنطر .

يتجه إلى الركن الذى وضع فيه ملابس « زفاف » و « سرعرع » فيخرجها . يرتدى عباءة « زفاف » وخفه ، ويرمى إلى « زعرور » بعباءة « سرعرع » وخفه .

اعجل ، والبس كما لبست . ستكون لك خفة الطير ، لا تهاب الرياح .

زعرور : (يلبس على كره) : إلى أين تريدنى أن أطير ؟

طغيان : إلى القصر البلورى . . . إلى فُضلى العذارى : « أزاهير » !

« زعرور» يطيع ، مشدوها .
« طغيان » ومن ورائه « زعرور » ينفذان من الثغرة طائرين .

الفصل الثالث

مخدع « أزاهير » .

نور ينبعث من قنديل يتدلى بجوار رأس الأميرة النائمة ، وقد ترسلت عليها شعاعة وادعة من ضوء القمر .

وجهها عاجى ، تظهر عليه ابتسامة ثابتة ، كأنها مصنوعة .

باب كبير إلى اليمين ، يسلم إلى مستشرف فسيح . يلوح « طغيان » — وهو الأمير « زبرجد » — فى عباءة « زفاف » ، وخفه . يتقدم فى حذر ، وهو يتلفت متفحصاً ما حوله .

« زعرور » يدلف خلف « طغيان » وهو فى ملابس « سرعرع » ، مبعثراً نظراته فى ترقب وخشية .

طغيان : (ناظراً إلى « أزاهير » من بعيد . يهمس « لزعرور ») : إنها فى سبات عميق .

زعرور : أما أطلقنا البخور السحرى فى القصر كله ، فنام جميع من فيه بلا إبطاء ؟

طغيان : أعطنى مسحوق الانعاش .

« زعرور » يخرج المسحوق من صدره ، ويناوله « طغيان »

اخرج أنت الآن يا « زعرور » وانتظرنى فى أقصى المستشرف . ولتكن يقظاً تترقب .

زُعرور : أنتظرك وحدى ؟ !

طغيان : أطع أمرى .

زعرور : (منحنياً) : السمع والطاعة ، ولكنى أرجوك ألا تطيل المكث . . . لا تقس علىّ !

« طغيان » يشير إليه إشارة الآمر .
« زعرور » ينصرف مستسلماً .
« طغيان » يمثل وسط الحجرة ، ثم يستدير دفعة واحدة ، فإذا به قد انقلب فى لحظة فتى وسيم الطلعة ، عليه شارة الإمارة ، فاخر الثياب ، يتدانى من « أزاهير » وئيد الخطا . يقف فى منتصف الطريق . يتلفت حوله .

زبرجد : سبحانك اللهم جلت قدرتك . . . تبارك الله أحسن الخالقين . . . أيكون هذا الحسن العبقرىّ إنسيًّا ؟

يخطو قليلا نحو « أزاهير » ثم يقف محدقاً إليها ، يتلفت حائراً متردداً :

لا أدرى . . . فيم قدومى هنا ؟ وماذا أعمل ؟

ينظر إليها :

يا للفتنة الباهرة !

يزداد من المخدع دنواً ، وينثر حوله مسحوق الإنعاش . يعاوده التردد والحيرة.

لا . . . لا .

يتقهقر خطوات . . .
« أزاهير » ترفع جفنيها ، وتتنفس

لا . . . لا .

يزداد تقهقره ، فيعثر فى وسادة ، يضطرب فى وقفته . فيستند إلى خوان بجواره .
تحدث من كل ذلك حركة ، وينبعث صوت ، فتنتبه « أزاهير » وتكتمل فيها اليقظة .

أزاهير : (تتكلم بهدوء ، متخذة فى خطابها صيغة التأنيث) : هل أرسلتك « خلوب » بشىء لى ؟

يلبث « زبرجد » محدقاً إليها وهو صامت مأخوذ . تتابع قولها ، وهى على حالها فى سكون :

لماذا أيقظتنى ؟

زبرجد : (ينحنى أمامها) : السلام على الأميرة « أزاهير » .

تعلو « أزاهير » برأسها ، فترنو إليه متطلعة ، ثم لا تلبث أن تطلق ضحكة رقيقة

أزاهير : (وهى رانية إليه ساكنة): إن صوتك غريب ، وأغرب منه هذه الثياب التى ترتدينها . لم أرسلتك « خلوب »

توقظيننى ؟ !

زبرجد : (مقبلا عليها ، كأنه ينجذب نحوها مسحوراً) : لم ترسلنى «خلوب» . . .

أزاهير : لم أرك هنا من قبل .

زبرجد : لست من سكان القصر .

أزاهير : (فى سكينة) : من أنت إذن ؟ !

«زبرجد» يصمت لحظات وهو إليها محدق ، ثم يجد نفسه قد تراجع راغباً فى الفرار . على حين نرى «أزاهير» تغادر المخدع ، وتسير فى خطوات هادئة صوبه . . .
يقف «زبرجد» وقد ملكته الدهشة والحيرة .
تقترب منه «أزاهير» وكأنها تمثال يتحرك .
تنظر إليه متفحصة ثم تطلق ضحكة . تلمس ثيابه

أزاهير : ثياب عجيبة ، ولكنها جميلة ، ستحضر لى «خلوب» ثياباً مثلها بلا ريب !

تخطو إلى المستشرف

لم تخبرينى من أنت ؟

زبرجد : أحتم أن تعلمى من أكون ؟

أزاهير : كلا . ولكن إذا رغبت فى التحدث إلىّ فى شأنك فسأصغى إليك .

زبرجد : (مندفعاً) : إنى لست من أهل هذه البقعة . . .

أزاهر : أأنت إذن من العالم البعيد ؟

زبرجد : (متهللا) : أتعرفين شيئاً عن هذا العالم البعيد ؟

أزاهير : إنه عالم الصخب والشرور .

زبرجد : (مستزيداً) : ثم ماذا ؟

أزاهير : (فى رزانة) : لا شىء .

زبرجد : كيف ؟ أهذا كل ما تعرفين عن العالم البعيد ؟

أزاهير : لماذا تريدين منى أن أعلم أكثر مما علمت ؟

زبرجد : لمجرد المعرفة .

أزاهير : إن المعرفة شاسعة ، والمجهول عظيم . وما ينبغى لنا أن نحاول الإلمام بكل شىء . . . إنه خارج عن نطاق المستطاع . . .

زبرجد : ولكن ثمة أسرار طريفة ينطوى عليها هذا المجهول العظيم ، وربما استطعنا أن نحيط بها .

أزاهير : مبلغ ما نصل إليه تافه ضئيل . وسيظل المجهول مجهولا إلى الأبد .

زبرجد : ما نصل إليه لا يخلو من نفع ، ولعله يسلمنا إلى غير التافه الضئيل .

« أزاهير » تطوف بالحجرة فى خطا متزنة ،
ومشية صلبة ، وتتابع حديثها فى لهجة تشيخ وقور

أزاهير : وهم ما تقول . . . الكشف عن هذا المجهول ربما يؤدى بنا إلى ألوان من الشرور . . .

تنظر إلى قلنسوته . تشير إليها :

ما هذا ؟

زبرجد : قلنسوة .

أزاهير : ماذا ؟

زبرجد : لباس للرأس .

أزاهير : ولماذا تضعين على رأسك لباساً ؟

زبرجد : (مفكراً) : لماذا أضع على رأسى لباساً ؟ . . . لقد نشأت أتخذ هذه القلنسوة على رأسى ، دون أن أسأل ما نفعها ؟ ولا بد أنها لحماية الرأس .

أزاهير : أترينها ضرورية لتحمى رأسك الآن ؟

زبرجد : ليست ضرورية . . .

أزاهير : إذن ، لماذا تستعملينها ؟

زبرجد : أرجح أنى أستعملها للزينة .

أزاهير : ولماذا تتزينين ؟

زبرجد : لماذا أتزين؟! . . عجيب سؤالك ... !

أزاهير : أترينني قد ضايقتك ؟

زبرجد : كلا . ولكنك منذ حين كنت تتكلمين فى المعرفة وتقولين إنه لا خير فى الاستزادة منها ، وأنت الآن – لكى تزدادى معرفة – تسألينني وتمعنين فى السؤال .

أزاهير : يلوح لى أنى أخطأت .

زبرجد : لم تخطئى ، بل أصبت الإصابة كلها .

« أزاهير » تصمت هنيهة ، وهى تحدق إليه

أزاهير : ألا تخبرينى لماذا تتزينين ؟

زبرجد : لتغدو هيئتى رائقة .

أزاهير : تعنين أن هيئتك بلا زينة غير رائقة ؟

زبرجد : ربمـــا . . .

أزاهير : إذن هذه الزينة خداع وتغرير . . .

زبرجد : (مبتسما) : ربما كانت لوناً من الخداع والتغرير .

أزاهير : إن الخداع والتغرير شر جسيم .

زبرجد : (متوسما إياها ، ملاطفاً يدها) : « أزاهير » !

أزاهير : ماذا ؟

زبرجد : أراك تتحدثين عن الشر ، فهل تعرفين ما الشر ؟

أزاهير : هو شىء ردىء كريه .

زبرجد : أأنت أتيت الشر لتفهمى كنهه ؟

أزاهير : لم آته قط .

زبرجد : إذن أنّى لك أن تعرفيه ؟

أزاهير : إنى أعرف الخير ، والخير ضد الشر ، وحسبى بالخير معرفة . . .

زبرجد : وكيف عرفت الخير ؟ ومن أين لك العلم بأنه خير ؟

أزاهير : لقد علمتنى إياه « خلوب » ، وشرحته لى أيّما شرح ، وفقهتنى فيه أيّما تفقيه ، فأصبحت به خبيرة بصيرة . .

زبرجد : أمعرفتك بالخير الذى علمتك إياه « خلوب » ، مغنية لك فى فهم الشر ، والتمييز بينه وبين سواه ؟ !

أزاهير : وهل فى ذلك ريب ؟

يقترب منها ، ويدنى وجهه من وجهها ، ثم يقتبس قبلة من فمها

زبرجد : (رانياً إليها فى شغف) : أمن الخير هذا أم من الشر ؟

تلبث « أزاهير » صامتة .

« زبرجد » يقتطف من فمها قبلة أخرى

أجيبى : أمن الخير هذا ، أم من الشر ؟

وجه « أزاهير » يختلج.

أزاهير : (متدانية منه) : ماذا بعثك على أن تفعلى ذلك ؟

زبرجد : إعجابى بك .

أزاهير : أنت معجبة بى ؟

زبرجد : لقد سحرتنى فتنتك يا « أزاهير » . . . أنت رائعة الجمال .

ابتسامة يسرى فيها شىء من الحرارة تغزو وجهها

أزاهير : أنا رائعة الجمال ؟

زبرجد : أما تعرفين أنك فاتنة جميلة ؟

أزاهير : وما الجمال ؟

زبرجد : الجمال ضد الدمامة .

أزاهير : وما الدمامة ؟

زبرجد : ضد الجمال !

أزاهير : أنت تعبثين بى ؟

زبرجد : ألم تقولى منذ هنيهة إن كل شىء يتميز بضده ؟

أزاهير : ألا يسعك أن ترينى شيئاً دميماً ؟

زبرجد : (يتلفت حوله) : هنا كل شىء جميل . . . مع الأسف . . . !

يضرب رأسه بيده متذكراً أمراً :

انتظرى لحظة .

يخرج إلى المستشرف فيعود مصطحباً « زعروراً »

ما رأيك فى هذه السَّحنة ؟

أزاهير : (متأففة): لا تروقنى .

زبرجد : أجميلة هى ؟

أزاهير : لا .

زبرجد : إذن ماذا تكون ؟

أزاهير : غير جميلة .

زبرجد : (« لزعرور ») : عد حيث كنت ، وشكراً لك على ما أسديت إلينا من خدمة !

« زعرور » ينصرف صامتاً ، تملكه الحيرة والدهشة

أزاهير : ولكنك لم تخبرينى : ما الجمال ؟

زبرجد : أنت تشاهدينى أمامك الساعة ، وقد شاهدت منذ لحظة تابعى . فماذا أحسست نحوى؟ وماذا أحسست نحوه ؟

أزاهير : طاب لى منظرك ، وتقززت من منظر تابعك .

زبرجد : حسن . . . إذن فالجمال ما يبعث الرضا والارتياح ، فتهواه النفس .

أزاهير : إذن كل ما هو حولى تهواه نفسى ، فيبعث فيها الرضا والارتياح ؟!

زبرجد : أليس هذا ما تحسينه هنا ؟

أزاهير : ما أحسه . . . ما أحسه ؟ !

زبرجد : أجل . ألا تحسين الرضا والارتياح هنا ؟ . . إن حياتك كلها طمأنينة ورخاوة بال .

أزاهير : (بعد صمت حائر) : جمال . . . رضا . . . ارتياح . . حقًّا . . . حقًّا . . . ولكن . . .

زبرجد : ولكن ماذا ؟

أزاهير : (تائهة النظرات) : ولكنى لا أحس شيئاً مما تقولين ...

زبرجد : كيف لا تحسين الرضا والارتياح ؟

أزاهير : أكُلّ ما هنا يبعث حقًّا على ذلك الرضا والارتياح ؟

زبرجد : وهل فى ذلك جدال ؟

أزاهير : (فى استسلام) : إذن : أنا فى رضاً وارتياح .

تفكر لحظة

أصارحك القول ، إنى لا أحس هذا ولا أتبينه فى وضوح .

زبرجد : ذلك لأن الشىء لا يدرك إلا بضده !

أزاهير : لماذا لا يحضرون لى أشياء دميمة هنا ؟

زبرجد : يلوح لى أن الدمامة من خصائص الشر ...

أزاهير : إذن فالشر لازم لمعرفة الخير .

زبرجد : أحسب ذلك !

أزاهير : وهل الدمامة موفورة فى العالم البعيد ؟

زبرجد : العالم البعيد يحفل بشتى الألوان ، من جميل ودميم ، ومن خير وشر .

أزاهير : (مضطربة الأنفاس شيئاً ، تحد بصرها فيه) : ألا تحدثيننى حديث العالم البعيد ؟

زبرجد : وربما أريتك إياه يوماً . . . أما الآن . . .

يمسك بيدها ملاطفاً فى حنو :

الآن أزيد أن أحدثك عن نفسك .

يرنو إليها متوسماً فى شغف

أنت رائعة الجمال يا « أزاهير » . . . رائقة ، كأنفاس الصبح ... بهيجة ، كورد الربيع !

يصمت

أزاهير : ماذا ؟ . . تكلمى !

زبرجد : أراك حتى الآن تخاطبيننى بصيغة التأنيث ، كأنى مثلك !

أزاهير : ماذا تعنين ؟

يصمت « زبرجد » ، رانياً إليها ، فتواصل « أزاهير » الكلام :

قولى . . . تكلمى . . . ماذا تقصدين بأنى مثلك ؟

تمسك بيده ، وما أن يهم بالقول حتى يدخل
« زعرور » مهرولا مهتاجاً .

زعرور : سيدى . . . أسمع همساً وحفيف أجنحة خفافيش !
أزاهير : (مزورة عن « زعرور ») : لا أطيق رؤية هذا الدميم
زبرجد : (« لزعرور ») : ألا تسمع ؟ انصرف .

« زعرور » ينصرف ، وهو يتضرع إلى
« زبرجد » بأن يعجل إليه .
« زبرجد » يقول « لأزاهير » :

أرى أن زيارتى قد طالت . . . اغفرى لى أنى أغرت
على وقت نومك . . . إيذنى لى أن أنصرف . . .
أزاهير : ومتى تعودين ؟
زبرجد : أفى حاجة إلىّ أنت ؟
أزاهير : لأستزيد منك معرفة ، ولتحدثينى حديث العالم البعيد ،
هذا العالم المجهول ...
زبرجد : ربما عدت إليك ، وربما لا أعود . . .
أزاهير : كيف لا تعودين ؟
زبرجد : إذا استعصى علىّ الأمر ، فلا عود . . . وداعاً !

يتهيأ للانصراف

أزاهير : ابقْ . . . ابقْ .

زبرجد : لمـــاذا ؟

أزاهير : تعالى . . . اقتربى منى .

« زبرجد » يقترب منها .

« أزاهير » تدنى وجهها من وجهه . تقول فى صراحة ساذجة :

افعلى ما فعلته منذ قليل . . .

زبرجد : مـــاذا ؟

« أزاهير » تشير إلى فمه وفمها . . . تتدانى منه

« زبرجد » يهبط على فمها مقبلا إياها قبلة عامرة

أزاهير : حدثنى عما فعلته . . . إنه شىء جميل !

زبرجد : قَبَّلْتُكِ قبلة .

أزاهير : وما القبلة ؟

زبرجد : القبلة وصلة بين روحين .

أزاهير : وكيف تصل القبلة بين الروح والروح ؟

زبرجد : الشفة قناة تعبرها الروح لتستقبل ما تألف من روح ، فإذا تلاقت الشفاه تواصلت الأرواح !

أزاهير : زيدينى من هذه القبلة ، وصلى بين روحى وروحك .

يقبلها فى هيام .

يبدو « زعرور » قلقاً مضطرباً . يفاجأ بما يرى . فيتقدم لينبه سيده .

الأمير مسترسل فى تقبيله .
« زعرور » يحاول إنباه سيده تارة بأن يسعل ، وتارة بأن يخفق بقدمه ، ولا يملك أخيراً إلا أن يجذبه من ثوبه ، ولكن سيده لا يلقى له بالا .
« زعرور » يجلس فى يأس واستسلام

زعرور : (ضارعاً إلى الله ، صائحاً) : رفقاً بحالنا يا رب . . . بل رفقاً بحالى أنا وحدى . . . !

إظلام
إنارة بعد قليل .
« أزاهير » فى حجرة مخدعها تتهيأ للنوم . . .
« أزاهير » تتطلع إلى المستشرف ، حيث القمر يغمر بضوئه الحجرة .
« خلوب » فى الركن الآخر من الحجرة تجلب بعض الأغطية .

أزاهير : (مهمهمة تناجى نفسها) : يا له من حلم طريف . . . أ أحظى بقدوم الزائرة — الليلة — كما حظيت بزيارتها ليلة أمس ؟

خلوب : (وقد ترامت إلى أذنها همهمة « أزاهير » دون وضوح) : ماذا تقولين ؟

أزاهير : أتحدث إلى نفسى !

خلوب : (وقد عادت إليها بغطاء) : وماذا كنت تحدثين نفسك به ؟

أزاهير : (بعد فترة تردد) : إنها دعوات من تلك الدعوات التى لقنتنى إياها . . .

خلوب : حسناً . . . هذه دعوات مباركة ، وهى تزيد من صفاء نفسك . . . لا تملّى تردادها . . . إنك فى حاجة إليها الليلة . . . الليلة على وجه خاص !

أزاهير : ولماذا ؟

خلوب : لاحظت أن بعض القلق يساورك . . . إنك منذ الصباح تلجّين فى أسئلة على غير ما ألفت منك . . .

أزاهير : ولكنك لم تروى لى غلة . . . سألتك سؤالا لم تجيبينى عنه وأعدت السؤال مرات ، فلم أظفر منك بقول فصل .

خلوب : (كأنها تناجى نفسها) : سؤالك : كيف تستطيعين أن تميزى بين ضدين أنت تجهلين أحدهما ؟

أزاهير : أجل ، كيف أعرف الشر ، وأنا لا علم لى بالخير ؟

خلوب : ولكن هذا أمر فرغنا منه يا بنية ، ألم يقنعك قولى : بأنه عزيز علينا أن نجرب كل شىء حتى نصل إلى حقيقته؟ لا يفوتنك أن قيامنا بالتجربة ربما ورّطنا فى خطر جسيم.

أزاهير : ولكن . . . أليس فى التجربة فائدة ؟

خلوب : أية فائدة يا « أزاهير » ؟ لقد جرب الخلق قبلنا ما جربوا دهوراً متلاحقة ، حتى استنفدوا التجارب ، فلم يبق علينا نحن إلا أن نستمرئ عصارة ما جربوا ، دون أن نصلى نار التجريب من جديد .

أزاهير : . . . إن تجربة الشر تبعث فى النفس شيئاً من الاهتياج.

خلوب : الاهتياج ؟ ؟ من علمك هذا يا « أزاهير » ؟ !

أزاهير : نفسى علمتنى إياه !

خلوب : (مهتاجة) : أجربت الشر ؟

« أزاهير » تصمت

تكلمى . . . أجيبينى . . .

أزاهير : لقد كذبت ، والكذب شر .

خلوب : (شاهقة فى دهشة) : ولم فعلت هذا ؟ !

أزاهير : أحببت أن أجرب الشر بنفسى .

خلوب : (ضاربة بيدها على صدرها مولولة) : ويحك ! . . . إنها أول مرة فى عمرك النقى تقترفين فيها هذا المنكر !

أزاهير : أيبلغ من الإنكار هذه المنزلة ؟ حسبى أن جربت الشر مرة واحدة ، فذقت طعمه .

خلوب : وإنك لنادمة . . . أليس كذلك ؟

أزاهير : الحق أنى لم أستشعر كبير ندم .

خاوب : ويلى مما أسمع ! كان لزاماً أن تشعرى بخطر الفعلة التى فعلتِها وأنت آثمة .

أزاهير : لم . . . ؟

خلوب : للضرر الذى ألحقتِه بنفسك .

أزاهير : ولكنى لم أحس من ضرر .

خلوب : بل لقد نالك الضرر لا محالة ... عليك الآن إصلاح الأمر .

أزاهير : لن أكذب مرة أخرى .

خلوب : هذا ما يجب أن تضعيه نصب عينيك . والآن اعترفى بالحقيقة كاملة ، إن الاعتراف يخفف من وطأة الذنب يا بنية . . . على من كذبت ؟

أزاهير : عليك أنت .

خلوب : أتكذبين علىّ أنا ؟! . . . أنا مربيتك التى أجهدت نفسى فى تعليمك وتهذيبك طوال هذه الأعوام ؟

أزاهير : إن هى إلا كذبة واحدة ، كذبة عابرة . . . من العجيب أنى لم أستطع لها دفعاً ، ولم أملك عنها مصرفاً !

تتعالى ضحكتها

خلوب : وإنك لتضحكين أيضاً ؟ . . . كارثة لم تقع لى ببال . .

وأى شىء كذبت علىّ فيه ؟

أزاهير : لما سألتنى الساعة بماذا كنت أهمهم ، أجبتك بأنى كنت أردد دعوات ، مما لقنتنى إياه .

خلوب : والحقيقة؟ . . ما الحقيقة ؟ . . . أسرعى بالجواب . . . أكاد أصعق . . .

أزاهير : خفضى عنك قليلا . لا مسوّغ لهذا كله . . . لقد كنت أناجى نفسى بما رأيت فى منامى من حلم طريف . . .

خلوب : ولماذا لم تقصّى علىّ رؤياكِ حين جئتك؟ . . . إنك تقصين علىّ ما ترين فى منامك من أحلام . . .

أزاهير : لا أدرى ، وحقك . . . لا أدرى لماذا أبطأت عن إخبارك بحلمى هذا ؟ . .

خلوب : قصّى علىّ الرؤيا . . .

أزاهير : طيف زائرة ، ألمت بى فى نومى ، وحدثتنى حديثاً عجباً .

خلوب : أىّ حديث عجَب ؟

أزاهير : لا أذكر منه إلا النزر اليسير . . . لقد كان حديث الزائرة حديثاً عذباً جميلا . . . إنى مجهودة الآن يا «خلوب»

تمسك برأسها :

رأسى علىّ ثقيل . . .

خلوب : (مقبلة عليها فى إلحاح) : ولكن أى عجب فى حديث الطَّيْف؟

أزاهير : كانت الزائرة عجيبة فى زيها، فى حديثها ، فى لهجتها .. عجيبة فى كل شىء !

خلوب : اجمعى شتات ذاكرتك ، وارويى لى ما دار بينكما من حديث . . .

أزاهير : (ممسكة برأسها تعتصره) : إنى مصدوعة الرأس . . .

تقدم « زغلولة » التابعة ، حاملة إبريقاً وكوباً . . . .

« أزاهير » توجه الكلام « لزغلولة » :

ما هذا يا « زغلولة » ؟

زغلولة : شراب التوت يا سيدتى « أزاهير » .

أزاهير : أحسنت يا « زغلولة » بإحضار هذا الشراب . . . إنى لفى حاجة إليه ماسة .

« زغلولة » تملأ الكوب ، وتناوله « أزاهير » ، ثم تضع الإبريق على المائدة .

« أزاهير » ترتشف من الكوب وهى تسير هينة الخطا حالمة .

« خلوب » و « زغلولة » ترقبانها فى اهتمام .

« أزاهير » تخطو والكوب فى يدها ، مقتربة من باب المستشرف ، مسرحة بصرها فى عرض الأفق ، تستنشى نسيم الليل فى ارتياح ، وضوء القمر يمرح فى الفضاء . ثم لا تلبث أن تخرج إلى المستشرف مستخفية فيه .

خلوب : (مهتاجة ، « لزغلولة ») : أمر جلل ، يا « زغلولة » .

زغلولة : ماذا ، يا سيدتى « خلوب » ؟

خلوب : نكبة حلت بنا . . . لا نجاة لنا من عقاب أليم . . .

زغلولة : أية نكبة ، وأى عقاب ؟ !

خلوب : (منكبة على « زغلولة ») : أزاهير » . . . « أزاهير » .

زغلولة : ما خطب « أزاهير » ؟ . . .

خلوب : لقد كذبتْ . . . لقد كذبتْ .

زغلولة : (نائحة تنتحب) : يا للفاجعة . . . يا للفاجعة . . .

خلوب : إنى لأسائل نفسى : كيف يكون وقع هذا الخبر على الزعيم ؟ . أنقضى هذه الأعوام الطويلة نُعلم « أزاهير » الفضيلة، ونلقنها الخير ، ثم يكون المصير أن تكذب ؟!

زغلولة : ما علمنا عليها من كذِب .

خلوب : لقد اعترفت لى بأنها كذبت مرة واحدة .

زغلولة : لعلها لا تعود لمثلها . . .

خلوب : من يدرى . . . لا تنسىْ أنها آدمية . . . علينا أن نضاعف جهدنا . . . علينا أن نمحو فى نفسها أثر هذه الكذبة الممقوتة !

زغلولة : وعلينا فوق ذلك كله أن نكتم ما فعلتْ ، فلا يعلم به أحد . . !

خلوب : لن يعلم أحد بشيء . كلانا يحفظ هذا السر ، ولا يبوح به لأى جنىّ . . .

تقدم « أزاهير » مشرقة تتضاحك

زغلولة : (وهى تتناول من « أزاهير » الكوب الفارغ) : لعل شراب التوت قد راقك يا سيدتى « أزاهير » .

أزاهير : شراب طيب المذاق ، وقد أتقنت صنعه . أشكر لك عنايتك .

خلوب : أراك تتضاحكين . . . أأنت الآن أحسن حالا ؟

أزاهير : (ضاحكة) : أراك تحاولين معرفة ما يضحكنى . . .

تداعب خد « خلوب »

أنت شديدة الفضول يا أستاذتى . اطمئنى . سأخبرك بكل شيء . . . عندما خرجت إلى المستشرف ألفيت حمامتين تتخطران على جداره ، ثم انطلقت إحداهما تجرى ، فتبعتها الأخرى تباريها ، وما لبثتا فى مراوغة ومداورة حتى لحقت أخراهما بالأولى ، وثمة كان بينهما شيء عجَب . . . !

خلوب : (فى فزع شديد) : ماذا كان بينهما يا بنية ؟

أزاهير : رأيتهما تقفان متواجهتين ، رأساهما متقاربان . . . وشاهدت منقاريهما قد اشتبكا وتلاصقا . . .

خلوب : (فى صوت راعش) : تلاصق منقاراهما ؟

زغلولة : لا شك أن حمامة منهما كانت تسرّ إلى أختها حديثاً . . .

أزاهير : لا . . . لا . . . قلت لك إنى رأيت المنقار على المنقار ، بل رأيت المنقار فى المنقار . . . كان منظراً جميلا يبعث فى النفس بهجة . . .

خلوب وزغلولة : (تهمهمان فى جزع) : يا للهول !

أزاهير : (متابعة قولها فى نشوة حالمة) : كل من الحمامتين كانت تصل روحها بروح الأخرى . . . تسكب الروح فى الروح . . !

خلوب : (مشدوهة ، متلعثمة) : تسكب الروح فى الروح ؟! ... لست أدرى ماذا جعلك تظنين هذا الظن ؟ وهل يستطاع بهذه الوسيلة أن تتساكب الأرواح فى الأرواح ؟

أزاهير : نعم ، هذا مستطاع . . . على ذلك الوضع يتسنى أن تتواصل الأرواح ، ويمازج بعضها بعضاً . . .

خلوب : يبدو لى يا « أزاهير » أن ذهنك اليوم مكدود . . . لقد جانبك المنطق . . . فأنت تخلطين . . !

أزاهير : ربما كان حقّاً ما تقولين . . . إنى مجهودة بلا ريب ، دعينى أنم . . .

« أزاهير » تعجل إلى مخدعها فتتمدد فيه

خلوب : نامى فى هدوء ، وخلى عنك أثقال التفكير . . . فلتنسى مداورة الحمام ، وتساكب الأرواح ؛ ولتؤنسك يا بنية هانئات الأحلام !

أزاهير : أشكر لك .

تسبل جفنيها
« خلوب » تلاطف « أزاهير » ، ثم تأخذ بيد « زغاولة » منتحية بها ركناً فى الحجرة

خلوب : لا يحوم فى أرجاء الحديقة طير بعد اليوم كائناً ما كان. أسمعت ؟ لا أريد أن أرى هنا جناح حمامة !

« خلوب » و « زغلولة » تنصرفان .
إظلام لحظات . . .
الضوء يعود . . . .
« أزاهير » ، فى مخدعها مطبقة الجفنين .
القمر يتلألأ فى الحديقة ، متسللا ضوءه إلى الحجرة . يبدو الأمير « زبرجد » قادماً من المستشرف فى حلة زاهية ، وقد تقلد سيفاً إلى جنبه الأيسر . يقف بباب المستشرف ناظراً إلى « أزاهير »

أزاهير : (فى منامها تهمهم كأنها فى حلم) : تقدمى . . . تقدمى .

الأمير « زبرجد » يتقدم رفيق الخطو

زبرجد : لقد حرصت على الحضور .

أزاهير : (ما تزال مطبقة الجفنين) : لمـــاذا ؟

زبرجد : ألم ترغبي فى حضورى ؟

أزاهير : (ترفع جفنيها قليلا) : ألم يكن حضورك إلا استجابة لرغبتى ؟

زبرجد : بل لأراك مرة أخرى ، وأستمتع بهذه الفتنة الساحرة .

« أزاهير » تنهض فى تؤدة ، جالسة على المخدع .

يتابع الأمير قوله :

منذ لقائنا أمس ، لم يبرح خيالك عينى . . . إنه يملأ علىّ أقطار نفسى . . . .

أزاهير : (فى تشوف) : كيف ؟ اشرحى لى ما تقولين . . . وزيدينى بياناً . . .

زبرجد : أعترف لك يا « أزاهير » أنى بك مشغوف .

أزاهير : ماذا تقصدين ؟

زبرجد : إنى أحس لك الشوق إذا بعدت عنك ، وأحس الارتياح إذا رأيتك .

أزاهير : أمر عجيب أجده أنا أيضاً . . .

زبرجد : ماذا ؟

أزاهير : منذ وصلتَ بين روحى وروحك بهذه . . . بهذه . . .

زبرجد : (متمماً) : بهذه القبلة !

أزاهير : أجل ، بهذه القبلة . . . منذ وصلتَ بها بين روحى وروحك ، أحس أنا أيضاً هذا الشوق إذا بعدت عنى ، وأحس الارتياح حين ألقاك . . .

« زبرجد » يقبل عليها ، فتنهض من المخدع . يأخذ بيدها

زبرجد : أحقًّا ؟ أتحسين نحوى هذا الشعور اللطيف؟

أزاهير : وهل يروقك هذا ؟

زبرجد : يروقنى ، بل يسعدنى ...

أزاهير : (تتفحصه فى ابتسام) : حلة جديدة ، ما أزهاها !

تتحسس السيف :

وما ذاك ؟

زبرجد : ذاك سيفى .

أزاهير : عصا تعبثين بها ؟

زبرجد : بل أذيق بها الموت !

يناولها السيف

أزاهير : (تنظر إلى السيف فى يدها) : الموت ! ؟

تقلبه فى يديها ، فتجرده من غمده ، فيلتمع نصله .

زبرجد : حذار ، إن هذا السيف رسول الموت الأمين . . .

أزاهير : (ترفع عينيها إلى « زبرجد ») : وما الموت ؟

زبرجد : (مردداً فى حيرة) : الموت . . . الموت ضد الحياة .

أزاهير : أوضحى . . .

زبرجد : كل ما هو من خصائص الحى ، من حركة وتنفس ، ومن وحدة جثمانية لا تجدينه فى الميت .

أزاهير : إذن فالموت انقلاب فظيع !

زبرجد : بل تحول هين . تحول يطرأ على المركب فيرده إلى عناصره الأولى .

أزاهير : أشر هو ؟

زبرجد : من يدرى ؟

أزاهير : كيف لا تدرين ؟

زبرجد : قد يكون شراً لا بد منه ، أو خيراً لم نفقه له معنى . . . .

يأخذ بيدها يلاطفها ، ويطوف بها فى الحجرة .
يقع بصره على إبريق الشراب . يقول :

ما هذا ؟

أزاهير : عصير التوت .

زبرجد : أشرابك هو ؟

أزاهير : نعم !

زبرجد : أتسمحين لى أن أذوقه ؟

أزاهير : سأقدم لك كوباً منه .

تترع له الكوب ، وتناوله إياه

زبرجد : (يترشف من الشراب) : شراب سائغ لذيذ . لم أذق مثله فيما ذقت من ألوان الأشربة .

أزاهير : أترينه كذلك يا صديقتى ؟

زبرجد : (بعد صمت) : أنا صديقك لا صديقتك !

يرنو إليها مبتسماً

أزاهير : ماذا تعنين ؟

زبرجد : أتسمحين لى أن أنبهك إلى خطإ تقعين فيه ، وأنت تتحدثين إلىّ ؟

أزاهير : أىّ خطإ تعنين ؟

زبرجد : تخاطبيننى بصيغة التأنيث !

أزاهير : لا أفهم ما تقصدين . . .

زبرجد : إن دنياك التى تحيين فيها كلها دنيا إناث . أما دنياى ففيها الإناث والذكور .

أزاهير : (محدقة إليه ، دهشة) : أبينى ما تقولين ، فإنى لا أفهم منه شيئاً . . .

زبرجد : إن الإنسان يا « أزاهير » نوعان : ذكر وأنثى ، وإنى من

النوع الذى لم تعرفيه فى دنياك المحدودة التى ليس فيها إلا إناث . . .

أزاهير : ولماذا كان الإنسان نوعين : ذكراً وأنثى ؟

زبرجد : لماذا ؟ لماذا ؟ . . . يا الله !

يصمت ، ويهرش رأسه

أزاهير : تريد أن تقول إنك ذكر ، وإنى أنثى ؟

زبرجد : ذلك هو الواقع يا « أزاهير » . . .

أزاهير : إنه ما لم أكن أعلم .

زبرجد : فلتحمدى لى أنى وقفتك على الحقيقة الأولى فى حياة الإنسان .

أزاهير : وأى برهان لك على أنى من نوع غير نوعك ؟ . . .

زبرجد : البرهان أن كلا النوعين يتم بعضه بعضاً ، وأنك حين لقيتنى شعرت بأنك قد وجدت تكملتك بى . . .

أزاهير : ما زال قولك غامضاً علىّ . . .

زبرجد : اسمعى يا « أزاهير » . . . أكانت مربياتك وحاضناتك يقبلنك فيما سلف من أيامك معهن ؟

أزاهير : كن يضعن شفاههن على خدى أو فمى !

زبرجد : حسن . . . أكنت تحسين لصنيعهن ما أحسست حين التقت شفتاى بشفتيك ؟

أزاهير : أصدُقك القول . . . لم أكن أستشعر لقبلات مربياتى وحواضنى ما استشعرت لقبلتك !

زبرجد : ذلك لأنك أنثى وأنى ذكر . . .

أزاهير : ولكنى أريد أن أعرف ما الفارق بين ذكر وأنثى ؟

زبرجد : (فى حيرة) : ألا ندع هذا إلى حين ؟

أزاهير : (فى تحسر) : يبدو لى أنى ضايقتك بسؤالى .

زبرجد : (يأخذ بيدها فيقبلها فى شغف) : كلا ، كلا . . . ولكن دعينى أصحح خطأك . قولى : ضايقتكَ . . . كَ . . . كَ .

أزاهير : كَ . . . كَ . . . ضايقتكَ .

زبرجد : حسن . . . حسن . . .

تقبل عليه « أزاهير » وتطبع على فه قبلة مفاجئة ، ثم تتراجع حائرة .

أزاهير : (مهمهمة) : يالله ! ماذا صنعت بك ؟

زبرجد : قبلتِنى .

أزاهير : قبلتكَ . . . كَ . . . ولكن ، لماذا . . . لماذا ؟ !

زبرجد : وهل فى الأمر خفاء؟ إنك تحبيننى . . . هذا هو الحب !

أزاهير : الحب ؟! . . . قل لى : ما الحب ؟

زبرجد : الحب : امتزاج بين عنصرين ، بين نوعين . . .

أزاهير : أخير هو ؟

زبرجد : إنه بين نوعى الإنسان شر جميل .

أزاهير : شر جميل؟ كيف يكون شرًّا وهو جميل؟ أيتحد الضدان ؟

زبرجد : (يفكر هنيهة) : حقًّا كيف يتحد الضدان ؟

يخرج من جيبه مدية، وسرعان ما يجرح بها بطن كفه ، فينبثق الدم ، فيجمعه فى راحته

أزاهير : (ترقبه فى اهتمام) : ما هذا ؟ !

زبرجد : قطرات من دمى .

أزاهير : دمك . . . ماذا تعنى ! ؟

زبرجد : إنه دمى ، السائل الذى يغذى جسدى.

أزاهير : ولماذا ترينى إياه ؟

زبرجد : لكى تذوقيه . . .

أزاهير : أذوقه ؟

زبرجد : قلت لك افعلى .

أزاهير : (لا تكاد تذوقه حتى تقول متأففة) : ليس بالمستساغ . .

زبرجد : هذا صحيح . . . إنه كريه المذاق .

يمزج ما جمعه من دمه بشراب التوت ويقدمه لها

ذوقيه الآن . . .

يرفعها وهى تشرب :

أليس من الميسور أن يتحد الضدان . . فيكون منهما . . .

أزاهير : (متممة قوله) : مِزاج طيب مستساغ . . .

زبرجد : لم تألفى من قبل إلا الخالص المحض ، فأما الممزوج فلا علم لك به . . .

أزاهير : أى خالص محض تعنيه ؟

زبرجد : أعنى أنك تحيين فى الخير المحض ، وتحاطين بالجمال الخالص . . .

أزاهير : وأنت . . . . كيف تحيا ؟ وبماذا تحاط ؟

زبرجد : إنى أحيا فى دنياى البعيدة . . . دنيا الشر الجميل . . .

أزاهير : الشر الجميل ! . . .

زبرجد : إن دنيانا مِزاج من الشر والجمال . . . ألا ترغبين فى مشاهدتها ؟

أزاهير : (فى حيرة ونشوة) : الخير . . . الشر . . . الخير المحض . . . الجمال الخالص . . . الشر الجميل . . .

مندفعة :

عجيب أمر دنياكم هذه . . . أرغب فى مشاهدتها . . . أرغب . . .

زبرجد : تعالى . . . هنا إلى صدرى . . . تعلقى بعنقى . . . تعلقى .

تعتنقه مهتاجة .

يلفها فى عباءته السحرية ، ويخرج طائراً من
المستشرف قائلا :

إلى موطن الشر والجمال . . . إلى عالم الشر الجميل . . . !

تلتحم شفتاهما فى قبلة مضطرمة

الفصل الرابع

بهو في قصر الأمير «زبرجد»، ترف ظاهر، أنوار متألقة، جمع حاشد من رجال ونساء يرفلون في ثياب فاخرة. موسيقى تصدح.

في الصدر درج ينتهي بباب كبير ينفذ إلى الطبقة العليا من القصر.

في جانب من البهو تقوم مائدة الشراب، وقد تناثر حولها بعض الجمع . . .

أصوات تعلو بالمناقشات والتحاور.

يقبل السيد «قرنفل» على الأميرة «بنفسج» ابنة عم الأمير «زبرجد» هامساً في أذنها. يلوح الاهتمام والتطلع على محيا الأميرة. لا تلبث أن تتحدث إلى جارها . . . يتجمع حولها بعض الضيوف. تعمر الحلقة. الحديث يدور بين الجمع في اهتمام.

الموسيقى تخفت شيئاً فشيئاً.

بنفسَج : («لقرنفل»): عجيب أيها السيد «قرنفل» أن يصدق الخبر . . . ستكون مفاجأة عجيبة !

قَرَنفل : يا سيدتي الأميرة «بنفسج» لقد صدق الخبر. إنها حقًّا لمفاجأة عجيبة، تلك التي يدبرها لنا الأمير «زبرجد»

ابن عمك ، إن الحسناء « أزاهير » فى القاعة العليا الآن . . . هنالك .

يشير إلى السقف بأصبعه :

وقد أحاط بها من الوصائف جمع زاخر .

بنفسج : (ضاحكة فى تعجب ساخر) : ولم يا ترى هذا الجمع الزاخر من الوصائف أيها السيد « قرنفل » ؟

قرنفل : إنهن يلبسنها الحلل الزاهية يا سيدتى الأميرة « بنفسج » ، ويعلمنها أدب المجالسة والحديث ، مما هو من خصائص المجتمع .

بنفسج : أعجب لهذه الفتاة ، أين كانت تعيش ؟ أهبطت علينا دفعة واحدة من السماء ؟

قرنفل : أو هى من جهنم . . . من يعلم ؟

يتضاحك الجمع

إن « أزاهير » هذه محوطة بأسرار غامضة !

بنفسج : ليس ثمة أسرار على الإطلاق ؛ ألا يكون الأمير «زبرجد» التقطها من بيئة دون بيئته ؟ . . بيئة . . .

تمسك عن الكلام ، إذ تلمح السيدة « ياسمينة » قهرمانة القصر ، فى مشيتها المتخطرة ، يتدلى من نطاقها العريض رزمة من المفاتيح الضخمة .

السيدة « ياسمينة » تجتاز البهوغير معنية بأحد.
الأميرة « بنفسج » تنادى :

« ياسمينة » . . . « ياسمينه » . . . تعالى .

تتقدم إليها « ياسمينة » بادية الضيق

لا تحسبى أنى أعوقك عن عملك . . . أعلم أنك — الليلة — فى شغل عظيم . وأن الأمير فى حاجة ماسة إلى معاونة قهرمانة القصر الأولى . . . إنها بضع كلمات أرغب فى الإفضاء بها إليك .

ياسمينة : (محتفظة بأنفتها) : إنى طوع أمر سيدتى الأميرة « بننسج » .

بنفسج : (محاولة أن تخفض من صوتها) : ألا تعلمين يا «ياسمينة» من أين أتى الأمير بهذه الحسناء « أزاهير » ؟

ياسمينة : لو سمعتِ ما سمعته من قول « زعرور » لما فهمت مثلى شيئاً . . . غموض يتجلى عن غموض . . . ولكن الأمر الواضح فى هذه الأميرة أن هيئتها وشارتها تخالفان ما نعهده فى بنات « حواء » . . .

بنفسج : ماذا تعنين ؟

ياسمينة : وحقك لا أدرى كيف أقول . . . أكاد أجزم بأن « أزاهير » هذه ليست من أهل هذه الأرض !

الجمع : (فى همهمة) : ليست من أهل هذه الأرض ؟

ياسمينة : لو رأيتم ما يتجلى على محياها من التهيب والحيرة والاهتياج لشملكم أشد العجب !

قرنفل : ألم تسمعيها تتكلم ؟

ياسمينة : سمعتها . . . إنها ما كادت تصل إلى القصر ، حتى انطلقت تلح على الأمير أن يعيدها حيث كانت !

قرنفل : عجيب ! لعل القصر لا يروقها . . .

ياسمينة : لست أدرى . . . إنها لم تكد تطأ حجرة الثياب ، فترى الأنوار ملتمعة على صفحات المرايا ، حتى حجبت عينيها بيديها ، وهى تقول : أين أنا الآن ؟

بنفسج : (متعالية بضحكتها الساخرة) : المسكينة بالغة السذاجة . ألم أقل : إنها من بيئة دون بيئة الأمير ؟ شد ما أحس الشفقة عليها !

ياسمينة : وما إن ارتدت الثياب الزاهية ، وازدانت بالحلى الثمينة ، واعتادت التطلع إلى المرايا ، حتى بدت عليها خفة المرح ، وما لبثت فى جيئة وذهوب رانية إلى خيالها على صفحات المرايا ، يملكها الزهو والإعجاب .

قرنفل : إنها لتجربة قاسية تلك التى تمر بها هذه الفتاة !

ياسمينة : . . . . ولما أقبل غلمان الشرف ، ليحيطوا بها حين تنزل ،

أقصتهم عنها ، وهى تصيح ملحة على الأمير أن يعود
بها أدراجها حيث كانت تعيش .

تعلو الموسيقى رويداً .
الجمع يتبادلون الحديث فى خفوت
يبدو رئيس الخدم على عتبة باب الطبقة العليا ،
ويدق الأرض بعصاه ثلاث دقات . الأبصار
تشخص إليه . يسود الصمت

رئيس الخدم : (صائحاً): الأمير « زبرجد » والأميرة « أزاهير »

رئيس الخدم يهبط الدرج إلى البهو ،
بعد لحظة يبدو الأمير « زبرجد » آخذاً بيد « أزاهير »
هابطاً بها الدرج فى تباطؤ ، وخلفهما غلمان الشرف .
« أزاهير » متشبثة بذراع « زبرجد » بادية
التهيب ، تتعثر فى مشيتها منزعجة حينما يقع بصرها
على الحشد .
تسر إلى الأمير رغبتها فى العودة . الأمير
يلاطف يدها ويطمئنها ، يتابع معها هبوط الدرج .
يعبران البهو بين سمطين من الضيوف ، يقفان فى
بهرة البهو . « أزاهير » آخذة بيد « زبرجد » لا تخليها .
« زبرجد » يقدم إلى « أزاهير » كبراء الضيوف . تحييهم
فى سذاجة .
تهامس وتهانف وضحكات مكتومة .
الموسيقى تواصل إطلاق الأنغام .

« أزاهير » ينال منها الجهد ، يتصبب من جبينها العرق ، يجلسها الأمير « زبرجد » على متكإ .

« أزاهير » لا تبرح متشبثة بيده .

« قرنفل » يعجل إلى مائدة الشراب . فيجلب منها كأساً يقدمها « لأزاهير » .

« أزاهير » تنظر إلى « زبرجد » متسائلة .

زبرجد : (« لأزاهير ») : اشربى . . . اشربى .

أزاهير : (تأخذ الكأس من « قرنفل » وهى تتأملها) : أشراب التوت هو ؟

الجمع : (يتهامسون ، ويرددون فى سخرية خافتة) : توت ؟ . . . توت؟

زبرجد : (« لأزاهير ») : إنه شراب آخر . . . ذوقيه . . .

تمتص من الكأس رشفة ، لا تستطيب الشراب

أزاهير : شراب كريه المذاق .

زبرجد : ولكنه مفيد ، يجدد القوى ، ويبدد المخاوف . . . اشربى

« أزاهير » تشرب جرعة وافية

أزاهير : أجد لهذا الشراب فى جسمى لذع النار . . .

زبرجد : لا تخشى شيئاً . . . اشربى .

« أزاهير » تتناول جرعة أخرى

أزاهير : متى تعود بى إلى قصرى ؟

الجمع : (يتهامسون) : قصرها . . . قصرها !

زبرجد : («لأزاهير») : فى الوقت الذى تشائين فيه أن نعود .

أزاهير : وأنت ؟ ماذا تصنع بعد أن تعود بى إلى القصر؟

زبرجد : سأرجع إلى قصرى . . . هنا . . .

أزاهير : (فى قلق ساذج) : هنا ؟ ! . . . أترع من ذلك الشراب كأسى !

يملأ لها الكأس فتفرغها فى فمها دفعة :

عجيب هذا الشراب !

الموسيقى تصدح عالية .
« الأمير زبرجد » يشير إشارة ابتداء الرقص . .
يتقدم فارس وفارسة يرقصان معا رقصة شرقية
« أزاهير » تتطلع فى شغف بما ترى ، ولا تلبث
أن تميل على « زبرجد » قائلة :

ماذا يصنعان ؟ ! . . . هذا شىء جميل !

زبرجد : إنهما يرقصان .

أزاهير : (فى ابتهاج ، واهتياج) : يرقصان ! ؟

زبرجد : أتريدين أن نحاكيهما فيما يصنعان ؟

أزاهير : (مسارعة) : أجل . . .

تهم بمراقصته ، ولكن سرعان ما تحس أنها
غير قادرة على المحاكاة ، بجهلها فن الرقص .

تعود إلى مكانها مستخذية ، تواجه « زبرجد » بقولها :

املأ كأسى . املأها إلى الحافة . . .

« زبرجد » يستجيب لها .
« أزاهير » تشتف الكأس ، ثم لا تلبث أن تطلق ضحكة مجلجلة .

زبرجد : ما هذا ؟ !
أزاهير : (وقد أغربت فى الضحك) : لا شىء . . . لا شىء....
زبرجد : إنك تضحكين !
أزاهير : أحس السرور يغمر أقطار نفسى . . . ألا تحس ما أحس ؟ !

الفارس والفارسة يمسكان عن الرقص ، ويتركان البهرة ، فما هى إلا أن نرى الأميرة « بنفسج » تجذب « زبرجد » سائقة إياه إلى بهرة الرقص ، فلا يملك إلا أن يراقصها .

« قرنفل » يأخذ مكانه بجانب « أزاهير » مقبلا عليها يحدثها .

يكمل « بنفسج » و « زبرجد » ، دورة من الرقص .

يبدو على وجه « أزاهير » تغيظ وحنق ، الغيرة تضطرم فى قلبها .

« قرنفل » يحاول تهدئتها عبثاً .

« أزاهير » تهب دفعة واحدة مختطفة سيف « قرنفل » وتشهره فى يدها ، مقتحمة بهرة الرقص .

« بنفسج » تعدو صائحة مستغيثة .

« أزاهير » تضرب « زبرجد » بالسيف فتصيبه إصابة هينة .

« زبرجد » يمسك بها ، وينتزع السيف من يدها ، كما ينتزع الأب لعبة خطرة يتشبث بها طفله .

هرج ومرج ، وأصوات تنبعث من الجمع فى تساؤل وعجب .

زبرجد : (صائحاً بالجمع) : انصرفوا . . . انصرفوا . . . .

الجمع يتفرق ، ومنهم من يلتفت فى منصرفه إلى « زبرجد » و « أزاهير » فى سخرية خفيفة .

أزاهير : (مرتجفة) : ماذا فعلت ؟!

زبرجد : ضربتنى بالسيف .

أزاهير : إذن قتلتك !

زبرجد : كلا . . .

أزاهير : بل قتلتك . . . أنت الآن ميت . . . ألم تخبرنى من قبل بأن السيف رسول المنية ؟ !

زبرجد : قلت لك : لم أمت .

أزاهير : كيف ؟

زبرجد : إن السيف فى يدك يا « أزاهير » يفقد مَضاءه !

أزاهير : لقد أتت « أزاهير » أمراً منكراً . . .

زبرجد : لم يكن لك يد فيما فعلته .

أزاهير : كيف ذلك ؟

زبرجد : إن ما فعلته من عمل الشيطان .

« قرنفل » يقدم

قرنفل : أجل . من عمل الشيطان . . . نعوذ بك يا رب من الشيطان الرجيم !

أزاهير : ما شأن الشيطان فيما عملت ؟ أنا التى ضربت بالسيف .

زبرجد : إن الشيطان هو الذى يحرك يدك .

أزاهير : أين هو الشيطان ؟ ومن يكون ؟

قرنفل : (فى تخوف) : إنه كائن غير منظور يحيط بنا أينما نكون ، ويكيد لنا دون أن نراه ، ويدفعنا إلى اقتراف المنكرات والآثام . . . إنه عدونا اللدود . . .

أزاهير : ما أفظع الشيطان ! . . . أترانى قد وقعت فى حبائله ؟ !

زبرجد : كل منا فريسة الشيطان . . . إن حياتنا صراع مرير معه

أزاهير : ترى لمن تكون الغلبة ؟
زبرجد : هذا أمر لا يعلمه إلا الله .

إظلام هنيهة . . .
عودة النور .
يبدو كهف الشياطين .
« بزعبول » فى غلو ورواح وقد استبدت به الثورة والاهتياج .
« أرقط » ماثل يرقبه فى اهتمام .

بزعبول : لقد استطاع — ابن « آدم » — أن يمكر بى على الرغم من حيطتى البالغة . استطاع أن يستلب « أزاهير » من قصرها المكين .
أرقط : هذا صحيح . ولكن ابن « آدم » غير ملوم . . .
بزعبول : (صائحاً) : من الملوم — إذن — يا « أرقط » ؟
أرقط : اللوم واقع عليها هى أيها الزعيم . . . إنها المكر المجسّم ، والخبث المصور ، هى التى رضيت أن تبرح القصر معه
بزعبول : ولكنه هو الذى دبر المكيدة ، ومهد الطريق .
أرقط : لو لم تكن هى على استعداد طبيعى لاستقبال هذا الباعث ، لما استطاع هو أن ينال مأربه .
بزعبول : (صائحاً) : قلت لك : إنه المجرم الأول .
أرقط : (صائحاً) : بل هى جرثومة المفاسد ، وأس المكايد .

بزعبول : (فى صيحة عاصفة) : بل هو . . . هو !

أرقط : بل هى . . . هى !

يهم « بزعبول » بضرب « أرقط » بالمرزبة .
فيتقدم « أرقط » مبدياً أسفه واعتذاره

أرقط : هدوءاً سيدى الزعيم، ولنتصالح . . . ليس ثمة خلاف بيننا . كلاهما مجرم أثيم . . . إنهما من أرومة واحدة ، أرومة الفساد والضلال ، أرومة الإنسان !

بزعبول : الإنسان. . . الإنسان . .. شدّ ما أحس له الكراهة والمقت !

أرقط : أؤكد لسيدى الزعيم أننا بذلنا كل ما فى الوسع أن نبذل... فلا لوم علينا ولا تثريب ، ولكنى أعجب كيف عزب عن بال الزعيم أن يرسم لغايته خطة أحكم وأحزم ؟

بزعبول : تريد أن تلقى التبعة علىّ ، وتنجو من القصاص أنت ومن معك ؟ !

أرقط : لقد تعاهدنا أيها الزعيم على الصدق والإخلاص . . . ألا أصارحك ؟

بزعبول : قل ما بدا لك . . .

أرقط : أخشى أن أقول : إن تجربتك ــ أيها الزعيم ــ قد باءت بإخفاق .

بزعبول : أخفقت التجربة من ناحية . هذا صحيح . لقد عجزنا عن تربية إنسان فاضل لا يستهويه الشر . ولكن هذه التجربة أصابت توفيقاً ونجاحاً من ناحية أخرى .

أرقط : أية ناحية تقصد ؟

بزعبول : إن التجربة أثبتت : أن الشر كمين فى غرائز البشر . . . إن قطبنا الأكبر : — تقدست فى النار ذكراه — كان على حق فيما وصف به الإنسان .

أرقط : أعترف لك — ياسيدى — أنك قد أقمت البرهان الصريح على أن الإنسان يحمل فى طيات نفسه أسباب تعاسته وأن بين يديه إسعاد نفسه أو إشقاءها !

بزعبول : وإنه يتخذ دائماً من الشيطان ذريعة يستر بها نقيصته، ويبرئ نفسه . على أنه قليلا ما يؤثر جانب التلطف بنا ، والملاينة لنا ، فيتجافى بأوزاره عنا ، يعزوها حيناً إلى الزمن ، ويرمى بها حيناً وجه القضاء والقدر . إنه — حقاً — لمخلوق عجيب !

أرقط : إنى لأسائل نفسى : لم يمعن الإنسان فى مكابرة وعناد؟ ولم لا يقر على نفسه بالحقيقة جهرة ومصارحة ، فيريح ويستريح .

بزعبول : لقد خلق كذلك مكابراً عنيداً . لا يعترف بالحق إلا

قليلا على كره وإرغام . تلك شيمة أصيلة فى فطرته ، فإذا نزعتها منه لم يصبح ذلك الإنسان إنساناً !

أرقط : مهما يكن من أمر فإنى أهنئك أيها الزعيم على محاولتك الطريفة . لقد أفدنا منها على أية حال ، وحسب التجربة أن تتمخض عن جديد من المعرفة .

« أفعوان » يقدم ، يحيى الزعيم

بزعبول : ما خطبك يا « أفعوان » ؟

أفعوان : بعثة الإفساد فى الأرض ترغب فى لقاء الزعامة الشيطانية قبل الرحيل .

بزعبول : (فى استياء) : إن صدرى — الساعة — ضائق . . . ولا أجد فى نفسى ارتياحاً للقاء تلك البعثة .

أرقط : لا بأس — يا سيدى الزعيم — بأن تأذن فى لقائها لحظات .

بزعبول : فلتتقدم .

ينصرف « أفعوان » مطيعاً

« بزعبول » يتابع القول :

بعثات إفساد ذاهبة إلى الأرض ، وأخرى آيبة منها .
وماذا أثمرت ؟ بئس ما أثمرت !

تسمع ضجة ومشاحنة فى الخارج .

ما هذا ؟!

أرقط : يبدو لى أن خلافاً نشب بين أعضاء البعثة .

يقدم « أفعوان »

أفعوان : (صائحاً) : بعثة الإفساد فى الأرض .

يقدم « سبائك » و « هلاهيل » و « أنابيب »
وبعض الأعوان ، يبدو عليهم أنهم متشاكسون

بزعبول : علمت أنكم على وشك ارتحال إلى الأرض تؤدون فيها رسالة الإفساد والإضلال ، فماذا عندكم تريدون الإفضاء به إلىّ ؟ .

كل منهم يطلب الكلام بادئاً ، وأصواتهم ملتجة
يختلط بعضها ببعض ، وهم يتراشقون بنظرات حامية

أراكم فى تنازع ، ففيم نزاعكم ؟

سبائك : مثيرة النزاع « هلاهيل » !

هلاهيل : بل أنت مثار النزاع يا « سبائك » . . . وإنك لتفرش طريقنا بالمتاعب والعراقيل .

« أنابيب » يخرج من صدره حفنة
من رميم العظام ويقذف بها فى فه

أنابيب : (يلوك طعامه ، ويتكلم مجمجا وهو يشير إلى « سبائك » و « هلاهيل ») :
بل هما معاً أصل كل خلاف وشجار !

بزعبول : ما الخبر ؟ !

أنابيب : (وهو على حاله يلوك الطعام ، ويتكلم فى غير وضوح) : كلاهما أعد خطة للإفساد يريد أن ينفذها ، وكلاهما يعمل على إحباط الخطة الأخرى . ولو أنصفَا لعدلا عن خطتّهما جميعاً ، وأخذا بخطتى التى رسمتها . . . إنها أنجح خطة لإغواء الآدمىّ .

سباتلك : هراء ما يقول ؛ إنى — أيها الزعيم — أتخذ طريقة جديدة للإفساد توائم عصرنا الحاضر ، عصر السرعة . إنها طريقة فيها تجديد شامل .

هلاهيل : لا تصدق قوله أيها الزعيم . . . إنه يتشدق بالتجديد ، وهو لا يزال يتعثر فى رجعيته ، لقد وضحت الدلائل على أنه غير مجدد ، وأكاد أقول إنى فقدت الثقة به .

سباتلك : (« لهلاهيل ») : تقولين هذا لأنى أبيت أن أجاريك فيما تطلبين . . .

يوجه قوله إلى الزعيم :

إن مطالبها لا تقف عند حد . . . إنها مسرفة فى التطرف والشذوذ .

هلاهيل : (صائحة) : إن مطالبى عادلة .

أنابيب : استمعوا إلى مطالبى أنا . . . فهى خير وأهدى سبيلا . .

بزعبول : (موجهاً الكلام إلى « هلاهيل » ، و « سبائك ») : عجباً لكما ! لقد كنتما مضرب المثل فى المودة والوفاق .

هلاهيل : إنه قُلَّب لا يدوم على حال ، شد ما تتلون عاطفته ألواناً

سبائك : وإنها لطاغية فى عاطفتها الجامحة ، لها قلب « دكتاتورى » المنزع .

أنابيب : ذنب « سبائك » أنه يريد التحرر من سطوة قلبها ، ليعيش كما يهوى .

بزعبول : يسوءنى أن أعلم ما أنتما عليه من شقاق ! ألا من سبيل إلى رضاً ووئام ؟

هلاهيل : إنه يعترض سبيلى فيما أنتهج من خطط . . . .

بزعبول : أية خطط تنتهجين ؟

سبائك : إنها تقصد أيها الزعيم : مشروع « التأميم » . هو مشروعها الأصيل . وهى تطالب اليوم بإنفاذه . . .

أرقط : التأميم فكرة طائشة ، وليس لنا فيها نفع .

هلاهيل : بل فيها كل النفع ، إنها تحد من أنانية الفرد وجشعه ، وتكفل العدالة للمجتمع .

سبائك : الفكرة فى جوهرها فكرة صائبة ، ولكن علينا أن نلتزم فى إنفاذها جانب الأناة ، يجب أن نتدرج فيها ، متخذين التجربة أساساً لنا . وعلى هدى التجارب نسير

أما إذا اندفعنا فى تعميم الفكرة طفرة واحدة، فربما أفضت بنا إلى شر جسيم، وربما انتهت بنا إلى أسوأ مما نحن عليه الآن .

هلاهيل : ما دامت الفكرة أساسها صالح فلم الإبطاء فى تنفيذها ؟

سبائك : أثبتت التجارب أن « التأميم » لا يؤتى ثماره الطيبة إلا إذا تولته أيد نقية ، وضمائر حية ، ونفوس راضية مرضية، تعمل لوجه الخير ، وتنشد صالح المجتمع. فأين منا المواطنون الذين تتوافر لهم تلك الأيدى والضمائر والنفوس؟..

هلاهيل : إذا أحسنا الاختيار لم نعدم بيننا هؤلاء المواطنين . . .

أنابيب : (صائحاً) : لا اعتراض لى على مبدإ « التأميم » .

سبائك وأرقط : (دهشين فى صوت واحد) : أنت !

أنابيب : أوافق على شرط . . .

بزعبول : وما شرطك أيها السيد « أنابيب » ؟

أنابيب : أن نبدأ بتأميم أهم شىء فى المجتمع . . .

هلاهيل : ماذا تقصد بقولك ؟

أنابيب : (صائحاً مجلجل الصوت) : أقصد تأميم « الحب» !

همهمة ، وصيحات خافتة ، بين مؤيد ومعارض

هلاهيل : ما هذا التخليط ؟

أنابيب : ليس تخليطاً ما أتفوه به . إنه الصواب عينه ، يجب

« تأميم » الحب !

بعض الجمع : (فى صيحة واحدة) : يجب « تأميم» الحب !

أنابيب : أثمة شيء يعبر عن الأنانية والاحتكار والاستغلال أكثر من الحب ؟

سبائك : لا فض فوك !

ضجة بين معارض وموافق

أنابيب : الحب أكبر « رأسمالية » عاطفية . فيجب الحد من سلطانه !

أحد الأعوان : (صائحاً) : يجب أن يكون الحب ملكاً للأمة، حقاً للشعب .

آخر من الأعوان : (فى صيحة) : فليسقط احتكار العواطف .

ثالث من الأعوان : القلب لمن يحبه . . . الحب للجميع ! . .

تنشب بين أعضاء البعثة الثلاثة مناقشة عنيفة ، تنتهى بهم إلى الملاكمة

أرقط : (متدخلا بين المتلاكمين) : ألا تستحون ؟ . . . أين أنتم ؟!

بزعبول : (صائحاً ، رافعاً المرزبة فى يده مهدداً) : إليكم عنى . . . لقد طفح الكيل . . . إليكم عنى . . .

البعثة ترتاع ، وتتهيأ للهرب

ألم تسمعوا أمرى ؟ ألم تفقهوا قولى ؟ خروجاً . . .

خروجاً . . . هيا . . . هيا . . .

يثور على أعضاء البعثة بالمرزبة ، فيلوذون بالفرار . . . .

« أنابيب » يتعثر فيسقط مضطرباً ، ولا يستطيع الفرار لشدة رعبه ، يقدم حارسان فيجرانه جراً وهو يتصايح .

« بزعبول » مختل الخطو فى جيئة وذهوب ، يسرع إليه « أرقط » بقدح من الشراب ، فيجرعه دفعة واحدة . يراجعه هدوءه رويداً

بزعبول : إن ما يمر بى من المشاهد ، ليثبت لى أمراً غاب عن بالنا دهراً . . . نحن نبعث البعوث لإفساد غيرنا ، لأننا عاجزون عن إصلاح نفوسنا ، وإنه لضعف ظاهر فينا لا مرية فيه .

أرقط : أتعنى أيها الزعيم أن نلغى هذه البعثة ؟ !

بزعبول : ولم لا ؟ فلنلغها .

أرقط : حذار أيها الزعيم . . . إنك بذلك تعفى عشيرتنا من مهمة يتحمسون لها ، ويجدون فى مزاولتها تيهاً وعجباً .

بزعبول : أمن أجل هذا يا « أرقط » تريد أن نبقى على شىء استبان لنا عجزه ؟ لقد أيقنا أن الإنسان فاسد بطبعه . فلندع البشر ، ولنقبل على أنفسنا بادئ بدء . . . ماذا نهضنا

به حتى اليوم من إصلاح ؟ لقد أفلحنا فى المهاترات والمشاغبات ، ولم يكن هتافنا بالتجديد إلا تشدقاً ودعوى . . . . وها نحن أولاء نصيح بالمطالب تلو المطالب ، لا يجتمع أمرنا على عمل مثمر . . . ويا ليتنا فرغنا لأنفسنا نعالج شئوننا . . . ولكننا أقحمنا أنوفنا فى شئون غيرنا . . . ندعى إفساد « ابن آدم » حيناً ونسمو إلى إصلاحه حيناً آخر . . . ماذا كسبنا من عنائنا فى محيط البشر ؟ فلننفض من هذا العبث أيدينا ، ولننظر فى صوالحنا إن كنا فاعلين !

أرقط : إذن ندعو « مجلس التشريع والأحكام » لتحديد الخطة الواجبة الاتباع . . .

بزعبول : مجلس التشريع . . . مجلس الأحكام !

يتضاحك فى استهزاء

كفى ما أفدنا من مجلسكم العظيم . . . ما زلتم قوماً تهزلون !

يعلو ضحكه على نحو بشع يشيع
الرهبة فى كهف الشياطين .

ستارة الختام


تصدر كل يوم خميس
مغامرات
قصص
ثقافة
تسلية
محمد سعيد العريان
تصدرها دار المعارف بمصر
تطلب من باعة الصحف والمكتبات

مجموعة « نوابغ الفكر العربي ».

مجموعة جديدة جامعة تقدم نوابغ الفكر العربي في جميع العصور، كما يصورهم ويترجمهم نوابغ الفكر العربي في العصر الحاضر من كل قطر وبلد فهي تعنى بالشعراء والكتاب كما تعنى بالفلاسفة والحكماء، وتتناول أعلام اللغة كما تتناول أعلام التاريخ. وفي نهاية كل بحث باب واف للمختار من روائع المترجم له مفسر المعاني مبين الأغراض ملحوظاً في اقتباسه أن يعزز الترجمة والنقد بالشواهد والأمثال.

● ظهر منها

١ – ابن رشد	بقلم عباس محمود العقاد
٢ – الجاحظ	بقلم حنا الفاخوري
٣ – الشيخ نجيب الحداد	بقلم عادل الغضبان

● يظهر قريباً

٤ – محمود سامي البارودي	بقلم عمر الدسوقي
٥ – ابن زيدون	بقلم شوقي ضيف
٦ – الشيخ ناصيف اليازجي	بقلم عيسى ميخائيل سابا

● تحت الطبع

عدد وافر من كتب هذه المجموعة لجمهرة من نوابغ الفكر القدامى والمحدثين

ثمن النسخة ١٢٥ مليما

اقرأ

أحمد الشنتناوى

الحكماء الثلاثة

دار المعارف بمصر

الحكماء الثلاثة

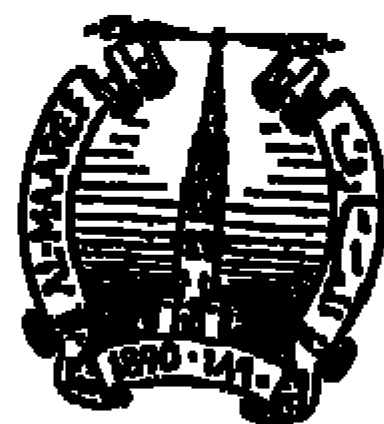
احمد الشنتناوى

الحكماء الثلاثة

اقرأ ١٢٣

دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ١٢٣ — أبريل ١٩٥٣



مقدمة

فى الشرق ملايين من الأنفس تدين بمذاهب دينية غريبة لا تمت بصلة إلى الأديان السماوية المعروفة . فى الصين عشرات الملايين من البشر يدينون بتعاليم كونفشيوس حكيم الصين الفذّ . وهم يرتبون حياتهم وعلاقاتهم الاجتماعية على أساس هذه التعاليم التى يقدسونها غاية التقديس .

والبوذيون فى الهند، وهم غالبية السكان هناك ، يعتقدون فى بوذا وتعاليمه ولا يحيدون عنها قيد أنملة على الرغم من انتشار الإسلام والمسيحية بين ربوعهم .

ولا يزال هناك إلى اليوم مئات الألوف من الأنفس تدين بالمجوسية وهم أتباع زرادشت الذى ظهر بفارس فى القرن السادس قبل الميلاد .

وقد رأيت أن أجمع بين دفتى هذا الكتيب خلاصة وافية لحياة هؤلاء الحكماء الثلاثة مع عرض عام مختصر لأهم المبادئ والتعاليم التى نادوا بها والتى جذبت إليها هذا العدد الكبير من بنى البشر .

وإنى لأشعر بأن هذا الموضوع الخطير أجل وأعظم من

أن تشمله وتحيط به مثل هذه الرسالة الصغيرة ، غير أنى أرجو أن يكون ذلك باعثاً لغيرى على بذل الجهد لإيفاء هذه المذاهب والتعاليم حقها من البحث والدراسة، لما كان لها من أثر بالغ فى الديانات السماوية التى ظهرت بعد ذلك .

زرادشت

لا يدين اليوم بالديانة الزرادشتية إلا طائفة المجوس بالهند وجماعة قليلة العدد من أهل فارس ، ومع ذلك فإنها تستأهل الدراسة لما كان لها من أثر بالغ فى الديانات السماوية التى جاءت بعدها . فزرادشت صاحب هذه الديانة هو أول من قال ببعض العقائد الجديدة التى تضمنتها الأديان السماوية فيما بعد مثل القول بالجنة والنار والبعث ويوم الحساب ، وأن الشيطان هو أصل الشر فى العالم . ولقد كان لهذه الفكرة الأخيرة شأن هام فى تطور الأديان . وإنه ليصعب علينا الآن أن نتخيل الوقت الذى كان الإنسان فيه لا يدرك شيئاً عن هذه الفكرة ، فكانت تنتابه الحيرة عندما ينظر إلى هذه الشرور والآلام التى تحيط به ولا يدرى لها تعليلا . فهو لا يستطيع ردها إلى فعل الإنسان ذاته لأنها فوق طاقته ، وليست هى من صنع الآلهة لأن الآلهة خير محض فلا يصدر عنها إلا الخير ، لذلك كان لهذا الرأى أو الكشف الجديد الذى جاء به زرادشت أثره البالغ فى إخراج الإنسان من حيرته التى كان فيها ، إذ جعله

يدرك كنه الشر وطبيعته فأخذ يسعى للقضاء عليه أو الابتعاد عنه قدر الطاقة ، ثم هو فى الوقت نفسه يصب لعنته على الشيطان إذا ما أصابه الضر فترتاح نفسه ويجد لحنقه وغيظه منصرفاً .

وإنه على الرغم من الخرافات التى حيكت حول فكرة الشيطان ، فمما لاشك فيه أنه بقدر حنق الإنسان وسخطه على الشيطان مصدر الشر والألم يكون حبه وإجلاله لله مصدر الخير والبركات ، فالشىء كما يقولون لاتعرف قيمته إلا بضده .

والخطر الوحيد الذى قد ينجم عن هذه العقيدة هو أن بعض الناس قد يخشون الشيطان أكثر مما يجب فيعبدونه زلفى له كما يعبدون الله سبحانه وتعالى .

على أن زرادشت لم يعبد الشيطان (أهرمن) قط ، بل كان يمقته ويعمل على محاربته . والأمر الذى أنقذ زرادشت من الوقوع فى الثنائية — الاعتقاد فى إلهين : إله الحق والنور وإله الشر والظلمة — وجعله من القائلين بالتوحيد الداعين إليه ، هو اعتقاده الجازم فى أن أهرمن إله الشر سوف تحل به الهزيمة هو وأعوانه من خلائق الشر آخر الأمر على أيدى أهرمزدا الإله الحق هو وأعوانه من ملائكة النور .

ولقد كان لاعتقاد زرادشت الجازم فى انتصار الحق

والخير آخر الأمر على الشر أثره البالغ فى التفكير العالمى ، إذ فتح أبواب الأمل أمام ملايين البشر المؤمنين الصالحين الذين يبتهلون كل صباح وكل مساء أن يجنبهم الله شر الوقوع فى حبائل الشيطان الرجيم ، طالبين العفو والمغفرة من زلات وآثام وقعوا فيها وانساقوا إليها بإغراء هذا الشيطان الماكر اللعين .

مولد زرادشت

ليس من السهل استخلاص حياة زرادشت الصحيحة من وسط تلك الأساطير العجيبة التى حيكت حول حياته ، بل إن بعض العلماء قد شك أصلا فى وجود شخصية تاريخية تعرف باسم زرادشت . غير أن الدراسات العميقة لكتب الأبستاق (Avesta) التى تتضمن حياة زرادشت وعقائده قد أثبتت وجود زرادشت فى وقت من الأوقات .

وينتسب زرادشت إلى ذلك الجنس البشرى المعروف باسم الجنس الهندى الأوربى . ولقد انقسم هذا الجنس منذ فجر التاريخ إلى قسمين عظيمين : انتشر أحدهما غرباً واستقر فى أنحاء أوربا المختلفة ، أما القسم الآخر وهو الجنس الآرى فقد انقسم بدوره إلى شعبتين استقرت إحداهما فيما يعرف اليوم بالهند، واستقرت الأخرى فيما يسمى بفارس، وهى

ما تعرف اليوم باسم إيران .

ولا تزال أصول كثير من الكلمات المستعملة فى البلاد التى انتشر فيها الجنس الهندى الأوربى واحدة مثل كلمات أب وأم وأخ ، فهى واحدة فى اليونانية واللاتينية والإنجليزية والألمانية وكذلك فى اللغة الفارسية القديمة واللغة السنسكريتية الهندية الشرقية القديمة . وتتشابه كذلك إلى حد كبير كثير من عادات وطباع الشعوب التى هى من أرومة الجنس الهندى الأوربى .

ولسنا نعرف على وجه التحقيق المكان الذى ولد فيه زرادشت ، غير أن القول الراجح أنه ولد فى الجزء الغربى من إيران الذى يعرف باسم آزربيجان ، وأنه قام بدعوته الدينية فى منطقة بلخ ، وقيل أيضاً إن أسرة أمه جاءت من إقليم الرى .

ويحيط الشك أيضاً بتاريخ مولده ، فكتّاب اليونان واللاتين يرجعون بتاريخ مولده إلى أقدم الأزمنة ، فنجد مثلا أن بلينوس يؤكد معتمداً فى ذلك على أرسطو ، أن زرادشت كان على قيد الوجود قبل وفاة أفلاطون بستة آلاف سنة . بينما يذكر بلوتارخ أن زرادشت كان يعيش قبل حرب تروادة بخمسة آلاف عام . ويذكر البعض أن زرادشت كان موجوداً فى عهد سميراميس ملكة نينوى وملكها نينوس . ويرجع

أحد الكتّاب المحدثين عهد زرادشت إلى عشرين ألف عام قبل الميلاد بل يذهب إلى أكثر من ذلك فيقول إنه فى ذلك العهد السحيق فى القدم كان زرادشت صاحب الديانة الزرادشتية هو فى الحقيقة سابع من تسمى بهذا الاسم . ويذهب بعض العلماء من ناحية أخرى إلى أن زرادشت ولد عام ألف قبل الميلاد وذلك استناداً على نص ورد فى إحدى الكتابات الأشورية .

على أن الروايات الزرادشتية نفسها تؤيدها فى ذلك المصادر الغربية تجعل بداية تعاليم زرادشت قبل وفاة الإسكندر المقدونى بـ ٢٧٢ سنة وهذا يحدد مولده بعام ٦٦٠ قبل الميلاد . وكانت وفاته عام ٥٨٣ قبل الميلاد .

وعلى هذا يكون اليهود قد أسروا فى بابل إبان حياة زرادشت وعادوا بعد وفاته بقليل إلى بيت المقدس ، أعادهم إليها الملك كورش (cyrus) العظيم .

وجاء فى الأساطير البهلوية أن أمه رأت فى منامها بعد خمسة أشهر من حمله أن سحابة سوداء قد أحاطت ببيتها، وأن مخلوقات بشعة قد هبطت عليها من هذه السحابة وانتزعت الطفل من رحم أمه وهمت بالقضاء عليه، فأخذت الأم فى البكاء والعويل خوفاً وفزعاً ، غير أن زرادشت هدأ من روعها

قائلا أن لا خوف ولا بأس عليه لأن الله القدير قد اصطفاه وصادقه . وما لبث أن هبط من السماء جبل يشع منه النور مزق هذه السحابة السوداء إرباً إربا فاختفت هذه الكائنات البشعة ثم انبثق من هذا الجبل طيف شاب يشعّ منه النور يحمل فى إحدى يديه غصناً منيراً وفى اليد الأخرى كتاباً من عند الله وكان هذا الطيف يمثل عظمة الله وجلاله . وقد أعاد هذا الطيف الطفل إلى أمه وسكن من روعها قائلا إن الضر سوف لا يمس هذا الطفل لأن الله ذاته يحميه ويرعاه ؛ ثم أضاف قائلا وهو يهم بالانصراف : إن هذا الطفل الميمون الطالع سوف يصبح نبى أهرمزدا .

وعندما خرج زرادشت إلى نور الحياة لم يبك مثل سائر الأطفال وإنما ضحك بصوت عال اهتزت له أركان البيت . ويقال إنه ظهرت عند ولادته عدة خوارق منها أن الأرواح الشريرة قد هربت إلى العالم السفلى عندما جاءها نبأ ولادته ، كما تذكر المصادر البهاوية أن نوراً إلهياً غمر بيت أبيه بورشاسب عندما ولد له ابنه زرادشت .

وتذهب الروايات أن ملكاً عاتياً من ملوك ذلك الزمن يدعى دُرَنسُرام بلغته أنباء هذا الطفل العجيب الذى ضحك عند ولادته ، وأنباء الخوارق التى صاحبت مولده فعقد العزم

على قتله حتى لا يكون منافساً له فى سلطانه وجبروته . فأسرع إلى بيت بورشاسب وانتزع الطفل من مهده واستل خنجره وهم بذبحه ولكن يد الملك شلت ويبست إذ أشلها الإله أهرمزدا . فأمر هذا الملك بأن يأتى الطفل على كومة من الحطب المتأجج ، ولكن النار كانت برداً وسلاماً عليه فقد حفظه أهرمزدا من الهلاك . ثم ألقى به بعد ذلك فى ممر ضيق للثيران لكى تطأه بأقدامها ، غير أن بقرة أحاطت الطفل بقوائمها وأبعدت عنه بقرونها الثيران والبقر . وقد حاول الملك إهلاكه بطرق أخرى ولكن الإله أهرمزدا حماه ورعاه .

· الاسم زرادشت

يعرف زرادشت عادة فى المصادر الإفرنجية باسم « زوروواستر » (Zoroaster) . ولم يكن هذا هو الاسم الذى أطلق على ذلك الطفل الذى ولد فى أسرة « سبتما » أى الأسرة البيضاء عام ٦٦٠ قبل الميلاد لأن هذا الاسم هو الصيغة اليونانية للاسم « زراثسترا » (Zarathustra) الوارد فى كتاب الأبستاق . ومعنى كلمة « زراث » (Zarath) يعذب. أما كلمة « أسترا » (Ustra) فمعناها جمل وعلى ذلك يكون معنى هذا الاسم « معذب الجمل » : وقد جرت العادة فى

القبائل البدائية أن ينسب الطفل إلى أول فعل ملحوظ من فعاله ، وهذا يدعو إلى القول بأن تعذيب الجمال كان أول فعل عرف به هذا الحكيم الآرى فى حداثته .

وذكر اسمه فى الكتابات الفارسية المتأخرة ، أى من العهد البهلوى بصيغة زراتشت (Zaratusht) وهى الصيغة التى أخذها العرب ونطقوا بها مخففة فقالوا زرادشت ، أى بالدال بدلا من التاء .

ومهما يكن من الأمر فإن اسم زرادشت قد ورد فى نحو عشرين صيغة مختلفة الرسم والهجاء .

كان أبوه يدعى بورشاسب وأمه دغدوڤا . وترجع الروايات نسبه إلى كيومرت ، وهو آدم فى الأساطير الفارسية ، وهو جده الخامس والأربعون .

ويقال إن زرادشت هو أوسط خمسة أبناء وأنه تزوج من ثلاث نساء ظللن على قيد الحياة بعد وفاته . ولا ندرى أكان زرادشت قد تزوج هؤلاء النسوة الثلاث فى وقت واحد أم أنه تزوج الواحدة منهن بعد طلاق الأخرى . وقد رزق من زوجته الأولى ابنا وثلاث بنات ، ومن الثانية ، وكانت أرملة ، ولدين . أما زوجته الثالثة ، وكانت أحب نسائه إلى قلبه فلم تعقب ولداً .

زرادشت فى حداثته

ما إن بلغ زرادشت السابعة من عمره حتى عهد به إلى أحد الحكماء ليقوم على تعليمه وتهذيبه . واتفقت الأساطير على أنه قد لاحت عليه وهو فى هذه السن المبكرة دلائل النجابة والذكاء المفرط والثورة على التقاليد وعلى الأوضاع السائدة المقررة . وتذهب الروايات أنه مرض وهو فى السابعة من عمره فاستدعى أبوه السحرة ليقوموا على تطبيبه، فأعدوا الدواء وطلبوا إليه أن يشربه ليستريح من آلامه ويشفى من مرضه ، غير أن زرادشت أدرك ببصيرته أنهم أعدوا له سما ناقعاً كى يزيحوا من طريقهم هذا المنافس الخطر فكان أن أراقه على الأرض ولامهم على غدرهم به .

وكان للسحرة فى تلك الأيام مكانة عظيمة ونفوذ كبير ، وكان بورشاسب واقعاً تحت سحرهم كغيره من الناس . فنى يوم من الأيام أولم وليمة كبيرة لنفر من هؤلاء السحرة، وبعد الانتهاء من تناول الطعام عرضوا أمامه وأمام ولده زرادشت بعض أعاجيبهم وألاعيبهم، فأخذ بورشاسب يمتدح مهارتهم ومقدرتهم غير أن زرادشت أهاب بأبيه أن يبتعد عن هذا الطريق الخاطئ الذى يسلكه السحرة والمشعوذون، وأن يتجه

بقلبه وعقله إلى الله إذا أراد العلم والمعرفة. ولقد اهتاج بورشاسب من حديث ولده وقام بينهما جدل عنيف انتهى بأن خرج السحرة من البيت وهم فى أشد الخجل والارتباك .

ومهما يكن من الأمر فإن زرادشت قد بلغ مبلغ الرجال وهو لا يزال فى الخامسة عشرة من عمره ، نستدل على ذلك من أن والده قد عهد إليه بنصيب من ممتلكاته وهو فى هذه السن ليديرها بما عرف عنه من بصيرة وحسن إدراك . ونحن لا نعرف إلا القليل عن زرادشت فيما بين الخامسة عشرة والثلاثين من عمره، وتذكر المصادر الخاصة بهذه الفترة من حياته أنه كان كثير التحدث مع علماء البلاد وحكمائها، كما كان يتردد على الأماكن التى تلتقى فيها الطرق التجارية الهامة المؤدية إلى مختلف البلاد، ليتيسر له التحدث إلى أكبر عدد من أهل العلم والفلسفة من مختلف البقاع ، وبذلك اجتمعت له معلومات كثيرة وتجارب عدة استقاها من الرحالة المجربين ومن التجار والحجاج.

وقد عقد زرادشت العزم على أن يكسب العلم والمعرفة عن طريق التأمل والتفكير ، فأخذ يفكر تفكيراً عميقاً شاملا فى أحوال هذا العالم . ورأى بثاقب بصره أن الحياة ليست نسيجاً لحمته البهجة وسداه السعادة والسرور ، إنما هى مزيج من الظلم والاضطهاد والفقر والحرمان والطمع والجشع والغش

والخداع والحسد والغيرة والخبث والبغض وغير ذلك من الرذائل التى تركت فى نفسه أثراً عميقاً .

ومن الطبيعى أن يخجل زرادشت الشاب من تلك الوصمة التى لحقته إبان طفولته وهى تلقيبه بلقب « معذب الجمال » ، لذلك حاول جهده أن يزيل عنه تلك الشهرة السيئة التى تدل على قسوته على الحيوان ، فأخذ يقوم بفعال وهو فى شبابه تدل على عكس ما أثر عنه فى طفولته . وهناك روايات وقصص كثيرة تسرد علينا هذه الفعال ، منها أنه دأب على إطعام الفقراء والمساكين فى زمن حلّت فيه المجاعة بالناس . ويؤثر عنه أنه صادف فى يوم من الأيام كلبة وصغارها وقد أضناها الجوع فأسرع إلى بيته وأحضر الخبز ليقدمه لهذه الكلبة وصغارها ، ولكنه ما إن عاد إليها حتى وجدها قد نفقت ، فأثر ذلك فى نفسه أثراً عميقاً انعكس فى قانونه الذى سنه للناس فيما بعد إذ فرض فيه عقوبات شديدة على الشخص الذى يسىء معاملة الحيوان أو يمنع عنه الغذاء .

وتدلنا بعض الروايات على أن زرادشت قد أخذ وهو فى شبابه يتحلل من ربقة تلك العادات والتقاليد التى كانت شائعة فى عهده ، فنجده مثلا يصر على أن يرى وجه المرأة التى سوف يتزوجها ويتحدث إليها قبل أن يعقد عليها وكان ذلك

من محظورات فى ذلك العهد .

وتؤكد الأساطير الفارسية أن زرادشت قضى فترة طويلة قبل أن يبلغ الثلاثين من عمره فى التأمل والتفكير . ويذهب أتباعه إلى أنه قضى فى الصحراء سنوات كثيرة يغتذى من قطعة واحدة من الجبن تتجدد من تلقاء نفسها . وهم يذكرون أن النور كان يغمر الجبل الذى لجأ زرادشت إلى أحد كهوفه . وإذا صحت تلك الرواية فليس من الغريب أن يكون ذلك بسبب ثورة بركان قريب أثار الجبل بلهبه وحممه ، أو أن يكون هذا النور صادراً عن عاصفة كهربائية أحالت الجبل وما حوله إلى قطعة من النور .

وما إن بلغ زرادشت الثلاثين من عمره حتى اعتزل الناس وآثر الوحدة ، والعزلة هى محراب الطبيعة الجليل حيث تستطيع النفوس أن يناجى بعضها بعضاً وسط ذلك الصمت المطبق والسكون المخيم على الكون . لجأ زرادشت إلى قنن جبال الهضبة الإيرانية بعيداً عن زحمة الحياة وجلبتها حيث لا صوت إنسان يقطع عليه تيار تفكيره أو يصرفه عن تأملاته . وهناك اتخذ من المياه والطير والحيوان والشمس والقمر والنجوم والسيارات أساتذة له يتلقى عنها أسرار الحياة . فأخذ يتأمل فى جوهر هذا الخالق المبدع لكل هذه الكائنات والمخلوقات ، وفى متناقضات

الحياة، وفى مصير الإنسان بعد الموت . وقد استطاع وهو فى هذا الخراب الطبيعى الجليل الذى هو من صنع الواحد القدير أن يرى بروحه أشياء لم ترها عيناه من قبل . هنا فى هذه العزلة التامة استطاع زرادشت بعقله المبدع أن يدرك كنه الله، وقد أطلق عليه اسم أهرمزدا أى الإله الحكيم .

وذهب الكتّاب اليونانيّون المتأخرون إلى أن زرادشت كان لديه فى كهفه بالجبل مثال مصغر يمثل النظام الشمسى . ولا ريب فى أن طبيعة الصحراء الصامتة بسمائها الصافية قد جعلت زرادشت يتجه ببصره إلى كبد السماء يراقب نجومها فى الليالى الصافية ، ويتتبع حركاتها ، فكان بذلك أول مجوسيى الشرق الذين يعدون بحق رواد علم الفلك الحديث .

الدعوة إلى الإصلاح الدينى والاجتماعى

لقد تم التمهيد للنبوة المنتظرة إذ بلغ زرادشت إبان عزلته فى الجبال شأواً كبيراً فى الحكمة والصلاح والتقوى وشعر فى قرارة نفسه أنه رسول من عند أهرمزدا — الله عند زرادشت — وأنه على أتم استعداد لأن يحمل هذه الرسالة وأن يبلغها لبنى البشر . لقد انتهت عند ذلك الحد مرحلة من مراحل حياته وأصبح الآن على تمام الأهبة لأن يخرج من عزلته وأن ينخرط

مرة أخرى فى ركب الحياة وأن يذوق حلوها ومرها . لقد كانت لديه رسالة جديدة وأمل جديد وطريقة جديدة يجدد بها هذا العالم الذى ران عليه اليأس والقنوط وفقد الناس فيه الأمل والرجاء ، فكان هو حامل رسالة الأمل إلى بنى الإنسان الساعى إلى تخليصهم مما هم فيه من شرور ومفاسد وضلالات ، العامل على إنشاء نظام اجتماعى وخلقى جديد . وقد كانت هذه المهمة صعبة محفوفة بالمخاطر ، ولكن زرادشت عقد العزم على تحقيق هذه الرسالة . وكان يرى أن رسالته موجهة إلى البشر أجمعين ، غير أن هذه الأمنية التى كان يحلم بتحقيقها لم تتحقق أبداً لا فى عهده ولا فى الأعصر التى أعقبته . فإن الزرادشتية — وإن كانت تدعو إلى التوحيد وإلى طريق الحق والاستقامة — لم تكن تحمل فى طياتها دلائل على أنها سوف تصبح ديناً عالمياً ، لذلك فهى لم تنتشر إلا فى منطقة محدودة أى أنها كانت ديناً إقليمياً ، وقد يكون من العجب أن الزرادشتية قد بقيت على وجه الأرض حتى اليوم وإن لم يزد أتباعها على ١٢٥ ألف نسمة .

اتجه زرادشت أول ما اتجه بعد عزلته إلى مسقط رأسه وقد عرفه أهله وبنو عشيرته بعد هذه الغيبة الطويلة وإن كانت قد تغيرت ملامحه وتقدمت به السن واستطالت قامته ، غير

أن الشيء الذى بهرهم هو ذلك النور الساطع الذى كان يشع من طلعته، وكأن نفسه الطاهرة النقية قد فاض نورها فانعكس على وجهه .

أخذ زرادشت يتنقل بين الناس ويتحدث إليهم فى بساطة وإخلاص وثقة بالنفس وعدم تكلف، وذلك قد أكسبه احترام كل من قابله وتحدث إليه . وكان احترام الناس له مشوباً بالإعجاب والتقدير لأنه أخذ يتحدث إليهم بأحاديث وآراء لم يسمعوا بها من قبل، كما أخذ يبصّرهم بأشياء لم تكن معروفة لديهم .

ذكر زرادشت أنه جاءهم من عند أهرمزدا الإله الأعظم الذى هو فوق كل الآلهة التى عرفوها من قبل . وأن هذا الإله قد اختاره ليبلّغ رسالته إليهم ويدعوهم إلى دين أسمى من الدين الذى يعتنقونه . وقال لهم إن الكهنة ورجال الدين يهتمون أشد الاهتمام بالطقوس والشعائر الدينية والمظاهر الخارجية للدين أكثر من اهتمامهم بلب الدين وجوهره، وأن الآلهة التى يعبدونها مشغوفة بالقرابين التى تقدم إليها من الحيوان والطير . أما الدين الجديد الذى يدعو إليه فلا يقوم على شيء من هذا، إنما أساسه القلب والوجدان . إن القلب الكسير والنفس التائبة النادمة هى أحسن قربان يقدمه المؤمن إلى

خالقه ، وإن دموع الندم المنسكبة من قلب تائب نادم هى القربان المفضَّل عند الله . أما موضوع هذا الدين الجديد وهدفه فهو السلوك المستقيم ، وعباداته قائمة على العدل والورع والاستقامة ، وهذه صفات باطنة يتصف بها القلب والضمير ، أما المظاهر الخارجية لهذا الدين فهى النية الطيبة والكلام الطيب والأعمال الطيبة .

كانت هذه الدعوة غريبة على أسماع هؤلاء الذين تجمعوا حول هذا النبي ، وقد تركت فى نفوس بعضهم أثراً عميقاً لبساطتها وشعروا بميل نحو دعوته . وكان بين هؤلاء المستمعين نفر اجتمعوا حول زرادشت لينقلوا أقواله إلى أتباعهم من رجال الدين الذين أخذوا يتوجسون شراً من هذه الدعوة الجديدة فراقبوا زرادشت عن كثب وانتظروا ما عسى أن تؤدى إليه هذه الدعوة الجديدة ، غير أن انتظارهم لم يطل فإن دلائل الاستنكار وهمسات الاستهجان ودمدمة السخط والحنق قد ظهرت فى أنحاء مختلفة من إيران مؤذنة بهبوب العاصفة .

انزعج كهنة الدين القديم أيما انزعاج وحاولوا أن يحولوا دون زرادشت وجمهور المستمعين له بحجة أن هذه الآراء مما يهدد أمن الناس وطمأنينتهم . وكثيراً ما اجتمعوا وإياه وجادلوه فى المسائل التى يثيرها فكان يتفوق عليهم فى جدله ونقاشه ،

وأفضى هذا إلى الحط من أقدارهم بين الناس ، فامتنعوا عن الاجتماع به وأخذوا يدسون له للقضاء عليه قبل أن يستفحل أمره فيكون القضاء المبرم عليهم ، وهم الذين يغنمون الغنائم الهائلة من وراء هذه الطقوس والشعائر الدينية المعقدة ، وينعمون بتلك القرابين التى يقدمها الناس إلى الآلهة بإرشادهم .

وكان لهؤلاء الكهنة فى تلك الأيام شهرة واسعة فى أعمال الرقى والتعاويذ لطرد الجن والعفاريت والأرواح الخبيثة ، وكانوا إلى جانب ذلك يفسرون الأحلام وينبئون عن المستقبل . ويحولون دون تأثير العين الحاسدة وغير ذلك من الخرافات التى كانت سائدة بين الناس فى ذلك الوقت . وقد هاجمهم زرادشت وعاب عليهم هذه الأعمال الخرافية ، وناشد الشعب أن يقلع عن هذه الأوهام والضلالات التى جرّت عليه البؤس والشقاء ، وحذّرهم من السير فى هذا الطريق الضال الذى رسمه لهم هؤلاء الكهنة الضالون . وكانت هذه ضربة أخرى أصابت الكهنة ومن يسير على منوالهم على يد زرادشت فحنقوا عليه وعقدوا العزم على القضاء عليه .

اتهم رجال الدين زرادشت بأنه يدعو إلى عقائد وآراء تهدم دين آبائهم وأجدادهم وتقضى على الشعائر والعبادات المقررة منذ أقدم الأزمان ، كما أنه يسب آلهتهم ويكفر بها

ويحض الناس على اتباعه ، لذلك لجأوا إلى الطبقة الحاكمة طالبين إبعاده عن البلاد لأنه خطر يهدد أمن الناس وسلامتهم .

وقد استمع الحكام لرجال الدين فهددوا زرادشت وأخافوه كما هددوا هؤلاء الذين أخذوا يميلون إلى تعاليمه وآرائه الجديدة بالنفى والحرمان من المجتمع ، فتخلى الناس عنه كما تنكر له أهله وعشيرته ، وهكذا تخلى الناس جميعاً عن زرادشت فلجأ إلى أهرمزدا يسأله العون فى تلك المحنة كما يعاون الصديق الصديق .

ترك زرادشت أهله ومسقط رأسه وأخذ يتنقل من بلد إلى آخر ، وكانت شهرته تسبقه إلى كل مكان يحل فيه وأخذت الألسنة تلوك القول بأن رجلا دعياًّ يسب الدين ورجال الدين ، لذلك لم يستضفه أحد ، وإن كانت آداب الضيافة فى المشرق تقضى بفتح الأبواب أمام أى طارق أو غريب . وتذهب الروايات إلى أن زرادشت كان إذا حل ببلد من البلاد وجد الأبواب كلها موصدة فى وجهه فلا يجد أمامه إلا حظائر الخيل والبغال والحمير .

وهكذا مرت الأيام والفصول والأعوام وزرادشت يعيش عيشة ضنكاً ، وقد قطع إيران كلها طولا وعرضاً وهو يعظ الناس ويرشدهم ويجادلهم . وأخيراً قدر له أن يستهوى بعض المريدين

وكان أولهم ابن عمه الذى آمن برسالته وغدا تلميذه المقرب إليه المتعصب لدعوته .

وصل زرادشت فى طوافه إلى الشرق الأقصى من إيران، أى إلى البلاد التى كانت تعرف باسم بكتريا وهناك أخذ أتباعه يزيدون يوماً بعد يوم ، ثم قوى مركزه واشتد ساعده عندما اعتنق الملك كشتاسب هذا الدين الجديد ، فكان ذلك بمثابة الدعامة الكبرى للديانة الزرادشتية .

ويبدو لنا زرادشت من خلال القصص والأساطير المختلفة أنه كان مصلحاً اجتماعياً ، وكثيراً ما تصوره لنا المصادر الزرادشتية القديمة فى صورة الداعى إلى الإصلاح الزراعى بين شعب يكاد يكون من القبائل الرحّل . وهو نفسه يصرح بأن دعوته جاءت إليه عن طريق « خوار البقر » . وقد أفلح زرادشت فى لم شمل هذه القبائل المتفرقة وجعل منها أمة واحدة متماسكة وذلك بفضل الدين الجديد الذى بشّر به .

والظاهر أن زرادشت قد وضع مشروعات الإصلاح الاجتماعى التى قام بتنفيذها خلال الفترة التى اعتزل فيها الناس فى بطن الجبل ، وكان يعتقد أن هذه الإصلاحات الاجتماعية جزء من رسالته الروحية . لقد ضاق زرادشت ذرعاً بتلك الخرافات والأوهام التى كانت تأخذ بخناق الشعب الفارسى

فجعلت حياته فى ظلام دامس وحالت بينه وبين التقدم ، كما أزعجته تلك الهجمات المتتابعة التى كان يشنها التورانيون على بنى قومه فتروع الآمنين الوادعين وتنشر البؤس والشقاء فى ربوعهم بعد الخير والهناء . لقد شعر شعوراً عميقاً — مثله فى ذلك مثل بوذا فى الهند بعد ذلك بقرن من الزمان — بتلك الشرور والآلام والكوارث التى كانت تأخذ بخناق البشر ، ولكنه أتى بحل لهذه المعضلة يباين الحل الذى جاء به بوذا كل المباينة .

لقد أوحت إليه لحظة من لحظات التأمل والتفكير أن هذه الشرور والآلام ما هى إلا من فعل روح خبيث ، هى من فعل الشيطان الماكر كبير الأفاكين .

« إننى سوف لا أستسلم إليه ، إن مارد الظلام الكبير سوف يقهره إله النور » .

« سوف أذهب لأعظ قومى وأخبرهم أن آلهتهم القديمة التى صورتها لهم المخاوف والأوهام ما هى إلا من صنع الشيطان الأكبر أهرمن ؛ وأخبرهم أن غارات التورانيين على بلادنا واستيلاءهم على قطعاننا وأموالنا هى أيضاً بإيعاز من هذا الشيطان الشرير » .

«ولكنى سوف أنادى بينهم أيضاً بأن الوقت قد حان

للقضاء على هذا الشيطان ، وأن أهرمزدا إله النور والحق سوف يقهر أهرمن إله الشر والظلام » .

جاشت هذه الخواطر فى نفس زرادشت فاطمأن إليها وعقد العزم على تحقيقها بكل ما أوتى من قوة وجهد، وعلى الرغم من جميع الصعاب التى قد تعترض طريقه .

ولقد تجلى الله الواحد القهار لزرادشت وهو فى هذه الحالة من التطهر النفسى فى شكل رؤى عجيبة وأنوار قدسية ساطعة . وهذه الرؤى موضع تفاصيل وجدل طويل بين الكتّاب المتأخرين لأنهم يدركون أهميتها فى حياة زرادشت ، بل هم يؤرخون حياته ابتداء من هذه اللحظة الرهيبة ، ويعدون السنة الحادية والثلاثين من عهد الملك كشتاسب أول سنة من تاريخ الديانة الزرادشتية . ففى اليوم الخامس عشر من شهر أرتفاهستو (٥ مايو سنة ٦٣٠ ق م) هبط على زرادشت الإلهام السماوى .

وتذهب الأساطير والروايات المختلفة أن زرادشت كان واقفاً فى فجر ذلك اليوم على ضفة مجرى نهر ديتى المقدس ثم هم بأخذ حفنة من مياه ذلك النهر ، وإذا بشبح مقبل عليه من ناحية الجنوب وفى يده قضيب يشعّ منه النور الذى يخطف الأبصار . كان ذلك الشبح هو « فوهومناه » كبير الملائكة ، وكان حجمه يكبر حجم الإنسان بتسع مرات . نادى

« ڤوهومناه » زرادشت وطلب إليه أن يخلى عنه بدنه ويتبعه إلى حيث يستمع لتعاليم أهرمزدا العظيم وملائكته الأطهار. وقد لاحظ زرادشت لأول مرة وهو فى حضرة أهرمزدا وملائكته أن لا ظل له فعزا ذلك إلى شدة الضوء المنبعث من هذا المجتمع الربانى . والواقع أن جلال الموقف وهيبته أفقدا زرادشت ذاكرته ،وإلا كان أدرك أن « ڤوهومناه » قد أمره بأن يتخلى عن بدنه إلى جانب النهر المقدس .

ولُقن زرادشت وهو فى الحضرة الإلهية ، الأركان الأساسية للدين الحق ، واطلع على الرموز الخفية والأسرار العلوية التى تنبئ عما سيحدث من أمور فى تاريخ الديانة الزرادشتية . وأخيراً عاد زرادشت من حضرة أهرمزدا بعد أن تلقى الرسالة ، وهب من تلك اللحظة يعظ الناس ويبشرهم بهذا الدين الجديد .

لقد كان النور المنبعث من أهرمزدا وملائكته هو الشيء الذى أذهل زرادشت واستحوذ على لبه . وأهرمزدا فى الديانة الزرادشتية معناه إله الحكمة . غير أن الحكمة والحق والنور هى جميعاً بمعنى واحد فى لغة زرادشت . وقد أصبح للنور والنار من ذلك الوقت شأن كبير فى الديانة الزرادشتية . وينكر المجوس — وهم أتباع زرادشت الموجودون حتى الآن — أنهم يعبدون النار . والحق أن المجوس بعيدون عن الوثنية ولكنهم يجعلون

للنار المكان الأسمى فى احتفالاتهم وطقوسهم الدينية .

رسالة زرادشت

تقوم رسالة زرادشت التى خرج بها لإنقاذ العالم على وصايا غريبة قد تبدو نابية على الأسماع ، كما أنها لا تتفق أبداً والآراء والتعاليم التى قيلت قديماً وحديثاً لخلاص العالم وهداية الناس إلى الطريق المستقيم . ويمكن رد هذه الوصايا إلى أربعة أركان أساسية وهى :

« اعبد أهرمزدا .

مجد الملائكة .

العن الشياطين .

تزوج أقرب قريباتك » .

ومن الواضح أن هذه الأسس لا تصلح لأن تكون قواعد دين جديد ينظم أمور الناس ويهديهم إلى طريق الحق والصواب ، فإن عبادة أهرمزدا وتمجيد الملائكة ولعن الشياطين لا تتصل عن قرب أو بعد بأحوال الناس فى حياتهم اليومية . ولا ندرى الحكمة فى أن يتزوج المرء من أقرب قريباته ، لذلك كان الفشل نصيب زرادشت فى المرحلة الأولى من دعوته ، فلم يستمع له أحد من بنى وطنه وازدراه الناس ولحقت به الفاقة

والحرمان، يدلنا على ذلك تلك الصلاة الحارة التى توجه بها إلى أهرمزدا عند ما تخلى عنه الناس يسأله الغوث والعون :

« إننى أسألك أن تصدقنى القول يا إلهى أهرمزدا إذا كنت سوف أنال حقيقة ذلك الجزاء الذى وعدتنى به وهو لايعدو عشرة أفراس وجوادا وجملاً . وهل أحظى عن طريقك أيها الإله مزدا بالسعادة والخلود ؟ » .

استطاع زرادشت إبان رحلته الطويلة فى بلاد فارس وخاصة إلى الجزء الجنوبى الغربى ناحية الهند أى إلى بلاد سيستان الواقعة بين أفغانستان وبلوخستان أن يقلّب النظر فى أركان دعوته وأن يحوّر رسالته بعض الشيء حتى تتلاءم وحاجات الناس فى ذلك الوقت .

لذلك نجده يقلع عن التبشير بالزواج من أقرب القريبات ، وأخذ يحث الناس وخاصة طبقة الحكام والأمراء على فعل الخير والعدل بين الناس ولعن الشيطان أس المصائب جميعاً وعبادة أهرمزدا الإله الأعظم .

وتذكر الروايات أن حاكم سيستان قد استجاب لما يقول به زرادشت من حيث العدل والإنصاف بين الناس ولعن الشياطين وامتداح العمل الطيب وذم الخبيث من الفعال ولكنه لم يذهب إلى أكثر من ذلك ولم يعتنق هذا الدين الجديد .

والواقع أنه قد انصرمت سنوات عشر ما بين أول إلهام هبط على زرادشت وأول شخص اعتنق هذه الديانة الجديدة . وتذكر الروايات أن زرادشت قد شاهد خلال هذه السنوات العشر ست رؤى جديدة كان يخرج بعد كل رؤيا منها بمعلومات جديدة عن العالم السماوى وأسرار الحياة . وكانت كل رؤيا من هذه الرؤى تتم على يد كبير من ملائكة أهرمزدا ، وقد زوّده كل واحد من هؤلاء الملائكة بالأسرار الخاصة التى يقوم على حفظها والسهر على رعايتها .

لقد حثه الملك « ڤوهومناه » فى الرؤيا الثانية على العناية بالحيوانات النافعة ، ولعل ضمير زرادشت كان لا يزال يؤنبه على ما بدر منه فى حداثته من تعذيب للحيوان . وأوصاه الملك « أشا » بالعناية بالنيران على إختلاف أنواعها . وزوّده الملك « شاثرا » بكل المعلومات والأسرار الخاصة بالمعادن . وأطلعه الملك « أرميتى » على أحوال البلاد والأقاليم المختلفة . ولقّنه الملك « هورڤتات » كل المعلومات المتصلة بالمياه وكيفية استعمالها والإفادة منها . أما الملك السادس والأخير « أمرتات » فقد زوّده بكل المعلومات الخاصة بعالم النبات .

وإذا رجعنا إلى الكتب المقدسة الزرادشتية نجد أن هذه الرؤى جميعاً قد حدثت إبان أشهر الشتاء وأنها تمت جميعاً

وهو فى غرب إيران . والظاهر أن زاردشت قد خص أشهر الصيف برحلاته التبشيرية ناحية المشرق، كما خص أشهر الشتاء بالاتصال بالقوى السماوية ، أما فيما عدا ذلك من أشهر السنة فكان يقضيها فى التأمل والتفكير داخل حدود وطنه .

والواقع أن هذا النبى الشاب كان يعمل على وضع نظام شامل لجميع مشكلات الحياة النظرية منها أو العملية على سواء . فكان أن ارتبطت فى ذهنه جميع الفضائل والواجبات المختلفة فقام بتجسيدها فى أفراد الملائكة وجعل لكل ملك منهم عالماً خاصاً يقوم بتدبيره والسهر عليه . لقد أقام زرادشت مذهباً فلسفياً دينياً لا شك فى أن العالم مدين له به . فهو بذلك أول من فلسف الدين .

إن أفلاطون وفيثاغورس وهيرودتس جميعاً مدينون لهذا الحكيم بكثير من آرائهم وتعاليمهم ، ناهيك بفلاسفة الرومان واليهود والنصارى والمسلمين .

الإغراء

ما كاد زرادشت يتلقى آخر إلهاماته التى تتضمن جميع الأسرار والمعلومات التى تتصل بالحياة الدنيا وهى التى ضمنها فيما بعد كتاب الأبستاق (Avesta) إنجيل الديانة الزرادشتية —

حتى عادت خلائق الشر إلى إغرائه وتثبيط همته وكان هذا الإغراء والتثبيط غاية فى المكر والدهاء .

لقد ظل زرادشت يعظ الناس ويبشر بهذا الدين الجديد سنوات عدة، وكان قد بلغ وقتذاك الأربعين من عمره ولكنه لم يجتذب إلى هذا الدين الجديد مؤمناً واحداً . وكان من الطبيعى والحالة هذه أن يعتريه اليأس والقنوط بعد هذا الجهد الذى بذله عبثاً فى سبيل هداية الناس ، وأن يعود فى هدوء وصمت إلى دين آبائه وأجداده .

وقد استغلت خلائق الشر هذه الحالة النفسية التى وصل إليها زرادشت فعملت على إغرائه وتثبيط همته لكى يترك ما هو فيه .

وحدث أن كان زرادشت فى يوم من الأيام فى زيارة أبيه فجاءه الشيطان ووسوس إليه قائلا :

« إنك ولد بورشاسب ، لقد عبدتنى أمك » .

وهنا نجد أن الشيطان قد لجأ فى إغرائه إلى أقدس الروابط الإنسانية وهى الرابطة التى تربط بين أفراد الأسرة الواحدة وخاصة بين الابن ووالديه فكيف يخالف الابن ما جرى عليه الوالدان من عبادة ودين ؟

غير أن زرادشت لم يعبأ بهذه الوسوسة وظل سائراً فى

طريقه لا يثنيه عن عزمه شيء . ثم جاءه الشيطان مرة أخرى ووسوس إليه قائلا :

« أيها النبي المجهد يا من ليس له تابع يشد من أزره ، بأى سلاح سوف تتغلب على هذا الدين القائم ؟ » .

وفى هذه المرة نجد الشيطان يوسوس لزرادشت الذى أجهده النصب دون أن يفلح فى اكتساب شخص واحد يشد من أزره فلعله وهو فى هذه الحالة النفسية القلقة يقلع عما هو فيه ولكن زرادشت صاح قائلاً :

« سوف أقهرك أيها الشيطان بسلاحى الخاص وهو أمضى الأسلحة » .

ومضت فترة ليست بالقصيرة قبل أن يعاود الشيطان إغراء زرادشت من جديد ، وأخيراً ظهر له فى صورة فتاة جميلة كان يتعشقها زرادشت فى صباه ، وأخذت تستعطفه وتحثه على ترك ما هو فيه والعودة إلى دين آبائه وأجداده ، ولكنه خذلها وخرج منتصراً من هذه المحاولات المتكررة التى حاول فيها الشيطان إغراءه والانتصار عليه ، إذ كانت الرؤى التى شاهدها لا تزال ماثلة أمام عينيه فلم ينخدع بهذه الأقوال التى ألقاها الشيطان فى روعه .

وما إن مر زرادشت بهذه التجربة القاسية حتى لاح له

أول معتنق لهذه الديانة الجديدة فى شخص ابن عمه « متيوما » .

وما كادت تلوح لزرادشت هذه البارقة الأولى من بوارق النصر والأمل حتى عاد من جديد إلى شكواه قائلا :

« أبعد عشر سنوات أستهوى رجلا واحداً ؟ ! »

غير أن زرادشت على الرغم من يأسه قد أخذ يتنقل من بلد إلى آخر كما ذكرنا يدعو الناس إلى هذا الدين الجديد إذ كان على يقين من أن الله سوف يثيبه على جهاده فى سبيل نشر دينه إن لم يكن فى هذا العالم الأرضى فسيكون فى عالم السموات العلى .

زرادشت والملك كشتاسب

أنفق زرادشت السنتين اللتين أعقبتا اعتناق ابن عمه ميتوما لهذا الدين الجديد محاولا أن يكسب تأييد الملك كشتاسب لهذا الدين . وكان كشتاسب فى ذلك الوقت ملكاً قوياً يحكم الجزء الشرقى من إيران وهو القسم الذى تسود فيه الديانة الوثنية القديمة التى يمقتها زرادشت أشد المقت ويعمل على القضاء عليها .

خرج زرادشت قاصداً قصر هذا الملك العظيم ليعرض

عليه هذا الدين الجديد ويدعوه إلى اعتناقه فلعله يوفق إلى ذلك ويكسب تأييد هذا الملك فيكون ذلك إيذاناً بانتشار هذا الدين . وقد اعترض زرادشت وهو فى طريقه إلى قصر الملك إله الظلمة هو وأعوانه من خلائق الشر وطلبوا إليه أن يخفى كتاب الأبستاق الذى يحمله فى يده وأن يعود أدراجه ولكن زرادشت تلا فصلا من هذا الكتاب فانزعجت خلائق الشر وفرت من أمامه . وما إن سار قليلا حتى تصدى له زعيمان من زعماء البلاد عرفا بالطغيان والجبروت فعرض عليهما زرادشت أن يدخلا فى دين أهرمزدا ولكنهما لم يكترثا لكلامه وهمّا بإيذائه. فسأل زرادشت ربه العون فلم يلبث أن هب إعصار قوى أطاح بالزعيمين فى الهواء وظلا معلقين فى الفضاء إلى أن تجمعت حولهما الطيور الجارحة وأخذت تنهش بدنيهما بأظافرها ومناقيرها ولم تتركهما إلا عظاما نخرة هوت بعد ذلك إلى الأرض .

وكانت شهرة زرادشت قد بلغت آذان الملك كشتاسب فأصبح مشوقاً لرؤية هذا النبى والتحدث إليه ؛ لذلك ما إن بلغه خبر مقدمه إليه حتى استعد لملاقاته ومعه عدد كبير من رجاله . وكان من أمره أن دعا الحكماء والفلاسفة إلى بلاطه فلبى دعوته ما لا يقل عن ستين رجلا منهم . وتذهب الروايات إلى أن

زرادشت دخل بلاط هذا الملك وفى يده كتلة من اللهب يحركها إلى كل ناحية دون أن تؤذيه . ثم ناول الملك هذه الكتلة من اللهب ثم حاشيته من بعده فلم يصبهم أى أذى . ولما سأله الملك أن يأتى بعجيبة تؤيد نبوته طلب زرادشت أن يصب على صدره النحاس المذاب . وقد صبوا عليه النحاس المذاب أربع مرات فلم يظهر على جسده أى أثر لهذه النيران المذابة . وبعد ذلك طلب الملك من الحكماء والفلاسفة أن يحاجوه ويمتحنوه . فأخذوا يلقون عليه السؤال تلو الآخر وهو يجيب عن أسئلتهم الإجابة السديدة المفحمة. وظل هؤلاء الحكماء والفلاسفة ثلاثة أيام وهم يلقون الأسئلة العويصة النظرية منها والعملية الخاصة بأحوال الدنيا والعالم الآخر وزرادشت يجيب عنها الإجابة المسكتة المقنعة المدعمة بالبراهين الدامغة . وبعد أن أسكت زرادشت هؤلاء الحكماء بواسع علمه ومقدرته الكلامية انطلق يبشّر بهذا الدين الجديد فى حضرة الملك وحاشيته ، ثم طلب إليه أن يعتنق هذا الدين . وكان الملك كشتاسب قد تأثر غاية التأثر بما شاهده وسمعه من زرادشت ولكنه قال إن الاندفاع فى مثل هذه المسائل الدقيقة أمر غير مستحب ولكنه سوف يتمهل بعض الوقت ليتدبر هذا الأمر . وفى تلك الفترة كان زرادشت موضع الحفاوة

والإكرام وقد أسكنه الملك بيتاً جميلا إلى القرب من قصره .

كانت الغيرة قد أنشبت أظافرها فى قلوب هؤلاء الحكماء والفلاسفة الذين نالتهم الهزيمة على يد زرادشت فأرادوا أن ينتقموا لأنفسهم منه . فكان أن رشوا خادم البيت الذى ينزله زرادشت ودسوا فى فراشه بعض رؤوس القطط والكلاب وذيولها وغير ذلك من الأدوات التى تستخدم فى السحر الأسود . وفى يوم من الأيام كان زرادشت جالساً إلى جانب الملك يقرأ له بعض فصول الأبستاق فتقدم هؤلاء الحكماء وأسروا فى أذن الملك أن هذا الوافد إليهم إنما هو ساحر مبين ، وأنه قد خدع الملك بقوة السحر وما عليه إلا أن يرسل بعض جنوده إلى بيت زرادشت ليحضروا له الأدوات التى يستعين بها على سحره وشعوذته . وما إن شاهد الملك هذه الأشياء الدنسة حتى طرح من أمامه كتاب الأبستاق — إنجيل الديانة الزرادشتية — وأرسل زرادشت إلى السجن مكبلا بالحديد ، وظل زرادشت ماقى فى غياهب السجن أسبوعاً يعانى عذاب الغدر والخيانة .

واتفق فى ذلك الوقت أن مرض فرس الملك الجميل المحبب إليه مرضاً غريباً إذ كانت قوائمه تغوص فى بطنه . وقد اغتم الملك لذلك واستدعى مهرة البياطرة والجراحين لعلاجه ولكن دون جدوى . وكان حزن الملك على الفرس شديداً حتى إنه

امتنع عن الطعام وعز عليه النوم .

ولما سمع زرادشت عن مرض الفرس من حارسه أرسل إلى الملك رسالة ينبئه فيها أنه يستطيع إبراء الفرس من مرضه . فاستدعاه الملك للحضور بين يديه وأخبره أنه إذا استطاع حقيقة أن يبرئ الفرس من مرضه فإنه يكون نبياً حقاً لأهرمزدا . وقد طلب زرادشت من الملك أن يلبي له شروطه الأربعة ، كل شرط منها نظير إبراء رجل من أرجل الفرس . وقد قبل الملك ما اشترطه زرادشت . فالشرط الأول أن يعتقد الملك بقلبه ولسانه أن زرادشت رسول من عند الله ، والشرط الثانى أن يقوم الأمير أسفنديار — ولد كشتاسب — بنشر هذا الدين بحد السيف ، والثالث أن تعتنق الملكة هذا الدين الجديد ، أما الشرط الأخير فهو أن يدعو الملك خادم البيت ويطلب إليه أن يخبره عن حقيقة ما حدث بعد أن يؤمنه على حياته .

قام زرادشت بإبراء الفرس من مرضه وقام الملك من ناحيته بتنفيذ ما اشترطه زرادشت . وما إن تكشفت الحقيقة للملك حتى قام من مجلسه وقبل رأس زرادشت وجبهته واستماحه وأجلسه على العرش بالقرب منه ، وهكذا اعتنق الملك كشتاسب الديانة الزرادشتية وقف نفسه وجنده وماله لنصرة هذا الدين ، وبذلك تقوضت أركان الدين الإيرانى الوثنى القديم .

انتشار الديانة الزرادشتية

لقد انتشرت هذه الديانة الجديدة فى طول بلاد إيران وعرضها انتشار النار فى الهشيم، وأصبح شعار زرادشت « دين الميديين والفرس الذى لايتغير » . وما إن انقضى قرن من الزمان على وفاة زرادشت حتى كان الملك دارا المجوسى يقرع أبواب أثينا بجيوشه الجرارة وأصبحت الشعوب فيما بين الهند وشبه جزيرة اليونان تعتنق هذه الديانة الزرادشتية .

وكانت أسعد أيام زرادشت هى الفترة ما بين اعتناق كشتاسب هذا الدين الجديد إلى أن وافته المنية بالغاً من العمر السابعة والسبعين . وكان شغله الشاغل خلال ذلك الوقت محاربة أرجاسب ملك الصين الوثنى . ولا ندرى على التحقيق هل اشترك زرادشت بنفسه فى الحروب التى استعرت بين ملك إيران وملك الصين أو كان يشد أزر المحاربين بعظاته فقط.

وتذهب الروايات إلى أن زرادشت قد لقى حتفه فى تلك الحروب إذ تربص به محارب تورانى وطعنه طعنة قاتلة ، وتضيف تلك الروايات أيضاً أن زرادشت رمى قاتله بمسبحة كانت فى يده فقضت عليه .

وتذهب الأساطير إلى أن أحد كبار البراهمة فى الهند

خرج على رأس جيش عظيم لمحاربة زرادشت والقضاء عليه ، ولكن ما إن التقى هذا البرهمى بزرادشت حتى أفحمه هذا الأخير بقوة جدله وحكمته وإطلاعه على جميع الأسرار ، فلم يسع هذا البرهمى إلا أن اعتنق هذا الدين الجديد وعاد يبشر به بين بنى قومه ، فاعتنق على يده ثمانون ألفاً من أهل الهند هذه الديانة الزرادشتية .

ولعل هذه الديانة قد بلغت أوجها فى عهد الإمبراطورية الأكمينية . وكانت هذه الإمبراطورية العظيمة تضم ثلاثة شعوب أو دول مختلفة هى بكتريا وميديا وفارس . وكان أهل بكتريا يقطنون القسم الشمالى الشرقى ، والميديون القسم الشمالى الغربى ، والفرس القسم الجنوبى الغربى . وقد تمّ اندماج هذه الشعوب بعضها مع بعض فى أمة واحدة متجانسة تدين بالديانة الزرادشتية فى الوقت الذى غزا فيه الإسكندر الأكبر مملكة فارس .

وقد سبق أن ذكرنا أن الملك كشتاسب كان سيف هذا الدين الجديد وحاميه . فلما توفى هذا الملك عمل أتباع هذه الديانة على نشر ديانتهم بمختلف الطرق . ولم يلبث أن ظهرت بينهم طبقة الكهنة وعليهم رئيس كبير جمع فى يديه السلطتين الدينية والزمنية للطائفة الزرادشتية . وقد أخذت هذه الطبقة على

عاتقها مهمة نشر الديانة الزرادشتية ، فأوفدوا المبشرين إلى بلاد بعيدة مختلفة لنشر هذه الديانة بين الناس وكانوا إذا عادوا إلى أوطانهم من مهمتهم الدينية المقدسة احتفل أهل الديانة الزرادشتية بمقدمهم احتفالا كبيراً .

ولم يكن الطريق معبداً أمام هذه الدعوة بل صادف المبشرون كثيراً من الصعاب ، حتى إن بعض الحكام قد منعوهم من دخول بلادهم .

ولكن على الرغم من ذلك فقد تمكن هؤلاء المبشرون من رفع ألوية هذا الدين فى بقاع مختلفة بعيدة . فقد خضعت أرمينية للنفوذ الزرادشتى منذ تاريخ متقدم وساد فيها نوع مشوّه من هذه الديانة عدة قرون . كذلك كانت كپادوشيا وليديا وليسيا من دول العهد القديم مسرحاً كبيراً للنشاط الزرادشتى .

وكان ملوك الإمبراطورية الإكمينية متسامحين مع جميع الأديان التى تدين بها شعوبهم . وتذكر المصادر أن هؤلاء الملوك كثيراً ما قاموا بتشييد معابد الديانات المختلفة وترميمها على الرغم من أنهم كانوا على الدين الزرادشتى والمتحمسين له . وكان هؤلاء الملوك يردون كل أفعالهم العظيمة التى قاموا بها إلى أفضال أهرمزدا . فكان دارا يذكر أن أهرمزدا هو الذى جعله

ملكاً وهو الذى مكّنه من حكم إمبراطوريته الشاسعة حكماً قوياً عادلا . وهو الذى مكّنه من الانتصار على أعدائه فى حروبه العديدة . كذلك فعل ابنه أجزرسيس فقد كان ينسب كل أعماله المجيدة إلى فضل الإله أهرمزدا ورعايته .

الله وملائكته عند زاردشت

إن أهرمزدا هو الإله الأعظم عند زاردشت، وهو قديم أزلى وهو وحده الذى لم يولد ولن يموت وهو علة العلل وليس له علة وهو المصدر الأول لجميع الموجودات . وهو روح الأرواح لا يُرى ولا يُنظر لأن الصفة الأساسية لما هو روحى أن لا يراه أحد ، فهو وإن كان موجوداً فى كل مكان إلا أنه لا يُرى فى أى مكان .

وأهرمزدا يعلم الماضى والحاضر والمستقبل وهو فى علمه هذا ليس له ند . وهو وحده الذى يتصف بأنه العالم بكل شىء . وهو يعلم الغيب ودخائل النفوس إذ لا يخفى عليه سر من الأسرار

وهو القدير على كل شىء على الرغم من مناهضة الشيطان وكل شىء فى العالم له ما يسمو عليه إلا أهرمزدا

فليس فى العالم ما يسمو عليه . وهو لا يفتقر إلى شىء وكل شىء مفتقر إليه . وإن أقوى الناس يشعرون بضعفهم أمام هذا الإله . وهناك لحظات فى حياة كل شخص يشعر فيها أن قوته قد خانته فهو يتطلع إلى قوة غير منظورة تشد من أزره وتقوى من نفسه ، وأهرمزدا هو تلك القوة الخفيّة لأنه حامى كل شىء . وهو معين من لا معين له وراعى الفقراء والأغنياء على حد سواء ومفرج الهموم عن قلوب المهمومين ومانع الضر عن الناس

وهو خالق الخلق كله والملائكة الأبرار ، كما خلق الجنة والنار والشمس المشرقة والقمر المنير والنجوم اللامعة والهواء والماء والنار والأرض والشجر والدواب والمعادن والناس أجمعين . وهو الذى حرّك السموات ورفعها من غير عمد . وقد وهب لنا أعيناً لنرى بها وآذاناً لنسمع بها ولساناً ناطقاً وأيدى لنمسك بها الأشياء وأرجلا نمشى عليها . وهو أب الإنسان خلقه وشرّفه على كافة المخلوقات بالعقل والبصيرة . ومن واجب الإنسان أن يطيع خالقه . وهو كالناسج قد نسج أشياء كثيرة مختلفة على نول الطبيعة . وهو المصدر الأبدى لجميع النعم والبركات . وأهرمزدا خير محض لا شر فيه وكل ما فى العالم من خير منبعث منه . وهو منبع الخير كما هو مصدر كل مجد ونور

وسعادة . وهو الواهب المعطى ، يريد الخير دائماً ولا يفكّر فى الشر أبداً . وإن بره وعطفه يشمل الخيِّر والخبيث على السواء لأن إرادته خيّرة على الدوام وهو الرحمن الرحيم يعطف على هؤلاء الذين يتوجهون إليه فى اليسر والعسر . وعلى المرء – كبيراً كان أم صغيراً – أن يفكر فى اليوم مائة ألف مرة فى تلك النعم الوفيرة التى أسبغها عليه أهرمزدا لأن عدم الإقرار بالنعمة ونكران الجميل يؤديان بالمرء إلى مستقر العذاب الأليم .

وفى نهاية الزمن سوف يرد أهرمزدا إليه جميع مخلوقاته ، بل إن الآثمين سوف لا يتركون فى إثمهم إلى أبد الآبدين ، لأن أهرمزدا يحزنه أن يرى خلقه يقاسون العذاب ولو إلى حين بسبب مسلكهم المشين .

إن الأنوار جميعاً تنبعث من أهرمزدا وهو الحق الأبدى فى عالم الأخلاق والفضيلة . وقد ذكر فرفريوس الصورى أن المجوس يرون أن جسم أهرمزدا يشبه النور وأن روحه شبيهة بالحق .

وأهرمزدا هو المشرع القدسى وهو بهذه الصفة القاضى الأسمى ؛ فالمذنب الذى يعارضه ، والآثم الذى يعيش بين الناس ويتحرك دون أن يدخل الإيمان قلبه ، والثائر الذى يخرج على السلطة القدسية هؤلاء جميعاً فى حاجة إلى إصلاح وتهذيب ،

وأهرمزدا بصفته إله الرحمة من صفاته العفو ولكنه يعاقب أيضاً بصفته إله العدل . والإنسان فى كل الأزمان فريسة هذا النضال الدائم بين الخير والشر ، فهو إما أن يكون إلى جانب أهرمزدا وإما أن يقع فريسة لأهرمن إله الشر . والدين هو الذى يبصّر الإنسان ويهديه إلى طريق الخير ويقيم صلاته مع إله السموات على أسس سليمة قويمة وبذلك ينجو من الوقوع فى حبائل الشيطان .

وزرادشت عندما يتحدث عن هذا الإله الأسمى لا يتحدث عنه باحترام وتبجيل فحسب ، إنما يتحدث عنه أيضاً كما يتحدث المرء عن صديقه الحميم فهو يقول عن نفسه إنه « حبيب الله وصفيه » وإنه سيظل مادحاً لأهرمزدا ما دام فيه عرق ينبض .

هذه خلاصة أنظار زاردشت فى طبيعة الإله الواحد القهار ، وقد تضمنت فيما بعد الأديان السماوية الثلاثة الكبرى : أى اليهودية والمسيحية والإسلام ، هذه الصفات الإلهية جميعاً التى قال بها زرادشت وغدت من أسس علم اللاهوت عند اليهود والنصارى ، وموضوع علم الكلام عند المتكلمين فى الإسلام .

وهناك إلى جانب أهرمزدا ملائكته الأبرار وعددهم سبعة وهم يعرفون باسم « السبعة المقدسون الخالدون » خلقهم أهرمزدا

ما بين ذكور وإناث . وتعرف السبعة الأيام الأولى من كل شهر بأسمائهم ، وموطنهم السموات العلى . وقد جاء فى بعض المصادر البهلوية المتأخرة أن هؤلاء الملائكة السبعة قد فاض الواحد منهم عن الآخر : أى الثانى عن الأول والثالث عن الثانى وهكذا ، وأن أهرمزدا قد خلق كبيرهم فقط المسمى ڤوهومناه .

وهؤلاء الملائكة خالدون لا يراهم أحد، وهم على جانب كبير من الحكمة والرحمة والبصيرة ، يشع منهم النور الخاطف حتى إن زرادشت لم ير خياله على الأرض عند ما كان فى حضرتهم فى السموات العلى .

وأفضال هؤلاء الملائكة على بنى الإنسان كثيرة لا تعد . فهم الذين يتقبلون الصلوات والقرابين من المؤمنين الصالحين الذين يتلون صلاتهم بالشكل الصحيح المضبوط . وهم لا يتقبلون هذه الصلوات من غير الورعين الذين يتلونها بشكل خاطئ . وهم يجتمعون ثلاث مرات كل يوم فى معابد النار لهداية هؤلاء المؤمنين الذين يترددون على هذه الأماكن المقدسة ورعايتهم . وهؤلاء الملائكة يحيطون بالإنسان لمراقبة فعاله. وهم موكلون برعاية المخلوقات الأرضية السبع من إنسان وحيوان ونار ومعادن وأرض وماء ونبات .

و « ڤوهومناه » هو أول هذه الملائكة ، ومعناه الفكر الطيب

وهو أسمى المخلوقات جميعاً فهو يلى أهرمزدا نفسه فى المرتبة أى أنه كبير الملائكة وأسماهم .

الشر فى تعاليم زرادشت

استشعر زرادشت فى قرارة نفسه أن العناية الإلهية قد اختارته للجهاد إلى جانب الحق والعدل ضد الشر والفساد ، ولدعوة الآخرين لمشاركته فى هذا الجهاد . وأن أهرمن روح الشر هو سبب كل ما فى هذا العالم من آثام وشرور . وأن أهرمن هذا فى قتال ونضال مع إله النور والحق منذ بدء الخليقة . وقد أطلع أهرمزدا نبيه زرادشت على جميع ما خلقه من خير وعدل وكيف أن أهرمن قام معارضاً له ومشاكساً فخلق الشرور والآثام .

وروح الشر هذه لا تعمل بمفردها إنما تعاونها خلائق الشر الأخرى المعروفة باسم « ديڤا » وهى جميعا أشد أعداء أهرمزدا . وقد آثرت هذه الخلائق منذ بادئ أمرها النية الخبيثة واندفعت بأمر من روح الشر أهرمن تغدر بالناس وتغرر بهم وتسلبهم الحياة الهانئة السعيدة والخلود الذى ينتظرهم فى الحياة الآخرة . وإن الأقوام التى تنقاد إلى هذه الخلائق الشريرة

هى أيضاً بذور للنية الخبيثة وللكذب والعجرفة . و « دروج »
وهو كبير هذه الخلائق الشريرة يعمل على الدوام على مناهضة
« آشا » روح الحق والصدق والعدل . فالحياة على هذا نضال
مرير مستمر بين « آشا » و « دروج » أى بين الحق والباطل .

وإذا ما قام أهرمزدا إله النور بخلق أرض طيبة تغمرها
السعادة والهناء قام أهرمن إله الشر بخلق بعض الطواعين
والنوازل التى تعصف بالناس وتحيل سعادتهم إلى بؤس وشقاء .
وعلى هذا النحو خلق البرد القارس والحر اللافح والكبرياء
والجشع والإلحاد والكفر وغير ذلك من الآثام التى يتردى
الناس فيها .

الثواب والعقاب عند زرادشت

أدرك زرادشت بثاقب بصره أن خيار الناس لا ينالون
عادة فى هذه الحياة الدنيا ما يستحقون من حسن الجزاء ،
لذلك فهم يتطلعون إلى المستقبل لتعويض ما لحقهم من غبن
وحرمان فى هذه الحياة الدنيا . فقد جاء فى كتاب الأبستاق
« سوف تبتهج نفوس الخيرين فى الحياة الثانية الخالدة ، كما
سيتعذب الكاذبون إلى الأبد » . والمؤمن هو الذى يتطلع إلى

مملكة العدل (المملكة السماوية) حيث يعمل الله على تعويض ما فاته فى الحياة الدنيا من لذة وهناء .

وذكر زرادشت أن هذا العالم الدنيوى متصل بالعالم الآخر بجسر يسمى « جسر الانفصال » . وعندما يمر الأشرار فوق هذا الجسر يرتجفون من الفزع والخوف ، أما الأبرار الصالحون فيمرون عليه وهم مطمئنون إلى مصيرهم الذى ينتظرهم ، ثم إن زرادشت نفسه يقود أتباعه المخلصين عندما يعبرون هذا الجسر .

وسوف تكون النار هى الحكم بين أفعال الناس الطيب منها والخبيث . ومن المعلوم أن هذه الفكرة لا تزال سائدة إلى اليوم بين كثير من الشعوب والقبائل . فقد جاء فى كتاب الشاهنامة أنه فى أيام شابور الثانى قدم آدرباد نفسه للمحنة ليقحم مجادليه فصب النحاس المذاب على صدره فلم يمسه الضر . وكان أهل اليمن يحتكمون إلى النار فمن كان منهم صادقاً مخلصاً كانت النار برداً وسلاماً عليه ، ومن كان كاذباً شريراً أحرقته النار وأهلكته . ولا يزال الأعراب فى مصر وغيرها يحتكمون إلى نار تسمى البشعة .

ويذكر زرادشت أن الأشرار سوف يخلدون فى جهنم مأوى الكذبة ومن خبثت نياتهم ، أما الأبرار الصالحون

فيصعدون إلى السماء . والظاهر أن زرادشت يجعل إلى جانب السماء وجهنم مكاناً ثالثاً لهؤلاء الذين تعادلت سيئاتهم مع حسناتهم .

ويتولى أهرمزدا بنفسه حساب الناس يوم الحساب ، وأحياناً يتولى ذلك نيابة عنه أحد الملائكة المقربين إليه .

الديانة الزرادشتية بعد عهد زرادشت

يرجع الفضل فى جمع تعاليم زرادشت وتضمينها كتاب الأبستاق إلى أردشير أول ملوك الساسانيين ورأس الأسرة الساسانية المالكة التى ظلت تحكم البلاد من عام ٢٢٤ إلى عام ٦٥٠ للميلاد . وأتم الملك شاهبور الثانى الذى حكم من عام ٣٠٩ إلى عام ٣٧٩ العمل الذى بدأه أردشير . وكان الملك شاهبور متحمساً للديانة الزرادشتية عدواً مبيناً للكفرة والملحدين .

وفى عام ٦٥٠ للميلاد اجتاحت الجيوش الإسلامية مملكة فارس وانتشر الإسلام فى تلك الدولة وقضى على الديانات الأخرى التى كانت منتشرة هناك . وكان من أمر أتباع الديانة الزرادشتية أن اعتنق معظمهم الدين الإسلامى وظلت

قلة منهم على الديانة الزرادشتية وهم الذين يعرفون باسم المجوس ولا يزيد عددهم فى مملكة إيران على عشرة آلاف نسمة . وقد فر بعض هؤلاء المجوس إلى الهند من وجه الجيوش الإسلامية فكانوا أصل طائفة المجوس الموجودة فى الهند إلى اليوم .

ويرى بعض العلماء أن المجوس فى الهند لم يلجأوا إليها فراراً من الفتح الإسلامى أو خشية الاضطهاد الدينى ، إنما ذهبوا إلى الهند بمحض إرادتهم سعياً وراء التجارة .

وتؤكد الروايات أن هؤلاء المجوس قد نزلوا على شاطئ الكچرات بالهند عام ٧١٦ وقد حملوا معهم نيرانهم المقدسة . ويبلغ عدد المجوس فى الهند فى الوقت الحاضر مائة ألف نسمة نصفهم تقريباً فى بمباى ولهم شأن يذكر فى الحياة العامة فى تلك البلاد على الرغم من قلة عددهم .

وظل مجوس الهند على صلات مع إخوانهم في فارس بل كانوا يلجأون إليهم فى كل ما يتصل بشئون دينهم . على أن ذلك لا يمنع أنهم تأثروا كثيراً بالديانة الهندوسية وبالعادات الشائعة فى الهند ، فأصبح زواج الأطفال أمراً شائعاً بينهم وأصبح الكهّان منهم يؤلفون طبقة خاصة يتوارثون وظيفة الكهانة دون غيرهم من أبناء الطائفة .

وقد أثرى هؤلاء المجوس من اشتغالهم بالتجارة فى الهند

فاقتنوا العبيد ولقنوهم الديانة الزرادشتية . وصادف هذا العمل هوى فى نفوس إخوانهم مجوس فارس ، ولكنه لقى معارضة من جانب المفكرين من مجوس الهند الذين خشوا أن يؤدى هذا العمل إلى الهبوط بمركز المجوس الاجتماعى فى الهند .

وعلى الرغم من تحمس المجوس لدينهم ، فإنه من المتفق عليه أن حركة الركود والاضمحلال الدينى التى أصابت الهند فى بداية القرن التاسع عشر قد شملت المجوس كذلك ، فقد كان هؤلاء فى ذلك الوقت لا يعنون إلا بجمع الثروة عن طريق التجارة أو غيرها من الطرق ، أما ثقافتهم الدينية فقد ران عليها الشىء الكثير من الركود والاضمحلال بل كان معظم كهانهم لايدرون من أصول دينهم شيئاً .

وأخذت الديانة الزرادشتية فى الانتعاش ثانية منذ منتصف القرن التاسع عشر وذلك بعد أن أقبل بعض علماء الإفرنج على دراسة هذه الديانة فى كتبها ونصوصها الأصلية ، وأذاعوا نتائج بحوثهم فى كتب ونشرات كان لها أكبر الأثر فى حركة الإصلاح الدينى .

وقد نادى زعماء هذا الإصلاح بوجوب الرجوع فى كل المسائل الدينية إلى الكتب الأصلية للديانة الزرادشتية وإلى تعاليم زرادشت نفسه . لقد عارض هؤلاء المصلحون تلاوة

الصلوات الدينية الزرادشتية بتلك اللغة الفارسية القديمة التى لا يفهمها أهل الجيل الحاضر ، وطالبوا أن تؤدى هذه الصلوات إما باللغة الكچراتية وإما باللغة الإنجليزية ، كما نهضوا لإصلاح العقيدة ذاتها وتخليصها من العناصر الدخيلة عليها . ومن الطبيعى أن يعارض المحافظون من رجال الدين المجوسى هذه الإصلاحات مخافة أن تؤدى إلى زوال سلطانهم فعملوا على محاربتها ما وسعهم إلى ذلك سبيلا .

الحياة الدينية عند مجوسي الهند

وظيفة الكهانة بين المجوس وراثية فهى محصورة فى بعض الأسر . بيد أن الأسرة تفقد حقها فى هذا الشرف الدينى إذا ظلت ثلاثة أجيال دون أن تهيئ من بين أفرادها من يصلح لتبوؤ هذا المنصب الدينى الخطير . ومعظم الكهنة من طبقة الهرابذة وهى أدنى طبقات هذا السلك الدينى . ويمكن الهربذ وهو فى العشرين من عمره أن يعد نفسه لكى يصبح موبذا أى كاهناً لمعبد النار . وهو لكى يصل إلى هذا المنصب عليه أن يحفظ قسماً طويلا من كتاب الأبستاق وهو المعروف باسم « ياسنا » عن ظهر قلب وإن لم يفهمه . وأعلى مرتبة فى السلك

الكهنوتى هى مرتبة الدستور أى الكاهن الأعلى .

وتحتاج الحياة الدينية عند طائفة المجوس إلى شيئين : معبد نار للأحياء وبرج صمت للأموات .

وأقدس معابد النار فى الهند هى المعروفة باسم « آتش بهرام » وهناك ثمانية معابد من هذا النوع . ومعبد النار فى حد ذاته بناء بسيط لا يمتاز عن غيره من المعابد الهندية، غير أن تكاليف إقامة النار فيه باهظة لأن نيران هذه المعابد مؤلفة من ست عشرة شعلة ، كما أن رسامة هذه النار تحتاج إلى طقوس معقدة غاية التعقيد .

وتلى هذه المعابد فى المرتبة المعابد التى تطلق عليها اسم « آتش أدران » ونيرانها مؤلفة من أربع شعل . أما النوع الثالث فهى المعابد المعروفة باسم « آتش دادكاه » وهى بيت عادى للنار .

ويتردد أهل التقى والورع من المجوس على هذه المعابد ويتلون صلاتهم أمام النيران المتأججة، ولكنهم لا يعبدونها كما يتوهم البعض ، فالنار ليست موضوع عبادتهم ولكنها رمز دينهم لا غير .

وأموات المجوس فى حاجة إلى ما يعرف باسم « برج الصمت » لأن دفن الأموات عندهم أو إحراق جثثهم يدنس

الأرض أو عنصر النار المقدس، لذلك يضعون جثث موتاهم فوق برج مستدير الشكل فتنقض عليها جوارح الطير فتنهشها نهشاً ولا تتركها إلا عظاماً مجردة من اللحم . وبعد أيام يعود اللاحدون إلى البرج ويحملون هذه العظام ويلقونها فى البئر الكبيرة إذ تكون عند ذلك قد فقدت قوتها على التدنيس أو التنجيس .

وتبدأ الحياة الدينية عند المجوسى — ذكراً كان أم أنثى — فيما بين السابعة والخامسة عشرة . إذ يقام لهذه المناسبة حفل دينى يلبس فيه الصبى أو الفتاة القميص والزنار بعد أن يتلو وراء الكاهن بعض الأدعية والصلوات بلغة لا يفهمها معظم الذين يتلونها .

ولا يستطيع أحد أن يتكهن بمستقبل طائفة المجوس على وجه التحقيق، غير أنه لا توجد فى الهند طائفة أخرى أكثر تقدماً من المجوس ولا أكثر منهم استفادة من الثقافة الغربية . والمرأة المجوسية متعلمة وتتمتع بمثل ما تتمتع به المرأة الأوربية من حرية . وطائفة المجوس واسعة الثراء وبعض أفرادها من أغنى تجار الهند وأعظم أمرائها . وجمعيات البر والإحسان المجوسية فى الهند أشهر من أن تذكر بل إن لها شهرة عالمية .

ويرجع الفضل فى حركة الإصلاح الاجتماعى فى الهند

إلى طائفة المجوس . غير أن أفراد هذه الطائفة غير راضين اليوم عن الحالة التى وصل إليها الدين الزرادشتى . فالمثقفون منهم لا يحترمون الكهنة لجهل هؤلاء بأصول الدين ، وهم فى الوقت ذاته غير راضين عن تلاوة صلواتهم بلغة لا يعرفها اليوم إلا القليلون . وقد فقد المحافظون من رجال الدين المجوسى حماستهم الدينية القديمة وهم يرفضون قبول أى معتنق جديد لهذا الدين . ولسنا ندرى كيف يستطيع المجوس الاحتفاظ بمركزهم الحالى لأن معدل النسل عندهم آخذ فى الهبوط لاستخدامهم الوسائل الحديثة لتحديد النسل .

وقد حدث أخيراً أن تزوج فرد من أسرة تاتا المجوسية الشهيرة من سيدة فرنسية، ورغبت هذه السيدة اعتناق دين زوجها غير أن رجال الدين المحافظين رفضوا قبول طلبها . فرفعت هذه السيدة دعوى أمام المحاكم الهندية غير أن هذه المحاكم لم تبت برأى قاطع فى هذه المسألة . فقد خشى رجال الدين أنهم إذا سمحوا للأجانب باعتناق هذا الدين فلا يلبث أن يهرع فقراء الهندوس إلى اعتناق المجوسية حتى يكون لهم نصيب فى خيرات جمعيات البر والإحسان التى يستمتع بها فقراء المجوس .

أثر الزرادشتية فى الدين اليهودى

لقد تأثر اليهود وهم الذين عرف عنهم ابتعادهم عن كل ما ليس من صميم العقائد الموسوية الصحيحة بالمعتقدات التى جاء بها زرادشت . فالباحث المحقق فى الكتاب المقدس (العهد القديم) المتتبع لتسلسل الحوادث التاريخية التى تضمنتها أسفاره وإصحاحاته يتبين له بوضوح كيف استعار اليهود فكرة الشيطان عن الديانة الزرادشتية .

لقد سُبى اليهود فى بابل عام ٥٨٦ قبل الميلاد أى قبل وفاة زرادشت بثلاث سنوات . ولا نجد فى دينهم قبل السبى أية فكرة تمثل الشيطان . ثم قام الملك كورش المجوسى بعد ذلك بخمسين سنة بغزو بابل وفك أسر اليهود وإعادتهم إلى بلادهم ، وظلوا طوال قرنين من الزمان يحكمهم ملوك على الدين الزرادشتى إلى أن جاء الإسكندر المقدونى .

وقد ظهرت فى الديانة اليهودية فكرة الشيطان بعد السبى . ولما كان الدين الزرادشتى فى ذلك الوقت يقول بوجود كبير بين خلائق الشر يعرف باسم « الخصم » فإنا نجد أن اليهود بعد السبى يطلقون على روح الشر عندهم اسم « الشيطان » ومعناه فى العبرية الخصم . وعلى هذا فليس أمامنا إلا استنتاج

واحد وهو أن اليهود قد نقلوا هذه الفكرة عن الدين الزرادشتى .

وهذا بيِّن أيضاً فى الكتاب المقدس ، إذ نجد فى سفر صمويل الثانى بالإصحاح الرابع والعشرين الذى كتب قبل السبى أن يهوڤا أرسل داود ليحصى الشعب ، ثم أنزل بعد ذلك العقاب بالشعب لهذه الجريرة التى اقترفها داود بأن قتل سبعين ألفا منهم بالطاعون .

وفى سفر الأخبار الأول، الإصحاح الحادى والعشرين، رواية متأخرة لهذا الأمر ذاته كتبت بعد السبى ، وهى أن الشيطان هو الذى وسوس إلى داود بإحصاء الشعب .

ولقد كان اليهود قبل ذلك يدركون أن هناك تناقضاً فى تلك الرواية أى فى أن يكون يهوڤاه (إله اليهود) هو الباعث على هذا الشر وهو فى الوقت نفسه الذى يعاقب على اقترافه . لذلك رحب اليهود بفكرة الثنائية التى جاءت بها الديانة الزرادشتية فبرأت يهوڤاه من هذا التناقض المحيِّر للعقول السليمة .

أثر الزرادشتية فى الدين المسيحى

إذا رجعنا إلى الكتاب المقدس (العهد الجديد) نجد فى بداية إنجيل متى (الإصحاح الثانى) قصة قديمة محببة إلى قلوب

المسيحيين أجمعين تروى زيارة مجوس من الشرق لمهد الطفل عيسى « ولما ولد يسوع فى بيت لحم اليهودية فى أيام هيرودس الملك إذا مجوس من الشرق قد جاءوا إلى أورشليم قائلين أين هو المولود ملك اليهود، فإننا رأينا نجمه فى المشرق وأتينا لنسجد له »

ولقد هلل المسيحيون الأول لهذه الرواية ذاكرين أن كهنة هذا الدين الزرادشتى قد وضعوا بين أقدام هذا الطفل المسيح هدايا ثمينة من الذهب واللبان والمر . ولعل ذلك كان تعبيراً صادقاً لما يؤملونه فى هذا الطفل بصفته أنه المنقذ للعالم الذى ينتظرونه منذ أمد طويل .

غير أن المسيحية قد أخذت من أتباع الديانة الزرادشتية أشياء أخرى أثمن وأغلى من الذهب والعطور .

لقد تفوه المسيح بعبارة وهو على الصليب مضمونها أنه يتوقع أن يكون مصيره الجنة . والجنة عند المجوس هى مأوى الصالحين بعد الموت وهى كلمة فارسية . أما الكلمة العبرية التى تدل على مأوى الصالحين والأشرار على السواء بعد الموت فهى شيول . ومن الخطأ أن نقول إن المكان الذى كان يعيش فيه آدم وحواء قبل الخطيئة هو الجنة ولكنه كان فردوساً من الفراديس . ولم يكن اليهود يستعملون لفظة الجنة بمعنى أنها مأوى الأبرار الصالحين دون غيرهم إلا بعد أن استعاروها بمعناها

الذى تعرف به الآن من الديانة الزرادشتية .

وقد دخل المسيحية أيضاً كثير من الآراء والمعتقدات الأخرى الخاصة بالديانة الزرادشتية عن طريق اليهود مثل البعث وقهر الشيطان آخر الأمر والاعتقاد فى يوم الحساب وفيه يفصل بين الأعمال الطيب منها والخبيث ، والاعتقاد فى الأرواح الشريرة وفى الملائكة الحافظين من كل شر ، ولم يكن فى الدين اليهودى شيء من هذه المعتقدات قبل السبى بل وجدت كلها بعد ذلك وانتقلت عن طريق اليهود إلى الدين المسيحى .

وكان لزيارة زرادشت للسموات — أو بوجه أصح للرؤى التى خُيل له فيها أنه صعد إلى السماء فى صحبة كبير الملائكة — صداها فى الآداب العالمية مثل الكوميديا الإلهية لدانتى ، والفردوس المفقود للشاعر الإنجليزى ملتون ، ورسالة الغفران لأبى العلاء المعرى وغير ذلك .

ولعل أجمل ما نختم به هذا الفصل أن نذكر نشيداً من الأناشيد التى نظمها زرادشت نفسه وضمنها « الكاثا » أقدم أجزاء الأبستاق :

« بالحق تحرك قلبى
وبالنية الطيبة تلهم عقلى

وبعظمة القوى الروحية الكامنة فى قرارة نفسى

أسجد تمجيداً لك يا إلهى ، وعلى شفتى إلى الأبد تسبيحات حمدك ؛ بل وعندما أقف ببابك آخر الأمر أسألك الرحمة والغفران سوف أسمع بوضوح الصدى العذب لصلواتى ، منبعثاً من جنتك موطن الأناشيد »

بوذا

مولد بوذا

عقد الملك سودهدانا حاكم قبيلة ساكية بالهند فى القرن السادس قبل الميلاد العزم على أن يختار شريكة حياته فوقع اختياره على مايا أجمل فتيات القبيلة .

وفى أمسية يوم من أيام الصيف بينما كانت هذه الملكة العروس متكئة على سريرها فى غرفة نومها إذ أغفت إغفاءة قصيرة رأت فيها أن أربعة ملوك حملوها هى وسريرها وكل شىء فى غرفة نومها إلى جبال هملايا ، ثم وضعوا السرير تحت شجرة باسقة . وأقبلت عليها بعد ذلك أربع ملكات أدخلنها الحمام وبعد أن استحمت ألبسنها أجمل الثياب وعطرنها بأطيب العطور ، ثم انتقلن بها إلى فراش مقدس فى منزل ذهبى فوق جبل من الفضة . وهبط فيل أبيض من فوق جبل من الذهب إلى هذا الجبل الفضى وفى خرطومه غصن من نبات البشنين ودخل المنزل ودار حول السرير ثلاث دورات ثم مس جانب الملكة الأيمن ودخل فى رحمها .

ولما استيقظت الملكة من نومها أخبرت زوجها بهذه الرؤيا فاستدعى أربعة وستين حكيما من حكماء القبيلة وأصحاب الرأى فيها وأكرمهم غاية الإكرام وأغدق عليهم العطايا والهبات ثم سألهم تفسير هذه الرؤيا فقالوا له : —

« لا ينشغل بالك أيها الملك السعيد لقد حملت الملكة بغلام وليس بأنثى . سوف يكون لك ولد وسوف يصبح هذا الولد ملكاً على البلاد إذا هو استقر فى بيته أما إذا غادر البيت وهام على وجهه فى الأرض فسوف يصبح بوذا أى كاشفاً لنقاب الجهل عن وجه هذا العالم » .

وتذكر الكتابات البوذية القديمة أنه قد حدث فى مملكة سودهدانا فى ذلك الوقت زلزال شديد زلزلت له الأرض كما حدثت عدة معجزات وخوارق منها إبراء الأعمى والأصم والأبكم كما خمدت النار فى كل بيت من بيوتها .

كانت الملكة مايا عندما استكملت أشهر الحمل تمشى فى إحدى حدائق القصر ، فلما جاءها المخاض جلست تحت شجرة كبيرة وارفة بعد أن حجبها الخدم عن الأنظار بستار خاص . ولما أرادت الملكة أن تنهض حاولت الاستعانة بغصن عال من غصون هذه الشجرة فما كان من هذا الغصن إلا أن انحنى من تلقاء نفسه حتى قارب يدها ، وما إن نهضت من

جلستها حتى وضعت طفلها فتلقفه أربعة من البراهمة فى شبكة نسجت خيوطها من أسلاك الذهب .

وعلى الرغم من أن المولود كان نظيف البدن لا يخالطه شيء من الدم وغيره إلا أن نبعين قد تفجرا أحدهما يفيض بالماء البارد والآخر بالماء الدافئ ، فقام البراهمة بغسل الطفل وأمه ثم أسلموه إلى أربعة ملوك تلقوه على رداء مصنوع من جلد الظباء ثم نقلوه على وسادة حريرية يحملها نفر من الأتباع .

وتذكر الأساطير البوذية أن هذا المولود قد هب واقفاً فسجدت له الآلهة والناس على حد سواء . ثم اتجه ببصره إلى كل الجهات ليرى هل من أحد يشبهه على قيد الوجود . ولما لم يجد نظيراً له خطا سبع خطوات ناحية الشمال ، ثم تتابع هذه الأسطورة العجيبة روايتها قائلة :

وبينما كان مهابراهما يحمل فى يده مظلة بيضاء يظلل بها هذا المولود ويحمل سوياما مروحة يروح بها عليه وفى أعقابهما رتل من الكائنات القدسية تحمل فى أيديها غير ذلك من شارات الملك ، إذ يقف بوذا بعد الخطوة السابعة ثم يهتف بصوت عال أشبه بزئير الأسد قائلا :

« إننى سيد هذا العالم » .

وتذهب هذه الأساطير أيضاً إلى أنه قد ولد فى اليوم

الذى ولد فيه بوذا المرأة التى تزوجها فيما بعد كما ولد فيله وحصانه وسائق عربته ، كذلك نبتت الشجرة التى تكشفت له تحتها أسرار الحياة .

وشاهد فى ذلك اليوم ذاته زاهد شهير يدعى استيا فى كبد السماء فوق صومعته بجبال الهملايا حفلا أقامته ملائكة السماء عرف أنه بمناسبة ولادة بوذا بين قبائل الساكية . فسعى هذا الزاهد إلى بيت سودهدانا لمشاهدة هذا المولود العظيم . ولما وقف فى حضرة الملك سأله عن سبب مجيئه فقال له « أيها الملك لقد ولد لك طفل ولما كنت راغباً فى رؤيته فقد سعيت إلى بيتكم لهذا الغرض » . فأجابه الملك « إن الطفل نائم أيها الحكيم الزاهد فانتظر قليلا حتى يفيق من نومه » فقال الزاهد : « إن مثل هذه الكائنات العظيمة لا تنام طويلا أيها الملك ! إنها متيقظة بطبيعتها » .

ولم يلبث أن حمل سودهدانا ولده بين ذراعيه وأراه للحكيم الزاهد فتهلل وجه هذا بشراً وحبوراً ثم أشار إلى من حوله إلى أن الطفل يحمل العلامات الاثنتين والثلاثين التى تميز الرجل العظيم مثل الأصابع الطويلة والأعقاب البارزة والأرساغ الناتئة ، كما يزين فمه أربعون سناً بيضاء ولسان كبير . . . !

على أن هذا الزاهد استيا لم يلبث أن انفجر باكياً فلما

سأله الملك عن ذلك أخبره أن هذا الطفل سوف يصل إلى درجة التنوير السامية وأنه سيهدى العالم إلى طريق الحق والصواب فهو يبكى لأن العمر سوف لا يمتد به ليصبح من تلاميذ هذا البوذا العظيم وأنصاره .

وكانت تظهر على هذا الطفل مخايل النبوغ والذكاء وهو لا يزال طفلا صغيراً . وقد استقر العزم على إلحاقه بأحد المعابد ليتثقف فيه حسب العادة التى كانت متبعة فى ذلك الوقت . وقد صحبته إلى هناك خالته التى حلت محل أمه بعد وفاتها وتزوجت من أبيه .

وقد سألها الطفل بصوت حنون إلى أين هى سائرة به ، فلما أخبرته بوجهتها أنشدها ثلاثة أبيات من الشعر ذكر فيها أنه ليس فى معبد من المعابد إله يدانيه . ثم قال لها إنه سوف يخضع لحكم التقاليد وسيذهب معها إلى المعبد ، وما إن وصل إلى هناك حتى تهاوت جميع الأصنام التى فى المعبد عند قدميه .

وذهب هذا الصبى بعد ذلك إلى المدرسة ليتعلم الأبجدية فسأل زملاءه الأطفال بسذاجة : أية أبجدية سوف يتعلمها فإنه يلم بجميع الأبجديات وتلا عليهم دون مبالاة أو اكتراث أربعا وستين أبجدية بما فيها الأبجدية الصينية .

وإذا كانت هذه المعجزات والأعاجيب قد بدت من

هذا الطفل وهو فى سنى حياته الأولى فما بالك بالمعجزات الأخرى التى بدت منه عندما تقدم به العمر كما تذكر القصص والأساطير .

بوذا الحقيقى

أخذ العلماء يمحصون الكتابات القديمة ويقارنون بين نسخها المختلفة ويزنون بميزان النقد الصحيح البرىء تلك الروايات والأعاجيب التى تعج بها هذه الكتب ، وأخيراً تكشفت لهم حقيقة هذا الحكيم الكبير ، فإذا به رجل جذاب تهفو إليه النفوس لبساطة شخصيته وقوة أثرها ولكنه كان فى الوقت ذاته جبار العقل له إرادة حديدية لا تقهر .

ولشخصية هذا الرجل من المتناقضات ما لكل شخصية من الشخصيات العالمية التى ظهرت فى التاريخ . فأحياناً تبدو منه أعمال تجعلك تسلكه فى عداد المتصوفة الحالمين . وفى أحيان أخرى تسمع منه أقوالا تستشف منها أنه فيلسوف من أتباع المذهب المادى . وهو يبدو لنا فى بعض صفاته المميزة له رقيق الإحساس رقة النساء ، ومع ذلك فإن مذهبه الفلسفى على جانب كبير من قوة المنطق .

ودلت البحوث المستفيضة التى قام بها العلماء بعد مقارنتهم

الترجمات الحديثة للكتب البوذية باللغة البالية Pali (وهى اللغة الهندية التى كان يتحدث بها بوذا نفسه) بالمصادر السنسكريتية على أن هذا الرجل قد ولد فى بيت الملك بقبيلة ساكيه من عشيرة جوتاما التى انتشرت وعلا شأنها فى البقعة التى إلى الشمال من بنارس الحالية بأميال قليلة ، ومن ثم فإنه يطلق عليه أحياناً اسم « سكياموني » أى حكيم قبائل الساكية ، وقد غلب عليه اسم جوتاما ثم عرف بعد أن تكشفت له أسرار الحياة باسم جوتاما البوذا أى جوتا ما المستنير .

والظاهر أن اسمه الأصلى هو سدهارتا ومعنى هذا الاسم « الرجل الذى بلغ هدفه » .

ولا نعرف إلا القليل عن حداثة بوذا ، وكل ما نعرفه عنه أنه شب وترعرع وسط مظاهر الترف والنعيم . وقد ورد فى بعض الكتابات الدينية البوذية حديث على لسان بوذا جاء فيه :

« لقد كنت مترفاً أيها النساك مترفا كل الترف وبلغت الغاية فى الترف . لقد حُفرتْ فى قصر أبى البرك المغطاة بنبات البشنين ، وغطيت واحدة منها بالبشنين الأزرق والثانية بالبشنين الأحمر والثالثة بالبشنين الأبيض . وكلها حفرت لمتعتى ولأجل خاطرى . ولم أكن أستعمل إلا خشب الصندل من نتاج بنارس ، وكانت ملابسى من القماش المصنوع فى

ذلك البلد وكذلك قماش أقمصتى ومجسداتى ومعاطفى . وكانت تظللنى على الدوام مظلة بيضاء حتى لا أتعرض للبرد أو لحرارة الشمس أو للغبار أو للأعشاب أو الندى .

وكانت لى قصور ثلاثة واحد منها لفصل الشتاء والثانى لفصل الصيف والثالث للفصل المطير . وكنت أقضى فى القصر المخصص للفصل المطير أربعة أشهر تحف بى القيان والجوارى ، ولم أكن أغادر القصر طوال هذه الأشهر الأربعة » .

وهناك قصص وأساطير أخرى تروى عن قوة بوذا الجسدية على الرغم من هذه الحياة الناعمة المترفة ، منها أن السهم كان يخرج عن قوسه لمسافة عشرة أميال ، وأنه ألقى ذات مرة بفيل من فوق الخندق المحيط بالمدينة .

وما إن بلغ بوذا السادسة عشرة من عمره حتى شيد له أبوه هذه القصور الثلاثة السالفة الذكر ، ثم أخذ يتطلع إلى الفتاة التى تصلح لأن تكون زوجا لابنه المدله . غير أن جيرانه من الملوك والزعماء كانوا راغبين عن أن يزوجوا بناتهم لمثل هذا الشاب المترف مخافة أن تكون حياة الترف والخمول قد أفسدته فلم يعد صالحاً للحياة الزوجية الهانئة . ولا نعرف على التحقيق ما إذا كان بوذا قد تزوج فى سن السادسة عشرة أو التاسعة عشرة أو العشرين ، فالروايات

تختلف فى ذلك اختلافاً شديداً .

والذى نستخلصه من الروايات الكثيرة التى تروى لنا أخباره أن بوذا قضى طفولته وشبابه فى قصور أبيه وكان يعيش فيها عيشة الأمراء المنعمين المدللين ، وأنه أظهر فى الوقت ذاته قوة بدنية هائلة وأنه تزوج من أميرة تدعى «ياسودارا » وعاش معها متنقلا بين هذه القصور الثلاثة قبل أن تلد له ابنه « رهولا » .

وقد عاش بوذا طوال هذه الفترة من حياته عيشة خيالية سعيدة لا يؤدى فيها عملا من الأعمال . وكانت سهول الهند فى ذلك الوقت خصبة ممراعة ، وكان أمراء الهنود الذين انحدروا من العشيرة الآرية القديمة على جانب كبير من الجاه والثراء ، ابتنوا لأنفسهم القصور الجميلة الفسيحة وعاشوا فيها عيشة كلها لهو وترف يستمعون إلى القيان ويميلون حيث تميل بهم أهواؤهم ونزعاتهم ، ويمارسون أنواعا مختلفة من الألعاب والمسابقات .

وتذكر الأساطير أن أباه قد حال بينه وبين معرفة أى شىء من مظاهر البؤس والفقر والألم المنتشرة خارج أسوار قصوره ، فقد عاش بوذا فى هذه القصور دون أن يعرف أن فى العالم فقراً وبؤساً وألماً وموتاً . لقد عمد أبوه إلى إرسال نفر من أتباعه قبل خروج بوذا الشاب للنزهة لإخلاء الطريق

من كل مظهر تعافه النفس بحيث لا يقع نظر بوذا إلا على كل مفرح بهيج .

واتفق أن ركب الأمير عربته ذات يوم وهو فى الثلاثين من عمره وخرج من أبواب القصر فشاهد رجلا مسناً أضناه العمل حتى ناءت أرجله الكليلة بحمل أعباء الحياة ، فأشار إليه وسأل سائق عربته « تشنا » عن شأنه فأجاب تشنا بأن هذا العالم ملىء بالمساكين ويستوى أن يزيد عددهم واحداً أو ينقص واحدا . فحزن الأمير الشاب حزناً شديداً ولم يقل شيئاً ثم قفل راجعاً إلى القصر وعاش مع زوجه وأبيه وأمه وحاول أن يكون سعيداً . وترك الأمير القصر مرة أخرى بعد ذلك بقليل فصادف رجلا يقاسى مرضاً وبيلا فسأل سائق عربته « تشنا » عن سبب آلامه فأجابه بأن العالم ملىء بالمرضى ولا حيلة لنا فى دفع هذا البلاء ولا ينبغى أن نهتم به كثيراً . ولما سمع الأمير الشاب ذلك حزن حزناً شديداً ولكنه عاد ثانية إلى أهله وعشيرته . ثم مر على ذلك أسابيع قلائل وفى ذات ليلة أمر سدهارتا بإعداد عربته كى يذهب بها إلى النهر للاستحمام . وفى الطريق أجفلت الخيل فجأة حين رأت جثة رجل متعفنة بشعة المنظر ملقاة فى حفرة على جانب الطريق ، ففزع الأمير الشاب لأنه لم يكن قد أبيح له من قبل أن يرى مثل هذه

الأشياء ولكن « تشنا » سأله أن لا يحفل بمثل هذه الأمور التافهة فالعالم ملىء بالأموات كما أن قانون الحياة يقضى بأن ينتهى كل شىء إلى نهاية ، فليس فى العالم شىء خالد والقبر فى انتظار الجميع ولا مهرب منه .

ولما عاد سدهارتا إلى قصره فى هذا المساء استقبل بالموسيقى لأن زوجته وضعت فى غيبته غلاماً فابتهج الناس لأنهم عرفوا آنئذ أنه قد قيض لهم ولى للعهد ، فقرعوا الطبول احتفالا بهذا الحادث ، ولكن سدهارتا لم يشاركهم أفراحهم فقد تكشفت الحياة أمام ناظرية وعرف ما يكتنف حياة الإنسان من فواجع . وكان مشهد الموت والعذاب يلاحقه كحلم مزعج .

كانت هذه المناظر السبب المباشر الذى جعل بوذا يغادر قصره ويخرج إلى هذا العالم الفسيح لنشر رسالته بين الناس . على أنه كانت هناك فى واقع الأمر دوافع أخرى قد تكون خافية على هذا الأمير الشاب نفسه دفعته إلى هجر بيته وأسرته .

تعترى الشباب فى سن معين رغبة جامحة فى ترك ذويهم والانطلاق إلى رحاب هذا العالم الفسيح لمعرفة ما يضمه من عجائب ومخلوقات ، وكان بوذا فى ذلك الوقت قد بلغ الثلاثين من عمره واستكمل رجولته ونما عقله ؛ وهو الذى بدرت منه آيات

الذكاء والنبوغ (وهو صبى) لم يبلغ الحلم .

إن سن الثلاثين هى السن التى خرج فيها زرادشت لهداية الناس قبل ذلك بقرن من الزمان . وكان المسيح أيضاً فى الثلاثين من عمره عندما طالع الناس بدينه الجديد .

ولعل أعجب ما فى الأمر هو كيف ترك بوذا منزله وهجر أهله فى نفس الأسبوع الذى وضعت فيه زوجه ابنه رهولا بعد زواج موفق سعيد دام عشر سنوات ؟ إن المعروف عند علماء الاجتماع أن الرجل قبيل أن تلد زوجه أو بعد ذلك مباشرة تنتابه نزعة غريبة تدفعه إلى هجر بيته وزوجه . وليس ذلك الأمر مقصورا على طبقة من الناس دون غيرها بل هى ظاهرة ملموسة لدى جميع طبقات الناس على حد سواء ، ويمكن التأكد من ذلك بالاطلاع على قضايا الطلاق والظروف التى حدثت فيها .

وقد جرت العادة فى بعض القبائل البدائية أن يحجز الزوج فى كوخه عنوة خلال الفترة التى تكون فيها زوجه على وشك الوضع . وهذا يدعونا إلى القول بأن القبائل البدائية نفسها تدرك هذه الظاهرة الاجتماعية الخطيرة .

والأمر الثانى أن بوذا عندما أطل برأسه على غرفة زوجه وشاهدها هى ورضيعها على ضوء المصباح المنير بالزيت المعطر

غارقين فى أزهار الورد والياسمين ، أدرك أن هذا الرضيع سوف يصبح عما قريب قيداً يقيده بالمنزل لا يستطيع منه فكاكاً فأراد أن يتحلل من هذا القيد قبل أن يتمكن منه .

كان القمر يتلألأ فى تلك الليلة فهب سدهارتا من مرقده وأخذ يفكر فى أشياء كثيرة ورأى أن السعادة لن تعود إليه قط إلا إذا وجد حلا لمعضلة الوجود . وصح عزمه على أن يلتمس هذا الحل بعيداً عن جميع الأشخاص الذين يحبهم ، فاتجه برفق إلى الغرفة التى ترقد فيها زوجه مع طفلها ثم نادى خادمه الأمين تشنا وطلب إليه أن يتبعه . وخرج الاثنان فى ظلمة الليل أحدهما يبحث عن سكينة نفسه والآخر يخدم سيداً محبوباً فى أمانة وإخلاص .

الأمير المتسول

سار سدهارتا بجواده طول الليل ووراءه خادمه تشنا ممسكاً بذيل الجواد ، فلما تنفس الصباح كان أول عمل قام به أن اجتذ شعر رأسه بحد سيفه ونزع عنه ثيابه الملكية وأعاد الحصان وخصلة من شعره إلى أسرته مع خادمه الأمين تشنا . ثم ارتدى رداء أصفر اللون أصبح فيما بعد شعار البوذيين وغدا منذ تلك اللحظة ناسكاً جوّالا لا يملك من حطام الدنيا سوى طاس

وموسى وخياط وزنار وإناء يحفظ فيه الماء .

اتجه سدهارتا شطر المشرق وبعد مرحلة طويلة جاس فيها بلاداً واسعة التقى بحكيمين من حكماء ذلك الوقت ولكنهما قصرا دون مساعدته على إدراك الحقيقة العليا . وكان سدهارتا يقضى معظم أيامه صائماً يذيق بدنه ألواناً مختلفة من الحرمان كى يذله ويخضعه لروحه العالية . وكان الناس ينظرون إليه نظرتهم إلى ناسك مقدس شديد الزهد والتقشف . وقد تبعه فى تلك الفترة من حياته نفر من المريدين لا يزيد عددهم على الخمسة .

وبعد مجاهدات ورياضات بدنية عنيفة أدرك سدهارتا أن ذلك الأسلوب من الحياة لا يوصله إلى معرفة الحقيقة ولا يكسبه فطنة وبصيرة ، فلا بد إذاً من أن يكون هناك طريق آخر يوصل إلى تلك الغاية المنشودة ويزيح النقاب عن عقولنا وأنفسنا . لذلك تجنب بوذا هذه الرياضات البدنية العنيفة التى يقصد من ورائها إذلال البدن وإماتة الشهوات لأنه أدرك أن العقل السليم لا يكون إلا فى الجسم السليم .

اختار بوذا ذلك الطريق الذى أسماه الطريق الأوسط لضبط النفس ، وكان يشير فى أحاديثه إلى السنوات التى قضاها فى تعذيب بدنه وإذلاله بقوله « إنها سنوات أنفقتها فى محاولة

عقد الهواء فى أنشوطة » . وما إن بدأ بوذا يعطى بدنه حقه من طعام الأرز واللبن الخاثر حتى هجره تلاميذه الخمسة وقد أفزعهم ما أقبل عليه بوذا بعد مجاهداته ورياضاته السابقة . ولعل ما أحس به من خيبة لتخلى تلاميذه الخمسة عنه ، أو لما أحس به من قوة جديدة سرت فى بدنه نتيجة عودته إلى تناول الطعام ، أو لكلا السببين معاً قد بعث فى نفسه عزمة جديدة جبارة للكشف عن سر ألم الناس وبؤسهم فى الحياة .

جلس بوذا متربعاً تحت شجرة تين ، وعزم على أن يظل على جلسته هذه مهما طال به الأمد إلى أن تتكشف له الحقيقة وقد قال :

« فليجف جلدى وتضمر عضلاتى ويهن العظم منى كما يشاء ، وقد يجف لحمى ويجمد الدم فى عروقى ولكنى سوف لا أبرح مجلسى هذا قبل أن تتكشف لى الحقيقة وأحيط بأسرار الحياة » .

وظل بوذا على هذا الحال أربعة أسابيع أو سبعة كما فى بعض الروايات وأخيراً بلغ بوذا فى ليلة من الليالى مراده ومناه .

وفاة بوذا

عاش بوذا حتى بلغ الثمانين من عمره إذ توفى حوالى عام

٤٨٠ قبل الميلاد ، فى إحدى القرى الصغيرة المغمورة وحوله خمسمائة من أتباعه ومريديه . لقد انتاب بوذا المرض إبان الفصل المطير واشتد به المرض ولكنه تحامل على نفسه وضبط وعيه حتى يستطيع أن يودع تلاميذه وأتباعه قبل أن يودع الحياة كلها . وقد سأله بعض أتباعه أن يترك بعض الوصايا لتستنير بها الطائفة البوذية فأجابه بوذا قائلا : « لقد بشرت بالحق دون أن أفرق بين العقيدة الظاهرة والأخرى المستورة ، إن بوذا ليس لديه شيء أشبه بالقبضة المغلقة التى يستبقى بها المعلم بعض أشياء دون إعلانها ، إذ لا أدرى لم يستبقى المعلم لنفسه بعض التعاليم الخاصة بأى موضوع يتصل بنظام العقيدة دون إعلانها » ثم أردف قائلا :

«كونوا سراجاً تستضيء به نفوسكم ولا تركنوا لأى حمى خارج نفوسكم ، واستمسكوا بالحق واجعلوه نبراساً لكم ، ولا تتطلعوا إلى أحد تجعلوه حمى وملاذاً لكم إلى جانب نفوسكم » .

واستدعى بوذا تلامذته ومريديه قبل أن يجود بأنفاسه الأخيرة وسألهم هل من أحد منهم يشعر بشك أو ريبة فى بوذا وتعاليمه ، ولكنهم لاذوا جميعاً بالصمت العميق وعند ذلك خاطبهم قائلا :.

« انظروا أيها الإخوان : إنى أنصحكم قائلا إن الفساد

والانحلال كامنان فى جميع الأشياء فاعملوا بجد ومثابرة على خلاص أنفسكم » . وكانت هذه العبارة آخر ما تفوّه به بوذا .

وقد أحرقت جثة بوذا بعد وفاته واحتفظ بعظامه على أنها آثار مقدسة . وشيّد حول كل قطعة من هذه العظام مكان مقدس للعبادة نما على مر الأيام حتى أصبح هيكلا ضخماً من هياكل البوذية . لقد كانت عظام بوذا موضع التقديس والتبجيل فى بادئ الأمر ثم عبدت بعد ذلك وأقيمت المعابد للشخص الذى لم يدع الناس قط إلى عبادة إله من الآلهة ، وهكذا أصبح الملحد إلهاً .

تعاليم بوذا

لم يترك بوذا وراءه تعاليم مكتوبة ، كما أن شريعة بالى التى تتضمن هذه التعاليم لم يقدر لها التدوين إلا بعد وفاة بوذا بأمد طويل . ولا نستطيع أن نذكر إلى أى حد تمثل هذه الشريعة كلمات بوذا وتعاليمه التى قال بها ، ومن العجيب أن بوذا قد ضمن تعاليمه عبارات غامضة أو صعبة الفهم لا يتوقع أن تصدر من صاحب رسالة عالمية عليه أن يخاطب الناس بلغة سهلة بسيطة يفهمها الناس كافة كما هو الحال مع موسى أو عيسى أو محمد أصحاب الديانات السماوية الكبرى .

غير أن هذا العجب قد يتلاشى إذا علمنا أن بوذا قد عاش فى عصر عرف بالمحاورات والمساجلات الدينية العميقة ، وأن كثيراً من أقوال بوذا التى تبدو عليها مسحة من الحذلقة الفلسفية كانت تبدو طبيعية لدى أسماع الناس فى ذلك الوقت ، يضاف إلى ذلك أن بوذا نفسه لم يكن يشعر فى قرارة نفسه بأنه صاحب رسالة دينية أو منشىء دين جديد . وغاية الأمر أنه كان مفكراً مستنيراً أراد أن يكشف لنفسه عن أسرار الحياة وأن يجد الطريق إلى خلاص نفسه من آلام العالم ومتاعبه ، ولما شعر أنه وفق إلى هذا الطريق أراد أن يرشد إليه غيره من طلاب الحق والمعرفة .

ومهما يكن من الأمر فإننا نستطيع أن نقول إن الشريعة « البالية » ترسم لنا الخطوط الرئيسية فى تعاليم بوذا دون أن نقول إنها هى عين تعاليم بوذا وكلماته .

وأول ما نقوله فى هذا الصدد هو أن تعاليم بوذا كانت عملية فى حد ذاتها بعيدة كل البعد عن النظريات والتصورات الفلسفية الميتافيزيقية ، إذ كان هدفه الوحيد من تعاليمه هو خلاص النفس من متاعب الحياة وآلامها . فقد جاء فى نص قديم ينسب إليه هذه العبارة « لما كان المحيط الكبير ليس له إلا مذاق واحد هو الملح الأجاج ، كذلك الحال مع

هذه العقيدة ليس لها إلا مذاق واحد هو مذاق الخلاص والتحرر ».

كان بوذا يعمل جاهداً على أن يصرف تلاميذه عن هذه الرغبة الجامحة التى تدفع المرء إلى السؤال عن مسائل ما وراء الطبيعة وهى مسائل لا تؤدى إلى هذا التحرر والخلاص الذى ينشده . وقد كانت هذه المسائل تشغل بال المفكرين والفلاسفة فى ذلك الوقت ، مثل: هل العالم قديم أو حديث وهل هو أبدى أم له نهاية؟ وهل النفس خالدة أم غير خالدة ؟ وهل الشخص الذى نال الخلاص فى هذا العالم سوف يبعث ثانية بعد الممات ؟ ونحو ذلك من المسائل .

وقد حدث أن طلب ناسك من بوذا أن يجيبه عن هذه الأسئلة فما كان من بوذا إلا أن نهره ذاكراً له أن هذه الأسئلة ونحوها عبارة عن فلاة أو غابة ملتفة أو قيد من القيود ، وهى لا تؤدى إلى خلاص النفس من شهواتها بل تقترن عادة بالبؤس واليأس والحيرة . وعندما سأله الناس « وهل لبوذا بعض النظريات الخاصة به؟ » أجابه « إن بوذا خُلو من كل النظريات وأن الحقيقة الواحدة التى يعرفها بوذا هى أن المرء مصيره إلى الفناء ، وهو إذا عرف ذلك عليه أن يحرر نفسه من التعلق بأى شىء ، وبذلك يصل إلى حالة النرڤانا أى السعادة التى ليس من ورائها سعادة .

وتذكر الروايات أيضاً أن أحد الحكام ، وكان قد انضم إلى الطائفة البوذية ، شعر بقلق شديد لأن بوذا لم يجب عن تلك المسائل الفلسفية التى كانت تشغل بال المفكرين فى ذلك الوقت ، فذهب إلى بوذا وسأله ما إذا كان يعرف أجوبة هذه المسائل أم لا يعرفها فأجابه بوذا :—

« هل طلبت إليك الانضمام إلى طائفتى على شريطة أن أفسر لك وأجيب عن هذه المسائل ؟ » فأقر الحاكم أنه لم ينضم إلى الطائفة على هذا الشرط . ثم قال له بوذا : « إنك إذا كنت تعلق الانضمام إلى طائفتنا على معرفة أجوبة مثل هذه المسائل فإنك تكون أشبه بالرجل الأحمق السخيف يصيبه السهم المسموم فيأبى على الجراح أن ينزع السهم من جسده إلا بعد أن يخبره أى شخص هذا الذى أصابه بالسهم ، وما هو نوع السهم والوتر ؟ . إن الحياة الدينية لا تقوم على بحث هذه العقائد الخاصة بخلود العالم أو بعث النفس بعد الممات لأن هذه المسائل وأشباهها لا تؤدى إلى خلاص النفس وراحتها وبلوغها حال النرڤانا » .

على هذا النحو أعلن بوذا للملأ أنه لا يعنى بالنظريات والبحوث العقلية ولكنه يسعى عن طريق العمل إلى شفاء النفوس من الأمراض التى تعتريها فتسبب لها الألم والبؤس

والشقاء . فهو يشخص المرض فى بادئ الأمر ويعرف موطن الداء ، ثم يبحث عن سببه وبعد ذلك يصف العلاج ثم يرسم السبيل الذى يضمن نجاح هذا العلاج. ومن ثم وضع بوذا أربع حقائق تتمشى وهذه الخطوات التى ذكرناها :

الحقيقة الأولى : المكابدة والألم

يذكر بوذا أن الولادة ألم والانحلال ألم والمرض ألم والموت ألم ووجود الأشياء التى نمقتها ألم وعدم الحصول على ما نرغب فيه ألم وبالاختصار إن التعلق بالوجود ألم .

هذه هى عوارض الأمراض التى تعترى النفوس فتحيل حياة المرء بؤسا وشقاء . وهو لكى يبرهن على حقارة هذا العالم يقول : على المرء أن يتدبر بدنه من قمة الرأس إلى أخمص القدم ويتأمل كل ما يحويه هذا البدن من أقذار وأدران . فإذا ما وقع نظر الإنسان على جثة فى مقبرة من المقابر وقد انتفخت هذه الجثة واسود لونها وامتلأت بالعفن الكريه فليقارن عند ذاك بدنه بهذه الجيفة البشعة . حقا إن تلك هى طبيعة البدن وجوهره وهذا هو مآل الإنسان ومنتهاه ولا مفر له من هذا المصير المحتوم .

ويرى بوذا أن هذه الحقيقة الأولى لا تحتاج إلى برهان فهى

واضحة لكل ذى بصيرة وإدراك . وقد رماه البعض بالتشاؤم لهذا القول ولكنه يريد فى الواقع أن يرسم للناس طريق الخلاص مما هم فيه من بؤس وشقاء وألم .

الحقيقة الثانية : سبب المكابدة والألم .

يبحث بوذا بعد ذلك عن سبب هذا البؤس والشقاء والألم فيقول : إن سبب ذلك هو الرغبة الملحة فى اللذة والتعلق بالوجود والشوق إلى السعادة والهناء .

الحقيقة الثالثة : وقف المكابدة والألم

يرى بوذا أن وقف المكابدة والألم يتم عن طريق منع هذه الرغبة منعاً تاماً وهذا المنع فى جوهره هو انتفاء كل شهوة والتخلى عن كل رغبة بل وتدميرها تدميراً ، وبذلك نصل إلى النرڤانا وهى الحال التى ينتفى فيها الألم والمكابدة انتفاء تاماً .

وإليك أحد المزامير البوذية التى تتغنى بمباهج الخلاص من كل شهوة أو رغبة :

« فلنعش إذاً سعداء أحراراً من الجشع بين الجشعين ، ولنظل بين القوم الجشعين أحراراً من الجشع » .

« ولنعش إذاً سعداء وإن كنا لا نملك شيئاً ، سوف نكون

أشبه بالآلهة المشرقة تمتات على السعادة » .

« إن النصر يورث البغضاء لأن المهزوم يكون غير سعيد»

« إن الشخص الذى ينصرف عن النصر والهزيمة هو الشخص القانع السعيد » « ليس هناك من نار أشد من الشهوة وليس هناك من رمية فاشلة مثل البغض« وليس هناك من ألم مثل هذا البدن ، وليست هناك سعادة أسمى من الراحة والسكون»

« الجوع أفتك الأمراض ، والجسد أعظم الآلام فإذا ما عرف المرء ذلك حق المعرفة بلغ حال النرفانا أى السعادة العليا » .

الحقيقة الرابعة : الطريق إلى منع المكابدة والألم .

إن الطريق المؤدى إلى منع المكابدة والألم ينقسم إلى ثمانى مراحل ، وهى : الاعتقاد الصحيح والقصد الصحيح والقول الصحيح والفعل الصحيح ووسائل العيش الصحيحة والمعنى الصحيح والذاكرة الصحيحة والتأمل الصحيح .

ويطلق بوذا على طريقه اسم الطريق الأوسط أى الوسط بين النقيضين ، فهو مثلا يوصى بتجنب الشهوات والملاذ وهو فى الوقت ذاته لا يرضى بالتقشف والزهد . والواقع أن كثيراً من قوة تعاليم بوذا كامنة فى نبل مثاله الخلقى وملاءمته للواقع .

وهو يبشر برسالة دون الإشارة إلى أية قوة عليا أو أى واجب ملزم .

الطائفة البوذية

لم يكن بوذا منشىء دين بالمعنى المعروف ولكنه كان صاحب طريقة وأسلوب فى الحياة يؤدى إلى خلاص النفس من آلامها ومكابداتها . وهذه الطريقة مفتوحة أمام جميع هؤلاء الذين تحللوا من كل الروابط الدينية .

والدخول فى هذه الطريقة يتم على مرحلتين : الأولى مرحلة التدريب أى المرحلة التى يمر بها المريد قبل أن يصبح راهباً بوذياً . ويقوم المريد فى هذه المرحلة بحلق شعره وذقنه وارتداء الرداء الأصفر شعار البوذية ويعلن للملأ أنه احتمى بالبوذا وبتعاليمه وبطريقته .

والمرحلة الثانية لا تتم إلا أمام مجمع الطائفة . ولا يسمح للمريد بالانتقال إلى هذه المرحلة الثانية إلا بعد التحقق من خلوه من الأمراض التى لا تؤهله لأن يكون عضواً فى هذه الطائفة البوذية . فإذا ما انتقل المريد إلى هذه المرحلة الثانية يبدأ فى تنفيذ شروط الطائفة وتعاليمها وأهمها الامتناع عن الاتصال الجنسى والابتعاد عن السرقة ، كما على الراهب البوذى عدم

الانغماس فى تناول الأشربة المخمرة أو تناول الطعام فى الأوقات المحرم فيها ذلك ، كما عليه الابتعاد عن الرقص والغناء ومشاهدة الملاهى والامتناع عن تزيين البدن وتعطيره أو اتخاذ مضجع أو مقعد مرتفع أو عريض وعدم قبول مال من أحد .

وعلى الجملة فإن الانتساب إلى هذه الطائفة معناه الفقر التام ، فالراهب عليه أن يخرج من بيته إلى حيث لا مأوى ولا بيت لأن الملكية قيد واستعباد . ويعيش رهبان الطائفة البوذية فى الأديرة والصوامع بعيدين عن زحمة الحياة ومفاتنها ، ويسمح للنساء بالانخراط فى سلك هذه الطائفة فيصبحن راهبات بوذيات يخضعن – مثل الرهبان – لأعنف القيود التى تكفل الطاعة والنظام بين أفراد هذه الطائفة . ولا نجد فى البوذية أى نوع من أنواع التعبد والصلاة المألوفة فى الأديان الأخرى ، فالبوذى لا يبتهل إلى إله ما ولا يسأل أية قوة غير منظورة العون والتوفيق . وكل ما يحدث هو أن يجتمع رهبان كل إقليم من الأقاليم البوذية للصيام مرتين فى الشهر مرة عند مطلع القمر الجديد والأخرى عندما يصبح القمر بدراً . ويقوم أكبر الرهبان سناً وأقدمهم فى سلك الطائفة بتلاوة بعض النصوص الأدبية البوذية وهى نصوص يعلونها من القداسة بحيث لا يجوز لأحد غير الكهنة والرهبان سماعها . ويسأل هذا الراهب إخوانه

ما إذا كان أحد منهم قد خرج على هذه القواعد والقوانين التى سبق أن أشرنا إليها فإذا اعترف أحد منهم أنه ارتكب خطيئة ما فإنه يفصل من سلك الرهبان أما إذا ظل الجميع سكوتاً فهذا دليل على طهارتهم وبراءتهم .

ويصوم الرهبان يومين آخرين فى كل شهر أى أنهم يقسمون الشهر إلى أربعة أسابيع ويصومون يوماً كل أسبوع ، كما أنهم يصومون يوماً آخر كل سنة عند ختام الفصل المطير ، وهم يقيمون لهذه المناسبة حفلا عاماً يضم رهبان الطائفة البوذية ويعملون فى هذا الحفل على تسوية ما قد يكون بين الرهبان من منازعات وللتأكد من سلامة مسلك الرهبان وعدم مخالفتهم لقواعد الطائفة البوذية وأنظمتها ، ولكن على الرغم من ذلك فإن المنازعات لا تبطل بين رهبان هذه الطائفة .

البوذية بعد بوذا

يقال إن بوذا قد عهد قبل وفاته بالإشراف على شئون الطائفة إلى كاسابا أحد مريديه المخلصين المقربين إليه ، كما أن هذا الأخير قد اختار قبل وفاته خليفة له على الطائفة , والظاهر أنه لم يكن لهؤلاء الرؤساء الروحانيين سلطان قوى على أفراد الطائفة . وتذكر بعض الروايات أن أحد الرهبان قد

ارتاح لموت بوذا لأنهم كما قال « سيستطيعون فعل ما يريدون » لذلك عمد كاساباً على الفور بعد وفاة بوذا إلى اختيار خمسمائة راهب بوذى وطلب إليهم الاجتماع معاً خلال الفصل المطير من السنة لتلاوة تعاليم بوذا والنظر فى قواعد الطائفة ونظمها حتى يكونوا على بصيرة منها فلا يخرجوا عنها قيد أنملة .

ولم يؤد هذا الاجتماع إلى وقف ما بين الرهبان من منازعات فى الرأى بل إن قسما كبيراً منهم طلب فى هذا الاجتماع التحلل من بعض القيود التى فرضها بوذا على رهبان الطائفة .

ووجدت البوذية بعد ذلك بقرن من الزمان مصلحاً ومدافعاً عنها فى شخص الملك أزوكا الذى عمل على نشر المذهب البوذى بكل الوسائل الممكنة ، وكان همه منصرفاً إلى جعل الهند موطن البوذية دولة يسودها العدل والصلاح . ويرجع إلى ذلك العهد وضع الشريعة البوذية المكتوبة ، وقد انتشرت البوذية بعد ذلك فى بورما وسيام وفى التبت ، وبلغ هذا الدين منتهى قوته فى الصين واليابان ، وهو لا يكاد يوجد اليوم إلا فى الدول المغولية فقد انعدم تقريباً من بلاد الهند .

وقد انقسم أتباع بوذا إلى فئتين : فئة كبيرة العدد وهذه ابتعدت كثيراً عن تقاليد بوذا الأصلية على مر الزمن ، وهى تعبده الآن على أنه إله وتنتشر هذه الفئة الآن فى الصين واليابان .

أما الفئة الثانية – وهى الأقل عدداً – فتنظر إلى بوذا على أنه صاحب أسلوب وطريقة خاصة فى الحياة ، لذلك هم يتجنبون المجادلات والمناقشات الدينية العقيمة التى لا تؤدى إلى خلاص النفس من الأدران التى تعلق بها . وتنتشر هذه الفئة فى البلاد الأسيوية الجنوبية مثل بورما وسيام .

كتب الديانة البوذية

تتألف الكتب الدينية الى تضم شريعة بوذا من ثلاث مجاميع تعرف باسم السلال الثلاث . والسلة هى ذلك الوعاء الذى ينتقل من يد إلى أخرى محملا بشىء من الأشياء مثل السلة أو « المقطف » الذى يستخدمه البناءون أو الحفارون فهو ينتقل من يد إلى أخرى محملا بالمواد المختلفة . ومن ثم عرفت الكتب الدينية البوذية باسم السلال لأنها تنتقل من معلم إلى آخر مشتملة على تعاليم هذه الطائفة البوذية .

وتعرف المجموعة الأولى باسم « سلة النظام » أو « الطريقة» وتشمل القواعد والنظم التى يسير عليها الرهبان فى حياتهم .

وتعرف المجموعة الثانية باسم « سلة العظات » وتشمل تعاليم بوذا الأصلية مسلسلة وفق نظام خاص .

وتعرف المجموعة الثالثة باسم « سلة العقائد » ، وتضم مسائل فلسفية مختلفة وهى المجموعة التى يتداولها أفراد الطائفة البوذية بوجه عام .

البوذية وأهل المشرق

لقد كان للبوذية أثر عميق فى نفوس أهل المشرق ، فقد عمد بوذا إلى مهاجمة الخرافات والأوهام والضلالات التى كانت شائعة فى عهده بين أهل المشرق وأهمها عبادة الأرواح ، أى جعل روح لكل كائن من الكائنات إنساناً كان أو حيواناً أو نباتا . والظاهر أن بوذا كانت له صفة الواعظ المفوه الذى يستأثر بقلوب سامعيه . وقد جرت عادته على توضيح عظاته بالقصص والأمثال نذكر منها ما يلى :

جاءته ذات يوم امرأة وبين ذراعيها طفلها وقد اخترمته المنية وسألت بوذا أن يعطيها الدواء الذى يعيد الحياة إلى طفلها الحبيب فقال لها بوذا : « لقد أحسنت صنعاً بمجيئك إلى تسأليني الدواء لهذا الطفل الميت . عليك أن تذهبي إلى المدينة وتطرقى بيوت أهلها بيتاً بيتاً لتحصلى على بذر الخردل من بيت لم يمت من أهله أحد . ولم تمض هذه المرأة طويلا فى بحثها إذ أدركت ما يقصد إليه بوذا من هذا القول

فذهبت إلى الجبانة لتوسد طفلها قبره وقد أخذت يده بين يديها وقالت :

« ولدى الصغير ! لقد حسبت أن الموت قد عدا عليك وحدك ولكن الموت هو مصير الناس أجمعين » ثم لزمت بوذا وأصبحت من مريديه . ويرجع الفضل أيضاً فى شيوع تعاليم بوذا بين الناس وتعلقهم بها إلى روحه الديمقراطى وحدبه على الفقراء والمساكين ووقوفه فى صفوفهم ضد الأثرياء وأصحاب الجاه والسلطان . لقد كان بوذا كما ذكرنا من قبل نبيل المولد سليل الملوك والأمراء وأهل الجاه والثراء ، ولكن نفسه عافت هذا المجد الزائل واتخذ حياة الفقر والزهد وكان يغضب ويثور على الأغنياء الذين يضطهدون الفقراء ويسومونهم سوء العذاب . ومن الطبيعى أن يلتف حوله الضعفاء والفقراء وهم سواد الشعب فى كل أمة ، كما التفوا بعد ذلك حول عيسى المسيح ثم حول محمد رسول الله من بعده .

وهو مع ذلك لا تأخذه هوادة فى تعنيف الفقراء والمستضعفين الذين لا يسيرون فى الطريق المستقيم ، فقد جعل الأخلاق القويمة والسيرة الطاهرة والذكر الحسن فوق الثروة والجاه ، بل فوق كل الطقوس والشعائر ، فالدين فى رأيه هو المعاملة وليس هذه الطقوس والرسوم التى يصطنعها رجال الدين .

ومما زاد من تعلق الناس بهذا الدين الجديد الذى جاء به بوذا أنه بث فى الطقوس والشعائر الدينية القائمة روحاً جديداً خرج بها عن جمودها ، كما أعطى للعادات والتقاليد الشائعة معنى خلقياً جديداً بعد أن كانت مجرد أفعال لا معنى لها .

تعاليم بوذا والفكر الحديث

هناك فى تعاليم بوذا — على الرغم من كل ما ذكرناه — أشياء كثيرة لا تتمشى والفكر الحديث . فهو كما قلنا من قبل يقلل من قيمة الحياة الإنسانية ويحتقر البدن الإنسانى أشد الاحتقار وهو يشير إليه فى أحاديثه بقوله :

« هذا الهيكل ذو الثقوب التسعة .

هذا الجسد القذر ، هذه المقبرة الخاصة بعظام الموتى » .

وكان بوذا ينظر إلى العلاقات والصلات العائلية نظرة ازدراء وعدم اكتراث ، وكان أكثر من ذلك ينظر إلى المرأة على أنها كائن أقل قدراً ومكانة من الرجل ، وهذا على عكس المعاصرين الذين يقدرون المرأة حق قدرها وخاصة من أهل أوربا وأمريكا .

وقد حدث أن طلبت إليه خالته التى احتضنته وهو صغير بعد وفاة أمه أن يقبلها بين مريديه وتلاميذه ، ولكنه رفض

طلبها وكرر هذا الرفض ثلاث مرات . وأخيراً بعد إلحاح سمح لها على كره منه أن تلتحق بالطائفة البوذية على أن لا تتعدى أحد المراكز القليلة الأهمية من مراكز هذه الطائفة قائلا بهذه المناسبة:

« والآن إن هذا النظام الديني سوف لا يعمر طويلا ، فكما أن البيوت إذا كثرت بها النساء وقل بها الرجال فإنه من السهل على اللصوص اقتحامها ، كذلك الحال فى العقائد فإنه إذا انضمت امرأة إلى طائفة من الطوائف الدينية فإن ذلك نذير بقرب زوالها » .

وعندما كان بوذا على فراش الموت سأله تلميذه المقرب إليه أناندا قائلا :

« كيف نتصرف أيها السيد إزاء النساء ؟ »

« لا تروهن يا أناندا » ولكن أناندا كان يدرك أن ذلك غير مستطاع فاستدرك قائلا :

« وكيف نتصرف إذا وقع بصرنا عليهن ؟ »

« لا تحدثوهن ياأناندا » ولكن هذا التلميذ المحبب إليه عاد قائلا :

« وكيف نتصرف إذا تحدثت إلينا واحدة منهن ؟ »

« لا تكترث ولا تلق بالا إلى ما تقول ياأناندا » .

على أنه يجب علينا أن نعترف أن كثيراً من آراء بوذا

وتعاليمه كانت وليدة للبيئة التى نشأ بها ، غير أن ما أداه للفكر الإنسانى أمر لا يمكن إنكاره أو حصره . وكفاه فخراً أنه علّم الناس كيف ينشدون السلام والراحة والطمأنينة عن طريق كبح جماح شهواتهم وأطماعهم .

البوذية فى الوقت الحاضر

إن الناظر فى أحوال البوذية ومركزها فيما بعد الحرب العالمية الثانية يرى أن التعاليم والآراء البوذية لم يصبها الوهن والاضمحلال فى أية دولة من الدول البوذية مع استثناء الصين ، بل إن نفوذها آخذ فى الزيادة المطردة فى بعض هذه الدول . على أن الوحدة بين أتباع هذا المذهب ما زالت هى الدولة ، فليست هناك أى دلائل تدل على قيام نظام أو كتلة بوذية عالمية تكون قوة مؤثرة فى سياسة العالم ونظمه ، وإن كان ضغط الاضطهادات الشيوعية فى الشرق الأقصى قد يساعد على خلق مثل هذه القوة البوذية العالمية . وليس من السهل خضوع البوذية للأنظمة الدولية أو لأى نظام آخر ، لأن اتجاهها ينحصر فى حث الفرد ودفعه لكى يبلغ درجة التنوير والتثقيف ، فهى لا تصبو إلى القوة الدنيوية أو الجاه والسلطان ، بل إن البوذيين الذين يشتركون فى أمور السياسة هم فى نظر أفراد هذه الطائفة

إنما يحطون من قدر لباس البوذية الذى يرتدونه .

وليس للبوذية رئيس أعلى أى ما يشبه البطريق أو البابا ، وليس للمعبد البوذى فى أية جهة ما — مع استثناء التبت — سلطة زمنية (دنيوية) وعلى ذلك فإن التعاون الدولى بين أفراد هذه الطائفة ينحصر فى تبادل آراء البوذية وتعاليمها وفى أحسن الطرق المؤدية إلى نشر هذا المذهب . ولا يمنع هذا من أن تكون القوة الروحية لهذا المذهب ذات أثر متزايد على العالم فى الوقت الحاضر .

وإذا استعرضنا اليوم الدول التى ينتشر فيها هذا المذهب نجد أن اليابان فى طليعة هذه الدول ، وفيها اليوم حركة انتعاش كبيرة للمذهب البوذى ، على الرغم من المحاولات التى يبذلها الأمريكيون لحمل اليابانيين على اعتناق الدين المسيحى ، قائلين إن المسيحية خير عون على بلوغ المزيد من الرخاء والرفاهية المادية .

أما فى الصين فالبوذية آخذة فى الاضمحلال فى هذه البلاد الشاسعة شأنها شأن الأديان الأخرى هناك ، وإن كان أثر الكونفشيوسية (مذهب كونفشيوس) لا يزال واضحاً فى الصين غير أن الجيل الحديث هناك يهتم بالسياسة الغربية وبالمثل الغربية .

وإذا اتجهنا إلى كمبوديا وهى ذلك القسم الجنوبى الشرقى من شبه الجزيرة الأسيوية الذى تختلط فيه الأجناس والأديان ، نجد أنه من الصعب إعطاء فكرة صحيحة عن هذا المذهب البوذى هناك . فالأديان جميعاً فى كمبوديا آخذة فى الاضمحلال تحت ضغط الحروب الأهلية ، على أننا نجد من ناحية أخرى أن عدد الجمعيات البوذية فى تلك البلاد آخذ فى الازدياد وليس من شك أن ذلك إشباعٌ لحاجة الأهالى إلى مثل هذه الجمعيات .

أما سيام فهى الدولة البوذية الوحيدة التى يسعى فيها رجال الطائفة إلى الاتصال بالأفكار والنزعات الحديثة . وقد كانت اللغة هى العقبة الكؤود أمام هذا الاتصال ، غير أن البوذيين هناك أخذوا يقبلون على تعلم اللغة الانجليزية ، كما أن كثيراً من المصنفات التى وضعت عن البوذية تترجم اليوم من اللغة السيامية وإليها . ثم إن زعماء هذه الطائفة يذيعون عن طريق الراديو الأهلى هناك أحاديث أسبوعية عن البوذية وتعاليمها ، يضاف إلى ذلك أن الاتحاد البوذى فى سيام — وهو تحت الرعاية الملكية — يزداد قوة ونفوذا على مدى الأيام . والحالة فى بورما معقدة بسبب الحروب الأهلية هناك ، غير أن الخطر الشيوعى قد دفع الناس إلى التعلق بالطريقة البوذية فى الحياة .

ولا تزال بورما فى طليعة الدول البوذية على أساس أن هذا المذهب البوذى هو العامل الأكبر المؤثر فى حياة البوذيين .

والحال شبيه بذلك فى جزيرة سيلان على الرغم من انضمام عدد كبير من المبرزين من أهل تلك الجزيرة إلى الكنيسة المسيحية . فالمسيحيون هناك يعملون منذ مدة طويلة على إنشاء المدارس النظامية ، وأهل الجزيرة مضطرون إلى إرسال أبنائهم إلى هذه المدارس لينالوا أحسن قسط من التعليم والتهذيب ، غير أن شعورهم الحقيقى لا يزال إلى جانب البوذية مع ميلهم أيضاً إلى الهندوسية ، وقد ازداد النشاط البوذى فى سيلان بعد تحررها من الرقابة الأجنبية ، وظهرت من جديد المشروعات الخاصة بنشر الثقافة البوذية بين ربوع هذه البلاد ، وإعادة ترميم الآثار والمنشآت البوذية . وخلاصة القول إن الطائفة البوذية فى سيلان فى مركز عال وأن البوذية هناك مستكملة أسباب التقدم والنهوض ، نستدل على ذلك من أنها استطاعت لفرط نشاطها هناك أن ترسل الإرساليات التبشيرية إلى جميع العالم البوذى .

أما الهند فقد خرجت عن نطاق الدول البوذية وذلك منذ القرن الحادى عشر الميلادى . غير أن الجمعية البوذية التى تأسست فى سيلان عام ١٨٩١ ، أخذت توالى نشاطها فى طول البلاد الهندية وعرضها ، وتعنى بأمر الحجاج البوذيين الذين

يفدون على الهند لزيارة البقاع المقدسة البوذية ، وهى تقوم أيضاً بالدعوة إلى المذهب البوذى وتعمل على إنشاء المدارس والمكتبات والمعابد البوذية . ونشاطها موضع تقدير الهندوس واحترامهم .

البوذية فى بلاد الغرب

لا يعلم أحد متى ظهرت البوذية فى الغرب لأول مرة . لقد قام نفر من علماء العالم الغربى بترجمة كتب المشرق القديمة إلى اللغات الأوربية الحية وكان من بينها الكتب البوذية . ويرجع الفضل لهؤلاء العلماء فى معرفة أهل أوربا وأمريكا بالمذهب البوذى .

وكانت البوذية حتى نهاية القرن التاسع عشر لا تعنى سوى نفر من العلماء الغربيين دون غيرهم من الناس ، ثم تغير الحال منذ مطلع القرن العشرين . فى عام ١٩٠٦ قام أحد الإنجليز ممن اعتنقوا هذا المذهب البوذى يحاضر الناس فى البوذية علانية بحدائق هايد بارك ولم يلبث أن أنشأ هو وبوذى انجليزى آخر الجمعية البوذية الإنجليزية ، التى أخذت تزاول نشاطها فى الجزر البريطانية بما فيها أيرلندا وقد أصدرت مجلة باسم المجلة البوذية Buddhist Review لتكون لسان حالها .

وفى عام ١٩٢٥ وصلت إلى لندن بعثة من الجمعية البوذية العامة بسيلان لإنشاء فرع لهذه الجمعية فى لندن ، وقد لاقت هذه الجمعية المساعدة التامة من الجمعية البوذية الإنجليزية ، وظلت هاتان الجمعيتان تتعاونان معاً على نشر الدعوة البوذية فى انجلترا حتى الوقت الحاضر. وفى عام ١٩٢٩ أنشأت السيدة كونستانت لونسبرى جمعية أصدقاء البوذية Les amis du Bouddhisme فى باريس ، وقد انضم إلى هذه الجمعية بعض المبرزين من أعضاء الهيئات الفرنسية المختلفة مثل السوربون ؛ على خلاف الحال فى انجلترا إذ كان دعامة الجمعيتين البوذيتين الإنجليزيتين من أهل الطبقة الوسطى فى انجلترا .

ولجمعية أصدقاء البوذية فى باريس صلات وثيقة بالجمعيات البوذية فى سيلان والهند الصينية ، كما أن لها أفرعاً تمثلها فى أنحاء مختلفة من أوربا ، وهى تصدر مجلة بوذية مرة كل ثلاثة أشهر بعنوان الفكر البوذى La Pensée Bouddhique . ولعل أشهر شخصية بوذية بفرنسا فى الوقت الحاضر هى مدام الكسندرا دافيد ــ نيل التى أصدرت جملة مؤلفات عن البوذية فى بلاد التبت أكسبتها شهرة عالمية فى هذا الموضوع .

وكانت البوذية موضوع دراسة واسعة فى ألمانيا فيما بين

الحربين الأخيرتين ، وأنشأ الدكتور بول دالكه Dr. Paul Dahlke بالقرب من برلين أول معبد بوذى فى البلاد الغربية . وما إن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها حتّى خرج إلى الوجود عدة جمعيات وهيئات بوذية فى البلاد التى تتحدث اللغة الألمانية . وبذلت محاولة كثيرة لتوثيق التعاون بين هذه الجمعيات والهيئات .

ولقد قامت فى الوقت ذاته جمعيات بوذية أخرى فى كل من هولندا وبلجيكا وفنلندا والسويد وسويسرا . ولعل هذه الجمعيات البوذية كلها قد قامت على أنقاض ما دمرته الحرب العالمية الأخيرة ، لأن من طبيعة الديانة البوذية أنها تواجه مشكلة الشر والآلام التى تنزل بالبشرية ، وتعمل على حلها ، فهى تشير إلى أسباب هذا الألم والمكابدة وتنتهى إلى معرفة السبب المباشر لهذا الألم والمكابدة ، وهو الرغبة والطموح وتعمل على تدمير هذه الرغبة تدميراً .

وقد لاقت البوذية فى الولايات المتحدة حماسة بالغة ، فهناك فى أمريكا اليوم أكثر من مائة جمعية بوذية ، والهمة مبذولة اليوم لتكوين مكتب عام للاتحاد البوذى الأمريكى لتوحيد نشاط هذه الجمعيات البوذية وتدعيمها .

وقبل أن نختتم هذا الفصل نذكر أنه فى عام ١٩٤٥ ،

شعرت الجمعية البوذية فى انجلترا بمسيس الحاجة إلى وضع مختصر عن قواعد البوذية وتعاليمها لا يزيد على ثلاث ورقات ونصف ورقة من الحجم الكبير . وقد تم بالفعل وضع هذا المختصر الذى يتضمن اثنتى عشرة قاعدة بوذية . وقد عرضت الجمعية هذا المختصر على مراكز البوذية فى الدول البوذية فأقرته اليابان ثم من بعدها سيام والصين وبورما وسيلان ، كما أقره مندوبون بوذيون من التبت . وفيما يلى هذا المختصر الذى يتضمن القواعد البوذية :

١ ـــ إن خلاص نفس أى فرد من الأفراد هى المهمة المباشرة بالنسبة لهذا الفرد . فإذا ما جرح شخص بسهم مسموم فالواجب عليه أن لا يؤخر انتزاع هذا السهم من جسده انتظاراً لطلب تفصيلات عن الشخص الذى أصابه بهذا السهم ،وعن طول السهم وكيفية صنعه . سوف يكون هناك متسع من الوقت لزيادة تفهم التعاليم البوذية خلال السير فى الطريق المرسوم . فابدأ الآن بمواجهة الحياة كما هى وتعلّم دائماً عن طريق التجربة الشخصية المباشرة .

٢ ـــ إن الحقيقة الأولى فى الوجود هى قانون التغير وعدم الدوام . إن كل شىء فى الوجود من حيوان الخلد إلى الجبل ومن الفكرة من الفكر إلى الإمبراطورية من الإمبراطوريات

يمر خلال دورة الوجود ذاتها ، أعنى : النمو والانحلال ثم الموت . والحياة وحدها هى الشيء المستمر وهى دائماً تسعى إلى الإفصاح عن نفسها فى صور جديدة . والحياة جسر ، ومن ثم فلا تبنى بيتاً فوق هذا الجسر . والحياة عملية من عمليات التدفق والجريان فمن يتعلق بأية صورة من الصور مهما تكن جمال هذه الصورة فسوف يقاسى نتيجة لمقاومته لهذا التدفق والجريان . .

٣ ـ إن قانون التغير ينطبق بالمثل على النفس . فالفرد خلو من أى مبدأ خالد أو لا يتغير . والتجرد المطلق هو وحده الحقيقة النهائية التى لا يصيبها التغير ، وكل صور الحياة بما فيها الإنسان هى مظاهر لهذه الحقيقة . وليس هناك من إنسان يملك هذه الحياة التى تدب فى أوصاله شأنه فى ذلك شأن المصباح الكهربائى ، فهو لا يملك ذلك التيار الكهربائى التى يبعث فيه الضوء .

٤ ـ والعالم هو مظهر القانون . وكل معلول له علة ، ونفس الإنسان وطباعه هى مجموع أفكاره وأفعاله السابقة . «والكارمه» Karma ـ ومعناها الفعل ورد الفعل ـ هى التى تتحكم فى الوجود بأسره . والإنسان هو المبدع الوحيد لظروفه وأحواله وانعكاساته عليها ، ولظروفه وأحواله المستقبلة ، ولمصيره الأخير .

وهو يستطيع بالفكر الصائب والعمل الصحيح أن يظهر بالتدريج طبيعته الباطنة . وهذا العمل يستغرق عهوداً طويلة تشمل الحياة تلو الحياة على سطح الأرض ، ولكن سوف تصل فى النهاية كل صورة من صور الحياة إلى التنوير والتثقيف .

٥ ــ الحياة واحدة غير منقسمة وإن كانت أشكالها المتغيرة على الدوام لا حصر لها وهى قابلة للفناء . وليس هناك فى الحقيقة موت وإن كان الموت مصير كل صورة من صور الحياة . إن الرحمة وليدة إدراك وحدة الحياة وفهمها . وقد وصفت الرحمة بأنها قانون القوانين وأنها التناسق الأبدى وأن الذى يشذ عن هذا التناسق سوف يصيبه الألم والمكابدة ، كما أنه يؤخر من تنويره وتثقيفه .

٦ ــ لما كانت الحياة واحدة وجب أن تكون مصلحة الجزء هى عين مصلحة الكل . والإنسان لجهله يظن أنه يستطيع أن يكافح بنجاح فى سبيل مصلحته الخاصة . وهذا النشاط الأنانى الموجّه توجيهاً خاطئاً يؤدى إلى المكابدة والألم . والإنسان يتعلم من مكابدته كيف يقلل من سبب هذه المكابدة ثم ينتهى به الأمر إلى التخلص من علة هذه المكابدة. ولقد علّمنا بوذا أربع حقائق نبيلة هى : ١ ــ وجود الألم والمكابدة فى كل مكان ٢ ــ علة المكابدة وهى توجيه الرغبة توجيهاً

خاطئاً ٣ _ علاج المكابدة وذلك بالتخلص من علتها ٤ ـ الطريق ذو الثمانى مراحل الموصل فى النهاية إلى القضاء على الألم والمكابدة .

٧ _ إن هذا الطريق السالف الذكر يتألف من المراحل التالية :

الآراء الصحيحة ، والأهداف الصحيحة ، والقول الصحيح والأفعال الصحيحة والمعيشة الصحيحة ، والمجهود الصحيح ، والذاكرة الصحيحة ، والتأمل الصحيح . وهذه المراحل تؤدى إلى التنوير الكامل . ولما كانت البوذية طريقة فى الحياة وليست مجرد نظرية فحسب ، فإن ولوج هذا الطريق أمر جوهرى لخلاص النفس« امتنع عن فعل الشر ، وتعلم كيف تفعل الخير ، وطهـّر قلبك » هذه هى تعاليم بوذا .

٨ ـ إن الحقيقة شىء لا يمكن وصفه ، وإن القول بإله له صفات معينة ليس ذلك هو الحقيقة النهائية ، غير أن بوذا وهو الكائن الإنسانى قد غدا الشخص الذى بلغ كمال التنوير . وإن بلوغ حال النرفانا أمر ممكن بلوغه فى هذه الحياة الدنيا . إن الناس جميعاً وكل صور الحياة الأخرى تتضمن فى ذاتها إمكانية التنوير ثم يصبح هذا التنوير بالفعل باتباع الخطوات السابقة .

٩ — إن الطريق الأوسط يقع بين التنوير بالقوة والتنوير بالفعل، وهذا الطريق يبدأ من الرغبة وينتهى إلى حالة الطمأنينة والسلام . وهو طريق وسط بين المتناقضات ، يتحاشى السائر فيه الأطراف النهائية . وقد سار بوذا فى هذا الطريق حتى نهايته . والشيء الوحيد المطلوب الإيمان به فى البوذية هو أنه ما دام بوذا المرشد قد سار فى هذا الطريق فعلينا أن نسير فيه . ويجب أن يسير الناس جميعاً فى هذا الطريق فلا يقتصر الحال على خيارهم فقط . ولا بد من أن يتقدم القلب والعقل فى الوقت ذاته إلى الأمام .

١٠ — إن البوذية تهتم أشد الاهتمام بالتأمل والتركيز الباطنى وهذا يؤدى مع مضى الزمن إلى تنمية الملكات الروحية . فالحياة الذاتية هامة مثل الحياة المادية المحيطة بنا . وإن فترات من الراحة والطمأنية للنشاط الباطنى للمرء لأمر ضرورى لحياة متوازنة . إن البوذى يجب عليه فى كل الأوقات أن يكون حاضر الذهن رابط الجأش عزوفا عن التعلق العقلى أو العاطفى بالمظاهر العابرة . وهذا التيقظ والانتباه للظروف — التى يدرك أنها من إبداعه — يساعده على أن يجعل انعكاساته بصدد هذه الظروف تحت رقابته وسيطرته .

١١ — لقد قال بوذا : « اعمل على خلاص نفسك بجد

ونشاط » ولا تعرف البوذية دعامة للحق سوى وجدان الشخص وبديهته . وكل فرد يتحمل نتائج أفعاله الخاصة، وهو يدرك ذلك إبان قيامه بمساعدة زملائه على خلاص أنفسهم . إن الصلاة والتوسل ببوذا أو بأى إله آخر لا يحول دون أن يتبع المعلول علته . إن الرهبان البوذيين هم معلمون ومُثل للناس، ، فهم لا يتدخلون بأى شكل من الأشكال بين الحقيقة والمرء . والتسامح المطلق يجب أن يكون موجهاً إلى جميع الأديان والفلسفات ، لأنه ليس لأى إنسان حق التدخل في رحلة جاره نحو الهدف .

١٢ — إن البوذية ليست مذهباً يتصف بالتشاؤم أو الهروب من مواجهة الحقائق ، ولا هو بالمذهب الذى ينكر وجود الله أو الروح ، وإن كان يسبغ على هذه الألفاظ معانيه الخاصة . بل إن البوذية على العكس من ذلك طريقة للتفكير ، ودين من الأديان ، وعلم روحى وأسلوب معقول فى الحياة يتصف بأنه عملى ومحيط بكل شيء .

إن هذا المذهب قد أشبع الحاجات الروحية لما يقرب من ثلث الجنس البشرى منذ أكثر من ألفين من السنين . وهو يروق فى أعين أهل الغرب لأنه خلو من العقائد المقررة ، وهو يرضى ويقنع العقل والقلب معاً ، وينص على الاعتماد على النفس

وعلى التسامح مع جميع الآراء والمذاهب الأخرى . والمذهب البوذى علم ودين وفلسفة وعلم نفس وآداب للسلوك وفن . وهو يبصر الإنسان بأنه هو مبدع حياته الحاضرة ، وأنه هو الذى يرسم ويصمم مصيره ومستقبله .

كونفشيوس

من العجيب أنه لا يخلو كتاب في تاريخ الأديان من فصل هام عن مذهب كونفشيوس حكيم الصين الأشهر وتعاليمه. وإن أقيمت الحجة في الوقت ذاته على أن الكونفشيوسية ليست دينا وإنما هي منهج خلقي أو أسلوب من أساليب الحياة.

بل إن الذين يقولون إن الكونفشيوسية الحديثة هي دين من الأديان يصرّون أيضاً على القول بأن التعاليم الأصلية لكونفشيوس لم تكن بأي حال من الدين في شيء.

والواقع أن الكونفشيوسية هي الآن وفي كل وقت من الأوقات دين من الأديان. فقد كان كونفشيوس ذاته رجل دين تمثّلت فيه جميع العقائد الصينية القديمة. وكان أتباعه ومريدوه رجال دين بكل معاني هذه الكلمة، بل إن الكونفشيوسية كلما تقدم بها الزمن أمعنت في الدين. ومهما يكن من الأمر فإن الكونفشيوسية — سواء أكانت فلسفة أم مذهباً خلقياً أم ديناً — فإنها قد أدّت جميع الوظائف التي يرجى أن يؤديها دين من الأديان.

وإذا كان بعض الناس لا يرون أن الكونفشيوسية دين فمرد ذلك ضيق نظرتهم إلى الدين ، والمعنى المقصود من هذه الكلمة . فهم يقيسون كل دين على دينهم الخاص ، فإذا كان مماثلا فى جوهره لدينهم فهو فى نظرهم دين صحيح وإلا كان شيئاً آخر بعيداً عن الدين .

والواقع أن كونفشيوس قد تجاهل فى تعاليمه أشياء كثيرة من التى ينظر الناس إليها عادة على أنها من أسس الدين ومظاهره الرئيسية ، ولم يكن ذلك منه استخفافاً بهذه المظاهر الدينية ولكنه كان يرى أنها ليست من جوهر الدين فى شىء . فهو مثلا لم يذكر فى تعاليمه أى نوع من أنواع العبادة أى الصلاة المعروفة فى الأديان المنزلة ، ولم يرد فى أحاديثه وتعاليمه ما يدل على ضرورة إقامة أماكن خاصة للعبادة ، يؤمها الناس فى أوقات معلومة للصلاة أو للابتهال والتوسل للكائن الأعلى الذى يعتقدون فيه .

الإنسانى الأول

إن الدين الذى جاء به كونفشيوس وعمل على نشره وتطبيقه بين أمة الصين وثيق الصلة بهذا المذهب الجديد الذى ظهر بين أحرار الفكر المسيحى ، والذى يطلق عليه أحياناً اسم

المذهب الإنسانى Humanism . والواقع أن كونفشيوس هو أول إنسانى ظهر فى العالم ، وأساس تعاليمه أن لا يعتمد الإنسان على أى كائن عاوى أو أية قوة غير منظورة يطالب منها العون والتوفيق فى حياته ، بل على المرء أن يصل إلى ما يتمناه من مراتب التقدم والسعادة عن طريق ذاته فحسب ، وذلك يكون بتثقيف نفسه وتهذيبها ، لأن المعرفة الصحيحة هى وسيلة الحياة السعيدة الهانئة ، لذلك كان كونفشيوس يحث الناس دائماً على توسيع مداركهم سواء المتصل منها بالعالم الخارجى أو بذات نفوسهم . والمعرفة الصحيحة هى التى تخلق الرجل السعيد الموفق وهى التى تخرج العائلة الصالحة والحكومة العادلة ، وهى التى تؤدى بوجه عام إلى خلق عالم تسوده العدالة والمحبة والسلام .

إن الذى يقول إن الكونفشيوسية ليست دينا ، وإن كونفشيوس لم يكن من بين زعماء الأديان فى العالم إنما يذهب فى قوله إلى عكس ما جاءت به الأديان السماوية . فقد ورد فى الإنجيل مثلا « إن الرجل الذى يظهر بين الناس فى مظهر المتدين ولا يعف لسانه عن إيذاء الغير إنما يخدع نفسه . ودينه عبث لا طائل من ورائه ، وإن الدين الطاهر الخالص من الشوائب عند الله هو أن يزور المرء الأيتام والأرامل فى كربهم

وحزنهم والمتدين هو الذى يحفظ نفسه طاهر الذيل لم تلوثه أدران هذا العالم » .

إن هذه الوصايا كونفشيوسية فى جوهرها فقد أوصى حكيم الصين بصفة خاصة بحفظ اللسان عن الزلل كما بين أهمية الروابط العائلية وضرورة الحياة الطاهرة النقية المنزهة عن الشوائب .

وصفوة القول إن كونفشيوس كان من الذين يرون -أن الدين هو المعاملة ، وليس الدين جماع تلك الطقوس والشعائر التى ينظر إليها البعض على أنها أساس الدين وجوهره . فالدين عند كونفشيوس هو مواساة اليتيم والبر بالفقراء والمعوزين وحفظ اللسان من النيل من أعراض الناس وكف اليد عن الاعتداء على الغير والاحتفاظ بالنفس طاهرة دون أن تدنسها الشرور والآثام .

وهناك فى أمريكا اليوم اتجاه نحو التعاليم الكونفشيوسية ، فإن أحرار الفكر من المسيحيين يرون أن أركان الدين الصحيح ليست فى إقامة الصلاة ، والقيام بالشعائر والطقوس الدينية المختلفة ، أو الاعتقاد فى إله واحد لا شريك له ، أو فى خلود النفس أو نحو ذلك من المعتقدات الدينية ، إنما أساس الدين وجوهره هو المعاملة .

ويرى كثير من الناس اليوم أن الحكم العادل هو الدين

الذى تتطلع إليه الإنسانية وذلك ما كان يدعو إليه كونفشيوس منذ أربعة وعشرين قرناً خلت . وكثيراً ما ترد فى تعاليم كونفشيوس هذه العبارة التى جمعت فأوعت :

« ما لا تحب أن يصنع معك فلا تصنعه مع الآخرين » .

إن كونفشيوس كان يرى أن السماء والحكومة والشعب هى القوى الثلاث السامية . فالسماء هى التى تشرع القوانين والقواعد العامة التى تنظم الحياة الإنسانية ، والحكومة تتلقى هذه القوانين والقواعد وتقوم على تنفيذها . أما الشعب ومن يقوم بتنفيذ هذه القوانين فيعيشون وفقاً لنصوصها . فليس هناك والحال هذه مجال لطائفة الكهنة ورجال الدين ، لأن القوانين السماوية لا تقوم على أية عقيدة خافية أو مستورة ، لأن هذه القوانين تشكل نفسها فى صورة الظواهر الطبيعية والمجتمع الإنسانى ، وإن ما تتضمنه هذه القوانين قد توارثتها الأجيال جيلا بعد جيل . وليس هناك فى الوقت ذاته مكان للحكومات أو الحكام الذين يفرضون قوانينهم ونظمهم الدينية الخاصة بهم . وعلى هذا فإن مذهب كونفشيوس عبارة عن فحوى فضائل الأديان السماوية ، وأفضل ما جاءت به الحكومات المثلى من نظم وقواعد مع تجنب أخطار كليهما .

وقد جعل كونفشيوس لطبقة المعلمين مكاناً ممتازاً فى

الدولة وهى الطبقة التى واجبها دراسة القوانين وصيانتها من كل عبث ، وبذلك أنشأ كونفشيوس بين طبقة الحكام والشعب طبقة ثالثة مهمتها الجهاد فى جبهتين : الأولى ضد الحكومة أى مراجعتها إذا ما خرجت عن حدود القوانين المرسومة ، والثانية جهاد مع الشعب لتيسر له الحصول على العلم والحكمة . وكان من مميزات هذه الطبقة الجديدة أنها لم تنغمس قط فى أى نشاط غير هذا النشاط المرسوم لها ، وذلك على عكس أمثالهم من طبقة المعلمين والفلاسفة فى الدول الغربية .

وقد نجح كونفشيوس فى رفع هذه الطبقة إلى مكانة مرموقة لها نفوذها وأثرها فى الحياة الصينية ، بل وغدت هى طبقة المعلمين والفلاسفة التى تعترف بها الدولة رسمياً .

والآن فلننظر كيف تيسر لكونفشيوس صنع هذا كله وعلى أى أساس أقام مذهبه وتعاليمه ، على أن ذلك يدعونا أولا إلى التحدث عن نشأة كونفشيوس وحياته وكيف كان يعلم الناس هذا المذهب الجديد

والد كونفشيوس

فى عام ٥٥٢ قبل الميلاد أخذ القلق يساور جندياً عجوزاً

من أهل إقليم شانتونج من أعمال الصين إذ شعر بدنو أجله وليس له ولد . وكانت الطقوس الجنائزية الصينية الصحيحة لا تتم على الوجه الأكمل إلا إذا كان للمتوفى ولد يقوم على هذه الطقوس . وكان لهذا الجندى البالغ من العمر أكثر من سبعين عاماً تسع بنات ، وكان له إلى جانبهن ولدان من إحدى المحظيات ، ولكنه كان يريد له ابناً شرعياً تعترف به الجماعة . لذلك عقد العزم على أن يتخذ له زوجة أخرى غير زوجته الأولى التى لا تلد له إلا البنات .

كان هذا الرجل سليل أسرة صينية قديمة شريفة هى أسرة « كُنج » لذلك كانت رغبته أن يصهر إلى أسرة تعادل أسرته صيتاً وشرفاً . فاتجهت أنظاره إلى أسرة «ين » وسأل أحد أفراد هذه الأسرة أن يزوجه إحدى بناته الثلاث . فجمع هذا الرجل بناته وأوضح لهن مزايا الزواج من هذا الجندى المسن ، وما قد يكون فى ذلك من عيب أو نقص ثم سأل عن أية واحدة منهن ترغب فى الزواج منه . فصمتت الابنتان الكبيرتان عن الجواب ، أما الابنة الصغرى «شنج — تسى » فتقدمت نحو والدها وانحنت أمامه انحناءة طويلة تنطوى على الاحترام والتبجيل وقالت :

« لم تسألنا يا أبت ؟ لك أن تقرر ما تراه فى هذا الشأن » .

« حسناً إنك سوف تتزوجين هذا الرجل » .

وبعد ذلك بعام واحد جلبت هذه الزوجة الصغيرة — التى لم تكن سنها تزيد فى ذلك الوقت على ثمانية عشر عاماً — البهجة والسرور إلى قلب زوجها العجوز لأنها انجبت له غلاماً

ولا يزال إلى اليوم يعيش فى إقليم شانتونج بالصين سلالة هذا الغلام من أبناء الجيلين الخامس والسبعين والسادس والسبعين ، ولا يزال الناس هناك يبجلونهم ويحترمونهم أشد الاحترام لأنهم من سلالة كونفشيوس العظيم .

اسم الغلام

لم يكن هذا الغلام يدعى كونفشيوس ، بل ولم يسمع أحداً قط فى حياته يناديه بهذا الاسم . أما الاسم كونفشيوس فهو صياغة لاتينية لاسم هذا الصبى ، صاغها القساوسة اليسوعيون الذين كانوا يعيشون فى الصين فى القرن السادس عشر ، وهم الذين أوصوا البابا فى روما بأن يدرج اسم كونفشيوس فى قائمة قديسى الكنيسة الرومانية الكاثوليكية . كان هذا الغلام يسمى « كنج — فو — تسى » ومعنى هذه الكلمة « كنج السيد » أو « كنج المعلم » ومن ثم كانت الصيغة كونفشيوس هى أقرب الصيغ اللاتينية التى ارتآها اليسوعيون لهذا الاسم الصينى .

ومن الواضح أن هذا الاسم لم يطلق عليه عند ولادته ، إنما أطلق عليه أول ما أطلق اسم « كن » أى « التل الصغير » . ولا ندرى هل كانت هذه التسمية قد أطلقت عليه بسبب وجود تل صغير إلى جوار البقعة التى ولد فيها أم بسبب شكل رأسه الخاص الذى يشبه التل . وقد أطلق عليه فى الوقت ذاته اسم آخر هو « شنج نى » ومعنا تل نى الثانى أما تل نى الأول فهو أخوه غير الشقيق من محظية أبيه . والواقع أن الاسم الحقيقى لهذا الغلام هو « شنج نى » .

وقد ظهرت على هذا الغلام وهو فى حداثته آيات النبوغ والذكاء. نستدل على ذلك من القصص والروايات التى يحكيها عنه تلاميذه ومريدوه . فهم يقولون إن ملكاً تجلى لأمه شنج ـ تسى وقال لها :

« سوف يكون لك غلام وسوف يكون أعقل الناس أجمعين » وهم يقولون أيضاً إن حيوانا عجيباً أشبه بالوعل أو وحيد القرن أو التنين قد وضع أمام « شنج ـ تسى » حجراً كريماً منقوشاً عليه هذه العبارة :

« سوف يكون غلامك ملكاً غير متوج »

الصين عند ولادة كونفشيوس

ولد كونفشيوس فى منتصف القرن السادس قبل الميلاد وهو الوقت الذى ظهر فيه حزقيل ودانيال من أنبياء الله فى فلسطين، وصولون المشرع وفيثاغورس الفيلسوف فى اليونان وبوذا الحكيم فى الهند . وكانت الصين فى ذلك العهد تمر بعهدها الإقطاعى إذ كان حكامها الإقطاعيون قد وطدوا أقدامهم فى مدنهم المسورة الحصينة . وكان كل منهم يحكم مدينة أو أكثر وينوب عنه فى حكم المدن البعيدة أتباع خاضعون له . وكان يعيش هؤلاء الحكماء والأمراء والأتباع فى قصور فسيحة داخل أسوار مدنهم يحتقرون الفلاحين وعامة الشعب الذين لا يحفلون بشىء إلا بمأكلهم ومشربهم وليس لهم أى نصيب فى الثقافة والمعرفة . وكانت الثقافة السائدة بين أهل هذه القصور ثقافة دينية فى مبناها وجوهرها . فبلاط الحاكم الإقطاعى هو المكان المقدس وقبلة أهل الورع والدين. والضرائب التى تقدم إلى الحاكم الإقطاعى هى بمثابة القرابين التى تقدم على مذابح المعابد والهياكل الدينية . وكلمة الحاكم هى الكلمة المقدسة الواجب على أفراد الشعب جميعاً طاعتها دون اعتراض أو مناقشة .

وكان الأتباع والأمراء ورجال الدولة بحكم اشتراكهم فى حياة البلاط الصينى عليهم أن يكونوا على معرفة تامة بالطقوس والشعائر المرعية فى البلاط ،وأن يدركوا تماماً ما تنطوى عليه جميع الرموز والإيماءات من دلالات ومعان . وللوصول إلى هذه الغاية كان هؤلاء الأمراء والأتباع يحيطون أنفسهم بالمستشارين والمعلمين يتلقون عنهم أصول هذه الطقوس والشعائر ودلالاتها المختلفة ، ومن ثم نشأت من بين صغار النبلاء بالمدن طبقة خاصة أخذت على عاتقها دراسة هذه الطقوس والشعائر دراسة مستفيضة، لكى تقوم بخدمة الأمراء والأتباع فى هذه الناحية الخاصة . وأفراد هذه الطبقة هم من المعلمين والفلاسفة ورجال الأدب . ثم نشأت بعد ذلك مدارس خاصة لإعداد صغار الأتباع ونحوهم للخدمة بالبلاط أو لتولى الخدمة العامة فى الحكومة . وبدأت هذه المدارس عملها متنقلة — أساتذة وطلابا — من بلاط إلى آخر ، ثم اتسعت برامجها مع مضى الزمن فأصبحت تشمل الفنون العسكرية والاقتصاد والفلك والقانون وعلم الأخلاق. فغدت بذلك بمثابة جامعات متنقلة . غير أن النزاع والنقاش ما لبث أن دب بين هذه المدارس وبعضها بسبب نفوذها وسلطانها على الأمراء وكبار رجال الحكم بعضا فكانت

سبباً فى قيام كثير من الفتن والقلاقل فى البلاد بل أصبحت آخر الأمر مصدر قلق وانزعاج فى ربوع الصين كلها .

ولم يكن غريباً والحال على هذا المنوال أن ضربت الفوضى أطنابها فى طول البلاد وعرضها ؛ نستدل على ذلك من حادث وقع لكونفشيوس نفسه يبين لنا مدى ما كان يعانيه الشعب الصينى من عسف وظلم . كان كونفشيوس يقوم هو وتلاميذه برحلة تعليمية فى البلاد المجاورة لجبل تاى ، وبينما هو فى طريقه سمع سيدة تصرخ وتستغيث . فلما سألها عن سبب بكائها وعويلها فى هذه الصحراء البلقع أجابت :

« لقد قتل نمر مفترس والد زوجى فى هذه البقعة ، كذلك افترس هذا النمر زوجى ثم افترس من بعده ولدى » .

فسألها كونفشيوس

« ولماذا تقطنين هذا المكان القفر المهلك ؟ » فأجابته

« لأنه لا يوجد هنا حاكم ظالم » .

وعندما سمع كونفشيوس هذه الإجابة استدار نحو تلاميذه وقال لهم :

« اكتبوا عندكم أيها التلاميذ أن الحاكم الظالم أخطر من النمر المفترس » .

حداثته وطلبه للعلم

لا نعرف إلا القليل عن حداثة كونفشيوس ، ولكن لدينا أساطير كثيرة تشهد بطموح هذا الشاب وسعيه إلى طلب العلم والمعرفة . وتذكر الروايات أن كونفشيوس كان يسهم وهو فى الرابعة عشرة من عمره فى تعليم أنداده من الصبيان ، لأنه كان قد وعى وهو فى هذه السن كل ما يستطيع المعلم تلقينه للتلاميذ.

غير أن هذا لا يدعونا إلى القول بأن هذا الشاب قد انصرف كلية إلى تحصيل العلم دون شىء آخر من شئون الحياة ، بل إنّا نعلم مما وصل إلينا من تاريخ حياته أنه كان صياداً ماهراً كما أجاد قيادة المركبات على اختلاف أنواعها ، وكان فوق ذلك كله موسيقياً بارعاً .

وكان كونفشيوس يعمل فى غير أوقات الدرس أعمالا تدر عليه بعض المال يستعين به على تدبير شئون أسرته . فقد توفى أبوه بعد مولده بثلاث سنوات فاضطر هذا الشاب — وهو بعد فى مرحلة التعلم — إلى كسب معاشه عن طريق العمل . بل إن لحوم الطير والأسماك التى كان يصيدها بنفسه كانت تؤلف ركناً هاماً من الأطعمة التى تقدم على مائدة أسرته . والواقع أن كونفشيوس لم يدخر وسعاً فى سبيل زيادة دخل

أسرته والعمل على إسعادها بمختلف الوسائل .

كونفشيوس بين موظفى الحكومة

ما إن بلغ كونفشيوس السابعة عشرة من عمره حتى أسندت إليه إحدى الوظائف الحكومية فى إقليم « لو » الذى كان يعيش فيه . ولم تكن هذه الوظيفة بطبيعة الحال على جانب كبير من الأهمية ولكنها كانت وظيفة مشرفة . لقد عهد إلى كونفشيوس أمر خزن الحبوب فى هذا الإقليم والإشراف على بعض الأراضى العامة التابعة للحكومة .

وسرعان ما اكتسب احترام الناس له ، وبلغ مكانة مرموقة فى المجتمع الذى يعيش فيه وذلك لدقته وإخلاصه فى العمل . ويغلب على الظن أنه أظهر فى عمله ذكاء ومقدرة لم تكن ملحوظة من قبل بين موظفى الحكومة .

وقد أفصح كونفشيوس لأول مرة وهو فى هذه المرحلة من حياته عن فلسفة فى الحياة ، وذلك عندما عهد إليه تسوية نزاع قام بين جماعة من الرعاة المتنافسين ، إذ جمعهم جميعاً وألقى عليهم درساً فلسفياً فى سخافة التنازع على توافه الأمور .

وقد أظهر كونفشيوس فى ذلك الوقت نزعة ترمى إلى وضع قواعد مبسطة لسلوك الإنسان . فقد أدرك أن هؤلاء الرعاة

المتنافسين وأشباههم من سواد الشعب لا يدركون فلسفة التعاليم الصينية القديمة والمبادىء الخلقية التى تتضمنها الكتب الصينية القديمة التى عكف كونفشيوس على دراستها . لذلك رأى أن من واجبه تبسيط هذه الفلسفة والتعاليم ، ثم استخلص منها فى نهاية الأمر قاعدة بسيطة اتخذها مقياساً للسلوك القويم فى هذه الحياة .

كانت المهمة التى اضطلع بها كونفشيوس أشبه بالمهمة التى جابهت موسى قبل ذلك بسبعة قرون ، غير أن الحل الذى جاء به كونفشيوس هو عين الحل الذى قال به عيسى بعد ذلك بستة قرون تقريباً . فهو بدلا من الوصايا العشر التى جاء بها موسى قدم لهؤلاء الرعاة المتخاصمين مبدأ بسيطاً شاملا حيث قال لهم :

« لا تصنع بالآخرين ما لا تحب أن يصنعوه معك » .

وقد يكون فى وضع هذا المبدأ الخلقى بصيغة النفى هذه ضعف من الناحية التربيبية ، غير أن كونفشيوس استطاع مع ذلك أن يذهب مباشرة إلى لب المسألة وأن يكشف عن المبدأ الذى يصح أن يكون نبراساً لسلوك الإنسان .

قال كونفشيوس بهذا المبدأ وهو فى السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمره ؛ ثم ردده كثيراً بعد ذلك فى تعاليمه التى قال

بها عندما اكتملت رجولته وذاع صيته فى بلاد الصين كلها . ولم يكن تعلق كونفشيوس بالواجب واحترامه لحقوق غيره سبباً فى احترام الناس له فحسب ، بل كان أيضاً سبباً فى ازدياد دخله . وهذا قد مكنه من أن يتخذ له زوجة وهو فى التاسعة عشرة من عمره .

كونفشيوس رب أسرة

لا نعرف شيئاً عن زوجة كونفشيوس ، غير أنها أنجبت له ولداً بعد عام واحد من زواجه منها أى فى عام ٥٣١ قبل الميلاد .

ووصلت إلينا قصة تدلنا على المكانة الممتازة التى كان يتمتع بها كونفشيوس فى نفوس معاصريه . فقد ذهبت هذه القصة إلى أن حاكم ولاية « لو » الصغيرة التى يعيش فيها كونفشيوس قد أرسل إلى هذا الوالد الشاب المبتهج بمولد ابنه سمكتين من نوع الشبوط ليكونا بين ألوان الطعام الذى يقدم على مائدة أسرة كونفشيوس ، فى الحفل الذى يقام عادة لهذه المناسبة السعيدة . وكان رد كونفشيوس على هذه الهدية أن أطلق على ولده اسم « لى » وهى الكلمة الصينية التى تدل على سمك الشبوط .

وفى ذلك الوقت الذى كان يحتفل فيه كونفشيوس بمولد ابنه كان بوذا فى الهند يحتفل هو الآخر بتسمية ولده « رهولا » . وتذهب الروايات إلى أنه قد ولد لكونفشيوس أيضاً ابنتان ، وذلك قبل أن تعصف الأحداث بحياته الزوجية السعيدة . ولم تفصح التواريخ الصينية عن سبب اختلاف كونفشيوس مع زوجته . والراجح أن الطلاق قد وقع بينهما بعد أربع سنوات من زواجهما ، وقد يكون ذلك بسبب طول حزن كونفشيوس على وفاة أمه .

لقد كانت العادة فى الصين أن يعتزل الشاب الحياة مدة طويلة عند وفاة أحد والديه . وكان كونفشيوس على الدوام مستمسكاً بتلك التقاليد والعادات الصينية القديمة ، لذلك ظل شهوراً طويلة يتردد على قبر والدته يتأمل فى الحياة وفى الموت . وقد ظل على هذه الحال سبعة وعشرين شهراً .

ومن المعروف أن كونفشيوس كان فى الرابعة والعشرين من عمره عندما توفيت أمه . والواقع أن وفاتها قد تركت فى نفسه أثراً عميقاً لا يمحى ، ولعل هذه الصدمة قد جعلته يتصرف تصرفاً قد ألحق الضرر بزوجته ، فإنه قد انصرف كلية عنها خلال المدة التى أخذ فيها يتردد على قبر أمه — وهى تزيد على السنتين — إذ كان منصرفاً فيها إلى التأمل فى أحداث الحياة والموت ،

ولا ندرى على التحقيق هل كان يعولها مادياً خلال تلك العزلة أم تركها هى وأولادها نهباً للأقدار . وقد يكون كونفشيوس قد أهمل واجبات أمه بعض الشىء وهو فى غمرة النشوة بالزواج ثم بإنجاب الأبناء . فلما توفيت أمه أخذ ضميره يؤنبه على ما بدر منه فسلك هذا المسلك تكفيراً عن خطئه ولكنه أدى آخر الأمر إلى انفصاله عن زوجه .

كونفشيوس المعلم

عاد كونفشيوس إلى تلاميذه ومريديه بعد أن أتم أشهر الحداد على وفاة أمه ، واستأنف إلقاء دروسه التى كان قد بدأها بعد زواجه بقليل . والواضح أن كونفشيوس كان من طائفة المعلمين الجوالين الذين ينتقلون من بلد إلى آخر وحولهم عدد من التلاميذ يستمعون إلى تعاليمهم التى توحى بها الأحداث والظروف التى تمر بهم أثناء تجوالهم ، كما حدث عندما لقى المرأة التى افترس النمر أفراد أسرتها . وليست لدينا معلومات نستدل منها على السبب الذى من أجله هجر كونفشيوس مركزه الحكومى واشتغل بهذه المهنة . ولعله يكون قد أدرك أثناء نظره فى النزاع الذى شب بين الرعاة المتخاصمين أنه قد أوتى ملكة الوعظ والإقناع وتبسيط المعقد من الآراء والنظريات فآثر أن

يشتغل بمهنة التدريس ليعلم الناس ويثقفهم وليقرب العويص من النظريات والآراء إلى أفهامهم وذلك بجعلها على هيئة وصايا وأمثال وقصص .

ونلاحظ أن الأنبياء والزعماء الدينيين قد اتجهوا جميعاً هذه الناحية من حيث تبسيط المعلومات والآراء وجعلها مستساغة لدى جمهور الناس . وإذا كنا نقيس مدى نجاحهم فى هذا المضمار بعدد الناس الذين تأثروا بأقوالهم المبسطة، فإن كونفشيوس يكون له قصب السبق فى هذا المضمار دون منازع .

كان كونفشيوس فى الحادية والعشرين أو الثانية والعشرين عند ما أخذ يعلم الناس الحكمة وفلسفة الحياة بأسلوبه السهل الممتنع ، وقد يكون ذلك هو السبب الذى من أجله افترق عن زوجته إذ لعلها اشتكت طول غيابه عن المنزل تاركاً جميع الأعباء المنزلية على عاتقها وحدها . ولعل احتجاجها كان منصباً بصفة خاصة على قلة ما يحصل عليه من المال من مهنة التدريس، إذا قيس الحال بما كان يحصل عليه عن طريق عمله فى الحكومة مما جعل الحياة أمامها شاقة عسيرة .

وقد نقول من ناحية أخرى إن كونفشيوس قد شعر بأن الحياة الزوجية عبء ثقيل على رجل وهب حياته للوعظ

والإرشاد والتنقل فى رحاب العالم . ومهما يكن من الأمر فإن تحول كونفشيوس من الوظيفة الحكومية إلى الوعظ والإرشاد ، وانفصاله عن زوجته وحداده على أمه ، كلها أحداث قد وقعت فى فترات متقاربة مما سببت لكونفشيوس أزمة نفسية عنيفة .

وليست هناك أية أدلة تاريخية تثبت أن كونفشيوس كان من نوع الأنبياء أو القديسين الذين تتجلى لهم الرؤى أو تهتف بهم الهواتف السماوية تأمرهم بدعوة الناس إلى الحق وسلوك الطريق المستقيم ، إنما كان حكيما من الحكماء اطلع على كتب الأولين واستخلص زبدتها ، وأراد أن يقدم للناس خلاصة سهلة مفهومة لما تحويه هذه الكتب من وصايا وتعاليم .

اتخذ كونفشيوس فى تعليمه الطريقة التى اتخذها أرسطو فى اليونان بعد ذلك بقرنين من الزمان ، فقد جرت عادته على التنقل من مكان إلى آخر وفى صحبته نفر من التلاميذ والمريدين يستوحون آراءه وتعاليمه فى كل ما يعن لهم من المسائل . ولم يكن هؤلاء التلاميذ يعبأون بطول المسافات التى يقطعونها فى صحبة أستاذهم ، وكان كونفشيوس ينتقل على عربة تجرها الثيران فكان من السهل على تلاميذه مسايرته سيراً على الأقدام . ومن الواضح كما ذكرنا من قبل أن الحوادث التى كانت تصادفهم عرضاً فى طريقهم هى التى كانت توحى بموضوع الحديث .

وليس من شك أن الطريقة الحديثة فى التربية والتعليم التى تذهب إلى أن إخراج التلاميذ من حجرات الدرس المغلقة وجعلهم يحتكون بالأحداث التى تقع فى معترك الحياة هى أحسن وأجدى وسيلة فى التربية والتعليم ترجع إلى طريقة كونفشيوس فى تعليمه .

وكانت برامج الدروس التى يلقيها كونفشيوس على تلاميذه تشمل الموسيقى والشعر والتاريخ والآداب والتربية الوطنية والأخلاق ، هذا إلى قليل من العلوم التى كانت معروفة إلى ذلك العهد .

ومما هو جدير بالملاحظة أن كونفشيوس قد استبعد من برامجه الدراسية الموضوعات المتصلة بتمجيد البطولة الجسمانية والأعاجيب والثورات وخوارق الطبيعة . والظاهر أنه لم يكن يعترض على تلاميذه فى قيامهم بالطقوس والرسوم الدينية التى كانت سائدة فى عهده ، ولكنه مع ذلك كان يتحاشى الدخول فى مناقشات تتصل بالكائنات غير المنظورة . ومن القواعد التربوية الفذة التى اتبعها كونفشيوس أنه كان يهتم كثيراً بأن يكون على اتصال شخصى دائم بتلاميذه ليتعرف أحوالهم الشخصية وما قد يعترضهم من صعاب وأزمات نفسية فيعمل وإياهم على حلها بميزان الحكمة والاعتدال . وكان

كونفشيوس لا يصد أى تلميذ عن حضـــور دروسه وتعاليمه إذا لاحت عليه مخايل الذكاء والنجابة ، وكان كل ما يشترطه فى التلميذ هو أن يتوافر فيه الجد والاجتهاد والأخلاق الفاضلة والرغبة الحق فى التعلم. وكان كونفشيوس يعنى عناية خاصة بالتربية الوطنية ونظام الحكم وما يجب أن تكون عايه الحكومة الصالحة والحكم الصالح . لذلك كان يؤثر بعنايته الخاصة كل تلميذ تظهر عليه مخايل النجابة فى هذا الفن : أى فن الحكم .

وكانت أفعاله جميعاً مثالا يحتذيه تلاميذه ، بل كانت عاملا هاما فى تثقيفهم وإرشادهم . ومما أثر عنه أنه كان شديد العطف على الحيوان حتى إنه كان لا يتخذ إلا الملابس المصنوعة من الكتان على الرغم من انتشار الأقمشة الحريرية فى الصين . وقد سأله أحد تلاميذه فى ذلك فقال إنه لا يستبيح لنفسه أن يقتل دودة القز ليستولى على نسيجها الخاص بها ليصنع منه رداء له ، كذلك كان لا يشرب اللبن لأن اللبن من حق الرضيع من البهائم والسائمة . وكان يفخر بأنه لم يستعمل قط شبكة لصيد السمك ولم يرم طائراً بسهم، إلا إذا كان هذا الطائر محلقاً فى الفضاء لكى يتيح له فرصة الهروب . ولعل ذلك الآن من الآداب التى يتبعها أفاضل رجال الصيد والطراد والرياضة .

وعلى الرغم من أن كونفشيوس كان مدرساً ناجحاً اكتسب شهرة فائقة فى طول البلاد وعرضها إلا أنه لم يقنع بأن تكون هذه المهنة هى غايته من الحياة ، بل كان يبغى من صميم فؤاده أن يتمكن فى يوم من الأيام أن يلى منصباً حكومياً كبيراً حتى يستطيع عن طريقه أن يطبق عمليا ما يلقنه تلاميذه من دروس ونظريات خاصة بنظام الحكم . والواقع أن تطلعه لمثل هذا المنصب الحكومى لم يكن لغرض مادى أو الحصول على الجاه والسلطان إنما كان يسعى إلى تدبير شئون الدولة تدبيراً صحيحاً عادلا ، والعمل على إيجاد مجتمع لا تصنّع فيه ولا رياء .

كونفشيوس والفيلسوف لاؤ ــ تسى

كان يعيش فى إحدى الولايات المجاورة لولاية « لو » التى يعيش فيها كونفشيوس حكيم صينى آخر ذائع الصيت يدعى لاؤ ــ تسى . وكان هذا الحكيم لا يهتم هو الآخر بالآلهة والقوى الخفية غير المنظورة ، إنما كان همه تقويم الأخلاق ورسم طريق صحيح لسلوك الإنسان فى حياته . ويعرف الكتاب الوحيد الذى وصل إلينا من مؤلفات لاؤ ــ تسى باسم « كتاب الطريق إلى الفضيلة » أو « قانون العقل والفضيلة . »

وهو عبارة عن رسالة فى الأخلاق لا تحتوى على أى شيء من الدين كما يفهم الآن من هذه الكلمة . وكانت تعاليم كونفشيوس لا تتفق وبعض مبادئ هذا المفكر الصينى الكبير ، إذ كانت تتعارض وإياها فى بعض النقاط الجوهرية . فرأى كونفشيوس أن يذهب لزيارته عسى أن تؤدى هذه الزيارة إلى اكتساب بعض المعارف التى تكون قد غابت عنه . وكان لاؤ ــ تسى قد بلغ فى ذلك الوقت الرابعة والثمانين من عمره فى حين أن كونفشيوس لم يكن تزيد سنه على أربعة وثلاثين عاماً .

ولسنا نعرف على التحقيق ما إذا كان لاؤ ــ تسى أى لاؤ المعلم وكونفشيوس قد جرى بينهما نقاش فى أثناء تلك المقابلة. والذى نستخلصه من أوثق المصادر أن هذا الفيلسوف العجوز قد أسدى كثيراً من النصائح لهذا الشاب الحكيم ، وأن كونفشيوس قد انصرف من حضرة هذا الفيلسوف وهو معجب أشد الإعجاب بما سمعه منه من حكم ومواعظ .

ولقد كان الحكيم الصينى لاؤ ــ تسى المعاصر لكونفشيوس هو أول من قال إن الإنسان عليه أن يرد الإساءة بالإحسان . وبهذا يكون قد سبق المسيح عليه السلام بأكثر من ستة قرون . فقد جاء فى تعاليمه ما يلى : « إننى طيب مع هؤلاء الذين هم طيبون معى .

وإننى طيب أيضاً مع هؤلاء الذين ليسوا طيبين معى . وهكذا يتأتى أن يكون الجميع معاً طيبين » .

وقال لاؤ – تسى أيضاً :

« ردوا الإساءة بالإحسان » .

غير أن كونفشيوس لم يرض عن هذا المبدأ إذ كان من رأيه أن يكون الجزاء من جنس العمل فقد قال :

« رد الإساءة بالعدل ورد الإحسان بالإحسان » .

وعلى هذا يمكن أن نضع لاؤ – تسى فى صف واحد مع عيسى من حيث وحدة التعاليم التى جاء بها كل منهما ، وأن نضع كونفشيوس فى صف واحد مع موسى الذى جاء يبشر بشريعة العين بالعين والسن بالسن .

والواقع أن مذهب كونفشيوس فى هذه الناحية لم يكن قائماً على الحقد أو حب الانتقام ، بل كان يرتكز على فكرة جوهرية وهى أن الأخلاق الشخصية أى معاملة الناس بعضهم لبعض لا يجب أن تكون أسمى من معاملة الحكومة لرعاياها ، لأنه إذا كانت الحكومة تحسن أو تتغاضى عمن يسىء إلى البلاد أو إلى القائمين بالحكم فإن مآل ذلك إلى الفوضى وسوء الحال ، أما إذا حاسبتهم على أفعالهم حساباً عادلا فإن الأمور تستقيم وتستطيع الحكومة القيام بواجباتها على الوجه الأكمل .

والواقع أن مذهب كونفشيوس كان أكثر صلاحية لأحوال الصين فى ذلك العهد ، إذ كانت البلاد مهددة بالفتن والقلاقل فكان على الحاكم الحصيف أن يستعمل الشدة المشوبة بالعدل فى مواضع الشدة ويستعمل الإحسان والعدل حيث يستحب منه ذلك .

وتذكر بعض الروايات من ناحية أخرى أن لاؤ — تسى قد انتقد كونفشيوس أثناء مقابلته له ، لأن كونفشيوس كان يهتم كما ذكرنا من قبل بالتقاليد القديمة التى أثرت عن حكماء الصين الأقدمين ، وكان يعمل جهده على إحياء هذه التقاليد ، وكان يأمل من ناحية أخرى أن يجد عند لاؤ — تسى ما يعينه على إدراكها إدراكاً صحيحاً ولكن هذا الفيلسوف العجوز قال له :

« إن الرجال الذين تتحدث عنهم قد ماتوا واستحالت عظامهم إلى تراب فاصرف النظر عن مسعاك لإحياء سنن الآباء والأجداد » .

عاد كونفشيوس أدراجه بعد زيارته للاؤ — تسى وأخذ يتدبر كلمات هذا الفيلسوف المسن . وقد قال لتلاميذه وهو فى طريقه إلى بلده : « إنى أعرف كيف يطير الطير وكيف تسبح الأسماك وكيف يجرى الحيوان ، ولكنى لا أستطيع أن أعرف

كيف يعتلى هذا التنين متن الرياح ويطير فى السماء . لقد رأيت لاؤ – تسى وإنى لا أستطيع مقارنته إلا بالتنين » .

قد يكون هذا القول مدحاً فى لاؤ – تسى أو سخرية منه ومن فلسفته المثالية . ومهما يكن من الأمر فإن لاؤ – تسى قد لاح فى عين كونفشيوس أشبه شىء بالحالم المحلق فى سماء تأملاته ، وأن كونفشيوس قد لاح فى عين لاؤ – تسى وكأنه الفضولى الذى يتدخل فى شئون الناس ويدس أنفه فى كل ما لا يعنيه .

والواقع أن كلا من هذين الحكيمين كان له أكبر الأثر فى نفوس أهل الصين وفى توجيه أفكارهم وإن اختلف بعضهما عن بعض فى أغراضهما ووسائلهما وفى طريقة حياتهما ونظرتهما إلى الحياة .

كونفشيوس فى مناصب الحكم

ظل كونفشيوس بعد مقابلته للفيلسوف لاؤ – تسى يشتغل بمهنة التدريس سبعة عشر عاماً أخرى . وعندما بلغ الخمسين من عمره لاحت له الفرصة التى كان يترقبها منذ أمد طويل ، إذ عين فى عام ٥٠٠ قبل الميلاد قاضياً بولاية «لو» مسقط رأسه فأظهر فى عمله هذا مقدرة فائقة وعدلا مطلقاً بحيث لهجت

الألسنة بالثناء عليه ؛ وذلك قد دفع ولاة الأمور إلى إسناد منصب وزير الأشغال إليه ثم منصب وزير العدل .

ومن الواضح أن آراء كونفشيوس كانت عملية بعيدة عن النظريات الميتافيزيقية التى لا يمكن تحقيقها ، ومن ثم صادف عمله فى المناصب الحكومية التى تولاها نجاحاً ملحوظاً ظهر أثره بادئ الأمر فى ولاية «لو» ثم تعدى ذلك إلى الولايات الصينية المجاورة . وقد استتب الأمن والنظام فى البلاد واحترم الناس القانون منذ أن اعتلى كونفشيوس منصب الوزارة . وكان هم الحكومة الأكبر قبل عهده هو جمع الضرائب بمختلف الوسائل ولو جاوزت هذه الوسائل حدود العدل والرحمة ، فكان أن غير كونفشيوس من ذلك وذكر أن الحكومة ليست جابية للأموال إنما هى هادية للحق وللصراط المستقيم ، وأن على كل موظف فى الدولة أن يقوم بواجبه على الوجه الأكمل وأن يكون رائده العدل والاستقامة فبذلك تستقيم الأمور وينال كل ذى حق حقه .

ولم يستمر كونفشيوس فى مناصبه الحكومية أكثر من أربع سنوات ، إذ أخذ الحسد يدب فى قلوب حكام الولايات المتجاورة لما رأوه من تقدم ولاية «لو» واستتباب الأمن والنظام فيها نتيجة لحكم كونفشيوس العادل ، فعملوا على بث الشقاق بين دوق «لو»

وبين كونفشيوس وزير عدله . وكان من أمرهم أن أرسلوا إلى الدوق هدية تتألف من ثمانى فتيات جميلات ممشوقات يتقن الرقص والغناء وجميع فنون المجون والخلاعة . وكان أعداؤه يعرفون فيه الميل إلى النساء والانقياد إليهن ، لذلك ابتهج لهذه الهدية أشد الابتهاج وانصرف عن كونفشيوس ومشروعاته فى الإصلاح والعدل بين الناس . وقد حاول كونفشيوس أن يقابل الدوق ليثنيه عن هذا المسلك الشائن بعد أن رأى انغماسه فى اللهو والمجون مع أولئك الراقصات ، ولكنه لم يتمكن من مقابلته . فقد هدم هؤلاء الفتيات برقصهن وغنائهن ما بناه كونفشيوس فى أربع سنوات من العمل المتواصل . لذلك لم يجد بدأً من اعتزال الخدمة الحكومية والبحث عن مكان آخر يكون الحاكم فيه رجلا فاضلا عادلا يستطيع أن يعاونه فى تنفيذ مشروعاته وتعاليمه ، ولكنه باء بالفشل بعد أن أمضى فى هذا البحث ثلاثة عشر عاماً ذهبت دون جدوى .

وأخيراً استدعى كونفشيوس إلى وطنه لا ليحكم بل ليمضى بقية حياته بين تلاميذه ومريديه . وقد اشتغل كونفشيوس خلال هذه البقية الباقية من عمره — أى من سن الثامنة والستين حتى وفاته فى الثانية والسبعين — فى مراجعة الكتب الصينية القديمة التى تتضمن علوم الأولين .

الكتب الصينية القديمة

هناك تسعة كتب صينية قديمة يرتبط اسم كونفشيوس بها أشد الارتباط ، وتعرف خمسة كتب منها باسم «كنج» أما الأربعة الباقية فتعرف باسم « شو » . والكتب المعروفة باسم كنج هي :

١ ــ « شوكنج » أى كتاب الوثائق التاريخية

٢ ــ « شي كنج » أى كتاب الأشعار القديمة .

٣ ــ « لى كنج » أى قانون التغير .

٤ ــ « لى كى كنج » أى كتاب الشعائر والطقوس القديمة .

٥ ــ « شن شوكنج » أى كتاب الربيع والخريف .

والرأى الغالب أن كونفشيوس لم يكتب من هذه الكتب إلا الكتاب الخامس، وهو عبارة عن حوليات تناول فيها كونفشيوس تاريخ ولاية « لو » .

والظاهر أن عمل كونفشيوس بصدد الكتب الأربعة الأخرى المعروفة باسم « كنج » اقتصر على جمع شملها وإعادة كتابتها ، وإن كان بعض العلماء ينكرون عليه ذلك .

أما الكتب الأربعة الصينية المعروفة باسم « شو » فيرجع تاريخها إلى عهد متأخر عن عهود الكتب الخمسة الأولى ،

وقد قام بكتابتها تلاميذ كونفشيوس ومريدوه .

ويمكن أن نقول إن الكتب الخمسة المعروفة باسم « كنج » هي بمثابة كتب العهد القديم من سجل الكتب الصينية المقدسة ، وأن الكتب الأربعة المعروفة باسم « شو » هى بمثابة كتب العهد الجديد ، وهذه الكتب الأربعة عبارة عن ثبت للمحاورات التى دارت بين كونفشيوس ومعاصريه مع مجموعة من الحكم المختلفة والمذاهب الخاصة بموضوعات خلقية وسياسية . وهذه الكتب هى :

١ — « تاهسيو » أى المعرفة الكبرى .
٢ — « شونج يونج » أى مذهب الوسيلة الوسطى .
٣ — « لون يو » أى المنتخبات .
٤ — « منج تسى » أى منشيوس .

والكتاب الأول عبارة عن منهج لتقويم الأخلاق وبحث فى الفضيلة . والثانى عبارة عن إرشادات فى الاعتدال وعفة النفس والتوسط فى الأمور . أما المنتخبات فهى مجموعة من حكم كونفشيوس وأقواله المأثورة ، وهى أكثر هذه الكتب ذيوعاً وانتشاراً وخاصة بين الأجانب . أما الكتاب الرابع منشيوس فهو عبارة عن مجموع الشروح التى قام بها كبار الشراح لمصنفات كونفشيوس .

ومما هو جدير بالملاحظة أن هذه الكتب التسعة قد ظلت قروناً عدة لها أكبر الأثر فى توجيه حياة أهل الصين ، بل كان طالبو الالتحاق بالوظائف الحكومية يؤدون اختباراً دقيقاً فيماتتضمنه هذه الكتب ، ولكن على الرغم من هذا كله فإن هذه الكتب لم تناقش مناقشة علمية دقيقة لمعرفة مدى صحتها وتنزهها عن الخطأ .

وإذا كان لا ينسب إلى كونفشيوس إلا كتاب واحد من هذه الكتب التسعة ، فإن له الفضل مع ذلك فى أنه قد أحاط بتلك المؤلفات الصينية القديمة الكثيرة العدد واستطاع أن يستخلص منها تلك الحكم والأقوال المأثورة التى وصلت إلينا ، ولا ريب أن تلك مقدرة عظيمة قد لا تتوافر فى شخص آخر غير كونفشيوس .

لقد أحاط كونفشيوس بكل معلومات عصره ثم صاغها صياغة جديدة مبسطة قريبة إلى أفهام الشعب ومداركه ، بعد أن كانت هذه المعلومات والمعارف وقفاً على طائفة العلماء ورجال الدين بسبب التوائها وصعوبة اللغة التى كتبت بها : وليس من شك أيضاً أن كونفشيوس قد أنفق كثيراً من الوقت والجهد فى الإحاطة بهذه المؤلفات القديمة وهضمها ثم تبسيطها لجمهور القراء .

وكان لكونفشيوس إلى جانب حكمه وأقواله المأثورة وتعاليمه — مشاركة أخرى قيمة فى تهذيب النفس وتثقيفها لأنه كان يدرك تماماً أن قوة الدولة هى فى ثقافة مواطنيها وأن لا شىء يهم الحكومة الصالحة أكثر من اهتمامها بتثقيف الشعب وتهذيبه .

وهو لهذا الغرض لم يهتم كثيراً بالدين ولكنه أوصى بتعلم الشعر ومعرفة الطقوس والشعائر المختلفة والموسيقى والنبالة .

كان يعتقد أن الشعر يدفع الفرد إلى تحقيق ما قد لا يبنى آمالا عريضة قد لا تتحقق فى عالم الواقع . أما مراعاة الطقوس والشعائر حتى ما كان منها متصلا بالدين فتربى فى النفس ملكة الانتباه الشديد إلى تفاصيل الأمور ودقائقها .

أما أهمية الموسيقى فى تهذيب النفس فإنها تؤدى بالعقل إلى الأفكار السامية وكان من عادة كونفشيوس أن يعزف على الناى مدة من الزمن قبل أن يكتب أو يبدأ فى إلقاء دروسه لأن الموسيقى فى نظره تساعده على تركيز عقله فى العمل الذى يقوم به .

وقد تكون النبالة وجعلها بين العلوم الواجب أن يتثقف بها المرء ووضعها فى مرتبة واحدة مع الشعر والموسيقى هى الأمر الذى يلفت النظر ويبعث على التساؤل .

وكان كونفشيوس يدرك تماماً أن قوة الدولة هي في ثقافة مواطنيها وأن لاشيء يهم الحكومة الصالحة أكثر من اهتمامها بتثقيف الشعب وتهذيبه .

الكونفشيوسية بعد وفاة كونفشيوس

ظهر بعد وفاة كونفشيوس بنحو مائة عام حكيم صيني آخر شهير يدعى منشيوس وهو يعد أكبر وأعظم أتباع كونفشيوس قاطبة . وقد عاش هذا الحكيم من عام ٣٧٢ إلى عام ٢٨٩ قبل الميلاد ؛حمل فيها رسالة كونفشيوس وعمل على نشرها بين الناس أجمعين . وكان من المبادئ التي أكدها هذا الحكيم أن الإنسان طيب بطبيعته وأن البيئة التي يعيش فيها هي التي قد تجنح به إلى الشر؛ فيجب والحالة هذه العناية بالبيئة وإصلاحها . ولعل منشيوس قد تكهن في ذلك العهد البعيد بهذا المذهب الاجتماعي المعروف وذلك عندما قال إنه من المحال أن يرجى الخير والفلاح من شعب جائع مسكين ، لأن الشعب الجائع لا يمكنه أن ينصرف إلى التعلم والتثقيف وبطنه خاو. بل علينا أولا أن نشبع جوعه وهو بعد ذلك ينصرف من تلقاء نفسه إلى طلب العلم والمعرفة .

وهذا هو الرأي السائد الآن بين علماء الاجتماع وهو

الرأى الذى تعمل الحكومات على تطبيقه .

وقد ظهر من بعده حكيم صينى آخر يدعى شوشيوس من أهل القرن الثانى عشر للميلاد ، أخذ بدوره يفسر ويشرح هذه الكتب الصينية القديمة التى عكف على دراستها كونفشيوس. وقد انصبت جهوده بصفة خاصة على محاولة إيجاد حل لمشكلة الشر . وكان لكتابات هذا الحكيم وتوجيهاته أثر كبير فى المذهب الكونفشيوسي حتى ذهب البعض إلى أن الأجدر أن يسمى باسم المذهب الشوشيوسى نسبة إليه .

وتعاقبت على مذهب كونفشيوس أحداث خطيرة كانت أحياناً تنخفض من أنفاسه حتى يكاد يختنق وأحياناً ترفعه إلى المكانةالأولى .فقد ظهر فى الصين ما بين عامى ٢٤٥ و ٢٠٩ قبل الميلاد طاغية جبار ألقى الرعب فى قلوب الناس أجمعين ، وعمد هذا الطاغية ويدعى « شي هوانج تى » إلى القضاء على جميع الأمراء ورجال الإقطاع ، ثم قام بعد ذلك بتوحيد الصين فى دولة واحدة تحت زعامته . وقد استعمل العنف والقسوة للوصول إلى هذا الغرض الذى كان يهدف إليه كونفشيوس فى واقع الأمر .

وقد رأى « شي هوانج تى » أن المنازعات والمناقشات بين

المدارس المختلفة التى كانت قائمة فى الصين فى ذلك الوقت هى السبب فى ذلك الانقسام والتفكك والقلق السائد فى جميع أرجاء البلاد، لذلك أصدر فى عام ٢١٣ ق . م أمراً بإحراق جميع الكتب الصينية مع استثناء ما كان منها فى حوزة أسرة تسين . وقد رفض أربعمائة وستون أستاذاً من أساتذة هذه المدارس تسليم ما لديهم من الكتب فكان نصيبهم الموت حرقاً . ثم كان التحريق بعد ذلك جزاء من يقبض عليه وفى حوزته بعض هذه الكتب المحرم تداولها، كما كان يحكم عليه بالأشغال الشاقة فى بناء سور الصين العظيم .

وقد اعترت شى هوانج تى هذا رغبة جامحة فى إقامة المبانى والعمائر فكان أن شيد الكثير من المنشآت الصينية المشهورة ومن بينها حصن أوفانج — كنج . وكانت ساحة هذا الحصن الرئيسية تتسع لعشرة آلاف نفس . ويقال إن هذا الطاغية كان يخشى على حياته من اعتداء المعتدين لذلك عمد إلى مغنطة باب هذا الحصن بحيث إذا عبره شخص مسلح انجذب إلى الباب بشدة وافتضح أمره ، غير أن هذا الحذر لم يحل دون قتله . وبعد أن زال هذا الطاغية من الوجود اعتلى عرش الصين أباطرة من أسرة هان . وفى عهدهم انتعشت الصين

وازدهرت. إذ أخذ هؤلاء الأباطرة يناصرون كل ما من شأنه توطيد الأمن والسلام فى البلاد وإحياء تقاليدها وشعائرها القديمة . وكان فى طليعة الهيئات التى نالت تأييد هؤلاء الأباطرة وتشجيعهم المدرسة التى أنشأها كونفشيوس فى مقاطعة لو .

ازدهر مذهب كونفشيوس فى عهد هذه الأسرة الحاكمة، ففى عام ١٩٤ قبل الميلاد زار أول إمبراطور من هذه الأسرة قبر كونفشيوس فى « شوفو » وفى عام ٧٢ للميلاد كرمت هذه الأسرة اثنين وسبعين من كبار أتباع كونفشيوس ومريديه . وفى عام ٢٦٧ صدر مرسوم بوجوب تقديم القرابين العظيمة لكونفشيوس أربع مرات فى كل عام . وقام أهل بلدة كونفشيوس ببناء معبد تمجيداً لذكراه . وفى عام ٥٥٥ صدر مرسوم يقضى بإقامة معبد لكونفشيوس فى المدن الكبرى من كل ولاية من الولايات .

وفى عام ٦٦٥ خلع على كونفشيوس لقب « أنبل الأساتذة » ثم لقب « ملك » فى عام ٧٣٩، ثم خلع عليه عام ١٠١٣ لقب « أقدس القديسين » .

وكان أباطرة بيت مانشو ينحنون أمام تمثاله إجلالا واحتراماً . وقد أطلقوا عليه عام ١٦٥٧ اسم « أحكم الأساتذة الأقدمين » . وأصبح مذهبه ذخراً يعتز به الشعب الصينى

بأكمله ، كما أصبح كونفشيوس فى نظرهم راعياً لطبقة رجال الأدب ورجال الدولة .

شخصية كونفشيوس وسجاياه

لقد كان لهذا الرجل المحافظ اليائس من الأثر فى حياة أهل الصين ما لم يكن يتوقعه فى حياته . إن الظروف لم تمكن هذا الحكيم من تشييد البناءالذى وضع بيديه أركانه الرئيسية . ولو قدر له أن يستعرض الأحداث التى مرت به فى حياته لقال يقيناً « لو كانت الأشياء جميعاً تحتاج إلى زمن حتى تطيب وتنضج فما أطول الزمن اللازم لتكوين أمة عظيمة » .

لقد قُد هذا الرجل من صلب سنديانة صينية صلبة ، وكان همه الوحيد تنظيم الشئون الإنسانية وشئون الأسرة والدولة ، ويؤثر عنه أنه لام أحد تلاميذه يوماً لأنه رآه يشغل باله بالتفكير فى الموت قائلا له :

« إذا كنت لا تعرف الحياة فماذا تعرف عن الموت ؟ » .

لقد كان يبدو هذا الرجل فى صورة تبعث على الاحترام والتبجيل . فهو ذو شخصية لطيفة اختار لنفسه مهنة المهذب والناصح للملوك والأمراء . .

وكان كونفشيوس فى بلاط الملوك مثالا كاملا لما يجب

أن يكون عليه رجل البلاط من حيث مراعاة قواعد «البروتوكول» إلى أقصى حدود المراعاة . والعناية بهندامه وزينته عناية تتفق ومن يكون فى حضرة الملوك الصيد والأمراء . لقد كان كونفشيوس يدرك تماماً أن السماء قد وهبت عدداً من الناس المقدرة على تدبير أمور الحكم . فواجب والحال هذه على هؤلاء النفر من الناس أن يضعوا كفاياتهم فى هذه الناحية تحت تصرف حكامهم .

وكان كونفشيوس فى علاقته مع الناس فى حياته اليومية متواضعاً متحفظاً وكان مع ذلك يثق فى نفسه تمام الثقة ويعتقد فى رسالته تمام الاعتقاد حتى فى أيام محنته وبؤسه . ويؤثر عنه أنه قال فى إحدى المناسبات التى تعرضت فيها حياته للخطر : « إن السماء قد حبتنى بحكمة « ون وانج » القديمة ومن ثم لا يستطيع بشر أن يمسنى بسوء » . وقال فى مناسبة أخرى :

« إذا انتشر رأى من الآراء فذلك لأن السماء أرادت ذلك»

ويقصد كونفشيوس من كلمة السماء ما نقصده نحن اليوم من كلمة العناية الإلهية ، ولذلك كان كونفشيوس يتوقع لمذهبه الذيوع والانتشار لأنه كان يرى فى نفسه أنه مبعوث العناية الإلهية .

وكثيراً ما يقال إن كونفشيوس لم يأت بشيء جديد. ولكن الواقع أنه صنع الكثير في سبيل تعليم أهل الصين وتهذيبهم . فهو قد تناول الكتب الصينية القديمة المقدسة بالتنقيح والتهذيب وبث فيها روحاً جديداً حتى غدت شيئاً له طلاوة الشيء الجديد فأقبل الناس على قراءتها والانتفاع بما جاء فيها . وكان كونفشيوس في الوقت ذاته رجلا عملياً لا يهتم إلا بالواقع وكان دائم السعي إلى إحياء كل مأثور من العادات والتقاليد الصينية القديمة . وكان كونفشيوس يحترم الملوك والأمراء ولكنه كان في الوقت ذاته لا يحجم عن انتقاد فعالهم وتصرفاتهم .

وكانت أفعال الناس وطرق معيشتهم محل عنايته واهتمامه . وهو لم يكن يهتم في قليل أو كثير بالأشخاص الذين تجرى أعمالهم على غير النسق المألوف ، كما كان لا يهتم بالظواهر الخارقة للعادة . ونذكر بهذه المناسبة أيضاً أنه كان ينظر بازدراء إلى الشئون العسكرية ويرى أنها في المرتبة الثانية .

لقد أحس كونفشيوس بالفوضى والفساد يدبان في أوصال الأمة الصينية ، فأراد أن يفعل شيئاً يعيد به السلام والاستقرار إلى البلاد ، لذلك كرس جهوده هو وتلاميذه للوصول إلى هذه الغاية المنشودة . كان كونفشيوس يعيش العيشة العملية التي ينادي بها. لذلك كانت كل كلمة يتفوه بها يحيلها إلى عمل من

الأعمال. وكان فى الوقت نفسه يحب أن يكون عمل المرء منسجماً مع الوسط الذى يعيش فيه .

هذا الحكيم الإنسانى المتزن المتفانى فى أداء واجبه كان مرحاً فى حياته المنزلية . لقد كان يحب الموسيقى ويطرب للشعر الصينى القديم . وكان يعيش مع تلاميذه ومريديه فى جو عائلى كبير ، فإذا ما اخترمت المنية واحداً منهم بكاه بكاءً مرا وكأنه فقد أعز أبنائه إليه. ولعل أجمل ما نختم به هذا الفصل أن نذكر (فى الصفحات التالية) بعض أقوال كونفشيوس وحكمه مستقاة من أهم كتبه :

الرجل المتفوق

أليس من المبهج أن يداوم الإنسان على طلب العلم ويثابر على ذلك ؟ أليس من المفرح أن يكون للإنسان أصدقاء يفدون عليه من جهات نائية ؟ إذا لم يكن المعلم رزيناً متزناً لا يحترمه أحد فلا تكون دروسه راسخة وطيدة .

اجعل الأمانة والإخلاص مبادئك الأولى .

لا تتخذ أصدقاء غير أكفاء لك .

إذا كانت لك أخطاء فلا تخش التخلى عنها .

إن الرجل المتفوق هو الذى يعمل قبل أن يتكلم ثم يتكلم بعد ذلك وفقاً لأفعاله .

الرجل المتفوق حر التفكير وليس متعصباً ، أما الرجل الوضيع فمتعصب غير حر الفكر .

إن التعلم دون إعمال فكر مجهود ضائع ، والتفكير دون تعلم أمر خطير .

قد يكون هناك أناس يعملون دون معرفة السبب الذى

من أجله يعملون ، إنى لا أحب أن أفعل ذلك . استمع كثيراً وانتق ما هو حسن ثم اتبعه،وانظر كثيراً واختزن ما تراه فى مخيلتك ، ذلك هو الأسلوب الثانى فى طلب العلم والمعرفة.

هل الفضيلة شيء بعيد المنال ؟ إنى أرغب أن أكون فاضلا ، وهاهى ذى الفضيلة فى متناول اليد .

الرجل الكامل الفضيلة من طبعه الحذر والتمهل فى حديثه: لأنه إذا شعر بصعوبة العمل فهل أمامه من شيء آخر غير التمهل فى القول ؟

إن الرجل المتفوق لا يعرف القلق أو الخوف لأنه منزه عن الخطأ ، ومن ثم فليس من شيء يقلق له ولا من شيء يخاف منه ويخشاه .

من السهل القيام بخدمة الرجل المتفوق ولكن من الصعب إرضاؤه ، لأنك إذا حاولت إرضاءه بأية وسيلة لا تتمشى والحق فهو لا يرضى ، ولكنه عندما يستخدم الناس إنما يستخدمهم وفقاً لكفاياتهم الخاصة .

ومن الصعب خدمة الرجل الوضيع ولكن من السهولة إرضاؤه ،. لأنك إذا حاولت إرضاءه وإن كان ذلك بوسيلة لا تتمشى مع الحق فإنه يرضى . ولكنه عندما يستخدم

الناس فهو يرغب منهم أن يكونوا على حد سواء بالنسبة لكل شيء.

الحكيم يجد بهجته فى المياه ، والفاضل يجدها فى التلال والمرتفعات ، والحكيم نشيط بطبعه والفاضل هادىء رزين .

الدولة والحكومة

إن الرجل الذى يمارس الحكم مستعيناً بفضله وعدله يمكن مقارنته بالنجم القطبي يحتفظ بمكانه بينما تدور حوله بقية النجوم الأخرى .

إن خطة السماء فى تدبير شئون الإنسانية تجرى على الوجه التالى :

إن الذين أوتوا العلم قبل غيرهم عليهم تعليم هؤلاء الذين يتأخرون عنهم فى تحصيل العلم . وإن هؤلاء الذين يدركون قبل غيرهم المبادىء والأسس عليهم تعليم هؤلاء الأبطأ منهم فهما لهذه المبادىء والأسس . وإنى واحد من أبناء السماء الذين فهموا هذه المبادىء قبل غيرهم ، فعلىّ إذاً تلقينها الناس ، فإذا لم أفعل هذا فمن ذا الذى يقوم بذلك ؟

سأل تسى ـ تشانج الحكيم كونفشيوس قائلا : « بأية طريقة يستطيع الرجل الذى يلى الحكم أن يتصرف كى يسوس الحكومة كما يجب ؟ » فأجابه كونفشيوس : « عليه

تمجيد عظائم الأمور الخمسة وأن يبتعد عن قبائح الأمور الأربعة وبذلك يسوس الحكومة كما يجب ». فسأله تسى — تشانج : وما هى عظائم الأمور الخمسة » ؟ فأجابه « عندما يكون الحاكم جواداً من غير إسراف ، وعند ما يكل الأعمال إلى الشعب دون أن يتذمر ؛ وعندما يجد فى طلب ما يرغب فيه دون أن يكون جشعاً ، وعندما يؤيد قضية جليلة دون أن يعتريه الكبرياء ، وعندما يكون مهيباً دون أن يكون عنيفاً شرساً ».

ثم قال له سى — تشانج : « وما هو المقصود من قبائح الأمور الأربعة » ؟ فأجابه كونفشيوس : — « أن تقتل الناس دون أن تكون قد علمتهم فهذا يسمى قسوة ، وأن تطلب منهم أقصى نتاج عمل من الأعمال دون أن تنذرهم بذلك فهذا يسمى عسفاً وجوراً ، وأن تصدر أوامر ليست لها صفة العجلة فإذا ما أزف الوقت تصر عليها بقسوة فهذا يسمى إساءة ومضرة ، وأخيراً إذا كافأتهم أو دفعت أجور عملهم بالشح والتقتير فهذا عمل الموظف العادى دون الحاكم » .

قال كونفشوس : — « من المحال على المرء أن يكون متفوقا دون التسليم بشرائع السماء » .

« ومن المحال أن تتوطد الأخلاق دون مراعاة قواعد الحشمة والأدب » .

١٥٥

« يسعى الرجل المتفوق إلى تكميل الصفات الحميدة فى الناس ولا يسعى إلى تكميل صفاتهم القبيحة ، أما الرجل الوضيع فيصنع العكس » .

« إذا حكمت فمعنى ذلك أنك تصلح وتقوم ، فإذا سست الناس بالعدل والاستقامة فمن ذا الذى يجسر على ألاّ يكون مستقيما ؟

اقرأ

ظهرت حديثاً :

الطبعة الثانية من كتاب

شفاء النفس

للدكتور يوسف مراد

الكتاب رقم ١٠ من سلسلة اقرأ

الثمن ٥ قروش

أسرع بطلب نسختك قبل نفاد الطبعـــة

دار المعارف بمصر

المركز الرئيسى ٥ شارع مسبيرو بالقاهرة ت٤٩٨٦٨

فرع الفجالة ٩ شارع كامل باشا صدقى ت٤٩٨٦٦

فرع الإسكندرية ٢ ميدان محمد على بالإسكندرية ت٢٣٥٨٨

س. ت. ٥٢١٢١

اقرأ

الدكتور محمود سلامة

قِصّة العَقاقِير

دار المعارف بمصر

قِصّة العَقاقِير

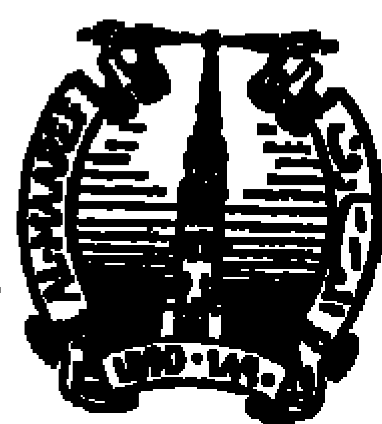
الدكتور محمود سلامة

قِصّة العَقاقِير

اقرأ ١٢٤

دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ١٢٤ — مايو ١٩٥٣



قصة العقاقير

عرف الناس المرض والألم منذ عرفوا الحياة . ومضت سنون وأعوام ، وهم لا يعرفون لأمراضهم دواء غير السحر والرقى والتعاويذ ! ...

فلما تكشفت لهم الطبيعة عن الخواص الشافية لبعض النباتات والأعشاب ، أقبلوا عليها ، وصار العطار ملاذاً لكل من برّح به المرض وعذّبه الداء : يجد فى أعشابه ونباتاته ناجع الدواء ، ويتذوق من أمزجته ومساحيقه وخلاصاته أكاسير الصحة والشفاء ...

وانقلبت الغابات والسهول والوديان ، صيدليات طبيعية ، يستمد الناس من أعشابها ، وشجيراتها ، وقشورها ، وجذورها ، وأوراقها ، وأزهارها ، وثمارها ، وعصيرها ، وبذورها ، أدوية لمختلف الأمراض والأدواء ...

وتضافرت قوة الملاحظة مع الذكاء الفطرى والتجربة المستمرة ، على إكساب العطارين الأوائل مقدرة التمييز بين الضار والنافع من النباتات ، مع الإحاطة بخواصها المسكنة ، أو المسهلة ، أو القابضة ، أو الطاردة للديدان ! ..

وكان للمصريين القدماء نصيب كبير من هذه المعرفة : منذ

القرن الثلاثين قبل الميلاد ، وكذلك الأغارقة الذين ضربوا بسهم وافر فى هذا الميدان ، فكان منهم علماء أمثال «فيثاغورس» و « أبوقراط » خلدت ذكرهم العصور والأزمان ..

ولما رحل « ديسكوريدس » إلى مصر وغيرها من بلاد حوض البحر الأبيض المتوسط ، إبان الدولة الرومانية ، اكتسب معرفة واسعة بكثير من النباتات والأعشاب ، واستطاع أن يضع مؤلفاً كبيراً ، وصف أكثر من خمسة آلاف نبات طبى ، إلى جانب كثير من العقاقير الحيوانية والمعدنية ...

وأتى العرب ، فعرفوا مجموعة كبيرة أخرى من هذه النباتات ، وأقاموا فى بغداد أول صيدلية منظمة تمد الناس بالأدوية والعقاقير ..

وكان «ابن البيطار» أول عالم عربى ألمّ بخواص النباتات ، ووضع فيها كتابه « الجامع الكبير » ، الذى حوى وصفاً دقيقاً لألفين منها ..

وأعقبت المدرسة العربية ، مدرسة « ساليرنو » الإيطالية ، ولكنها لم تضف كثيراً إلى ما كان معروفاً حينذاك من خواص النباتات ...

حتى إذا ما اكتشفت أمريكا ، عرف الناس كثيراً من النباتات التى لم يكونوا يعرفونها كالكينا ، وعرق الذهب ، والكوكا ، وغيرها ...

ولم تلبث خطوات العلم أن تقدمت رويداً رويداً ، وأخذ علم الكيمياء يستوى وينضج . وبدأ علماؤه يبحثون فى أسرار المادة وطبائع الأشياء ، وتفتحت أبواب المعامل والمختبرات لكل مجهول من المواد والنباتات ، تتلقاه فى أنابيب الاختبار ، والبواتق والمعوجات ، بالبحث والتجريب ... فتكشفت النباتات والمواد التى كان يتداوى بها الأقدمون عن جواهرها الفعالة المختبئة فى بعض أجزائها .. وتتابعت غزوات الكيمياويين . وتوالت انتصاراتهم واكتشافاتهم ، فاستخرجوا «المورفين» من «الأفيون» ، و« الكوكايين » من أوراق «الكوكا» و«الإميتين » من « عرق الذهب» ،و «الديجيتالين » من «إصبع العذراء » ، و «الكينين» من « الكينا » .. وغير ذلك من العقاقير التى تضافرت جهودهم على تنقيتها ، وتحسين طرق استخلاصها ، واستغلالها فى القضاء على مسببات المرض ، وتسكين الآلام ، وتوفير الصحة والعافية لبنى الإنسان ..

وتطور العلم تطوراً مكن الكيمياويين من النجاح فى صنع كثير من تلك العقاقير فى المعامل والمختبرات ، والاستغناء عن استخلاصها من النباتات ، فتيسر بذلك تحضيرها بكميات كبيرة ونفقات قليلة ..

ومضى العلماء والأطباء يصلون بحوثهم وتجاربهم ، فكانت تلك العقاقير والمستحضرات الطبية المتعددة ، التى

تستغل اليوم فى الوقاية والعلاج ، وتساهم بنصيب وافر فى تخفيف آلام البشر ومقاومة الأمراض ..

وما زالت معامل البحث تضيف كل يوم جديداً إلى قصة العباقير ، تلك القصة الرائعة التى نسجل فى هذا الكتاب بعض فصولها ، ونروى طرفاً من سيرة أبطالها : أولئك العباقرة من علماء الطب والصيدلة والكيمياء ، الذين وهبوا الإنسانية المعذبة أرواحهم وعقولهم ، وخاضوا معركة الألم والمرض مستبسلين .. فكان لهم الفوز والنصر المبين ، وللإنسانية الأمن والسلام ، والخلاص من ربقة الآلام ....

المورفين

عاد الكابتن « دوفر » إلى لندن ، فى عام ١٧١٠ ، وقد امتلأت سفينته بالكنوز النادرة ، بعد رحلة طويلة مليئة بالمغامرات ... ولم يكد الكابتن يستقر فى لندن ؛ حتى ذاع بين الناس وشاع أنه يزاول مهنة الطب ، بعد أن اكتسب خلال رحلته خبرة عظيمة فى التطبيب والعلاج !...

وقامت قيامة الأطباء ، وهبوا ينافحون عن مهنتهم التى اجترأ عليها ذلك البحار الدعيّ .. ولكنه كان سليط اللسان ،

قوى البيان ، سيطر على عقول الجماهير فأقبلوا عليه وعلى وصفاته ، يتداوون بها من شتى العلل والأمراض ...

ولم يلبث أن قدم لجماهيره دواء مكوناً من « الأفيون » و« عرق الذهب » ، سماه « مسحوق دوڤر » — وهو المسحوق الذى ما زال معروفاً باسمه حتى الآن — وأعلن بين الناس أن مقدار قمحة منه تكفى لشفاء جميع أنواع الأوجاع والآلام ..

وأقبل الناس على « مسحوق دوڤر » وجربوه . فارتاحوا إليه ، وازداد إقبالهم عليه .. ولكنه لم يقنع وأراد مزيداً من الربح والمال ، فأخذ يوصى الناس بتناول مقادير أكبر... ومضى يزيد الجرعة العلاجية من قمحة إلى قمحتين ثم إلى عشر.. حتى وصل بها إلى مائة ! .. أى إلى مقدار يقشعر من مجرد ذكره بدن أى عالم بخواص « الأفيون » ! ...

ولم يكن « الأفيون » جديداً على الناس فى تلك الأيام ، فلقد كان معروفاً قبل أن يستغله « دوڤر » بستين قرناً من الزمان ، أى منذ عرف المصريون القدماء ثمار « الخشخاش » وعصيرها اللبنى الذى يتجمد إلى كتل «الأفيون» السمراء المخدرة .. وكذلك العرب ، والبنادقة ، والبرتغاليون ، والهولنديون . كما استغل الإنجليز فيما بعد تأثيره المخدر الذى يغرى بالإدمان ، ففرضوه بقوة السلاح على أهل الصين تنفيذاً لخطة أملتها مطامع الاستعمار ! ..

وبقى « الأفيون » مع هذا يؤدى للإنسانية خدمات جليلة ،

إذ عرف قدامى الأطباء كيف يروّضونه ، ويتحكمون فى جرعته ، ليكون منوماً ومسكناً مأمون العاقبة ، يخف إلى نجدة البشر كلما تكالبت عليهم الأوجاع والآلام ...

ولكن « الكابتن دوفر » لم يلبث أن قضى بمسحوقه على سمعة « الأفيون » ، إذ أضرت جرعاته الكبيرة بالكثيرين ، فهب الأطباء يحذرون الناس منه ، وما هى إلا سنوات حتى أعرض معظمهم عنه ، تاركين مرضاهم يئنون ويتوجعون ، خشية أن يودى بحياتهم « الأفيون » ! ...

ومضت أعوام ..

وفى عام ١٧٩٩ .. وفى المدينة الألمانية الصغيرة « پادربورن » ، جاءت أم الغلام « فريدريك ڤلهلم سيرتورنر » إلى الصيدلى « كرامر » ترجوه أن يلحقه بصيدليته ، لعل أجره يعينها على مواجهة مطالب الحياة ..

والتحق الغلام بالصيدلية وهو لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره ، ومضت الأيام وهو يتعلم كل يوم جديداً من أمور الصيدلة ، ويرقب « كرامر » بعين ذكية واعية ، حتى كان يوم شكا فيه طبيب المدينة إلى « كرامر » ضعف تأثير «الأفيون» الذى اشتراه منه ، فاعتذر له الصيدلى ، ووعد بتغيير التاجر الذى يورد له «الأفيون» .. وكادت المسألة تنتهى إلى هذا الحد ، لولا أن «سيرتورنر» الصغير اقتنصها فرصة يشبع بها فضوله وحبه للبحث ...

وأفضى إلى « كرامر » بدخيلة نفسه : لقد كان يعتقد أن اختلاف أنواع الأفيون التى تشتريها الصيدلية إنما يرجع إلى تباين ما فيها من المادة الفعالة ! ..

وكان هذا تعبيراً جديداً لم يسمع به « كرامر » من قبل ، واستهوته فكرة البحث عن تلك المادة الفعالة التى أشار إليها « سيرتورنر » ! فأذن له بكمية من الأفيون ، وسمح له بالبحث عن سرها المخبوء ...

ومضت الليالى ، والشاب الصغير ينتهى من تجربة ليبدأ أخرى ، حتى عن له أن يذيب « الأفيون » فى حامض ...

ثم خطر له بعد ذلك أن يعادل المحلول الحامضى بمادة قلوية ، فأخذ زجاجة « الأمونيا » أو « النوشادر » وأفرغها فى محلول « الأفيون » ..

وتفاعل المخلوط وازدادت حرارته ، ثم أخذت تهدأ رويداً رويداً حتى استرد برودته ، وإذا بالمحلول الرائق يغدو عكراً ، وإذا بللورات صغيرة تهبط منه إلى القاع ..

أفتكون تلك البللورات السمراء ، هى المادة الفعالة التى يعزى إليها تأثير الأفيون ؟ ! ...

وكتب « سيرتورنر » إلى الأستاذ « ترومزدورف » بجامعة «إرفورت» يصف له تلك البللورات ، ويلتمس منه النصح والمعونة..

ولكن الأستاذ الكبير لم يعر خطاب الشاب ابن العشرين

اهتماماً ، وبعد تردد نشر التقرير فى صحيفته دون أى تعليق .. فلم يكن يدرى ولا « سيرتورنر » نفسه يتصور أن مع البللورات السمراء التى حصل عليها قد اختلطت بللورات أخرى بيضاء ، سيكون لها شأن كبير فى الطب والعلاج ! ..

ومضت شهور طويلة فى البحث والتجريب ، حتى اكتشف « سيرتورنر » تلك البللورات البيضاء ، ونجح فى استخلاصها ، وفصلها عن البللورات الأولى ، ليجدها بيضاء ، قاوية التفاعل ، صعبة الذوبان فى الماء ..

وأخذ يسائل نفسه : كيف يحتوى « الأفيون » على مادة قلوية ، والمراجع والكتب العلمية تؤكد أن المواد النباتية لا تحتوى أبداً على قلويات ؟ ! ..

وأعاد التجربة عدة مرات ، حتى تأكد من طبيعة بللوراته الجديدة ، وأيقن أنه حصل على مادة نباتية قلوية تدحض مزاعم قدامى العلماء ..

ومضى يختبر خواصها ويقوم بتجارب بدائية على الحيوانات ، فأذاب البللورات اللامعة المرة فى الكحول ، ثم أضاف إلى المحلول قليلا من الشراب السكرى ليخفى مرارته ، وأخذ يتحايل على إعطائه للكلاب ..

وبدأ بخمس قمحات ، فإذا الكلب الأول ينام يومين ثم يموت .. وسقى الكلب الثانى محلول قمحتين ونصف قمحة ،

فمات أيضاً .. وتوالت تجاربه بكميات أقل ، حتى توصل إلى الجرعة المناسبة التى ترقد ولا تقتل الكلاب ! ..

وأثبت بذلك أن تلك البللورات البيضاء ليست إلا مادة « الأفيون » الفعالة التى تنبأ بوجودها .. وعاد ثانية يكتب إلى الأستاذ « ترومزدورف » ويقول : « لقد أسعدنى الحظ باكتشاف مادة أخرى فى « الأفيون » ، لم يعرفها أحد قبلى : إنها ليست تراباً أو جلوتيناً أو راتنجاً . وهى ليست كذلك المركب الذى حصلت عليه فى العام الماضى .. إنها مادة جديدة هى العنصر المنوم فى « الأفيون » . . . »

واستخف الأستاذ بالتقرير الجديد أيضاً ، ونشره فى صحيفته ناصحاً العلماء بأن يتقبلوه بحذر ، ويعملوا على التأكد من حقيقته ..

وازداد ألم « سيرتورنر » ، وضاقت نفسه باستهانة الأستاذ بأمره ، فعزم على نسيان « الأفيون » وبللوراته وصمم على أن يهجر تلك البلدة التى قام فيها ببحوث لم تنل أى تقدير ..

وفى عام ١٨٠٦ انتقل إلى مدينة « أينبك » ، ليلتحق بوظيفة مساعد صيدلى .. وحاول أن ينسى « الأفيون » ، ومضى يعاون الصيدلى فى تركيب الأدوية والعقاقير ، وقلبه تعتصره حسرة الألم على ما لقيه من إهمال وإغفال ...

* * *

والواقع أن « سيرتورنر » كان يعيش فى حقبة لم يكن للعلم فيها نصيب مرموق فى حياة الألمان ، فلم تكن لديهم معامل معدّة للبحث المنتظم ، أو معاهد غنية بالأساتذة الكبار.. ومن كان منهم مشتغلا بالعلم لم يكن يلقى من الأهلين إلا الزراية والاستخفاف .. فكان على « سيرتورنر » وأمثاله من المهتمين بالعلم والبحث أن ينزووا فى معاملهم مغمورين ، تنهش قلوبهم الغيرة من زملائهم العلماء الفرنسيين والبريطانيين والسويديين ، وما كانوا يلاقونه فى بلادهم من تشجيع وإعزاز وإكبار . .

وذات ليلة ، استيقظ « سيرتورنر » على ألم هائل فى أسنانه .. وحين أسفر الصباح ، كان الألم قد تفاقم ، ولم يعد محتملا .. فطافت بعقله المتعب فكرة ..

ومضى فوراً إلى خزانته واستخرج منها بعض مادة « الأفيون » الفعالة التى أحضرها معه من « پادربورن » .. ووزن قدراً منها ، وخلطه بالشراب السكرى وابتلعه .. وحين عاد إلى فراشه ، أحس بثقل فى رأسه ، ولم يعد يشعر بشىء ... ولما فتح عينيه وعاوده الإدراك ، كانت قد مضت ثمانى ساعات ، وكان الألم قد فارقه ..

إذن فالبللورات البيضاء التى استخرجها من « الأفيون » لا تضر الإنسان ولا تؤذيه ! ...

وعاوده الحنين إلى البحث ، وعزم على تجربة تأثير

تلك البللورات ومداه ، ليكتشف كنهها ويقدِّر الجرعة المناسبة المأمونة العاقبة ..

وذات يوم ، صمم على إجراء تجربة فاصلة .. ودعا ثلاثة من الفتيان وشاركهم تناول جرعة من محلول البللورات.. ومضى يرقبهم وهم يتساقطون واحداً واحداً دون أن يحسوا لاصطدامهم بالأرض ألماً ! .. ثم يغضون فى نوم عميق ..وجاء دوره فنام أيضاً .. وبعد ساعات . أفاق ليجد الفتيان كما تركهم نائمين .. ولكن مالهم ؟ .. إن تنفسهم عجيب . وجلودهم قد تغير لونها .. أيكونون قد تسمموا ؟ فيلحقون بكلابه الأولى ! ..

إنها إذن جريمة !.. جريمة قتل يا « سيرتورنر » .. وهبّ مذعوراً إلى خزانته يأتى ببعض المقيئات ، وجعل يتحايل على فتح أفواه الفتيان ويصب فيها مواده المقيئة .. وتململوا ، ثم تقايئوا ، وأخذوا يفيقون ....

وحين بدأ يكتب تقريره العظيم عن تلك التجربة الفريدة ، كانت مدينة « أينبك » بأسرها تلوك اسمه ، وتتحدث عن سحره الشرير الذى كاد يودى بنخبة من الشبان ! ..

ووصف « سيرتورنر » فى تقريره الخواص الكيماوية والطبية لتلك البللورات ، واختار لها اسماً يتناسب مع تأثيرها المنوم ، فنسبها إلى إله الأحلام : « مورفيس » وسماها « المورفين » ! ..

ولما انتهى من كتابة تقريره ، حار فيمن يرسله إليه ، فما كان له أن يكتب إلى الأستاذ « ترومزدورف » الذى لقى منه كل إهمال وإعراض .. وأخذ يستعرض أسماء العلماء ، حتى استقر رأيه على الأستاذ « لودفيج جلبرت » وكان من علماء مدينة « ليبزيج » ، ورئيساً لتحرير صحيفتها العلمية ، التى كانت ذائعة الصيت بين أعلام الطب والطبيعة والكيمياء ..

ولكن حظ « سيرتورنر » لدى « جلبرت » لم يكن بأفضل من حظه مع « ترومزدورف » ، فلقد كاد يرفض تقريره ، ثم راجع نفسه ونشره فى صحيفته مع تعليق ساخر يصفه بأنه بحث غير علمى ، ويشكك فى وجود تلك المادة التى سميت « مورفين » ..

وكاد « سيرتورنر » يبكى لهذا الإجحاف ، ولكن القدر كان قد أراد له خيراً . . فلقد كان من قراء صحيفة « جلبرت » عالم فرنسا الكبير « چوزيف لويس جاى لوساك » أستاذ الطبيعة بالسربون ، وأستاذ الكيمياء بمدرسة الصناعات ... وأعجبه تقرير « سيرتورنر » حتى أنه بالرغم من تحفظه ورزانته أعلن سخطه وغضبه على مالقيه « سيرتورنر » من إغفال وإعراض فى بلاده ، وندد بأولئك الذين أهملوا شأنه فى الوقت الذى قدم فيه للإنسانية مادة سيكون لها أكبر الشأن فى الطب والعلاج ..

وكتب يقول : « إن اكتشاف هذه المادة النباتية القلوية — « المورفين » — يعد من أعظم الاكتشافات العلمية .. ولقد

أعدنا التجربة التى وصفها المكتشف ، فإذا بالنتائج تؤكد لنا صدقه وحذقه العظيم ..ولست أبالغ إذ أقول إن اكتشافه هذا قد فتح أمام العلماء آفاقاً جديدة للبحث فى أسرار المواد الفعالة فى عالم النبات والحيوان .. »

وفى « السربون » وقف « جاى لوساك » بين تلاميذه يقول : « اقرأوا عن المورفين ، وانظروا ما فعله ذلك الرجل وحده ، دون معاونة أو إرشاد ، وبغير مال أو تعليم ، وبأجهزة بدائية بسيطة .. أيها الأبناء : إن « سيرتورنر » قد علمنا كيف يكون البحث والاكتشاف » ..

وهكذا قاد « جاى لوساك » حملة إنصاف وتقدير ، جعلت اسم « سيرتورنر » على ألسنة العلماء الفرنسيين ، ولم يلبث أن قرع أسماع مواطنيه الألمان ، فأحاطوا به يعلنون تقديرهم وإعجابهم ، ويقومون بتكريمه وتعويضه عن سابق الإهمال .. فمنحته جامعة « يينا » درجة الدكتوراه الفخرية ، وتبعتها فى ذلك مختلف الجامعات الألمانية والأوربية ...

ولكن هذا المجد الذى عقدت أكاليله على هامة « سيرتورنر » بفضل « جاى لوساك » ، كاد يتزعزع حين ارتفعت صيحات متناثرة من مختلف أنحاء أوربا تدعى لأصحابها فضل اكتشاف « المورفين » .. وتنافست الدول فى هذا الادعاء ، وكاد « سيرتورنر » يتداعى تحت وطأة هذا

الجحود والبهتان ، لولا أن مد له الأستاذ « جلبرت » يده ، وهبّ ينافح عنه فى صحيفته التى نشرت تقريره العظيم ، وأخذ يدحض مزاعم المدعين ، ويقيم الدليل تلو الدليل على أن « سيرتورنر » مكتشف المورفين ..

واسترد المكتشف الألمانى مجده ، وكرّمته فرنسا فمنحته جائزة « مونتيون » ومقدارها ألفان من الفرنكات ..

وكان « سيرتورنر » إذ ذاك قد نزح إلى مدينة « هاملن » واستقر فيها ، وآثر الحياة الهادئة فتزوج ..

ومضى عشرون عاماً نسى الناس خلالها أنه مكتشف « المورفين » ، ولما بلغ السابعة والخمسين من عمره ، أصابته أوجاع وآلام قاسية ، ولكنه لم يستطع الانتفاع بالعقار الذى اكتشفه ، إذ كان من الضعف بحيث يخشى عليه من ابتلاع « المورفين » ! ...

وظل « سيرتورنر » يعانى ويقاسى حتى مات وحيداً مغموراً فى عام ١٨٤١ .

* * *

ومضت سنوات ، نسى الناس خلالها أمر « المورفين » كما نسوا من قبل أباه « الأفيون » بعد توقيع معاهدة «نانكين»، التى أنهت الحرب بين بريطانيا وأهل الصين ، وثبتت فى بلادهم أقدام « الأفيون » ...

وجاء القرن التاسع عشر وانتصف ، فإذا باسم « المورفين » يقفز إلى الأذهان ، وإذا بأنباء إدمانه تحتل الصفحات الأولى من الصحف والمجلات ..

ولا عجب ، فلقد كان الطبيب الإنجليزى « الكسندر وود » قد اخترع إبرة تحقن « المورفين » تحت الجلد ، لتصبه فى تيار الدم مباشرة فيكون سريع التأثير .. وصارت بضع قطرات من محلوله تسرى من الإبرة تحت جلد المريض كفيلة بالقضاء على الآلام خلال دقائق معدودات ..

ولكن هذا الاختراع الجديد سرعان ما انقلب نقمة على البشر وتعددت ضحاياه ، إذ سهّل للناس تعاطى « المورفين » ويسّر لهم إدمانه الرهيب ...

ويشاء القدر أن تكون زوجة « وود » أولى ضحايا إبرته ، فتداعت صحتها تحت وطأة « المورفين » وإدمانه ، وقضت نحبها تاركة زوجها تأكل فؤاده الحسرة والندم ! ..

وتوالت من بعدها النذر تفيض بأخطار المورفين وأنباء ضحاياه ... وأسقط فى أيدى الأطباء : لقد فرحوا بطريقة الحقن الجديدة يوم اخترعها « وود » ، ووجدوا فيها طريقة سهلة للإسعاف بالمورفين والتحكم فى جرعته ، وها هى ذى قد انقلبت بين أيدى المرضى سلاحاً فتاكاً يحمل إليهم الإدمان والشقاء والهلاك ! ..

وتعالت صيحات العقلاء تنادى المسؤولين بالكف عن

استعمال « المورفين » ، أو تنظيم التداوى به وإخضاعه لرقابة الأطباء وسلطة القوانين . .

ولم تلبث الأمم المتمدنة أن استجابت لهذه الصيحات ، فعملت على تنظيم الاتجار فى « الأفيون » و « المورفين » ، وغيرهما من العقاقير السامة ، وجعلت استعمالها بإذن الأطباء . . ولكن إدمان « المورفين » مع ذلك ظل يستشرى بين الناس ويسرى بينهم بالوبال ؛ حتى كان يوم من عام ١٨٩٨ أعلن فيه البروفسور « هنريك دريزر » أنه وفق إلى تحضير مركب كيمياوى جديد يشبه « المورفين » فى تركيبه وخواصه المزيلة للآلام ، إلا أنه لا يسبب الإدمان . .

واهتم العلماء والأطباء بالمركب الجديد ، الذى قدمه مكتشفه لينقذ الإنسانية من كوارث « المورفين » : فعرفوا أن اسمه الكيمياوى : « داى استيل مورفين » ، وأن مكتشفه سماه « الهروين » . .

وأقبل المرضى على « الهروين » فارتاحوا إليه ، وأراحهم من الآلام ، فكان خير بديل للمورفين . .

ومضت أربعة أعوام ، غدا فيها « دريزر » بطلا كمركبه الجديد . . ولكن تلك البطولة لم تلبث أن تزعزعت وتداعت إلى الانهيار ؛ فلقد توالت الأنباء عن حالات إدمان خطيرة تسببت عن « الهروين » . وتتابعت النذر والاتهامات ، فهب

العلماء والأطباء يبحثون الأمر بعناية ، وإذا بتجاربهم وأبحاثهم تثبت أن « الهروين » يفوق « المورفين » فى تأثيره السام ، وأنه أكثر منه إغراء على الإدمان ! . .

* * *

وهكذا انهارت الآمال التى انعقدت على « الهروين » ، وعرف الناس أن العقار الجديد الذى قدمه إليهم « دريزر » بلسما لشفاء إدمان « المورفين » ، إنما هو شيطان مريد ، أمضى سلاحاً وأشد فتكاً ببنى الإنسان . . .

وجاء القرن العشرون وخطر المخدرات يزحف على الناس فى مشارق الأرض ومغاربها ، بالمرض والعته والجنون والهلاك . . وقامت الدول تحمى أبناءها ، واجتمعت كلمتها على سن القوانين المشتركة التى تحرّم إنتاج المخدرات لغير أغراض الطب والعلاج ، مع تنظيم استعمالها بالجرعا ت التى يقدرها الأطباء ، لدرء ما يفوقها شرة وأذى من الآلام والعلل والأمراض . .

الكينين

كانت « پيرو » فى عام ١٦٢٩ مستعمرة أسبانية ، ولما أصدر الملك « فليب الرابع » أمره بتعيين الكونت « سنكونا » حاكماً لها ، كان الكونت أرملا فاختار لنفسه زوجة جميلة

تشاركه مجده وسلطانه ومضى إلى « بيرو » . .

واستقبلتهما « ليما » عاصمتها الجميلة استقبالا عظيما يفيض حفاوة وترحيباً ، واستمتعت بحكمهما العادل أحد عشر عاماً كان الكونت يتعرّض خلالها لوعكات حمى نافضة متقطعة . .

ولم يكن هذا المرض غريباً على الكونت ، فلقد أصابه من قبل مرات فى « أشبيلية » و« مدريد » ، وعرف من طبيبه أنه مرض « الملاريا » ، وأن الفصد هو علاجه الوحيد ! . .

ولما اشتدت وطأة المرض عليه ، رأى الملك أن يعفيه من منصبه ويسمح له بالعودة إلى أسبانيا . . . ولكن الكونتس الجميلة لم تستطع أن تتم معه رحلة العودة إلى الوطن ، وخرّت صريعة مرض مجهول ، ودفنت فى مقبرة « قرطاجنة » بكلومبيا فى اليوم الحادى عشر من شهر يناير عام ١٦٤١ . .

وكان الأطباء الأوربيون قد تسامعوا خلال تلك الفترة عن دواء سحرى للملاريا ، يعرفه الوطنيون فى « بيرو » ويحضرونه من قشور مرة لأشجار باسقة تنمو على سفوح الجبال وفى الغابات . . وذاع بينهم أن مسحوق تلك القشور يعمل على تخفيض الحرارة ، والقضاء على الحمى . . ويعيد إلى المريض صحته ، وكأنّ مرضه ما كان . .

وهدتهم المصادفة أولا إلى تلك القشور ، ثم عرفوا أشجارها واهتموا بالبحث عنها والحصول على قشورها واستغلالها فى

علاج « الملاريا » التي كانت تفتك بمواطنيهم المستعمرين . .

ووصلت أنباء تلك القشور إلى الناس فى أوربا فى وقت كانت فيه الملاريا تعصف بأرواح المئات والألوف من أهالى إيطاليا واليونان وأسبانيا وفرنسا وهولندا وإنجلترا ، فأرسلت البعوث إلى « بيرو » وغيرها من دويلات أمريكا الجنوبية لاستحضار كميات من هذه القشور . .

واشتد تهافت الناس على الكميات التي كانت تصل منها ، حتى ارتفع ثمنها وصار المقدار منها يباع بمثل وزنه من الذهب النضار ! . .

ولم تلبث قيمة القشور أن تضاعفت حين نجحت فى إنقاذ حياة « لويس الرابع عشر » فى شبابه ، وكذلك حياة فريق من رجال البابا المقربين ، وبعض النبلاء البريطانيين . .

ومضت أعوام انتقلت فيها تجارة تلك القشور إلى أيدى الآباء اليسوعيين أو « الجزويت » ، فاحتكروها وأصبحت أسرارها وقفاً عليهم حتى سميت باسمهم ! . .

وكان ذلك إيذاناً بعهد جديد تدخل فيه التعصب الدينى تدخلا أعمى حرم الكثيرين من الانتفاع بقشور الآباء اليسوعيين . ...

ذلك لأن « البروتستانت » كانوا يفضلون الموت بالملاريا على تذوق ذرة من ذلك المسحوق الذى لم يكن أحد يستطيع

الحصول عليه من غير « الجزويت » . . .

ولا عجب ، فلقد كانت كراهية « البروتستانت » لهم عظيمة ، وكانوا يعدونهم رسل البابا للقضاء على مذهبهم وإعادتهم إلى حظيرة « الكاثوليك » ! . .

* * *

وفى العام الذى تلا وفاة الكونتس « سنكونا » بأمريكا الجنوبية ، ولد « روبرت تالبور » بمدينة « كامبريدج » الإنجليزية . . ولما شبّ عن الطوق بدأ يدرس الطب ، ولم يلبث أن زاول المهنة بعد ذلك فى « إسكس » ثم فى « لندن » وألف كتاباً عن الملاريا ! . . .

وهبت كلية أطباء لندن تناهض « تالبور » وتقيم الدليل على أنه مدّع لم يتم دراسته الطبّية . . ولكنه لم يعبأ بهم ، ومضى يشق طريقه فى المجتمع اللندنى بلباقة ومهارة . . ولم يلبث أن شفى من الملاريا بعض النبلاء والملك نفسه ، فعلا قدره وذاع صيته ، واتخذه « شارل الثانى » ملك انجلترا طبيبا خاصًّا له ، وأنعم عليه بلقب « سير » ، فتدعم مركزه ولم تعد تضيره صيحات كلية الأطباء ! . . .

وما كان أحد يتصور حينذاك أن الفضل فى النجاح الذى حالف « تالبور » فى علاج الملاريا ، إنما يرجع إلى استغلاله تلك القشور التى أعرضوا عنها من قبل ، وأنفوا أن يتداولوا بها

على أيدى الآباء اليسوعيين ! . .

ولما مرض ولى عهد فرنسا ، أرسله ملك إنجلترا ليعالجه . . واستطاع « تالبور» أن يشفى ولى العهد ، ففرح « لويس الرابع عشر» وقرّبه وأكرمه ، ثم رجاه أن يفضى إلى أطباء فرنسا بسر دوائه العجيب الذى شفى ولى العهد . . واعتذر « تالبور » فألح الملك ، وأنعم عليه بلقب رفيع ووهبه معاشاً ثابتاً مدى الحياة مع منحة مالية كبيرة . .

ومع هذا فلم يقبل « تالبور » أن يبوح بسرّه إلا بعد أن تعهد له الملك بأن يصون سر الدواء فى خزانته الخاصة ، وألا يطلع عليه أحداً إلا بعد وفاة « تالبور » ! . .

وما هو إلا عام واحد حتى مات « تالبور » ولما يبلغ الأربعين من عمره ، وصار « لويس الرابع عشر » فى حل من إعلان سر الدواء ، ونشر تركيبه بين الأطباء . . فإذا به خليط من ستة دراهم من أوراق الورد غليت أربع ساعات فى ست أوقيات من الماء ، مع أوقيتين من عصير الليمون ، وخلاصة قوية من قشور پيرو ! . .

وأدرك أطباء فرنسا أن « تالبور » خدعهم خدعة كبرى لم تخطر لهم على بال . . .

ومضى نصف قرن ، تدعمت خلاله سمعة القشور وازداد إقبال الناس عليها ، ورأى العلماء أن يخلدوا ذكرى الكونت

« سنكونا » الذى عرفت القشور فى عهده فسموا أشجارها باسمه . فصارت تعرف باسم « سنكونا » بدلا من « كينكينا » الذى كان يطلقه عليها الوطنيون فى « پيرو » . . .

* * *

وجاء القرن الثامن عشر وانتصف ، فإذا بقشور « السنكونا » تحتل مكانة ملحوظة فى معامل البحث والاختبار ، إذ أقبل عليها العلماء يبحثون تركيبها ، وينقبون عن سر تأثيرها . . .

وتوالت التقارير من السويد ، وفرنسا ، وألمانيا ، والبرتغال ، والروسيا ، وسكوتلاندا ، وكل منها يدعى اكتشاف المركب الفعال الذى يشفى الملاريا . . .

وبرز من بين تلك التقارير ، تقرير نشره البروفسور الفرنسى « أنتوان فرانسوا فوركروى » ، وذكر فيه أنه استطاع بعد عمليات كيماوية معقدة ، أن يستخلص من قشور « السنكونا » مادة حمراء لا طعم لها ولا رائحة سماها : « أحمر السنكونا » . .

واهتم الأطباء بمادته الجديدة ، وأخذوا يجربونها فلم يجدوا لها تأثيراً على الملاريا . . . ولكن « فوركروى » لم يتراجع ، ووصف « أحمر السنكونا » بأنه طليعة سيتبعها بمواصلة البحث والتجريب اكتشاف المادة الفعالة فى « السنكونا » . . .

وصدقت نبوءته . . .

في باريس ، كان الكيمياويان الشابان : « پيير چوزيف پلیتییه » و « چوزيف بيانيمى كاڤنتو » : قد سيطرت على تفكيرهما طريقة « سيرتورنر » التى اتبعها فى استخلاص « المورفين » من « الأفيون » ، وعزما على تجربتها فى استخراج المركبات الفعالة من مختلف النباتات . . .

وبدآ « بالإپيكاك » أو « عرق الذهب » . وكانت جذوره عقاراً جديداً عرفته أوربا من الدنيا الجديدة مقيئاً وشافياً للديسنطاريا والإسهال .

واستطاعا بطريقة « سيرتورنر » أن يستخلصا من « عرق الذهب » مركبه الفعال وسمياه : « الإميتين » .

وانتقلا بعد ذلك إلى نبات « الجوز المقىء » : فاستخرجا منه مادة سامة رهيبة سمياها : « الاستركنين » .

ثم أثبتت الاختبارات الكيمياوية التى أجرياها على «الإميتين» و « الاستركنين » أنهما يشبهان « المورفين » فى التأثير القلوى ، وإن كانا مثله يختلفان فى التركيب عن المواد القلوية المألوفة ...

ومن ثمّ أدركا كما أدرك غيرهما من العلماء ، أن الستار بدأ ينكشف عن مجموعة جديدة من العقاقير النباتية القلوية التى لم تكن معروفة من قبل . . .

ولم تلبث هذه العقاقير القلوية أن سميت : « أشباه القلويات » ...

ومضى « پليتيه » و « كاڤنتو » يبحثان وينقبان فى مختلف النباتات عن مواد أخرى من « أشباه القلويات » ، فاكتشفا « البروسين » فى قشور نبات « الأنجوستورا » ، و « الڤيراترين » من بذور « السبادلة » . . كذلك اكتشف غيرهما : « الپيپرين » فى « الفلفل » ، و « الدلفينين » فى نبات « زبيب الجبل » . . .

وتوقف الكيمياويان الشابان هنيهة ، وتأملا تلك المجموعة الباهرة من المركبات والعقاقير الجديدة ، وبدا لهما أنهما قد أضاعا الجهد فيما لا طائل تحته : فمعظمها سم ذريع لا يغنى ولا يسمن من جوع . . .

وهنا عزما على تحويل دفة تجاربهما وبحوثهما إلى اتجاه آخر يعود عليهما بالربح الوفير . . .

وكان « كاڤنتو » إذ ذاك متصلا بالأستاذ العظيم « تينار » ، وذات يوم سمعه يتحدث عن قشور « السنكونا » وكيف استطاع أحد مساعديه أن يستخلص منها مادة غفلة لها تأثير قلوى شديد ! . . .

وقرعت تلك الكلمات سمع « كاڤنتو » قرعاً شديداً ، فهرول إلى زميله وصديقه « پليتييه » وأخبره بما سمع . . .

وبدآ يقرآن عن « السنكونا » والأبحاث التى أجريت عليها ، ولكنهما لم يجدا فيها ذكراً لمادة استخلصت منها

وكانت لها خواص « أشباه القلويات » .

وأعجبهما وصف طريقة اتبعها الدكتور « جومتز » البرتغالى ، فعزما على تجربتها فى معملهما . . .

واستحضرا قشور « السنكونا السمراء » ، واستخلصاها بالكحول ، ثم أضافا إلى الكحول قليلا من الماء وبعض البوتاس القلوى ، فإذا ببللورات دقيقة بيضاء تنفصل من المحلول ! . .

وأخذا البللورات فأذاباها وبلوراها مرة بعد مرة ، حتى حصلا على نتاج نقى . . .

وأشرق وجهاهما بفرحة النصر ، واعتقدا أنهما قد حصلا على مادة شبه قلوية جديدة اجتمع فيها تأثير « السنكونا » . . .

ولكنهما كانا مخطئين . . . فبالرغم من التحسينات التى أدخلاها على طريقة « جومتز » ، لم يحصلا من « السنكونا السمراء » إلا على نفس البللورات الخاملة التى حصل عليها « جومتز » من قبل . . .

ولم ييأسا . . ورأى « كافنتو » أن يعيدا التجربة على نوع آخر من أنواع « السنكونا » التى كانت معروفة حينذاك . . واختارا « السنكونا الصفراء » . . .

وبدآ تجربتهما الجديدة ليتبينا أى فرق بين النوعين ، ولكنهما لم يحصلا من « السنكونا الصفراء » إلا على مادة صمغية صفراء لزجة لم يستطيعا بلورتها . . .

وامتحنا المادة الصمغية ، فإذا بها مرة ، شبه قلوية ، تذوب فى الأحماض والكحول ، وتختلف عن البللورات التى حصلا عليها من القشور السمراء بقابليتها للذوبان فى الأتير .

إذن فهى مركب جديد من أشباه القلويات . وأعلنا هذا الاكتشاف فى عام ١٨٢٠ . وكان « پليتييه » حينذاك فى الثانية والثلاثين من عمره ، أما « كاڤنتو » فلم يكن جاوز الخامسة والعشرين . . .

وأرادا أن يسميا مركبهما الجديد ، فلم يجدا خيراً من نسبته إلى الإسم الوطنى للقشور فسمياه « الكينين » . .

ونجحت المادة الصمغية الصفراء نجاحاً باهراً فى علاج الملاريا ، جعل فرنسا تكرم الكيمياويين الشابين ، وتمنحهما مكافأة سخية على اكتشافهما العظيم . . وذلك إلى جانب جائزة « مونتيون » . . ولم تبخل على « پليتييه » بعد ذلك بتمثال جميل يخلد ذكراه . .

ولم يتوقف « پليتييه » عن البحث ، بل وصل تجاربه فاستخلص من « الأفيون » أربعة مركبات أخرى من « أشباه القلويات » غير « المورفين » . .

وحذا الكيماويون الأوربيون حذوه ، فاستخلصوا مركبات شبه قلوية أخرى من « السنكونا » غير « الكينين » . .

واستهوى البحث عن « أشباه القلويات » فى النباتات

كثيراً من العلماء ، فكان اكتشاف « الكافيين » فى « البن » ، و « الكونيين » فى « الشوكران » ، و « النيكوتين » فى أوراق « الدخان » ، و « الأتروبين » فى « البلادونا » أو « السيدة الحسناء » ، و « الكودايين » و « الپاپافرين » فى «الأفيون» ، و « الإفيدرين » فى نبات « الماهونج » الذى خلدت ذكره أساطير الصين . . وكذلك « سكوپولامين » فى نبات « البنج » و « ثيوفللين » فى الشاى . .

وأخذت هذه الاكتشافات الرائعة تتوالى واحداً بعد الآخر ، ولكن القدر لم يمهل أولئك الذين بدأوا طوفانها ليروا تدفقها وازدهارها . .

فمات « سيرتورنر » مكتشف « المورفين » كما ذكرنا فى عام ١٨٤١ ، ولما يبلغ السابعة والخمسين من عمره ، وكذلك توفى « پليتييه » فى العام التالى وعمره لم يتجاوز الرابعة والخمسين . .

ولئن كان العلماء قد نسوا « سيرتورنر » فترة طويلة بعد وفاته ؛ إلا أنهم لم ينسوا « پليتييه » . ولما اكتشف أحدهم مادة شبه قلوية فى الرمان فى عام ١٨٧٧ سماها « پليترين » تخليداً لذكراه ! ...

أما « الكينين » فقد ظلّ إنتاجه على نطاق ضيق وبكميات قليلة ، وبقى عزيز المنال مرتفع السعر لا يعالج به إلا الأغنياء ، حتى أعلنت جمعية الصيدلة الفرنسية فى عام ١٨٥٠ عن

جائزة مقدارها أربعة آلاف من الفرنكات ، تمنح لمن يتوصل إلى طريقة لتحضير « الكينين » صناعياً وتغنى عن استخلاصه من القشور . . .

ولم يقدر لأحد الحصول على تلك الجائزة ، وأدى التسابق عليها ، إلى ابتكار طرق متعددة لصنع كثير من أشباه القلويات الأخرى فى أنابيب الاختبار بتكاليف تقل عما ينفق فى سبيل استخلاصها من النباتات . . .

وأوشك قرن من الزمان أن يمضى على إعلان جمعية الصيدلة الفرنسية ، و«الكينين» قد استعصى تحضيره صناعياً على العلماء .. حتى كان عام ١٩٤٤ فنجح كيمياويان أمريكيان فى تحضيره بطريقة معقدة باهظة التكاليف بمعملهما بمدينة « بوسطن » ، فى وقت كانت فيه أقدام النازيين تضرب بشوارع باريس ! ..

* * *

نعود إلى أشجار « السنكونا » أو « الكينا » فنقول إنها ظلت تحتل مكان الصدارة بين الأشجار القيمة فترة طويلة من الزمان . . واشتد تنافس الدول على استعمار مناطق زراعتها ، واحتكار تجارتها . .

وتسربت إلى أمريكا الجنوبية أفواج من المغامرين الذين حاولوا نقل أشجارها أو بذورها إلى مناطق أخرى . . ونجح الهولنديون فى استنبات البذور فى جاوة . . ولم تلبث أشجارها

أن نمت وترعرعت هناك . . ولكن احتكار الهولنديين لها كان يتصف بشيء من التسامح مما سهل على الكثيرين استغلالها فى استخلاص « الكينين » . .

وظل العلماء والأطباء يجهلون سر تأثير « الكينين » ، ولا يعرفون شيئاً عن مرض « الملاريا » ومسبباته . . حتى جاء عام ١٨٧٩ وتتابعت أنباء غزوات العلماء لعالم الميكروب ، وبدأ العلماء على ضوء اكتشافات « پاستير » ، و « كوخ » ، و « بهرنج » ، و « رو » ، وغيرهم ، يوجهون ميكروسكوباتهم المكبرة إلى دنيا الميكروبات ليزيحوا عن خفاياها الحجب والأستار . .

فعرف « پاتريك مانسون » أن مرض الفيل يتسبب عن لدغ البعوض ، وأنه ينقله من المريض إلى السليم . .

وفحص « لاڤيران » دماء المصابين بالملاريا ، فوجدها تعج بنوع من الميكروب ينشب أظفاره فى الكرات الدموية الحمراء فيتلفها ويفجرها ! . .

وجاء « كينج » فكان أول من اتهم البعوض بنقل الملاريا إلى الإنسان ، وذلك فى عام ١٨٨٣ .

وسرعان ما تلقف العلماء ذلك الاتهام ، وبدأوا يمحصونه بشتى التجارب والأبحاث . . ومن هؤلاء العلماء « رونالدروس » الذى أخذ يدرس ويفحص كثيراً من أنواع البعوض ، ثم يجرب فى بلاد الهند تأثيرها على مختلف أنواع الطيور ،

وكذلك على المتطوعين من بنى الإنسان .

ولم تمض إحدى عشرة سنة ، حتى كان « روس » قد استكمل فصول قصة الملاريا ، وأثبت مع غيره من العلماء أنها تتسبب عن ميكروب خاص . . ميكروب غريب يقضى جزءاً من حياته متطفلا على البعوض ، والجزء الباقى متطفلا على دم الإنسان ! . . .

وأن هذا الميكروب لا يتطفل إلا على نوع خاص من البعوض هو بعوض « الأنوفيل » . . وأن نجاح « الكنيين » فى علاج الملاريا إنما يرجع إلى مقدرته على إبادة أطوار ميكروباتها التى قد توجد فى دم الإنسان .

ولم يكن عجيباً بعد هذا أن يمنح « روس » جائزة « نوبل » فى عام ١٩٠٢ . . فلقد كانت لبحوثه وتجاربه قيمة عظمى فى تطور كفاح الملاريا وعلاجها تطوراً عظيما شمل مقاومة البعوض فى البرك والمستنقعات التى يتوالد فيها . . وكذلك تجنيد علماء الطب والهندسة والكيمياء للانتفاع بجهودهم وبحوثهم فى هذا الميدان ، فكان ما نشهده اليوم من نجاح رائع فى كفاح الملاريا ودفع أذاها عن بنى الإنسان .

ولم تهدأ معامل البحوث الكيماوية خلال تلك الفترة ، وأخذ علماؤها يبحثون وينقبون فى جزىء الكينين ليعرفوا أسرار تأثيره . .

فاكتشف الألمانى « سكراوب » أنه يتركب من بعض

وحدات ، منها وحدة تسمى : « كينولين » . .

وأتى من بعده « كونيجز » الألمانى أيضاً ، فاكتشف وحدة أخرى فى جزىء « الكينين » سماها : « ميروكين » . .

وفى عام ١٩٠٧ ، أى بعد أن نال « رونالدروس » جائزة « نوبل » بخمسة أعوام ، نجح العالمان الألمانيان : « رابى » و « هورلين » فى إزاحة الستار تماماً عن تركيب جزىء « الكينين » ، وأعلنا أنه يتركب من وحدة « كينولين » مرتبطة بوحدة « ميروكين » برباط من « كحول » بسيط . .

وجاء الكيمياوى الألمانى « شولمان » فاهتم بالبحث عن الوحدة المسئولة عن الأثر الفعال فى جزىء الكينين . . أهى : « كينولين »، أو « ميروكين » ، أو « كحول » ؟ . .

وتتابعت تجاربه على كل وحدة منها منفصلة ، ثم مجتمعة مع زميلتيها . . ولكنه لم يصل إلى شىء ، وأعلن أن تأثير الكينين لا يعزى إلى أى من تلك الوحدات الثلاثة ، وإنما يرجع إلى شىء فى الجزىء ما زال مجهولا ! . .

وترك العلماء زميلهم « شولمان » يبحث عن ذلك المجهول ، ومضوا يجربون مركبات أخرى . . . فوجد واحد منهم أن لصبغة « المثيلين الأزرق » تأثيراً قاتلا لميكروب الملاريا فى بعض الأحيان . . وأخذ غيره يحاول استنباط دواء جديد للملاريا من هذه الصبغة ولكن جهودهم ضاعت هباء . .

فعادوا إلى وحدة « كينولين » التى تدخل فى تركيب جزىء « الكينين » ، وانهالوا عليها بحثاً وتجريباً ، فإذا بهم يعرفون أن إضافة ذيل طويل من ذرات الكربون إليها يحوّلها إلىمادة كيمياوية عظيمة الفتك بميكروبات الملاريا ! . .

وأطلق «شولمان» على المركب الجديد اسم : «پلازموكين» ...

ولم تلبث التجارب أن أثبتت — للأسف — أن للمركب الجديد تأثيراً ضارًّا فى بعض المرضى ، فعاد الكيمياويون مرة ثانية يسعون وراء دواء جديد للملاريا يكون مأمون العاقبة وأرخص من « الكينين » . .

ومضت عشرة أعوام قبل أن يصنعوا « الأتابرين » أو « الكينا كرين » ، الذى نجح نجاحاً باهراً وأثبت أنه أفضل دواء للملاريا عرف حتى ذلك الحين . . .

وتوالت التقارير من شتى أنحاء العالم تشيد بفضل « الأتابرين » ، حتى إذا جاء عام ١٩٣٩ كان قد أثبت بحق أنه من عقاقير الملاريا الفعالة ، وأنه يضارع « الكينين » فى تأثيره ، ويفوقه فى بعض الأحيان . . .

ولم يكن يعيب « الأتابرين » إلا تلوينه لجلود المرضى بلون أصفر مؤقت ، وما يسببه أحياناً من اضطرابات هضمية . ولكن هذا لم يحل دون استعماله واستغلاله على نطاق واسع فى علاج الملاريا . . .

ولما اندلعت الحرب العالمية الثانية ، وامتنع استيراد « الأتابرين » من ألمانيا ، وكادت الملاريا تفتك بالحلفاء فى المناطق الاستوائية ، اهتم الكيماويون الأمريكيون بتحضيره ، ونجحوا بطريقة معقدة كثيرة التكاليف ، ولكن نجاحهم كان كفيلاً بإنقاذ الملايين . . .

ولما استولى اليابانيون على جزر الهند الشرقية ، وما فيها من أشجار الكينا ، حرموا الحلفاء أهم المصادر التى كانوا يعتمدون عليها لتحضير « الكينين » . . .

ولم تجد أمريكا بداً من تجنيد أبنائها الكيمياويين والأطباء للبحث عن عقار جديد يحل محله . . . وتعددت العقاقير والمركبات التى بحثوها وجربوها دون جدوى .

وفى عام ١٩٤٣ أسرت القوات الأمريكية بشمال أفريقيا بعض النازيين . . . وضبطت معهم أقراصاً لعلاج الملاريا . . ولم تكن تلك الأقراص صفراء كالأتابرين ، أو مرة كالكينين ، فأرسلت عينات منها إلى معامل البحث فى الولايات المتحدة . . .

وهنا تذكر العلماء الأمريكيون أن زملاءهم الألمان كانوا قد سجلوا فى عام ١٩٣٩ واحداً وعشرين مركباً جديداً من عقاقير الملاريا ، وأن حق استغلال تلك المركبات كان قد منح لشركة «ونتروب» الأمريكية ، فلم يعد تركيبها سراً خفياً . . .

وأقبلوا على تلك المركبات يدرسونها واحداً واحداً لعلهم

يعرفون تركيب أقراص الأسرى ، وتعددت البحوث والتجارب إلى أن انتهت بنتيجة باهرة .. فلقد أثبت ثلاثة من تلك المركبات الألمانية هى : « پنتوكوين » ، و « أوكسى كلوروكوين » ، و « كلوروكوين » ، أنها أقوى العقاقير التى ابتكرها البشر لكفاح الملاريا . . كما دلت التجارب على أن المركبين الأولين منها يفوقان « الكينين » و« الأتابرين » . . .

ولم تلبث أبحاث العلماء البريطانيين فى إنجلترا وأستراليا أن أضافت إلى عقاقير الملاريا مركباً جديداً سموه «پالودرين» ، وقرظته التقارير الطبية المختلفة ووصفته بأنه من أقوى عقاقير الملاريا ...

وما زالت الأبحاث تتوالى وتأتى كل يوم بجديد يثبت أن للعقاقير المصطنعة فى أنابيب الاختبار معجزات لا تقل عن معجزات قشور تلك الشجرة الأمريكية الباسقة ، التى كانت رحمة وبركة على الإنسانية من قديم الزمان . . .

الكوكايين

بدأت قصة « الكوكايين » بتقرير غريب ، كتبه الرحالة الأسبانى « أوجوستين دى زاراتى » فى عام ١٥٥٥ قال فيه : « هنالك فى بعض وديان وجبال « پيرو » ينمو عشب يفوق

تقدير الأهالى له تقديرهم للذهب والفضة ! . . إنهم يسمونه « الكوكا »، وكلما وضع الواحد منهم أوراقه فى فمه ومضغها لم يشعر بجوع أو ظمأ على الإطلاق .. إنه نبات عجيب حقاً ! . . » .

وتلقى سكان الدنيا القديمة أنباء ذلك النبات محوطة بشتى التهاويل والخرافات ، حتى خيل إليهم أنه من نباتات الأساطير .

واهتم الكثيرون به ، وبدأت محاولات نقله إلى العالم القديم ، وخلال تلك المحاولات كان الشاب الألمانى « ڤاليريوس كوردُس» يخطو خطوات سريعة نحو اكتشاف مركب جديد : . .

لقد كان فى مدينة « ليبزيج » يتعلم أسرار العقاقير عن عمه الصيدلى العجوز . . وكان يضيق بمصطلحات الصيدلة ورموزها العتيقة المعقدة ، التى كانت سائدة حينذاك ، ضيقاً جعله يعمل فيما بعد على إنجاز أول دستور منظم للأدوية (فارماكوبيا) ويرتب فيه العقاقير المعترف بها مع الإرشادات الضرورية لتحضيرها . . كذلك دفعه ضيقه بالتجارب المعقدة التى كان يقوم بها زملاء عمه لتحضير الذهب من الرصاص ، إلى أن يوجه بحوثه وتجاربه إلى أشياء أخرى . . .

وذات يوم دخل عليه عمه فى المعمل ليجد الفرحة تكاد تطير بلبه ، ولم يلبث أن حدثه عن اكتشافه الجديد :

لقد أضاف إلى « زيت الزاج » (حامض الكبريتيك) . قليلا من الكحول المقطر بحرص وعناية ، ثم أخذ فى التقليب ،

فإذا به يلحظ غلياناً مصحوباً بتصاعد أبخرة . . أبخرة حلوة الرائحة ! . .

ومال عمه على تلك الأبخرة الحلوة يشمها ويستوعب كنهها .. ومضى يستنشق لعله يتبين طبيعتها . . وحين رفع رأسه ليحدث ابن أخيه ، أحس بالدنيا تدور من حوله ، وبالأدوات والأجهزة تتحرك ويكاد بعضها يصطك بالبعض . .

وما هى إلا هنيهة ، حتى سكنت الدنيا من حوله ، وهدأ كل شيء . . ووجد نفسه على أرض المعمل وابن أخيه « كوردُس » ينظر إليه فاغراً فاه ! . .

أجل . . . فلقد حدث لكوردُس نفسه مثل هذا تماماً فى اليوم الأسبق . . واعتقد أنه من أثر التعب والإجهاد . . .

وها هو ذا عمه قد تعرض لمثل ما تعرض هو له من قبل ، أفتكون تلك الأبخرة الحلوة هى المسئولة عن ذلك الدوار ؟ ! . .

وكتب « كوردُس » فى مذكراته يقول إنه اكتشف بخاراً جديداً بإضافة زيت الزاج إلى الكحول المقطر ، وسمى المادة الجديدة : « زيت الزاج الحلو » . . وقرر أنها تسبب الدوار ، وأن استنشاق كمية منها يقف آلام السعال . .

ومضت قرون عرف الكيماويون خلالها أن «كوردُس» كان أول من اكتشف « الإتير » . . .

أما «كوردُس» نفسه فلم يُعن باكتشافه ، ولم يقدر أهميته ..

فظل الإتير إلى جانب أوراق « الكوكا » على رف النسيان ، حوالى ثلاثمائة عام ، لا يعيرهما أحد أدنى اهتمام ! . .

وفى عام ١٧٩٩ ، وقبل أن يبدأ « سيرتورنر » تجاربه التى أدت إلى اكتشاف « المورفين » ، وبينما كان المرضى يئنون تحت وطأة أوجاعهم ، ويحتملون الآلام المضنية المبرّحة فى أثناء الجراحات ، كانت العناية الإلهية قد هيأت الظروف لاكتشاف مركب ثالث له قيمته . . .

فى ذلك العام نشر شاب إنجليزى فى الثامنة والعشرين من عمره بحثاً عن غاز « أوكسيد النيتروز » . . وكان ذلك الشاب هو : « هامفرى داڤى » الذى غدا فيما بعد أعظم الكيمياويين فى ذلك العهد . . .

لقد استنشق « داڤى » غاز « أوكسيد النيتروز » ، وإذا به يجد الدنيا تدور من حوله ، ثم يشعر بميل إلى الضحك ، وتطوف بخياله أحلام عجيبة ! . . وذات مرة ، كان يشكو صداعاً سببه سوء الهضم ، فإذا بالصداع يفارقه عند ما استنشق قليلا من ذلك الغاز ! . .

وأعاد التجربة على أصدقائه ، وعلى بعض الحيوانات ، فحالفه النجاح . . ومن ثمّ قرر فى البحث الذى نشره أن غاز « أوكسيد النيتروز » قد يكون ذا فائدة للجراحين ! . . .

ولكن الجراحين لم يهتموا بالكشف الجديد ، ومضى

« أوكسيد النيتروز » أو « الغاز المضحك » ليتخذ مكانه على رف النسيان إلى جانب أوراق « الكوكا » والإتير ! . .

ومرت أعوام وأعوام ، حتى كان عام ١٨٣٢ فأُعلن اكتشاف « الكلوروفورم » فى ثلاث دول : فقال « يوستوس ڤون ليبيج » — مؤسس الكيمياء الحديثة — إنه حضره فى معمله بمدينة « جيسن » ، كذلك قال « سوبريان » الفرنسى ، و « صامويل جوثرى » الأمريكى . . .

وبالرغم من ذلك الإعلان الثلاثى والضجة التى صاحبته ، فإنّ « الكلوروفورم » لحق بإخوته الثلاثة ، واحتل مكانه معهم على رف النسيان ! . . .

وبقى البشر يواجهون الآلام ويعانون من ويلاتها ما يعانون ، وعلى رف للنسيان قبعت تلك العقاقير والمركبات المرقدة ، تود لو مدّت إليهم يدها لتمسح عنهم بعض ما يلاقون من آلام . . .

ومضت أعوام . . . حتى أقبل عام ١٨٤٧ فإذا بالعلماء يتنبهون إلى تلك المركبات الأربعة التى تجاهلها أسلافهم فترة طويلة ، وبدأوا يكتشفون تأثيرها المرقد الفعال . . .

وخلد التاريخ أسماء ثلاثة من الأطباء الأمريكيين . هم : « كراوفورد لونج » ، و « وليام مورتون » و « تشارلس چاكسون » ، وكذلك اسم الطبيب الإيرلندى الكبير : سير « چيمس سيمپسون » . . فلقد كانوا أول من استعمل « الغاز المضحك » ،

و « الإتير » ، و « الكلوروفورم » كمواد مرقدة ومنومة خلال العمليات الجراحية . . . [١]

* * *

وبقيت أوراق « الكوكا » . . لقد ظلت أعجوبة من أعاجيب النباتات حتى تقلص الاستعمار الأسبانى عن دويلات أمريكا الجنوبية ، وتوافدت عليها البعثات العلمية الأوربية المختلفة تدرس نباتاتها . . .

وتذكر العلماء تلك الأساطير القديمة التى ذاعت عن شجرة « الكوكا » وأوراقها التى تغنى عن الطعام والشراب وتزيل الآلام والأحزان ! . . وتخلق من الرعديد الجبان شجاعاً تتحدث بجسارته الركبان ! . .

فاهتموا بدراستها وبحثها ، ولم يلبث أن نشط استيرادها ، واستمرأ بعض الأوربيين مضغها حتى سيطرت عليهم ولم يعودوا يستطيعون الاستغناء عنها ! . .

ولما ازداد الإقبال على أوراق « الكوكا » ، فكر الكيمياوى الفرنسى الدكتور « آنجيلو ماريانى » فى أن يستغلها لصنع دواء مقو يدفع الجوع والتعب والشعور بالبرد . . وحاول استنبات أشجارها فى باريس ، ولكن برودة الجو حالت دون نجاح محاولته . . . فاهتم باستيراد كميات كبيرة من الأوراق ، ولم تمض سنوات قلائل حتى استطاع أن يستورد منها كميات

كبيرة ، استخدمها فى تحضير : « نبيذ مارياني » ، و « أكسير مارياني » ، و « أقراص مارياني» ! . . وغيرها من المستحضرات التى لاقت إقبالا شديداً من الجمهور الفرنسى . . .

وتوالت تقارير الأطباء تمتدح مستحضرات « مارياني » ، فازداد رواجها ، وأخذ الناس ينعتونها بشتى الأوصاف العجيبة التى جعلت دواء لكل داء ! . .

وفى عام ١٨٦٠ أعلن العالم الألمانى : «ألبرت نيمان» أنه استطاع أن يستخلص من أوراق « الكوكا » عنصرها الفعال : مركباً جديداً من مركبات « أشباه القلويات » ، سماه « الكوكايين » . .

وذكر فى تقريره الذى نشره فى ذلك العام ، أنه حين وضع قليلا من « الكوكايين » فى فمه ، شعر بخدر يسرى فى لسانه فلم يستطع أن يميز بين البارد والحار ؛ . وقرر أن المركب الجديد الذى استخلصه من أوراق « الكوكا » ليس إلا عقاراً له المقدرة على محو الإحساس والشعور ! . .

وكان « توماس مورينو إميز » كبير الجراحين السابق فى جيش پيرو ، أول من اهتم بدراسة تأثير « الكوكايين » دراسة جدية ، فأخذ يحقن محلوله فى سيقان الضفادع ثم يجرب وخزها بالإبر ليتبين مدى فقدها للإحساس . . .

ولكنه لم يستطع بعد تلك التجارب أن يجزم بإمكان استعمال الكوكايين كمخدر موضعى ، وقرر أن المستقبل كفيل بإثبات

ذلك بعد إجراء عدد أكبر من التجارب ... .

ولم يهتم أحدٌ غيره من الأطباء أو العلماء بمواصلة تلك البحوث ، فظل « الكوكايين » مهملا ينتظر من يأخذ بيده ليشق طريقه فى خدمة بنى الإنسان . . .

* * *

وفى أحد أيام صيف عام ١٨٨٤ ، وفى المستشفى العام بمدينة « ڤيينا » ، كان الأطباء الشبان الثلاثة : « فرويد » ، و « كونيجستين » ، و « كولر » ، يتناقشون فى تلك النتائج التى توصلوا إليها عند ما جربوا ذلك العلاج الذى اقترحه الطبيب الأمريكى « بنتلى » لشفاء مدمنى « المورفين » بحقنهم بمحلول « الكوكايين » . . فلقد تبين لهم أن هذا العلاج يشفى المرضى حقًّا من إدمان « المورفين »، ولكنهم يصيرون بفضله من مدمنى « الكوكايين » ! . .

واجتمع رأى الأطباء الثلاثة على أن يقوموا ببحث واف عن تأثير « الكوكايين » على بنى الإنسان . . وأخذ « سيجموند فرويد » — وهو من خلدت اسمه بعد ذلك بحوثه الباهرة فى الطب النفسي — و « كارل كولر » ، و « ليونارد كونيجستين » يعملون بهمة ، ويحقنون محلول « الكوكايين » فى الخنازير الغينية ، وفى الأرانب ، وفى أنفسهم ! . . ويختبرون خلال ذلك تأثيره على ضغط الدم ، وسرعة النبض والتنفس . . .

ويملأون الصفحات بشتى النتائج والبيانات . . .

وذات يوم ، طلب « فرويد » من رفيقيه أن يأذنا له بأجازة قصيرة يلتقى فيها بخطيبته بهولندا . . .

وبعد سفره ، أحس « كولر » بأنه قد ملّ أبحاث « الكوكايين » ، واتجهت رغبته إلى التخصص فى أمراض العيون . . .

وبينما كان ينصت باهتمام إلى إحدى المحاضرات ، سمع أستاذه يقول : « إن طب العيون فى حاجة إلى عقار يكون ذا تأثير بمخدر موضعى ، ليتيسر به إجراء جراحات العيون . . . تلك الجراحات التى لا تصلح لها المرقدات أو المخدرات العامة ، كالإتير والكلوروفورم ، لما يصحبها أحياناً من قىء أو إغماء يفسد تلك الجراحات التى تجرى على أغشية العين الدقيقة . . . إننا نريد عقاراً إذا قطرناه فى العين سبب لها خدراً موضعياً مؤقتاً نستطيع خلاله إجراء الجراحة ، وحينئذ نستطيع شفاء العمى وإنقاذ من يتعرضون لفقد نعمة الإبصار . . » .

وقفز « الكوكايين » إلى عقل « كولر » ، وتذكر تأثيره المخدر على اللسان ، وصمم على أن يجرب تأثيره على العيون . . .

وأتى بعدد من الضفادع ومختلف أنواع الحيوانات ، وأخذ يقطر فى عيونها محلول « الكوكايين » . . ونجحت تجاربه ، وتبين له أن المخدر يسرى إلى عيون تلك الحيوانات بعد عشر

دقائق من وضع ثلاث قطرات من محلول « الكوكايين » ٢٪ ، فيفقدها الإحساس . . .

ومضى إلى قسم العيون بالمستشفى يجرب تأثير « الكوكايين » على مرضاه ؛ فحالفه النجاح وذاع أمره ، ولم يعد « فرويد » من هولندا إلا واسم « كولر » واكتشافه الجديد قد صار على كل لسان ! . . .

وحان موعد انعقاد الجمعية الرمدية الألمانية بمدينة « هيدلبرج » ، وأراد « كولر » أن يسافر ليدلى إلى أعضائها بأنباء اكتشافه ، ولكنه لم يكن يملك نفقات السفر ، فأناب أحد زملائه القادرين عنه فى قراءة التقرير . . .

واجتمع أطباء الجمعية الرمدية الألمانية فى اليوم الخامس عشر من سبتمبر ١٨٨٤ ليستمعوا إلى تقرير « كولر » ، ولم يقتنعوا بما جاء فيه حتى جربوا تأثير « الكوكايين » على عيون بعض المرضى ، ثم أعلنوا تقديرهم وإعجابهم بالمكتشف العظيم ! .

ولم يهنأ « كولر » باكتشافه هذا ، إذ قام بعض زملائه يدعون الفضل لأنفسهم ، وضاقت نفسه بڤيينا وجحود أهليها فرحل إلى هولندا ، ولكنه لم يصادف نجاحاً فيها ، فركب البحر فى عام ١٨٨٨ ومضى إلى الولايات المتحدة ليبدأ حياته من جديد ! . . .

* * *

وفى أمريكا كان الأطباء قد تلقفوا تقرير « كولر » ،

وأولوه ما يستحق من عناية ، وبدأوا بحوثهم على « الكوكايين » تلك البحوث التى أدت إلى اكتشافات أخرى جديدة . . .

فبينما كان أحد الفلاحين ينظف غدارته ، انطلقت منها رصاصة واستقرت فى يده . . وكان طبيبه الدكتور « بورك » قد قرأ عن « الكوكايين » وتأثيره المخدر على العيون . . فجرب حقن العصب الرئيسى الذى تغذى فروعه يد المصاب بمحلول « الكوكايين » . . ولم تمض خمس دقائق حتى كان الخدر قد حلّ بيد الرجل ، فاستطاع الطبيب أن ينزع منها الرصاصة دون أن يشعر بأى ألم . . .

وأعلن « بورك » هذا الكشف ، وقرر أن « الكوكايين » مخدر موضعى عظيم التأثير . . .

وجاء طبيب آخر فجرب استعمال « الكوكايين » فى التخدير عند خلع الأسنان ، فحالفه النجاح ، وبذلك خطا « الكوكايين » خطوة أخرى فى خدمة بنى الإنسان . .

وتوالت تجارب الأمريكيين وبحوثهم على « الكوكايين » ، فقام الدكتور « ليونارد كورنينج » بحقن بعض نقط من محلوله بين فقرتين من ظهر أحد الكلاب ، فإذا بمؤخرته وساقيه الخلفيتين تفقد الإحساس تماماً ! . .

فكان هذا فتحاً جديداً فى فن التخدير . . . التخدير النخاعى ! . . .

ولم يكن عجيباً أن يحتل « الكوكايين » بعد ذلك مكانة ملحوظة بين العقاقير ، فذاعت شهرته وازداد الإقبال عليه فى التخدير الموضعى ، وعلاج الإجهاد العصبى ، وكثير من الأمراض التى خيل للناس حينذاك أنه يستطيع شفاءها . . .

ولم تلبث تجارة « نبيذ ماريانى » وغيرها من مستحضرات « الكوكايين » أن انتعشت ، وازداد التهافت عليها . . .

وهنا تنبه المسؤولون إلى خطر جديد سببه الإقبال على « الكوكايين » . . . ألا وهو خطر الإدمان . . .

وتضاربت آراء أطباء أمريكا وأوربا وتأرجحت بين اتهام « الكوكايين » والدفاع عنه ، وهو لا ينى ينشب أظفاره كل يوم فى فريسة جديدة ، ويزيد من عدد ضحاياه ! . . .

وتفاقم الأمر ، وبدا بوضوح تأثيره الخطر ، فدعيت الجمعيات الطبية المختلفة إلى الانعقاد ، وتعددت جلساتها ، وتنوعت أبحاثها ومناقشاتها ، حتى انتهت إلى إقامة الدليل القاطع على أن الحقن المستمر بمحلول « الكوكايين » يؤدى إلى إدمان عسير الشفاء . . وأن الخير كل الخير للبشرية فى أن تحد من استعمال « الكوكايين » ولا تطلقه بغير رقابة الأطباء . .

وهنا تطلعت الأنظار إلى الكيمياويين لعلهم يسعفون الإنسانية بعقار جديد تكون له خواص الكوكايين المخدرة دون خواصه المغرية على الإدمان . . .

واستجاب الكيمياويون لهذا الرجاء .. وبدأوا يبحثون أوراق « الكوكا » مرة ثانية ، وينقبون فيها عن مركب آخر يشبه « الكوكايين » ولكنهم لم يتوصلوا إلى شيء . . .

واسترعى انتباههم مركب « الفينول » أو « حامض الكربوليك » ، إنه مركب كيماوى يمتاز بتأثيرين هامين : فهو يتلف الأنسجة ولكنه يقضى على الألم ! . . . فهل يستطاع إحداث بعض التغيير فى تركيبه . يزيل منه التأثير المتلف للأنسجة ، ويبقى عليه التأثير القاضى على الألم ؟ ! . . .

وأثمرت التجارب التى أجريت لتحقيق هذا الغرض ، مجموعة من المواد المخدرة ، جميعها من أبناء عمومة « الفينول » ، ويسميها الكيمياويون « أحماض الأمينوهيدروكسى بنزويك » .. وأهمها مركبان صار لهما فى التخدير شأن كبير ، وهما : « الاستوفايين » ، و « النوفوكايين » . . .

ولما اندلعت الحرب العالمية الأولى ، كان « النوفوكايين » من العقاقير الألمانية التى احتكر إنتاجها الأمريكيون وسموه : « بروكايين » . . .

وهو يحتل اليوم مكانة « الكوكايين » فى الطب والتخدير ، إذ يفوقه فى إحداث جميع أنواع التخدير الموضعى ، ما عدا تخدير العيون الذى يستعمل فيه مركب جديد آخر حضره الأمريكيون ويسمى « بيوتين » . . .

ولم يقف الأطباء مكتوفى الأيدى خلال تلك الفترة التى تسابق فيها الكيمياويون لإنتاج مواد مخدرة تشبه « الكوكايين » فى التأثير ، إذ توالت تجاربهم التى أدت إلى تطور طرق التخدير . . ذلك التطور الذى بدأ بإعلان الدكتور « ليونارد كورنينج » نجاحه فى إطالة فترة التخدير الموضعى بمحلول « الكوكايين » ، من عشرين دقيقة إلى خمس ساعات ، وذلك بعمل رباط قوىّ فوق موضع الحقن ! . . .

ولقى هذا النبأ اهتماماً كبيراً لدى الأطباء فى مختلف أنحاء العالم ، وسرعان ما أدرك الدكتور « هينريش براون » — الذى كان له فضل إدخال استعمال « النوفوكايين » رسمياً فى الاستعمال الطبى — ، أن إطالة فترة الخدر بالرباط القوى إنما تسببت عن ضغطه على الأوعية الدموية ضغطاً قوياً لم يسمح للكوكايين بالتسرب من موضعه بسرعة ، وضمن بقاء تأثيره على الموضع المحقون فترة طويلة . . .

وشهدت مدينة « ليبزيج » تجارب « براون » التى أدت إلى استبداله مركب « الأدرينالين » بالرباط القوى . . .

فالأدرينالين يؤثر على الأوعية الدموية ، ويعمل على انكماشها حتى لا يكاد الدم يسرى فيها ، وبذلك يقوم بما كان يقوم به رباط « كورنينج » ! . . .

ونجحت التجربة وصار الحقن بمحلول « الأدرينالين »

و « النوفوكايين » يستعمل لإطالة فترة التخدير الموضعى . . .

وفى عام ١٩٢٣ كتب للإنسانية نصر جديد على الآلام باكتشاف التأثير المرقد والمخدر العام لمركب « الإثيلين » . . .

فقبل ذلك بأعوام كان تأثيره المميت لنباتات القرنفل قد استرعى انتباه العالم الأمريكى « لوكهاردت » ، فعزم على تجربة تأثير ذلك الغاز على الحيوانات . . ولكنها لم تمت كما توقع ، بل دخلت فى نوم عميق وأصابها خدر عام . .

وتتابعت بحوثه التى انتهت بتجربته استنشاق الغاز أمام جمع من الأطباء والجراحين ليثبت لهم أنه مخدر عام مأمون الاستعمال ! . . .

وبعد سنوات قلائل أعلنت معامل « هندرسون ولوكاس » بتورنتو اكتشاف مخدر عام جديد هو مركب « السيكلوبروبين ».

وجاء عام ١٩٣٠ فنجح الدكتور « شونسى ليك » فى تحضير مركب جديد هو « دايفنيل أوكسيد » من تفاعل « الإتير » مع « الإثين » . . . وأثبتت التجارب أن هذا المركب من أسرع المرقدات وأقواها على التخدير العام . . .

وفى عام ١٩٤٧ كان قد مضى على استعمال المركبات الكيمياوية فى التخدير قرن من الزمان ! . . وكان الكيمياويون قد خطوا بمركباتهم خطوات باهرة فى طريق النصر على الآلام . . تلك الخطوات التى بدأت « بالإتير » ، و «أوكسيد النيتروز» ،

و« الكلوروفورم » ، ثم « الكوكايين » ، و « النوفوكايين » ، و « الإثين » ومركباته ، و « السيكلوبروبين » ، والبنتوثال » .. وغيرها من المركبات والعقاقير التى يكشف العلم جديداً منها كل يوم ليحقق للبشر الخلاص والنجاة من المتاعب والآلام . .

أصبع العذراء

لعل البشر لم يشقوا بمرض من الأمراض ، شقوتهم بذلك المرض العجيب الذى ظل قروناً عديدة مسلطاً عليهم ، وكلما أنشب أظفاره فى واحد منهم : نفخ جسمه نفخاً يكاد يفجره ، وكلما تفاقم ازداد ارتشاح سائل مائى تحت الجلد ، فتتضخم الأذرع والأرجل حتى لا تكاد تتحرك ..

وقد ينسكب السائل بين جدران البطن ، فتنتفخ وكأنها البالون .. أو يتسرب إلى الفراغ الصدرى ، فلا يستطيع المريض أن يتنفس إلا وهو منتصب على قدميه طوال الليل والنهار ، فلا ينقذه من محنته إلا الموت وانطفاء شعلة الحياة ! ! .

ولقد عرف هذا المرض باسم « الاستسقاء » ، ومضت الأعوام والقرون وهو يسرى بين الناس ويوردهم موارد الفناء . . حتى كان ذلك اليوم الذى عرفوا فيه تلك الأوراق الخضراء

لنبات يسمى « الديچيتالس » أو « أصبع العذراء » ، وهو نبات تشبه أزهاره أصابع العذارى الحسان ! .

وكان الطبيب الباڤارى « ليونارد فوكس » أول من درس هذا النبات دراسة علمية مرتبة منذ حوالى أربعة قرون ، فوصف شكله وبيئته ، وذكر أن أوراقه تفيد فى علاج الاستسقاء ، وتورم الكبد ، وإدرار الطمث . .

ولكن أحداً من الأطباء أو العلماء لم يلتفت إلى ما ذكره ذلك الطبيب الباڤارى القديم ، ومضى الزمن يطوى الأعوام طياً ، وأسرار أوراق « الديچيتالس » لا يعرفها إلا بعض العجائز فى إنجلترا وأسكتلندا ، إذ كن يداوين بها مرضى الاستسقاء ! .

ولم يلبث الأطباء الإنجليز أن تنبهوا إلى ذلك النجاح الذى صادف عجائزهم فى علاج المرض الوبيل ، فأقبلوا على النبات يدرسونه ويجربون أوراقه . .

وما وافى عام ١٧٧٢ حتى كان نبات « الديچيتالس » قد صار من العقاقير البريطانية المعتمدة فى العلاج . وحذا أطباء ألمانيا وفرنسا حذو زملائهم الإنجليز ، فشاع استعمال الأوراق فى علاج الاستسقاء . .

ويشاء القدر أن يهتم الطبيب الفرنسى : «سالين » بدراسة أوراق « الديچيتالس » وتجربة تأثيرها . .

وذات يوم ، شهدت مدينة « أورليانز » تلك التجربة

التى أجراها الطبيب على زوج من الديكة الرومية ! . . . فلقد حشا فم كل من الديكين بالأوراق ، ومضى يرقبهما ... وبعد أربع ساعات بدا عليهما أنهما فقدا توازنهما وكأنهما مخموران ! ووصل تجربته فصار يحشو فمهما بالأوراق ويدون ملاحظاته . . فإذا بالديكين يتناقص وزنهما ، ويضمران بعد بضعة أيام، ولا ينقذهما من محنتهما إلا الموت . .

وأقبل الطبيب على جثتيهما يشرح ويكتشف الخبايا ، فراعه ما رآه من جفاف أحشائهما وقد بدت له وكأنها شويت بالنار ! . .

وكانت تلك التجربة كفيلة بأن تثبت أن الجرع الكبيرة من « أوراق الديچيتالس » سامة وقتالة . . .

ولم تلبث أنباؤها أن ذاعت وشاعت بين الأطباء والجماهير ، فامتلأت القلوب رعباً من « الديچيتالس » وأوراقها ، وتدهورت قيمتها ، وأخذت أهميتها فى علاج الاستسقاء تضمحل رويداً رويداً . .

وفى عام ١٧٤١ ، وإبان تلك المحنة التى كانت تجتازها أوراق « الديچيتالس » ، ولد بإحدى القرى القريبة من « برمنجهام » طفل كان القدر قد هيأه لتتم على يديه معجزة استغلالها فى العلاج على أساس من البحث والتجريب ! . .

ومضت أعوام ، كبر فيها الطفل « وليام وذرنج » ، ثم التحق بجامعة « إدنبره » لدراسة الطب . . وهناك تتلمذ على

مجموعة من الأساتذة الكبار ، ونال درجته الطبية وهو فى الخامسة والعشرين من عمره . .

واختار مدينة « ستافورد » القريبة من قريته ليزاول فيها مهنته . . وذات يوم ، طرقت بابه أولى مرضاه ، وكانت فتاة ضعيفة تسمى « هلينا كوك » . .

وتكررت زياراتها له وتتابعت استكمالا للعلاج . ولم يلبث أن تبين هواها لرسم الأزهار ، فصار يهديها كل يوم نوعاً منها ليدخل على قلبها السرور ! . .

وتعددت هداياه ، وأخذ يتخير الأزهار ويتعمد أن تكون غريبة ومنتقاه ! . .

ومضت الأيام ، فإذا بالأزهار تسيطر على أفكاره بأشكالها وألوانها . . وإذا به يهتم بدراسة نباتاتها وبيئاتها . .

وسرعان ما ترعرع فى قلبه الميل إلى الدراسات النباتية ، وهو الذى كان يضيق بعلم النبات إبان حياته الجامعية ؛ . .

وساعده عدم إقبال المرضى على التفرغ لدراسة النباتات ، تلك الدراسة التى انتهت بتوطيده علاقته بالفتاة التى حببت إليه الأزهار ونباتاتها ، فتوج تلك العلاقة بالزواج ! . .

وذات يوم ، أتته مريضة تستشيره فى أمر وصفة قديمة توارثتها عن الأجداد وصادفها النجاح فى علاج مرض الاستسسقاء . .

وتأمل « وذرنج » الورقة الصفراء التى سطرت فيها مقادير

أجزاء الدواء وأسمائها . . فإذا بها مجموعة من الأعشاب وأوراق النبات التي لا تنفع ولا تضر . . ولكن واحداً منها استرعى انتباهه : إنه أوراق « الديجيتالس » . . لقد سمع عن تلك الأوراق إبان دراسته الطبية ، وإنه ليذكر تحذير أساتذته من استعمالها فى علاج الاستسقاء خوفاً من تأثيرها السام ! . .

ولكن لم لا تكون تلك الأوراق هى المسؤولة عن نجاح تلك الوصفة القديمة ، ولم لا يبحث أمرها ويجرب تأثيرها لعله يصل إلى قرار حاسم فى نفعها أو ضررها ؟ . .

وأخذ يدرس نبات « أصبع العذراء » ذلك النبات الذى ينتمى إلى عائلة نبات« الدخان » ، ونبات « السيدة الحسناء ».. واهتم بجمع أوراقه وبدأ يجربها فى علاج الاستسقاء . .

وحالفه نجاح مبدئى ، ولكنه توقف فى حذر . . لقد كان فى حيرة من أمر الجرعة المناسبة من تلك الأوراق . . أفتكون قمحة ، أو أوقية ، أو رطلا ؟ . وهل يتناولها المريض باردة أم ساخنة ؟ . . وهل تعطى له مرة واحدة فى اليوم أو ثلاث مرات ؟ . .

ولم يجد فى المراجع العلمية أو عند زملائه الأطباء ما يشفى غليله . . فمضى يجرب ، وإذا بتجاربه تتعقد ، وتسوء حالة بعض مرضاه ، وتظهر على فريق منهم أعراض التسمم من دوار وصداع وقىء وإسهال . . .

ولم يلبث مرضاه أن بدأوا يفرون منه ، وينأون بأنفسهم عن علاجه الخطير ! .

وساءت حالته المالية ، وزاده الزواج أعباء ، ففكر فى الرحيل عن « ستافورد » ليجرب حظه فى مدينة أخرى . .

وحانت له الفرصة ، يوم جاءه خطاب من زميل له « ببرمنجهام » ، هو الدكتور « إراسموس داروين » — جد العالم الطبيعى المشهور « تشارلس روبرت داروين » — يدعوه ليشغل وظيفة خلت بالمستشفى العام . .

ورحل « وذرنج » إلى « برمنجهام » فى عام ١٧٧٥ ، وهناك لاقى نجاحاً كبيراً ، وأقبل عليه المرضى إقبالا منقطع النظير ، فامتلأت جيوبه بالمال الذى ظل ينتظره سنوات طوالاً !..

وسرعان ما نشر كتابه القيم عن « النباتات البريطانية » فكان أول كتاب من نوعه فى ذلك الحين . .

وهنا عاوده الحنين إلى تجاربه التى بدأها فى « ستافورد »، وعزّ عليه أن يهمل البحث فى تأثير أوراق « الديچيتالس » . .

وأخذ يفكر . . لقد كانت الأخطاء التى وقع فيها من قبل ، نتيجة لنقص الجرعة أو زيادتها عن المقدار المناسب ، فماذا يفعل لكى يضبطها ويروّض السم القتال الذى يكمن فى تلك الأوراق ؟ . .

ومضى يبحث ويجرب ، وتعدّدت بحوثه وتجاربه حتى

وصل إلى هدفه وتحقق له النجاح . .

وذاعت أنباء نجاحه فى « برمنجهام » ، فأقبل عليه مرضى الاستسقاء ، وأخذ زملاؤه الأطباء يطبقون طريقته فى العلاج بأوراق « إصبع العذراء » . .

ولكن القدر كان يخبئ « لوذرنج » صدمة كبرى ما كانت تخطر له على بال . . فلقد فوجئ بصديقه وزميله الدكتور « إراسموس داروين » — الذى دعاه من قبل ليعمل فى « برمنجهام » — ينشر بحثاً يعزو فيه إلى نفسه النجاح فى استعمال أوراق « الديچيتالس » ، مع ضبط جرعتها المناسبة لعلاج الاستسقاء ! . .

وتداعى كيان « وذرنج » تحت وطأة تلك الطعنة النجلاء ، وهبّ زملاؤه ومرضاه يعلنون سخطهم على المدعى ويردون الفضل إليه ، ولكنه كان قد انهار واعتلت صحته ، وأنشب السل فيه أظفاره وهو لم يجاوز الأربعين من عمره . .

وفى عام ١٧٨٥ نشر جميع أبحاثه عن أوراق « الديچيتالس » فى كتابه الخالد ، الذى قرر فيه أنها ذات تأثير لا يبارى على نبضات القلب ، كما فنّد مزاعم القدماء وبرهن على عدم جدوى تلك الأوراق فى علاج السل والعقد الخنازيرية ، وأثبت بالتجارب والإحصاءات فائدتها فى علاج الاستسقاء ، كما بين كيف تختلف الجرعة الضرورية باختلاف الأشخاص ،

ووصف طريقة العلاج . .

وصادف كتابه رواجاً عظيماً فى الأوساط العلمية والطبية، دفع الناشر إلى إعادة طبعه عدة مرات ... .وقامت الجمعية الملكية بتكريمه ومنحته زمالتها . . وحذت حذوها معظم الجمعيات الطبية . .

ومضى « وذرنج » يوصل أعماله وبحوثه لا يعوقه المرض وما يسببه من آلام ، حتى كان عام ١٧٩٦ فاشتدت به العلة وناء بها ، واضطر تحت وطأتها إلى اعتزال العمل ليسلم روحه إلى بارئها بعد ذلك بثلاثة أعوام ! . . .

* * *

وكأنما كان موت « وذرنج » إيذاناً بعودة الفوضى إلى طريقة العلاج بأوراق « الديچيتالس » ، فاضطرب ميزانها فى أيدى الكثيرين وتعددت ضحاياها . . . وبدأ الناس يعرضون عنها فلم يمض على وفاته ثلاثون عاماً حتى كانت « الديچيتالس » قد تراجعت مرة أخرى إلى زوايا الإهمال والنسيان . . .

ولكن الله كان قد أراد لها أن تتخذ مكانتها بين العقاقير النافعة ، فقيض لها نفراً من الأطباء الذين وهبوا حياتهم للبحث والتجريب فأقبلوا عليها يدرسون خواصها وتأثيرها بإمعان وتدقيق ..

وانبرى فريق منهم يعمل على استخلاص عنصرها الفعال

لاستغلاله فى العلاج بدلا من الأوراق ، كما فعل « سيرتورنر » من قبل مع الأفيون ، « وكافنتو » « وپليتييه » مع الكينا . .

وفى العام السابق لاندلاع الحرب الفرنسية البروسية ، توصل العالم الفرنسي « ناتيڤل » إلى الحصول على ذلك العنصر الفعال : بللورات بيضاء قوية التأثير سماها : « ديچيتالين » . .

وجاء العالم الألمانى الكبير « شميد لبرج » فاكتشف العقار نفسه بعد ذلك بسنوات ، واختار له اسماً آخر هو : « ديچيتوكسين » . .

وأقبل الكيمياويون على العقار الجديد يبحثون تركيبه وطبائعه ، فإذا به ليس من « أشباه القلويات » بل من مجموعة أخرى من المركبات الكيمياوية معقدة التركيب تسمى « الجلوكوسيدات » لوجود سكر « الجلوكوز » فى جزيئاتها . .

وتتابعت البحوث الطبية فأثبتت ما أثبته « وذرنج » من قبل ، وبرهنت على أن « الديچيتالس » وعقارها الفعال تفيد فى علاج الاستسقاء وليس فى مرض السل كما كان يظن الأقدمون . .

وكان للدكتور « چيمس ما كنزى » أخصائى أمراض القلب الأسكتلندى ، فضل كبير فى إزاحة الستار عن أسرار مرض الاستسقاء ، والدور الذى تلعبه « الديچيتالس » فى علاجه . .

فلقد أثبتت تجاربه أن الاستسقاء يتسبب عن مرض غريب يصيب عضلات الجزء العلوى من القلب ، ويؤدى

إلى إبطاء قوة القلب وإضعافه عن دفع الدم إلى مختلف أنحاء الجسم ، ومن ثم تمتلىء الأوردة بالدم ويرتشح منها سائل تتورم من وجوده أنسجة الأعضاء . .

فإذا ما أعطى المريض « الديچيتالس » ، عادت إلى القلب قوته المسلوبة ، فيندفع الدم وتتم الدورة الدموية على أكمل وجه ، جامعة السائل المرتشح من الأنسجة المختلفة ، وباعثة به إلى الكلى لتقذفه خارج الجسم . .

ولا يتم هذا إلا إذا أعطيت « الديچيتالس » بجرع مضبوطة ، وليس خبط عشواء كما كان يفعل الأطباء الأقدمون ! . .

ولم يستمع أحد إلى « ماكنزى » أو زملائه فى مبدأ الأمر ، وظل الجدل قائماً حول « الديچيتالس » وعقارها الفعال . . ولكنه لم يلتفت إلى معارضيه أو يعرهم اهتماماً ، وأقام فى «لندن» يعالج المرضى — مرضى القلب — «بالديچيتالس» والأجهزة التى ابتكرها .

وتوالت انتصاراته فمنح لقب « سير » ....

وجاء من بعده أطباء كثيرون من أمثال « كشنى » و « ونشباخ » ، ساروا على منواله ، وساهموا مثله فى تثبيت أقدام « الديچيتالس » وتسخيرها فى علاج أمراض القلب .. فكتبوا بذلك السطور الأولى فى صحيفة النصر الذى سجله الطب على أمراض القلب . . .

ولم يكن نبات « الديچيتالس » غير واحد من النباتات الطبية التى استغلها القدماء فى علاج القلب وأمراضه ، ومنها « بصل العنصل » ذلك البصل السمين الثمين الذى عرف أول ما عرف فى حوض البحر الأبيض المتوسط . وكذلك أوراق « الغار الوردى » أو « سم الحمار » وأغصانه وأزهاره . .

ولما تقدمت البحوث الطبية والكيمياوية فى منتصف القرن التاسع عشر ، أمكن العلماء أن يستخلصوا من كل من « بصل العنصل » « والغار الوردى » عنصرهما الفعال . . ولم تلبث دراستهم لهما أن أثبتت أنهما يشبهان إلى حد كبير العنصر الفعال فى «الديچيتالس» من الناحية الكيمياوية والفسيولوجية . .

وكان هذا حافزاً للعلماء على مواصلة البحث فى المملكة النباتية عن مركبات وعقاقير أخرى تشابهها فى التركيب وتماثلها فى التأثير الشافى لأمراض القلب . .

واتجه فريق من علماء الروس إلى بحث بعض السموم والعقاقير التى كان يستعملها الوطنيون فى المجاهل الاستوائية واختبارها ، فاكتشفوا فى السم الذريع المستخرج من ثمار شجرة « التنغنية » أو « جوزالحكمة » التى تنمو فى « مدغشقر » ، عقاراً يشبه « الديچيتالين » فى تأثيره العجيب على القلب .

واهتم العالم الإيرلندى « توماس فريزر » بالسموم الأفريقية ووصل بحوثه حتى كان عام ١٨٨٥ فوقف

فى الاجتماع السنوى للجمعية الطبية البريطانية فى مدينة « كارديف » يعلن أن « الاستروفانتس » قد نجح نجاحاً باهراً فى علاج الاستسقاء ، وأنه يشبه فى تأثيره « الديجيتالس» الذى روّضه « وذرنج » قبل ذلك بمائة عام . .

وتسابق العلماء فى هذا المضمار ، فاستخرجوا من تلك السموم المجهولة القديمة كثيراً من العقاقير النافعة للقلوب المريضة . .

ولكن تلك العقاقير النباتية مع كثرتها وقوتها وقفت عاجزة حائرة فى أيدى الأطباء ، أمام مرض من أمراض القلب التى استعصت حتى ذلك الحين على العلاج والشفاء . . إنه ذلك المرض الذى يبدأ بألم رهيب فوق القلب ، سرعان ما ينتشر إلى الكتف الأيسر ، ثم إلى الذراع الأيسر ، والذى سمى من قديم باسم : « الذبحة الصدرية » . .

وكان شتاء عام ١٨٦٦ قد شهد نجاح الدكتور «لاندر برنتون» فى اكتشاف عقار جديد يشفى ذلك المرض الرهيب . .

ولم يكن العقار الجديد سمًّا من السموم الأفريقية المجهولة ، ولكنه كان مركباً جديداً حضر فى المعمل وفى أنابيب الاختبار؛ ! وسماه مكتشفة « نترات الإميل » . .

ووجد « برنتون » بين يديه عقاراً جديداً يعمل على تخفيض ضغط الدم ، وكان يعلم أن « الذبحة الصدرية » تنشأ عن نوع من الضغط المرتفع ، فجربه على بعض المرضى

فإذا به يقضى على نوباتها الرهيبة ويخفف آلامها وإن لم يقض على المرض نفسه . .

وأعلن « برنتون » اكتشافه الجديد فى عام ١٨٦٧ ، فلقى كل ترحيب وتقدير . . أو ليس الرجل الذى وفقته العناية الإلهية إلى القضاء على آلام مرض له خطورته بقطرات من سائل يستنشقها المريض ! ..

ومضت عشرة أعوام أخرى أمكن العلماء خلالها ترويض أحد المركبات التى كان يرهبها الناس لخواصها المفجرة ، وهو مركب « النيترو جليسرين » ، لشفاء أعراض مرض « الذبحة الصدرية » . .

فلقد تذوق الدكتور « وليام موريل » ذات يوم قليلا من ذلك المركب ليرى تأثيره على الإنسان ، فإذا بنبضه يسرع وتنفسه يبطىء ، ويحس فى رأسه بدقات قلبه ، حتى خيل إليه أن جسمه يوشك أن يتلاشى فى انفجار رهيب ! ..

ولم يلبث حين تماسك واستعاد طبيعته أن أدرك أن الأعراض التى أحس بها تشبه إلى حد كبير تلك الأعراض التى تتسبب عن استنشاق كميات كبيرة من « نترات الإميل » . .

فكان هذا إيذاناً بتحول المادة المفرقعة إلى بلسم شاف يساهم فى تخفيف آلام بنى الإنسان . . وتوالت من بعد ذلك الأعوام ، ومعها البحوث والتجارب الطبية التى أثمرت عقاقير

ومركبات كيماوية متعددة تلعب اليوم دوراً باهراً فى علاج أمراض القلب ووقاية الناس من تفاقم أخطارها .

٦٠٦ ·

كان الشاب « چان أدريان هلڤيتيوس » هولندى الأصل ، وكان معروفاً باسم « شفيتزر » قبل أن يهبط « باريس » ويعمل مساعداً للدكتور « آفورتى » إبان حكم « لويس الرابع عشر » ..

وذات يوم ، أتاهما مريض يئن تحت وطأة أوجاعه ، ولم يكن إلا المسيو « جارنييه » تاجر المواد النادرة المستوردة من الدنيا الجديدة . .

وتولى الدكتور « آفورتى » علاجه بالفصد ، وحالفه النجاح فنال على يديه الشفاء . . ولما سدد أتعابه أراد أن يهدى إلى الطبيب مقداراً من قشور أتته من البرازيل ، ولكنه اعتذر من قبول الهدية وأحالها إلى مساعده الذى رحب بها كل ترحيب . . .

ومضى « هلڤيتيوس » — دون علم الطبيب — يجرب علاج بعض المرضى بالملاريا ، والتيفوس ، والجدرى ، وسوء الهضم ، والصداع ، والنزيف ، بمسحوق تلك القشور البرازيلية . .

ولكنه لم يصادف نجاحاً ، فجرب علاج الديسنطاريا الحادة بذلك المسحوق ، فإذا هو يشفيها شفاء تاماً وينقذ المرضى من ويلاتها ! .

ولم يلبث أن استغل اكتشافه الجديد على نطاق واسع فامتلأت شوارع « باريس » بإعلانات ضخمة عن الدواء الذى أتى به من الدنيا الجديدة ليكون علاجاً ناجعاً للديسنطاريا والإسهال ! . .

وتهافت الناس تهافتاً عظيما على ذلك الدواء العجيب الذى قدمه إليهم « هلفيتيوس » فى وقت كانت فيه الديسنطاريا تعصف بأرواح الكثيرين من أهل فرنسا . . .

وترامت أنباء العقار الجديد إلى الملك وكان ولى عهده يشكو من الديسنطاريا ، فأمر بدعوة « هلفيتيوس » ليعالجه . . . وتمت المعجزة التى عجز عن تحقيقها طبيب القصر وشفى ولى العهد ! ..

وصمم « لويس الرابع عشر » على أن يشترى سر الدواء الجديد ليذيعه بين رعيته ويجعله فى متناول الجميع . .

وتمت الصفقة بمنح « هلفيتيوس » ألفاً من الذهب ، وتعيينه مفتشاً عامًّا لمستشفيات « الفلاندرز » ، وطبيباً خاصًّا للدوق « أورليانز » !..

وحينئذ عرف الناس أن عقار « هلفيتيوس » لم يكن إلا مسحوق قشور « الإيپيكاك » أو « عرق الذهب » ! . .

وجاء التاجر « جارنييه » يطالب بنصيبه فى الصفقة ،

ولكن « هلفيتيوس » كان قد وصل إلى مركز استطاع به القضاء على أطماع « جارنييه » ، واغتصاب جميع حقوق استغلال « عرق الذهب » لنفسه ! .

وكأنما كان شراء العقاقير السرية سنة استنها « لويس الرابع عشر » واقتدى بها من بعده غيره من ملوك فرنسا . . فاهتم « لويس السادس عشر » — كما ذكرنا من قبل — بشراء سر قشور الكينا لعلاج الملاريا ، كما أنفق فى عام ١٧٧٦ مبلغاً كبيراً لشراء سر نبات « الشرخص الذكر » لعلاج المرضى بالدودة الوحيدة . .

ولم يكن للدودة الوحيدة أو غيرها من الديدان المعوية خطر يذكر على الفرنسيين فى ذلك الحين ، ولكنها الرغبة فى الاقتداء بالسلف وتقليده هى التى دفعت « لويس السادس عشر » إلى شراء سر دوائها ! .

ولقد كان لهذا الدواء فضل توجيه بحوث العلماء والأطباء إلى أفق جديد . . إذ أنهم حين وجدوا « الشرخص الذكر » يقضى على الديدان فتزول عن المرضى آثار الشحوب والهزال ويستعيدون صحتهم ونشاطهم ، خطر فى أذهانهم أن تكون الأمراض الأخرى كالسل والدفتيريا والتيفوس وغيرها تتسبب عن وجود أنواع من الديدان غير المنظورة فى الجسم تفتك بداخله وتعكس على ظاهره مختلف الأعراض ! .

وتسلطت هذه النظرية على عقول كثير من العلماء والأطباء ، فبدأوا يبحثون وينقبون عن تلك الديدان الخفية ليعرفوا كنهها وحقيقتها ، ويحاولوا ابتكار أدوية تقضى عليها وتشفى مختلف الأمراض ! .

ومن بين هؤلاء العلماء برزت أسماء : الكيمياوى الفرنسى الشاب « لويس پاستير » ، والصيدلى الفرنسي أيضاً « چولز لومير » ، وإخصائى الولادة المنغارى « إيناز سميلڤايس » ، والطبيب الأمريكى « ويندل هولمز » . . وكذلك الجراح الأسكتلندى الشاب « چوزيف ليستر » . .

* * *

فى عام ١٨٦٠ كان « چوزيف ليستر » قد وصل حديثاً إلى « جلاسجو » ليكون أستاذ الجراحة بجامعتها . . وكانت الجراحة إذ ذاك فى مهدها ، والجراحون لا يقدمون إلا على الجراحات البسيطة التى تتعلق بالكسور والأورام . .

ومن كان منهم يجرؤ على إجراء جراحة داخلية يُشق فيها البطن ، لم يكن يوصف إلا بالعته والجنون وتحل به لعنة الأطباء والناس أجمعين ! . .

كذلك لم يكن يستسلم للجراحين إلا القليلون من المصابين المتألمين . . ولا عجب ، فالجراح كان كالجزار ! . . مئزر تلطخه بقع الدماء ، وأدوات صدئة ، وآلات يعلوها الدم المتجمد والأقذار ! . .

أما غرف العمليات فكانت تعرف بالروائح النتنة المتصاعدة من الصديد المتخلف من شتى الجراحات ! .

وكان معظم الذين يوقعهم سوء حظهم تحت مبضع الجراح ليشق لهم خراجاً ، أو يبتر عضواً ، يخرّون صرعى « التسمم الدموى »، و «التيتانوس » ، و «الجانجرين» ، التى تتسبب عن شىء غريب يغزو الجروح ويسرى إليها مستخفياً فى غرف العمليات ! . .

وحار الجراحون فى أمر ذلك الشىء الغريب ، الذى ما يكادون ينتهون من الجراحات ويطمئنون إلى سلامتها ، حتى يتسرب فى غفلة منهم إلى الجروح فيقيحها ويملؤها بالصديد العفن الكريه ، ثم يصب الحمى فى جسم المريض فتشتعل فيه ناراً لا تخمد حتى تخمد معها جذوة الحياة ! .

وتفاقم الأمر ، وكثر عدد الضحايا ، وصار الجراحون يخبطون فى محاولة اتخاذ الاحتياطات التى تقى مرضاهم من غزو ذلك الشىء الغريب . . فمنهم من كان يعمد إلى تهوية غرف العمليات ، . . أو طلاء حوائطها بالجير ! . . ومنهم من كان يمتنع عن إجراء الجراحات فى شهور معينة من العام ! . .

وكان « إينازسميلفايس » أول من اشتبه فى العدوى ، وتعالت صيحاته فى « بودابست » محذرة زملاءه الأطباء من

نقل ذلك الشيء الغريب المجهول من جثث الموتى ومن أسرة المرضى إلى الأصحاء والناقهين ! . ولكن صيحاته ضاعت أدراج الرياح ولم ينصت أحد إلى تحذيراته أو يتبع تعليماته . .

وفى « جلاسجو » قضى « ليستر » أربعة أعوام يكافح ذلك « الشيء المجهول » الذى يغزو غرف العمليات مستعملا شتى طرق النظافة والاحتياطات ، ولكن دون جدوى . .

وذات مساء من أمسيات خريف عام ١٨٦٤ ، وكان عائداً إلى منزله بصحبة البروفسور « توماس أندرسون » أستاذ الكيمياء ، تطرق بهما الحديث إلى « لويس پاستير » . .

ولم يكن « ليستر » قد سمع عنه من قبل ، وعجب لما ذكره البروفسور « أندرسون » عن ذلك الكيماوى الفرنسى ومقالاته التى تحدث فيها عن شيء سماه « البكتيريا » أو « الميكروب » ، ووصفه بأنه نوع من الأحياء الدقيقة ، وأنه المسؤول عن جميع عمليات التعفن والتخمر . .

وجالت بخاطره فكرة : أو تكون تلك « البكتيريا » أو « الميكروبات » التى اكتشفها « پاستير » وقال إنها كائنات حية تسبح فى الهواء ، هى المسئولة أيضاً عن تعفن الجروح وتكوين الصديد الذى يفسدها ويسبب المضاعفات ؟ !. .

ودارت رأسه بتلك الفكرة الطارئة ، وبات ليلته يفكر . .

فى اليوم التالى مضى إلى المكتبة يقرأ مقالات « پاستير » ،

فامتلأ إعجاباً به وبتجاربه الرائعة التى هدته إلى اكتشاف الميكروب . .

وأخذ يعيد تجارب « پاستير » فأيقن أن التعفن يسير مع « الميكروب » جنباً إلى جنب ، وأن تلك المضاعفات التى تفسد جراحاته إنما تتسبب عن « ميكروبات » خفية تغزو الجروح ! . .

ومضى ينقب فى مقالات « پاستير » عن طريقة للقضاء على « الميكروبات » ، ولكنه لم يتوصل إلى شىء . . ذلك أن « پاستير » كان معنياً فقط ببحث تخمر المحاليل السكرية وصنع الأنبذة . . وقد ذكر فى أبحاثه أن حرارة الغليان كفيلة بالقضاء على الميكروبات . .

ولكن . . ألا توجد طريقة أخرى تقضى عليها ؟ . فليس من المعقول أبداً أن يغلى مرضاه ! . .

ومضى « ليستر » إلى صديقه العالم الكيماوى « أندرسون » يستشيره فى الأمر ، فأنبأه بأمر بعض المواد الكيمياوية التى تستطيع وقف عملية التخمر والتعفن ، ومنها : الكحول ، والجليسرين ، وملح الطعام ، وكلوريد الجير ، والجاوى ، وبعض الزيوت النباتية . . ولكنه لم يؤكد مقدرتها على تعقيم الجروح وإبادة الميكروبات . .

وكاد « ليستر » ييأس ، ولكن « أندرسون » فاجأه ذات يوم بمعلومات جديدة عن مادة كيمياوية تسمى : « الفينول » . .

إنها « حامض الكربوليك » المستخرج من قار الفحم . .

لقد استغل قدماء المصريين قار الفحم فى حفظ موميائهم من الفساد ، واستعمل أيضاً فى طلاء أخشاب السفن وفلنكات الطرق الحديدية ليقيها من التلف . . فهو إذن يقضى على الميكروبات . . وقد يكون الفينول المستخرج منه قد احتفظ بخواصه المبيدة للميكروبات . .

ولم تلبث هذه الفكرة التى جالت بخاطر « ليستر » أن تدعمت بما ترامى إليه من أنباء بحوث قام بها الدكتور « كروكس » لإزالة الروائح العفنة المتصاعدة من مياه المجارى بإضافة كميات من « حامض الكربوليك » أو « الفنيك » إليها . .

ولم يتردد « ليستر » ، فأرسل يطلب مقداراً من « حامض الكربوليك » من « مانشستر » حيث كان « فريدى كلافرت » يستخلصه من قار الفحم على نطاق ضيق . .

ووصلت إليه كمية من السائل الغفل القاتم ، وهو لا يدرى أن العناية الإلهية قد وضعت بين يديه مادة من أقوى المواد المطهرة الفتاكة بالميكروبات . .

وأنى له أن يدرى وهو الذى لم يكن وقته يتسع لقراءة الصحف والمجلات العلمية ، وما ذكرته عن اكتشاف الكيمياويين الألمان لمقدرة « الفينول » على وقف عملية التعفن والتخمر فى ثوان معدودات ! . . أو ما وصفته من محاولة الصيادلة

والأطباء الفرنسيين علاج بعض الأمراض بمساحيق وسوائل يدخل « الفينول » فى تركيبها . . وكذلك استعمال ذلك السائل العجيب فى إنجلترا نفسها كمطهر فعال فى مقاومة وباء طاعون الماشية ! . .

وذات ليلة دعى « ليستر » إلى المستشفى لإجراء جراحة لمصاب بكسر مضاعف . . وجرب ليلتها تطهير الجراح بالفينول ، ولكن التعفن خطا خطواته المحتومة وانتهت حياة المصاب بالوفاة ! . .

ولم ييأس وقرر أن يجرب « الفينول » مرة أخرى . . وفى صباح ١٢ أغسطس من عام ١٨٦٥ — وهو من أيام الطب الخالدة — حملوا إليه صبياً فى الحادية عشرة من عمره ، كسرت ساقه اليسرى عجلة إحدى عربات النقل الكبيرة . .

وانتهى « ليستر » من العملية ، وغطى الجراح بضمادات مبللة بحامض الكربوليك . . ووقف ومن حوله مساعدوه وزملاؤه يرقبون الحمى تسرى إلى بدن الغلام ، والروائح العفنة تتصاعد من الجروح ، والصديد النتن ينساب منها بالموت الزؤام . .

ولكن شيئاً من هذا لم يحدث ، وظلت حالة الغلام طبيعية . وفى اليوم الرابع رفعت الضمادات فبدا من تحتها الجرح نظيفاً فى طريقه إلى الالتئام ، إلا من احمرار شديد

سببه تركيز « حامض الكربوليك » . . أما الصديد فلم يبد له أثر على الإطلاق . . فياله من نجاح ! . .

وبعد ستة أسابيع غادر الغلام المستشفى بساق سليمة دون أن يصيبه مكروه . .

* * *

ومضى عامان ، ظل « ليستر » خلالهما يجرب السائل السحرى ، وحصل منه على أنواع أكثر نقاوة ، وهدته تجاربه إلى درجة التركيز المناسبة للتطهير دون أن تؤذى أو تتلف الأنسجة . . وابتكر آلة صغيرة تنفث رذاذ « الفينول » فى غرف العمليات إمعاناً فى تطهيرها . .

ولما وقف فى اجتماع الجمعية الطبية البريطانية بمدينة « دبلن » يعلن اكتشافه الجديد وطريقة التطهير ، قوبل بالإعراض والاستخفاف من كثير من زملائه ! . .

ولكنه لم يهتم بهم ومضى يبحث ويجرب ، فابتدع الخيوط الجراحية المعقمة بالفينول لخياطة الجروح . . وأخذ يكتب فى المجلات العلمية مقالات مسهبة عن تجاربه واكتشافاته التى آمن بها ، ومضى يدافع عن نظرياتها ونتائجها ويحاول إقناع زملائه بتطبيقها واتباعها . .

واهتم علماء ألمانيا وفرنسا والسويد بتلك المقالات وقدروها. أما مواطنوه الإنجليز فظلوا سادرين فى عنادهم ، وشنوا عليه

حملة شعواء كان من متزعميها سير « جيمس سيمبسون » مكتشف التأثير المرقد للكلوروفورم !

ولم تزد « ليستر » تلك الحملات إلا إيماناً بطريقته الجديدة للتطهير ، فوصل الدعاية لها وتدعيمها بالتجارب والبراهين . .

ومضت سنوات ، أخذ فيهــا مؤيدو « ليســتر » ومعتنقو نظريته يضيقون بأبخرة « الفينول » التى تملأ غرف العمليات وتسبب أحياناً لهم ولمرضاهم بعض أعراض التسمم . . ومن ثم بدأ العلماء يبحثون عن مركبات مطهرة أخرى : فجربوا « حامض البوريك » ، ومحاليل«الهيبوكلوريت» ، و« اليود » ، و « الأيودوفورم » وغيرها . .وأخذت البحوث فى هذا الميدان الذى استحدثه « ليستر » تتطور تطوراً عاد على الإنسانية بالخير العميم . . ولم تلبث أن وجهت أنظار الأطباء الباطنيين إلى عالم « الميكروب » . . فبدأوا يؤمنون بتسبب الأمراض عن أنواع خاصة من«الميكروبات» ، وأخذوا يبحثون عن طرق يقضون بها على تلك « الميكــروبات » كلما غزت أجسام المرضى ، فيطهرونهم منها ويمنحونهم الصحة والشفاء . .

وتوالت التجارب والمحاولات حتى جاء « پول إرليخ » فكان أول من حقق ذلك الحلم الجميل الذى طاف بأخيلة الأطباء الباطنيين ، وابتكر دواء أنقذ الملايين من عذاب مرض الزهرى اللعين . .

ولقد كان « إرليخ » يعزو نجاحه إلى رجلين كان لهما أكبر الأثر فى توجيه حياته وأبحاثه . . أولهما ابن عمه الپاثولوجى الكبير « كارل ڤايجرت » الذى قضى عشرين عاماً من عمره يحاول ابتكار طريقة لصبغ الألياف العصبية لكى تبدو بوضوح تحت الميكروسكوب . .

وثانيهما « روبرت كوخ » طبيب القرية الذى صار من أمهر وأعظم غزاة الميكروب ، فاكتشف ميكروب السل وغيره من الميكروبات الفتاكة ، وظل يوصل بحوثه وتجاربه الخالدة حتى ختم جهاده العلمى الرائع بحب عاصف لإحدى فتيات المسارح ! .

فى عام ١٨٧٦ كان « كوخ » قد ترك معمله القروى الصغير ليكون طبيباً لبلدية مدينة « برسلاو » ، وذات يوم أتيحت له فرصة زيارة المدرسة الطبية فرأى بمعمل الباثولوجيا طالباً شاباً غارقاً بين الشرائح الزجاجية وقنينات الأصباغ . ولم يكن ذلك الشاب إلا « پول إرليخ » ، وكان طالباً فاشلا فى دراسته الطبية ، إلا أن فشله لم يعقه عن أن يكون أمهر من يصبغ الأنسجة والخلايا المختلفة مع إعدادها لتفحص بالميكروسكوب ! .

ولم ييأس « إرليخ » ، بل مضى يحاول إتمام دراسته الطبية ، فترك « برسلاو » إلى « ستراسبورج » ، ومنها رحل إلى

« فرايبورج » ، ثم انتقل إلى « ليبزيج » ، مخلفاً وراءه فى كل من جامعاتها مناضد ملطخة بصبغاته الحمراء والزرقاء والصفراء تثير نفوس أساتذته إشفاقاً عليه ! . .

ولم يلبث أساتذته أن منحوه فى نهاية المطاف درجته الطبية تقديراً لجهوده الرائعة فى صبغ مختلف أنواع الخلايا والأنسجة ! . . تلك الجهود التى أدت به إلى اكتشاف خمسة أنواع من خلايا الدم . .

والتحق « إرليخ » بعد تخرجه مساعداً للبروفسور الكبير « فون فريريكس » بمستشفى برلين الخيرى ، وظل معه سبعة أعوام أثبت فيها أنه طبيب فاشل كما كان من قبل وهو طالب . فلم يكن يهتم بالمرضى أو يساهم مع زملائه فى علاجهم . . بل كان يقضى الساعات الطوال قابعاً فى معمله يصب أصباغه الخضراء على شرائح من الكبد ، فإذا ما دعى لفحص مريض لم يتركه إلا وقد لطخ ملابسه بمختلف الصبغات ! .

لذا لم يكن عجيباً أن يستغنى «فون فريريكس» عن خدماته بعد تلك السنوات السبع ، ويعينه على الالتحاق بمستشفى آخر أقل أهمية . .

ولم يكن « إرليخ » ليهتم بذلك ، فلقد كان شغله الشاغل أن يجد من الوقت متسعاً لتجربة أصباغه المختلفة على شتى الخلايا والميكروبات .

أجل ، فلقد حاول صبغ البكتيريا التى اكتشفها « پاستير » لعل الأصباغ تعينه على بحثها وتمييزها تحت الميكروسكوب ، فيستطيع التأكد من سلامة الخلايا والأنسجة التى يفحصها أو مرضها

ومضى « إرليخ » يجرب ويجرب . . وقضى سنوات طوالاً غارقاً بين الأصباغ والدماء والأنسجة المريضة بالسل والتيفوس والسرطان ومختلف الأدواء . . ولم يلبث أن أحس بدبيب السل فى بدنه وهو لما يتجاوز الثالثة والثلاثين من عمره . . ولم يكن قد مضى حينئذ على اكتشاف « كوخ » لميكروب السل أكثر من خمسة أعوام ! . .

وحضر « إرليخ » إلى مصر يستشفى بشمسها الساطعة ، وأقام عامين عاد بعدهما إلى ألمانيا صحيحاً معافى ليجد زوجته الوفية قد أقامت له بمالها القليل معملا فى برلين . .

وكان « كوخ » حينئذ فى أوج مجده ، وقد عاد أيضاً من مصر مكتشفاً لميكروب الكوليرا ، وكذلك الأميبا المسببة للديسنطاريا ، فاستحق تكريم ألمانيا بأسرها ، وأقيم له معهد خاص ببرلين : معهد الأمراض المعدية . .

واختار « كوخ » فريقاً من العلماء المبرزين ليعاونوه فى المعهد الجديد . . وكان من بينهم « پول إرليخ » وكذلك العلماء الألمان « لوفلر » ، و « جافكى » ، و « فايفر » ، والعالم الأمريكى « ويلش » ، والعالم اليابانى « كيتا ساتو » . .

وانتقل « إرليخ » بأصباغه إلى معهد « كوخ » وعقله الجبار يزخر بأفكار كثيرة نمت فيه وترعرعت خلال تلك الفترة التى قضاها بمصر يبصق من فمه الدماء المختلطة بميكروب السل ! . .

وكانت كلها تدور حول الأحلام التى راودت عقول الأطباء والعلماء فى تلك الحقبة من الزمان . . أحلام المناعة التى ابتدع ابن عمه « كارل فايجرت » إحدى نظرياتها . .

وخلال تلك الفترة التى قضاها « كوخ » يتصيد الميكروبات ويكتشف أنواعها المختلفة ، ظل « إرليخ » قابعاً فى معمله يدرس مناعة الحيوانات لبعض أنواع الميكروبات والسموم . . ولم ين خلال تلك البحوث عن تجربة أصباغه المختلفة وحقنها فى الحيوانات الحية . .

وذات يوم ، لاحظ بعد حقن فأر بصبغة « المثيلين الأزرق » أن أطراف الأعصاب وحدها تلونت باللون الأزرق، فأيقن بوجود تجاذب بين الأصباغ وبين بعض أنواع الخلايا . . وسيطر على عقله هذا الكشف الجديد ، فأخذ يفكر فى إمكان حدوث مثل هذا التجاذب بين المواد الكيمياوية والخلايا والميكروبات المختلفة . . ولكنه لم يجد من وقته متسعاً لبحث ذلك الموضوع .

فلقد شغلته تلك المادة الجديدة أو « الأناتوكسين » التى

ابتكرها « إميل فون بهرنج » للوقاية من مرض الدفتيريا ، والتى لم يستطع أحد تحضيرها بالقوة المناسبة لإحداث التأثير المطلوب ..

وبدأ « إرليخ » بالبحث عن طريقة لتقييم « الأناتوكسين » وتقدير قوته لإمكان ضبطها والتأكد من كفايتها لإحداث التأثير الواقى قبل الاستعمال . .

واهتمت الحكومة اهتماماً عظيما بهذا البحث الخطير. فأنشأت له معملا وزودته بمختلف الأجهزة والمعدات إيماناً منها بأهمية تلك المادة التى ستنقذ ملايين الأطفال من عدوان مرض الدفتيريا اللعين . .

وفى ذلك المعمل وفق « إرليخ » إلى تحضير كميات من تلك المادة الجديدة التى ابتدعها « بهرنج » للوقاية من الدفتيريا ، بقوة تركيز مضبوطة ومناسبة للعلاج . .

وكان هذا حدثاً كبيراً جعل العلماء من مختلف أنحاء العالم. يحجون إلى معمل «إرليخ» يشاهدون طريقته الجديدة ويتعلمون تحضير المادة المضادة للدفتيريا ليدفعوا شرها عن فلذات الأكباد من كل جنس ودين ! . .

ولم يلبث « إرليخ » حين اطمأن إلى سير العمل أن ترك أمر الإشراف على إنتاج « الأناتوكسين ». وتقييمه إلى مساعديه ، وعاد هو إلى أصباغه فى المعمل الذى بنى له فى مدينة « فرانكفورت » . .

وهناك اهتم ببحث نوع من الميكروبات اللولبية أو « التريبا نسوما » ، التى تسبب فصيلة منها مرض النوم وكان منتشراً حينذاك فى أواسط أفريقيا . .

وظل يجرب تأثير أصباغه على مختلف فصائل الميكروبات اللولبية ، لعله يتوصل إلى صبغة تستطيع إبادتها والقضاء عليها ..

وتوالت تجاربه حتى جرب مئات من الصبغات التى كانت معروفة إذ ذاك . . ومئات غيرها من الصبغات التى كان الكيمياويون الألمان يتسابقون فى تحضيرها وابتكارها . .

وانتهت تجاربه المضنية إلى صبغة حمراء بدت له ذات قيمة فسماها «تريپان» نسبة إلى «تريپانسوما» أو الميكروبات اللولبية ..

وأخذ مساعده اليابانى « شيجا » يجرب تأثيرها على صنف من تلك الميكروبات يسبب شلل الأرجل الخلفية للخيول .. فإذا بالصبغة تقتل الميكروب فى دماء الفئران ، ولكنها تفشل فى القضاء عليه فى أنابيب الاختبار أو دماء الخيول ! . .

وكاد « إرليخ » ييأس ويحجم عن مواصلة البحث ، لولا تدخل ابن عمه « كارل ڤايجرت » وإلحاحه عليه بمواصلة البحث فى ذلك المضمار . .

وذات يوم كان يقرأ إحدى المجلات العلمية الإنجليزية ، فاسترعى اهتمامه تقرير عن بحث قامت به مدرسة ليڤربول لطب المناطق الحارة ، وانتهى بنجاح أطبائها فى القضاء على

ميكروب مرض النوم باستعمال مركب زرنيخي قوى يسمى : « آتوكسيل » . .

ولم يلبث أن علم أيضاً أن صديقه الكبير « كوخ » يجرب ذلك المركب على المرضى بأواسط أفريقيا . . فهرع إلى الكيمياوى « برتهايم » يرجوه أن يحضر له كميات وافرة من « الآتوكسيل » ليشرع فى تجربته . .

واعتذر « برتهايم » أولاً محتجاً بما ذكره « كوخ » فى أحد تقاريره من أن « الآتوكسيل » قد سبب العمى لكثير ممن حاول علاجهم به من مرض النوم . . ولكنه لم يلبث أن اقتنع بعد إلحاح شديد من « إرليخ » ، وأخذ يستعد لتحضير الكميات المطلوبة .

وأخذ « برتهايم » يدرس طبائع « الآتوكسيل » وخواصه ، فوجده مركباً طيعاً فى يد الكيمياوى ، يسهل تحويله من الحموضة إلى القلوية ، وكذلك إغراؤه على الاتحاد بكثير من المواد والأصباغ .. وكان هذا إيذاناً بتحضير سلسلة من المركبات الزرنيخية الجديدة ، التى أخذت تتدفق من معمل « برتهايم » ، بعد تحضيره « الآتوكسيل » ليجربها « إرليخ » على الفئران الملقحة بالميكروبات اللولبية ! . .

وتتابعت جثث المئات والآلاف من الفئران التى صرعتها المركبات الجديدة أو الميكروبات التى لم تتأثر بتلك المركبات.

ومع هذا ظل « إرليخ » مثابراً على تجاربه ، يستحث

« برتهايم » على إمداده بفيض من المركبات الزرنيخية التى استحدثها بعلمه وعبقريته من « الآتوكسيل » . .

وتوالت الأيام والشهور والسنون ، وقد سيطر هذا البحث على « إرليخ » وأعوانه سيطرة لم يشهد مثلها تاريخ البحث والتجريب . . حتى إذا ما أقبل عام ١٩٠٧ كانت المركبات الزرنيخية التى جرب تأثيرها على الميكروبات اللولبية قد بلغت ستمائة مركب وخمسة ! .

ومضى « إرليخ » يؤلف تصميم المركب السادس بعد الستمائة من تلك المركبات الجديدة المبتكرة التى أطلق عليها الكيمياويون اسم « مركبات داى أوكسى داى أميدو أرسينو بنزول » ! .

وأخذ يرسمه على الورق ويرمز لذراته بالحروف . . فإذا به مركب عجيب معقد التركيب . .

ولم يحجم « برتهايم » عن محاولة تحضيره ، وانكب على أنابيبه وأنابيقه يبذل مجهوداً جباراً فى سبيل تأليفه وتشييده كما شيد من قبل أخواته . .

وتحققت المعجزة . . وبرز المركب الجديد ٦٠٦ إلى حيز الوجود ! . .

وحقنه إرليخ فى الفئران الملقحة بالميكروب اللولبى فإذا به يقضى عليه دون أن تتأثر به الفئران ! . فلم يورثها العمى ،

أو يتلف أنسجة المخ أو يؤذيها كما كانت تفعل المركبات السابقة..

ولم يقنع « إرليخ » بهذا النصر العظيم ، بل تمادى فى بحثه وعزم على تجربة المركب ٦٠٦ على ميكروب الزهرى الذى كان أحد العلماء قد أثبت أنه واحد من الميكروبات اللولبية . . إنه إن أفلح فى القضاء عليه كما قضى على أبناء عمومته ، حقق للإنسانية نصراً كبيراً على مرض خطير ! .

وتشاء العناية الإلهية أن ترسل إلى « إرليخ » فى تلك المرحلة الحاسمة من بحثه مساعداً له قيمته ودرايته بأبحاث الميكروبات . إنه « هاتا » العالم اليابانى المثابر الصبور . .

وأخذ « هاتا » يعاون « إرليخ » بجد عظيم . . فأثبت مهارة فائقة وحذقاً عظيما فى معاملة ميكروب الزهرى وتربيته ، ثم حقنه فى الأرانب والقرود . .

وامتلأت الحظائر بالحيوانات الملقحة بالزهرى، وبدأ علاجها بالمركب الجديد . . فكانت النتيجة باهرة ، والتأمت القروح البشعة ، كما اختفت الميكروبات الرهيبة من دماء الحيوانات..

ورأى « إرليخ » أن يتوج كشفه الجديد بتجربة ٦٠٦ فى علاج زهرى الإنسان . . ولكنه تردد خوفاً من تأثيره السام . .

ومضى عامان وهو يجربه بكميات متباينة على مختلف أنواع الحيوان ، ولم يلبث وهو يقوم بذلك البحث التأكيدى أن ترامى إلى سمعه نبأ منحه جائزة « نوبل » ، لا من أجل

مركبه ٦٠٦ الذى لم يكن قد أعلن اكتشافه بعد ، ولكن من أجل بحوثه الأولى الرائعة التى أدت إلى اكتشافاته لخلايا الدم ونظرياته عن المناعة ! .

وفى سبتمبر من عام ١٩٠٩ كان « إرليخ » قد وصل بتجاربه إلى مرحلة جعلته يقرر القيام بتلك التجربة التى تردد كثيراً فى إجرائها : تجربة علاج زهرى الإنسان بمركبه الجديد . .

وأرسل عينات منه فى أمبولات زجاجية معقمة ومقفلة إلى نخبة من كبار علماء الطب فى جامعات ألمانيا ، ورجاهم أن يجربوها فى علاج مرضى الزهرى وكذلك مرضى الحمى الراجعة التى تتسبب كذلك عن ميكروب لولبى . .

وفى إبريل من عام ١٩١٠ وصلت إليه النتائج الأولى ، تفيض بالإعجاب والتقدير لدوائه الجديد . . وتتابع إلحاح العلماء عليه ليعلن على العالم أنباء كشفه العظيم . . وتردد « إرليخ » كثيراً قبل أن يقف فى مؤتمر الطب الباطنى الذى انعقد فى مدينة « ڤيزبادن » ، ليعلن على الملأ اكتشافه الرائع لمركب كيماوى يشفى الزهرى ويخلص الإنسانية من لعنته ووطأته . .

واتجهت أنظار العالم بأسره نحو « فرانكفورت » ، وأخذ الناس يتلقفون أنباء ساحرها العظيم الذى حالفه النجاح فى شفاء المرضى بذلك المرض الرهيب الذى قاسى منه البشر ويلات وويلات خلال الأحقاب والسنين . .

وتهافت الأطباء من كل حدب وصوب على « فرانكفورت » يحاولون الحصول على مقادير من ٦٠٦ أو « سلفارسان » أو « أرسيفنامين » كما سماه « إرليخ » . .

وأخذ الكيمياويون والمساعدون يصلون الليل بالنهار لإنتاج أكبر مقدار ممكن من المركب يواجهون به تلك المطالب المتزايدة . . ولم يشغل « إرليخ » هذا الإقبال الشديد عن مواصلة بحوثه وتجاربه على المركبات الزرنيخية حتى وصل إلى المركب ٩٠٤ فوجده كذلك يمتاز بالمقدرة على شفاء الزهرى . . فسماه « نيوسلفارسان » .

ولم تلبث منيته أن وافته فى عام ١٩١٥ فى وقت كان يتمنى فيه لو طال أجله ليداوم غزواته الموفقة فى عالم الميكروب... ويدعم تلك المدرسة الجديدة التى ابتدعها وأحدث بها ثورة وتجديداً فى علم العقاقير . . إذ روّض « الزرنيخ » وهو العنصر السام المميت ، وأدخله فى مركبات عضوية معقدة جعلت منه بلسماً فيه الصحة والشفاء . .

* * *

وأخذ العلماء بعد وفاة « إرليخ » يقتفون أثره ، وأقبلوا على العناصر السامة يروضونها كما روّض « الزرنيخ » . .

وبدأوا بأملاح « الزئبق » ومركباته السامة التى استعملت فى وقت من الأوقات لعلاج الزهرى . . فصنعوا منها مواد

مطهرة ومبيدة للميكروبات وأهمها « المركوروكروم » ذلك المركب الذى يستعمل اليوم محلوله الأحمر فى التطهير والعلاج بنجاح عظيم . .

ومضى الكيمياويون يروضون عنصراً سامًّا آخر هو « الأنتيمون » ، فأسلسوا قياده وحضروا منه مركبات مختلفة لها أهميتها فى علاج مرض البلهارسيا ، وأهمها « الطرطير المقيئ » ، و« الاستيبوفين » ، أو « الريبودرال » ، أو « الفؤادين » .

ولم يقنع بعض العلماء بمركب ٦٠٦ فقدموا للإنسانية مركبات أخرى مثل « تريپارساميد » لعلاج مرض النوم وزهرى المخ ، وكذلك « استوڤارسول » لعلاج الزهرى فى مراحله الأولى . .

وجاء « أندرسون » وغيره من العلماء الأمريكيين فأثبتوا بتجاربهم أن مركب « كاربارزون » الذى برهنت تجارب « إرليخ » على أنه غير قتال للميكروبات اللولبية ، من أفضل العقاقير الشافية للديسنطاريا الأميبية . .

و « الما فارسين » الذى أحجم « إرليخ » عن استعماله فى علاج الزهرى ، جاء بعض العلماء فأفلحوا فى استغلاله فى ذلك المضمار . .

ولم تلبث الأصباغ الجميلة التى أحبها « إرليخ » وكرس لها حياته ، أن لعبت هى الأخرى دوراً رائعاً فى دنيا العقاقير :

فصبغة « التريبافلافين » مثلا التى أعرض عنها « إرليخ » لعدم تأثيرها على اللولبيات ، أثبتت تجارب تلميذه الأسكتلندى « كارل براوننج » أنها من أفتك المواد بالبكتيريا ، وأنها من أقوى المطهرات . .

وسار بعض علماء أمريكا على هدى تعاليم « إرليخ » فكان نجاحهم فى تحويل مركب « الريزورسينول » إلى مركب عظيم القيمة فى القضاء على دودة الأسكارس وغيرها من لديدان المعوية ، وهو مركب :

« هكسيل ريزورسينول » . . .

وكان هذا حافزاً للعلماء على تجربة المركبات الكيمياوية الأخرى فى العلاج ، فكان توفيقهم فى استغلال « الثايمول » ، « والنافتول » ، « ورابع كلوريد الكربون » فى كفاح الطفيليات المعوية . .

وبذلك انقلبت بفضل « إرليخ » مجموعة كبيرة من المركبات الكيمياوية إلى عقاقير نافعة ، وأصبحت فى أيدى الأطباء أسلحة ماضية تكفل للإنسانية الشفاء والخلاص من أذى كثير من الميكروبات . .

المنوّمات

استولت على « يوستوس ڤون ليبيج » منذ صباه رغبة جامحة فى أن يكون كيمياويًّا ! . . فلقد كان يعشق التفاعلات الكيمياوية وما تنتجه من مركبات زاهية الألوان ، وأبخرة وغازات كثيفة ومتنوعة ، وانفجارات يتردد صداها فى بعض الأحيان ! . .

ولم يكد يبلغ السابعة عشرة من عمره حتى تحققت أحلامه، ووافق أبوه فى عام ١٨٢٠ على إلحاقه بجامعة « بون » ليدرس فيها علم الكيمياء . .

ولكن الفتى لم يجد فى تلك الجامعة الألمانية ما يحقق آماله ، فرحل إلى باريس حيث تتلمذ على العالم الفرنسى الكبير : « جاى لوساك » . . ولم يلبث أن أتم دراسته ، ولفت الأنظار إلى براعته ودقته فى ممارسة التجارب الكيمياوية ، وعاد إلى ألمانيا ليكون أستاذاً للكيمياء بجامعة « جيسن » بفضل معاونة صديقه الكبير البارون « فون همبولدت » . .

وعجب الناس لتلك الجامعة الألمانية الكبيرة التى تغامر بسمعتها العلمية العتيدة ، وتسند هذا الكرسى العلمى الخطير

إلى شاب لم يكد يبلغ الحادية والعشرين !

ولكن السنوات القلائل التى تلت تعيينه برهنت بوضوح على أن ذلك الشاب الذكى المتوقد قد جعل من جامعة «جيسن» قبلة أنظار طلاب الكيمياء . .وأثبت « ليبيج » أنه جدير بمنصبه الكبير . فكان يحاضر الطلاب ثم يأوى إلى معمله عاكفاً على الأنابيق والبواتق والمكثفات يجرى تجاربه وبحوثه الخالدة التى فتحت آفاقاً جديدة واسعة فى دنيا الطب والكيمياء والعلاج . .

فى عام ١٨٣٢ كان قد حضّر سائلا جديداً سماه « الكلورال » ، وذلك بإمرار غاز الكلور فى الكحول . . ولما عامل السائل الجديد بمادة قلوية قوية حصل على سائل آخر لم يكن أحد قد عرفه من قبل ، وسماه « الكلوروفورم » . . وهو ذلك السائل الثقيل الرائق كالماء ، ذو الرائحة الحلوة والتبخر السريع ، الذى لم يلبث الأسكتلندى « سيمبسون » بعد خمسة عشر عاماً من اكتشافه ، أن عرف — كما ذكرنا — خواصه المرقدة العجيبة التى نعمت بها الإنسانية وخلدت اسم « ليبيج » على مدى الأزمان . .

وفى عام ١٨٦٨ كان « أوسكار ليبرايش » الطبيب الألمانى الناشىء مهتما بالبحث عن مادة كيمياوية يداوى بها الأرق . . وذلك لقلة العقاقير المنومة التى كانت معروفة حينذاك ،

ولأن معظمها كان غير مأمون الاستعمال . .

فأملاح البروم مثلا ضعيفة التأثير ، والمورفين والإتير والكلوروفورم والحشيش وغيرها من المرقدات والمخدرات الشائعة فى ذلك الوقت ، كانت جميعها خطيرة العواقب ولا تصلح لعلاج الأرق واصطناع النوم ! .

وسيطرت على عقل « ليبرايش » فكرة البحث عن عقار منوم مأمون وسهل الاستعمال ، وأقبل على البحوث والتجارب الكيمياوية يسعى بها إلى تحقيق غايته . .

وذات يوم قرأ فيما قرأ تفاصيل طريقة « ليبيج » التى حضر بها « الكلوروفورم » . . لقد خلط « الكلور » بالكحول ليصنع « الكلورال » ، ثم أضاف القلوى إلى الكلورال ليتكون « الكلورفورم » . .

إذن فتفاعل « الكلورال » مع المادة القلوية يؤدى إلى تكوين مادة مرقدة ومنومة ! . .

وإذن فهو يستطيع أن يحقن « الكلورال » فى دم الأحياء فإذا ما تفاعل مع المادة القلوية الضئيلة الموجودة فى الدم كون فيه مركباً منوماً يقضى على الأرق ! .

وسيطرت عليه هذه الفكرة التى إن دلت على شىء ، فعلى جهله بأصول الكيمياء . . فلو أنه لم يكن طبيباً وكان كيمياوياً مبتدئاً لسعى أولا إلى التحقق من فكرته والتثبت منها بتجربتها

فى أنبوبة الاختبار . وإذن لأدرك بوضوح خطأ نظريته ، ولعرف أن خلط الدم بالكلورال لا يكوّن جزيئاً واحداً من جزيئات « الكلوروفورم » ! .

ولكنه لم يفعل ، ومضى إلى الضفادع يحقنها بقطرات من الكلورال ، فوجدها تنام لفورها ثم تصحو بعد فترة وقد استعادت نشاطها ! . .

وأعاد التجربة على الأرانب والكلاب فوصل إلى النتيجة نفسها . . وتقدم إلى المسئولين باكتشافه الجديد فأذنوا له بتجربته على المرضى المجانين بالمستشفى الخيرى . . . ومضت ثلاث دقائق بعد حقن المجنون الأول بالكلورال ، فإذا به يتثاءب ثم تثقل جفونه ، ولم تمض ساعة حتى كان النوم العميق قد طواه ! .

ونام المجنون ثلاث ساعات لم يكن يحس خلالها بوخزات الإبر . . ثم صحا ليتناول غداءه ويعود إلى النوم العميق ! . .

وتتابعت التجارب فأثبتت أن الكلورال منوم مأمون العاقبة عظيم التأثير . وامتلأ قلب « ليبرايش » بالزهووالسرور.

ومضت شهور أثبت خلالها الكيمياويون أن نظرية تكوين « الكلوروفورم » فى الدم بتأثير الكلورال نظرية خاطئة ! . وأن التأثير المنوم إنما يرجع إلى الكلورال نفسه ! . . .

ولكن هذا لم يغير من شعور « ليبرايش » الذى ظل كما كان

مزهوًّا معتدًّا بنفسه ، يباهى زملاءه بكشفه الجديد الذى أهداه إلى الإنسانية منوماً لطيفاً يخلصها من ربقة الأرق والآلام ! .

وتوالت السنون ، وإذا بالتجارب والتقارير الطبية تثبت أن « الكلورال » لم يكن لطيفاً أو مأمون العاقبة كما اعتقد « ليبرايش » ، وأنه منوم خطير يغرى على الإدمان كالمورفين والكوكايين ! . .

وتكاثر الضحايا بازدياد الإقبال على الكلورال . فهب الأطباء يحمون مرضاهم منه ويقصرون استعماله على الحالات القصوى الشديدة المصحوبة بالهياج . .

* * *

وهنا تطلعت أنظار المرضى والأطباء إلى مولد مركب جديد يحل محل « الكلورال » ويأخذ بيد الإنسانية المؤرقة المعذبة إلى بر السلام . .

وكانت العناية الإلهية قد هيأت لتحقيق تلك الأمنية رجلا له خطره هو « إميل فيشر » . .

لقد كان فى السابعة عشرة من عمره يوم أعلن « أوسكار ليبرايش » اكتشافه تأثير الكلورال فى عام ١٨٦٩ . . وبدأ دراسته الكيمياوية فى جامعة « بون » كما بدأها « ليبيج » من قبل . . ثم ارتحل إلى جامعة « ستراسبورج » . . وكانت «ستراسبورج» حينذاك مدينة ألمانية أقبل عليها العلماء والعسكريون

يثبتون فيها دعائم الحكم الألمانى ، وبذلك اجتمع فى جامعتها فريق من الفطاحل والعباقرة فى شتى العلوم والفنون . .

وتتلمذ « فيشر » هناك على العالم الكبير « ڤون باير » ، الذى كان من أكبر علماء برلين . . ولما انتقل الأستاذ إلى « ميونيخ » لحق به تلميذه ، وهناك تفتقت مواهبه وعبقريته عن فيض من الكشوف الكيمياوية التى ظلت تتوالى وتتعاقب حتى جعلت منه أعظم كيمياوى عرفه التاريخ . .

وبدأت اكتشافاته بمركب « فنيل هيدرازين » الذى استغله فى الكشف عن وجود المواد السكرية والتفرقة بين أنواعها . . وأقبل على الأصباغ يبحثها ويدرسها فاستطاع أن يزيح الستار عن التركيب الجزيئى لكثير منها ، ثم نجح فى ابتداع طرق كيمياوية لتركيب وتشييد « الكافيين » و « الثيوبرومين » فى أنابيب الاختبار ، ولم يكن أحد قبله يستطيع الحصول عليهما من غير البن والكاكاو . .

ولما بلغ « فيشر » الثلاثين من عمره اضطر إلى فراق أستاذه ، ليكون أستاذاً للكيمياء فى جامعة « إرلانجن » . .

وفى الجامعة الجديدة تتابعت أبحاثه واكتشافاته ، فابتدع طريقة لتحضير سكر صناعى ، واستمر فى دراسة تركيب المواد السكرية والتفرقة بينها مستعيناً بمركب « الفنيل هيدرازين » . . .

وبعد ثلاثة أعوام انتقل الأستاذ الشاب إلى جامعة

« فورزبرج » ومن ورائه مئات من طلابه المعجبين بعلمه ونبوغه المبكر . .

وهناك تابع بحوثه وتجاربه على المواد السكرية ، تلك المواد التى لم يكن أحد قبله يعتقد أنها ستكون هدفاً للدراسات الكيمياوية . .

كما بدأ تجاربه على بعض المواد التى تفرزها الكلى . .

وفى تلك المرحلة من حياته تزوج « آجنس جيرلاك » الجميلة الذكية التى أنجبت منه ثلاثة أولاد . .

ولم يلبث أن تلقى من وطنه ألمانيا أعظم تقدير وتكريم ، فعين فى عام ١٨٩٢ أستاذاً لعلم الكيمياء بجامعة برلين . .

ومضت سنوات وهو منكب على بحث المواد السكرية ، وكذلك المركبات الحيوية المعقدة التى تسمى الإنزيمات والبروتينات . . فكانت بحوثه الرائعة الخالدة التى اقتحم بها حصن الحياة الحصين ، فأزاح الستار عن أسرار كثير من التفاعلات الكيمياوية الخفية التى تدور فى القناة الهضمية ، والأوعية الدموية وفى خلايا البكتيريا والميكروبات ! . .

فلم يكن عجيباً بعد هذا أن تكون جائزة « نوبل » لعلم الكيمياء من نصيبه وهو لم يكد يبلغ الخمسين من عمره . .

ولكن صحته كانت قد تداعت فجأة تحت وطأة تلك التجارب والبحوث المتشعبة ، وبدت عليه بوضوح مظاهر

التسمم البطىء الذى أصابه من تلك الأبخرة السامة التى اضطر إلى استنشاقها خلال أبحاثه الكيمياوية وتجاربه بمركب « الفنيل هيدرازين » ،وغيره من المركبات خلال تلك السنوات . .

* * *

وهنا كانت الظروف قد تهيأت لظهور وجه جديد فى معمل « إميل فيشر » . . ألا وهو وجه صديقه الطبيب « ڤون ميرنج » ، وهو الذى لم يحالفه النجاح فى ميدان الطب العلاجى ولقى من المرضى إعراضاً حين لمسوا منه انشغال العقل والقلب بغير التطبيب والعلاج ! .

ولما التقى بالآنسة « ماريا فوكسيوس » وأحبها وتزوجها ، كانت العناية الإلهية قد أرسلت إليه بمن يأخذ بيده فى الحياة ويدفعه إلى الطريق السوى الذى أراده له الله . .

فلقد أشارت عليه بالانتقال إلى « ستراسبورج » ، حيث التحق بالمعهد الفسيولوجى . . وهناك تحقق أمله ، وحانت له فرصة البحث والتجريب بعيداً عن المرضى وأنينهم وتلهفهم على الشفاء ! . .

وانتهى من تجاربه على « الكلورال » وتأثيره المنوم إلى أن يقرر : أن النوم ظاهرة متعلقة بكيمياء المخ ! . .

ولكن من ذا الذى يعرف كيمياء المخ ويستطيع اكتشاف أسرارها ؟ ! . .

وقرر أن يكون هو مكتشف تلك الأسرار . .

وبدأ يجرب تأثير العقاقير والسموم المختلفة على المخ ، فوجد أن « النيتروبنزول» يقتل الكلاب بعد أن يسبب لها مرض البول السكرى.. وأن «الفوريدزين» يشبهه أيضاً فى التأثير..

واسترعت اهتمامه تلك الظاهرة التى تسببت عن هذين المركبين . . إن الكلاب لا تمرض عادة بالبول السكرى ! . . وهذا المرض لا يصيب الإنسان نتيجة لتأثير أى من هذين المركبين ! .

ولما رأت زوجته حيرته فى تعليل تلك الظاهرة ، أشارت عليه بترك التفكير فيها فترة والعودة إلى دراسة « الكلورال » وبحث تأثيره على بنى الإنسان . .

وفى سجن « ستراسبورج » وجد مرتعاً خصباً لتجاربه على المسجونين ، تلك التجارب التى انتهت به إلى تحضير مركب آخر من « الكلورال » ، يشبهه فى التأثير وهو « اميلين هيدرات » . . ولكنه مع ذلك لم يستطيع اكتشاف أسرار النوم ! . .

ولم يلبث أن عاد إلى التفكير فى البول السكرى ، وعاونه صديقه الجراح « مينكوفسكى » فى البحوث التى أجراها على ذلك المرض ، والتى أدت إلى نجاحهما فى إحداث البول السكرى فى الكلاب باستئصال غدة البنكرياس ! .

وكان هذا من أعظم الكشوف التى اهتدى إليها « ڤون ميرنج » . . ولكنه كعادته لم يتوسع فى دراسة اكتشافه الجديد، ولم يحاول إزاحة الستار عن تلك المادة الخفية الموجودة فى البنكرياس والتى تحول دون إصابة الأصحاء بمرض البول السكرى . . وعاد إلى أبحاثه القديمة على « الكلورال » ! . .

وهنا حانت له فرصة اقتناص منصب كبير ، فانتقل إلى جامعة « هال » أستاذاً بها . .

وبقى فى تلك الجامعة الصغيرة تسعة أعوام يتابع بحوثه وتجاربه ويحاول استنباط مركبات تصطنع النوم اصطناعاً دون أن تضر بالعقول أو الأجسام ! .

وفى عام ١٩٠٢ أيقن أن مشكلة النوم وأسراره أعوص من أن يستطيع حلها بمفرده ، فمضى إلى برلين . . إلى صديقه الكبير « إميل فيشر » زميله القديم فى جامعة « ستراسبورج » . .

وكانت فرحة « فيشر » عظيمة بصديق الشباب ،وساقهما الحديث إلى البحوث والتجارب ، فبدأ « ڤون ميرنج » يحدثه عن مشكلة الأرق والنوم التى حار فيها الأطباء ، ثم رجاه أن يكون عونه فى تحضير أسلم المنومات . .

ولم يلبث « فيشر » وهو عملاق الكيمياء فى ذلك الحين ، أن أقبل على البحث الجديد يجند له عبقريته ومواهب أعوانه وتلاميذه الأذكياء . .

وأطلعه « ڤون ميرنج » على جميع المحاولات التى قام بها فى هذا المضمار . . وقدم له على الورق رسماً لتركيب مركب كيمياوى يعتقد أنه المركب المثالى لاصطناع النوم . . وانكب « فيشر » على ذلك الرسم التصميمى الذى اقترحه « ڤون ميرنج » يدرسه باهتمام ، فإذا به مركب يسمى بلغة الكيمياء : « حامض داى إثيل باربيتوريك » . .

وأقام فى معمله مع مساعديه يحاولون إبراز ذلك المركب الجديد إلى حيز الوجود . . فحالفهم النجاح ، واستطاعوا أن يصنعوا أيضاً ثمانية عشر مركباً أخرى من فصيلته ! . .

ومضى « ڤون ميرنج » يجرب تأثير المركبات الجديدة على الكلاب . فإذا ببعضها عديم الجدوى فى اصطناع النوم . . بينما يقوم البعض الآخر بتنويم الكلاب نوماً هادئاً عميقاً أربعاً وعشرين ساعة كاملة ! . فى حين أن عدداً منها لم يكن يستمر تأثيره أكثر من ست ساعات يعقبها الخمول والدوار ! .

وتوالت تجاربه حتى أثبت أن المركب الأول الذى اقترحه كان أفضل تلك المركبات المنومة الجديدة التى ابتدعها « فيشر » . . فهو يصطنع فى الكلاب نوماً عميقاً يستمر ثمانى ساعات تفيق من بعده مستكملة العافية والنشاط . .

وفى مارس من عام ١٩٠٣ أعلنت تلك النتيجة الباهرة

فى تقرير مختصر ممهور بإمضاء « فيشر » ، و « ڤون ميرنج » ، شمل وصفاً للتجارب التى أجرياها بالمركب الجديد على الكلاب وبعض الآدميين . .

ولما وجدا أن اسمه الكيمياوى المعقد : « حامض داى إثيل باربيتوريك » يصعب على الجمهور ولا يساعد على انتشاره فى الأسواق ، اقترح « ڤون ميرنج » أن يسمياه : « ڤيرونال » نسبة إلى مدينة « ڤيرونا » الإيطالية التى كان يعتقد أنها أهدأ مدن العالم ! . . .

وكان « الڤيرونال » فاتحة مباركة لتلك المركبات والعقاقير المنومة العظيمة الفائدة ، والتى تسمى اليوم بأسماء أعجمية مختلفة ، وإن كانت جميعاً من فصيلة واحدة تسمى بمجموعة مركبات « الباربيتال » . .

فلقد أمكن العلماء المهتمين بدراسة تلك المركبات ، أن يقدموا للإنسانية بعد سنوات قليلة مركبات منومة أخرى أفضل من « الڤيرونال » وأسلم منه عاقبة . . وأهمها : « لومينال » ، و « فينوباربيتال » ، و « نمبوتال » ، و «سيكونال »، و « پنتوثال » .. وغيرها من العقاقير التى جعلت مركبات « الباربيتال » أهم الأدوية النافعة التى يلجأ إليها الأطباء فى عصرنا الحاضر للتحكم فى النوم ، وشفاء الأرق ، وإبعاد مضاعفاته عن بنى الإنسان . .

وليس فى العقاقير والمواد الكيمياوية ما ينافس تلك المركبات فى قيمتها وتأثيرها سوى « الپارالدهيد » الذى يستعين به الأطباء أحياناً فى المراحل الأولى لعملية الولادة ، وكذلك « الآڤرتين » الذى يحضر من اتحاد « الپارالدهيد » بعنصر البروم . .

ويشاء القدر أن يسافر « ڤون ميرنج » إلى إيطاليا بعد اكتشاف « الڤيرونال » بخمسة أعوام ، ليعود منها مصاباً بالتهاب رئوى حاد ، فيخف إليه عقاره الجديد ليخفف عنه بعض متاعبه وآلامه قبل أن يسلم روحه إلى بارئها ويمضى فى الخالدين ! . .

وظل « فيشر » بعد ذلك يتابع بحوثه الكيمياوية الرائعة عدة سنوات ، حتى شبت الحرب العالمية الأولى ، وانتهت بهزيمة ألمانيا وانهيار صحته ، فإذا به يجد « الڤيرونال » الذى صنعه بيديه ، ملكاً رحيما عاونه على احتمال الآلام إلى أن أسلمه الموت فى عام ١٩١٩ إلى الرقاد الأبدى الطويل ! .

الأسپرين

لم يكد الطبيب الألمانى « كارل ثيرش » يفضى إلى صديقه الكيمياوى « هرمان كولبه » بتلك الفكرة الغريبة التى تدور فى خلده .. فكرة الحصول على مادة كيمياوية مطهرة ، ليست سامة كحامض الكربوليك ، ويمكن استعمالها من الداخل للتطهير والقضاء على الميكروبات المسببة للأمراض .. حتى أسرع الكيمياوى الكبير إلى معمله يبحث ويجرب ليحقق أمنية صديقه القديم . . .

وشهد شتاء عام ١٨٧٣ وربيع عام ١٨٧٤ حركة دائبة متصلة فى معمل « كولبه » بمدينة « ليپزيج » لتحضير كميات وافرة من حامض الساليسليك . . .

ولم يكن هذا الحامض جديداً على « كولبه » ، فلقد كان له فضل تحضير بللوراته الدقيقة اللامعة البيضاء من حامض الكربوليك فى عام ١٨٥٣ .

ولما كان يعتقد — خطأ — أن حامض الساليسليك يتحول ثانية إلى حامض الكربوليك ويكتسب خواصه المطهرة ، فقد أقبل على بللوراته يحضرها لينتفع بها فى التطهير . . . ومضى

يجربها مع أعوانه ومساعديه . . فلما وجدها تحول دون تخثر اللبن أو تعفن اللحم إذا ما أضيفت إليهما ، تدعم اعتقاده وأيقن أن حامض الكربوليك يتكوّن من حامض السااليسليك ويقتل الميكروبات المسببة للتعفن والفساد ! . . .

وأسرع إلى صديقه الطبيب يفضى إليه بنتائج بحوثه ويرجوه أن يجرب المطهر الجديد . . .

وجربه « ثيرش » أولا على الجروح ، فإذا به ذو تأثير باهر في تطهيرها والإسراع بالتئامها . . .

وذاعت أنباء نجاح « حامض السااليسليك » فى التطهير فازداد الإقبال على معامل « كولبه » سعياً وراء هذا المطهر المأمون الذى يفضل حامض الكربوليك المميت ! . .

واهتم العلماء بدراسة «حامض السااليسليك » فإذا بتجاربهم وبحوثهم تثبت خطأ اعتقاد « كولبه » وتبرهن بوضوح على أن قوة تطهير هـــذا الحامض إنما ترجع إلى طبيعة تركيبه لا إلى تحوله إلى حامض الكربوليك . . .

وانتشر استعمال المطهر الجديد وتضاعف الإقبال عليه ، فأنشأ « كولبه » بمعاونة صديقه « فون هيدن » مصنعاً خاصاً لتحضيره وإنتاجه على نطاق واسع بمدينة « درسدن » . . .

وبذلك توفرت كمياته فى الأسواق ، وشجع هذا الأطباء على استغلاله فى التطهير الخارجى والداخلى غير عابثين بما

كان يسببه فى بعض الأحايين من مضاعفات ! . . .

كذلك تنبه صناع الأغذية ومنتجوها إلى خواصه الحافظة ، فصاروا يضيفونه إلى المواد الغذائية لتبقى فترة طويلة بمأمن من الفساد . . .

ومضت أعوام قبل أن تفتر حماسة الأطباء لحامض الساليسليك ، ويتنبهوا إلى عدم جدواه فى تخفيض نسبة الوفيات بأمراض الالتهاب الرئوى والتيفود والتيفوس وغيرها من الحميات التى صادف نجاحاً باهراً فى تخفيض حرارتها وتهبيطها ، ولكنه لم يفلح فى علاجها وتخليص المصابين بها من الأذى والدمار ...

لقد كانت الحمى تهبط بعد تناوله بقليل ، وينقشع عن المريض جحيمها اللافح ، وما تكاد تمضى بضع ساعات حتى يستعر أوارها مرة أخرى ولا ينقذ المريض منها إلا جرعة أخرى من حامض الساليسليك وهكذا تتوالى الجرعات المهبطة دون أن يشفى المريض أو ينجو من المضاعفات والوفاة ! . . .

ومضى الأطباء يجربون تأثير حامض الساليسليك فى ميدان آخر من ميادين العلاج . . . ولم يلبث الدكتور « فرانز ستريكر » أن أعلن نجاحه فى القضاء على الآلام الروماتزمية مع تهبيط الحمى التى قد تصاحبها . . .

وازداد الإقبال على حامض الساليسليك مرة أخرى ، وأخذ العلماء يحاولون البحث عن مركبات وعقاقير أخرى تفوقه

فى كفاح الحمى والقضاء على الروماتزم وتسكين الأوجاع والآلام . . .

وعادوا إلى « الكينين » أبى العقاقير المهبطة للحمى يحاولون ابتكار مركبات أخرى مشابهة له ، فى وقت كان الكيمياويون الألمان قد بدأوا يزيحون الستار عن غوامض تركيبه . . .

وفى عام ١٨٨٣ وبينما كان الكيمياوى الشاب « لودفيج نور » يحاول فى جامعة « فورزبرج » تحضير مركبات مشابهة للكينين ، بدا له ذات يوم أن يخلط المركب « مثيل فنيل هيدرازين » بمركب آخر هو « إثيل أسيتو أسيتات » ، فإذا به يحصل على بللورات بيضاء تذوب فى الماء والكحول . . .

فأيقن أنه اهتدى إلى مركب جديد . . . ولكن ماذا يفعل به ؟ . . وهنا تذكر صديقه الدكتور « فيلينه » وكان حجة فى أمراض الحميات . . . فكتب إليه ينبئه بأمر هذا المركب ، وأرسل إليه عينة منه يرجوه أن يجربها ليكشف عن تأثيرها وفوائدها . . .

ولم يلبث صديقه الطبيب أن كتب إليه مهنئاً بنجاح مركبه فى تهبيط الحمى ، راجياً إياه إن لم يكن قد سماه أن يسميه « أنتيپيرين » . . أى المضاد للحمى باللغة اليونانية ! . . .

وأثبتت التجارب الطبية بعد ذلك أن الأنتيپيرين وإن لم يكن يعدل « الكينين » فى تأثيره إلا أنه يفوق حامض الساليسليك

فى تسكين الآلام والصداع . . .

وهكذا اتخذ « الأنتيپيرين » مكانة بين العقاقير النافعة للبشر ، فكان أول عقار له قيمته أفلح الكيمياويون فى صنعه من ألفه إلى يائه فى أنابيب الاختبار ! . . .

وكان كذلك فاتحة موفقة لتلك الصناعة التى تبنتها ألمانيا وترعرعت فى أحضانها كما ترعرعت من قبل صناعة الأصباغ ... فكانت تلك المجموعة الباهرة من العقاقير المشيدة صناعياً والتى توالى تحضيرها فى معامل الكيمياء . . .

* * *

وفى عام ١٨٨٦ كانت أنظار المهتمين بالبحوث الطبية تتجه إلى معمل صغير فى « ستراسبورج » بالألزاس الألمانية .. كانت تتناثر منه أنباء متقطعة عن أبحاث خطيرة يقوم بها الدكتور « أدولف كوسماول » عن تأثير بعض المواد الكيمياوية على عمليات الهضم ، وقيمتها فى علاج الأمراض المعوية التى تتسبب عن الميكروبات والطفيليات . . .

وذات يوم . . وبينما كان الأستاذ ومساعدوه مقبلين على بحوثهم وتجاربهم بهمة ونشاط ، احتاج أحدهم إلى مقدار من « النفتالين » لتجربة معينة ...

وأتاه أمين المخزن يعتذر بنفاد كمية « النفتالين » ويقدم زجاجة لم تكن عليها علامات مميزة لعل ما فيها يقوم مقام

« النفتالين » ! ...

ومضى الدكتوران « كان » و« هيب » يجربان تأثير محتويات تلك الزجاجة المجهولة على الديدان المتطفلة على الأمعاء ... فأثبتت التجارب أنها غير ذات فائدة ، كما دلت رائحتها من قبل على أنها ليست « نفتالين » . . .

ومع ذلك فلم يلقياها جانباً ، بل صمما على تجربتها فى علاج أى مرض من الأمراض . . .

وأعطيا جرعة منها لمريض بالحمى ، فإذا بحرارته تنخفض . وكان هذا اكتشافاً له قيمته . . فانكبا على المادة المجهولة يبحثان تركيبها ويحاولان معرفة كنهها . . وسرعان ما تبينا أنها ليست إلا مادة قديمة معروفة للكيمياويين من عهد بعيد ، ويسمونها « أسيتانيليد » . .

وهكذا شاءت المصادفة أن يزاح الستار عن تأثير تلك المادة المهبطة للحمى والتى صارت تعرف بعد ذلك باسم : « أنتيفبرين » . . .

ولم تمض ستة أشهر على هذا الاكتشاف ، حتى كانت الظروف قد تهيأت لكشف جديد . . . إذ لاحظ الكيمياوى « كارل دويزبرج » مدير البحوث الفنية بشركة « باير » أن فناء المصنع يكاد يضيق بخمسين طناً من مسحوق « الپارافينول » الغفل الأصفر الذى يتخلف من صناعة الأصباغ . . .

وخطر له أن يستغل ذلك المسحوق فى صنع مركب جديد يكون أكثر فائدة . . . ومضى يجرب عليه شتى التفاعلات والعمليات الكيمياوية . . . فمرة « يؤستل » المجموعة «الأمينية» ، وأخرى يضيف إلى الجزىء مجموعات ذرية مختلفة ، حتى توصل إلى تحضير مركب جديد من مركبات « الأسيتانيليد » هو « إيثوكسى أسيتانيليد » . . .

وأرسل منه عينة إلى المستشفى الكبير فى « فرايبورج » . . وعند ما انتهت تجربتها كانت الأطنان المهملة فى فناء مصانع شركة « باير » قد اتخذت طريقها إلى المعامل الداخلية لتتحول إلى ذلك المركب الجديد الذى سمى : « فيناستين » ، وأثبتت التجارب أنه ذو فائدة كبرى فى كفاح الحمى وتهبيطها دون أن يسبب للمرضى أى أضرار ! . . .

وصار « الفيناستين » بذلك رابع المركبات المهبطة للحمى والتى تم اكتشافها وتحضيرها بأيدى العلماء الألمان . .

وتتابع من بعدها تحضير مركبات أخرى مهبطة للحمى : مثل : «پيراميدون » ، و « أمينو پيرين» ، وكذلك « سينكوفين» الذى نجح نجاحاً باهراً فى علاج النقرس . . .

وفى عام ١٨٩٩ وبينما كان الكيمياوى « فليكس هوفمان » يراجع بعض المذكرات والتقارير الكيمياوية ، استرعى اهتمامه مركب كان أحد الكيمياويين الألمان قد حضره من حامض

الساليسليك وأهمله اعتقاداً منه بعدم قيمته ، وتركه مطوياً فى زوايا النسيان . . .

ولم يكن ذلك المركب سوى « حامض الأستيل ساليسليك» الذى أعاد تحضيره « هوفمان » ، وحمله إلى البروفسور « هنريك دريزر » مدير قسم أبحاث العقاقير بشركة « باير » ، ومكتشف « الهروين » . . .

وقام « دريزر» بتجربة « حامض الأستيل ساليسليك» على الحيوان والإنسان فإذا به يجده أقوى من «حامض الساليسليك» فى التأثير ويمتاز عنه بأنه غير سام . . وتوالت تجاربه التى أثبتت أنه أسلم العقاقير والمركبات التى تهبط الحمى وتخفف الآلام . . .

ولم يلبث أن اقترح على « هوفمان » أن يختار له اسما يسهل تداوله على ألسنة الجماهير . . فكان اسمه الذى صار اليوم على كل لسان : « الأسپرين » . . .

عقاقير السلفا

كان « لودفيج نور » أستاذاً للكيمياء بجامعة « يينا » ، يوم اتصل به « كارل دويزبرج » فى ربيع عام ١٩٠٨ يرجوه أن يرشح واحداً من تلاميذه أو مساعديه ليكون كيماوياً بمؤسسة الصناعات الكيماوية الألمانية المتحدة . .

واختار « نور » الكيماوى الشاب « هينريك هورلاين » ، الذى جمع إلى براعته فى علم الكيمياء تعمقاً فى شئون السياسة والمال والاقتصاد ! ...

وعين « هورلاين » بقسم الأصباغ ، حيث بدأ عمله ببحث صبغة « پارا مينوبنزين سلفوناميد » .. ولكنه لم يلبث أن أبدى رغبته فى الانتقال إلى قسم العقاقير . . .

وتحقق له ما أراد ، وسرعان ما تفتقت مواهبه عن نبوغ عظيم مهد له السبيل إلى رئاسة الفرع الطبى بقسم المستحضرات الطبية بعد ذلك بأعوام . ..

ولما اتسعت بحوثه وأعماله وتشعبت ، اختار لمعاونته فى البحوث الباثولوجية الطبيب « جيرار دوماك » ، وعهد إليه بدراسة الأورام السرطانية على أن يستعين بالأصباغ المختلفة

فى تشخيص أطوارها . . .

ومضت سنوات جرب فيها « دوماك » مثات الصبغات والمواد ، ولكنه لم يصل إلى نتائج ذات بال . . .

وفى عام ١٩٣٠ خطر لهورلاين أن يكلف « دوماك » بالبحث عن عقار جديد يفتك بالميكروب السبحى . . . ذلك الميكروب الذى يسبب التسمم الدموى ، والحمى القرمزية ، والحمرة ، وشتى الالتهابات . . .

ومضى القسم الكيمياوى بالمؤسسة يمد « دوماك » بكل قديم وجديد من المركبات ليجرب تأثيرها ومفعولها . . وابتدعت له مركبات مختلفة غنية بعنصر الذهب ، ولكنه وجدها تفتك بالميكروب فى أنابيب الاختبار وأجسام الفئران ، حتى إذا ما بدأ بتجربتها فى جسم الإنسان استأسدت وأنشبت أظفارها فيه لتورده الموت الزؤام ! . . .

ومضى عامان . . . وذات يوم من أيام عام ١٩٣٢ ، هرول « دوماك » إلى « هورلاين » يفضى إليه بنبأ انتصاره على الميكروب السبحى وحصوله على العقار المنشود ! . . .

وكان العقار الجديد مركباً كيمياوياً ابتدعه زميلاه الكيمياويان « ميتش » ، و « كلارر » ، وأثبتت تجاربه البيولوجية فتكه وقضاءه على ذلك النوع من الميكروبات . . .

وأدرك « هورلاين » خطورة هذا الاكتشاف ، فمضى

إلى زميل له بالمدرسة الطبية بمدينة « دسلدورف» ، ورجاه أن يقوم بتجربة العقار الجديد . . .

ورحب الدكتور « شرويس » برجاء « هورلاين » ، وفيما هو يستعد لإجراء التجربة ، شاءت المصادفة أن يدعوه مساعدهِ الدكتور « ريتشارد فورستر » ليدلى برأى فى حالة طفل لم يبلغ الشهر العاشر من عمره ، فتكت الميكروبات العنقودية بجسمه الغض الصغير ! . . .

ودار رأس « شرويس » بخاطر غريب ! . إن الميكروبات العنقودية تشبه الميكروبات السبحية شبهاً كبيراً . . وهذا الطفل ميئوس من شفائه . . أفلا يجرب العقار الجديد فى علاجه ؟ ! . . .

وهرع إلى الزجاجة التى أحضرها « هورلاين » ، وأخذ منها أحد أقراصها الحمراء ، ورجا مساعده أن يعطى الطفل نصف القرص فوراً . . على أن يتبعه بالنصف الباقى فى المساء إذا ظل حيًّا ! . . .

ولم تمض ساعتان حتى اصطبغ جلد الطفل بلون العقار الأحمر ! . . وظل الطفل كما كان يعانى سكرات الموت ! . .

وأقبل المساء فاحتال « فورستر » حتى أعطاه باقى القرص . . وقضى الليل بجواره ساهراً يرقب حالته . .

ولما أسفر الصباح كانت حرارة الطفل قد بدأت تهدأ ،

وأخذت حالته تتحسن قليلا ! . . .

فأعطاه نصفاً ثالثاً ، ثم رابعاً ، حتى استكمل ثمانية أقراص . . فإذا بالطفل يسلم ويتم له الشفاء وينجو من موت أكيد . . .

وكاد « شرويس » و « فورستر » يطيران فرحاً . . فهذا العقار الجديد قد أثبت أن له تأثيراً كالسحر فى القضاء على الميكروبات السبحية والعنقودية . . وبرهن بوضوح على أن « دوماك » وزملاءه الكيمياويين يستحقون كل إكبار وإجلال وإعجاب ! . .

* * *

وتتابعت التجارب ، وتوالت انتصارات العقار الجديد ، ولم يأت عام ١٩٣٥ حتى كان « دوماك » قد بدأ يكتب تقريره عن هذه « الصبغة » الشافية ، مدعماً بتجارب الأطباء الذين أثبتوا نجاحها الباهر فى علاج التسمم الدموى ، ومختلف الأمراض التى تتسبب عن الميكروبات العنقودية والسبحية . .

وهكذا عرف العالم أنباء هذا الكشف الجديد الذى استحق « دوماك » من أجله جائزة « نوبل » . . ولم يلبث اسم « برونتوزيل » أن أطلق على تلك الصبغة الشافية التى برهنت على أنها من أعظم المركبات التى ابتدعتها الكيمياء وقدمتها للإنسانية بلسماً شافياً للجراح والأمراض . .

وسمع الكيماوى الفرنسى الكبير « إرنست فورنو » بأنباء هذا النصر الألمانى الجديد ، فازداد حنقاً على الألمان كما ازداد من قبل يوم اكتشف « إرليخ » مركب « ٦٠٦ » واستحث مساعديه على إنتاج مركب آخر ينافسه فى علاج الزهرى ، فكانت مركبات البزموت . .

وكذلك فعل « فورنو » فى هذه المرة أيضاً ، فمضى يجرب صنع « البرونتوزيل » فى معامل « پاستير » بباريس بمعاونة الكيمياوى « جاك تريفونل » وزوجته . . .

ولم تلبث بحوثهم المضنية أن توجت بنجاحهم فى صنع المركب الألمانى الأحمر ! . .

ولما تبينوا أنه معقد التركيب ، انكبوا عليه يبحثونه ويحاولون تبسيطه واختصار أجزاء منه لا تقلل من تأثيره وقوته . . . فوجدوا أن نصف جزيئه يتكون من أحد المركبات البسيطة من فصيلة « الأنيلين » متحداً مع « الكبريت » و « الأمونيا » . . كما وجدوا أن الجزىء إذا فقد هذا النصف زالت عنه قوة التأثير . .

وكان هذا دليلا على أن ذلك النصف من الجزىء هو الجزء الهام فى مركب « البرونتوزيل » . . .

وصنعوا النصف الفعال وحده وهو « پارامينو بنزين سلفوناميد » وجربوه . . . فحالفهم النجاح ! . . .

وسمى هذا المركب الذى هو جزء من « البرونتوزيل »

باسم « سلفانيلاميد » . . ولم يكن فى الواقع مركباً جديداً . . إذ اكتشف قبل ذلك بربع قرن فى صناعة الأصباغ ولم يعره مكتشفه حينذاك أدنى اهتمام وتركه مطوياً فى زوايا النسيان ! . .

وجاءت التجارب الطبية بعد ذلك فدعمت قيمة « السلفانيلاميد » ، حين أثبتت أن تأثير « البرونتوزيل » يرجع إلى تحلله فى الجسم وانطلاق « السلفانيلاميد » منه ليقضى على الميكروبات . .

وهكذا استطاع « فورنو » وزملاؤه الفرنسيون أن يزيحوا الستار عن تلك الخدعة العلمية الكبرى التى قام بها الألمان حين عقدوا تركيب « البرونتوزيل » ليخفوا بين طياته سر تركيب مركبه الفعال البسيط ! . . .

* * *

واشتدت منافسة « السلفانيلاميد » للبرونتوزيل ، وأخذ يحتل مكانته رويداً رويداً نظراً لسهولة إنتاجه ، ووفرة كمياته ، ورخص أسعاره ..

وتوالت التقارير الطبية من شتى أقطار العالم تشيد بنجاحه فى القضاء على الميكروبات السبحية والعنقودية وعلاج التسمم الدموي والسيلان والالتهاب السحائى وشتى الالتهابات ، وتنعته بأنه المطهر الداخلى الذى راود أحلام الأطباء والعلماء من قديم الزمان !

ولما ازداد تهافت الناس على أقراصه البيضاء التى لا تذوب فى الماء وشاع بينهم استعمالها ، لاحظ الأطباء أن بعض المرضى يتأثرون به ولا يحتملونه . . ووجدوا أن بللوراته تترسب فى الكلى فتؤذيها وتسبب لها شتى المضاعفات . .

وتعالت الصيحات من مختلف الأنحاء والأرجاء . . وأخذ العلماء يعيدون بحث المركب الجديد حتى تأكدوا من تأثيره المؤذى السام الذى لا يحتمله بعض الأشخاص . . . فهبوا يحذرون الناس من التمادى فى التداوى به دون مشورة الأطباء ، ونصحوا بتناوله مع المركبات القلوية مثل « سترات الصودا » لتقليل تأثيره الضار . .

ومضى الكيمياويون إلى معاملهم ومختبراتهم يحاولون تقليل التأثير السام لمركب « السلفانيلاميد » بإدخال شتى التعديلات على تركيبه .

فكان «السلفا پيريدين» الذى ابتدعه الكيمياويون الإنجليز ، وسمى بأسماء مختلفة منها « ٦٩٣ » ، و « داجينان » . . وأثبتت التجارب الطبية نجاحه الباهر فى علاج الالتهاب الرئوى الذى كان يعصف بحياة الكثيرين . .

وجاء وباء الحمى الشوكية الذى استشرى فى السودان فى عام ١٩٣٩ ، فلعب « السلفا پيريدين » دوراً رائعاً فى كفاح الوباء وأنقذ أرواح الآلاف من مواطنينا الجنوبيين . .

وأخذت بحوث العلماء تضيف كل يوم جديداً من عقاقير السلفا ، كل منها ينافس الآخر فى ضعف تأثيره السام ، ومقدرته على الفتك بنوع خاص من الميكروبات . . وبذلك تدعمت أسرة «السلفانيلاميد » بمركبات أخرى مثل « سلفاثيازول» و « سلفاديازين » و « سلفامرازيين » ، و « سلفاميذاثين » ، و « سلفاجواندين » ، و « سلفا سكسدين » . . وغيرها من العقاقير التى كسبت للإنسانية نصراً عظيماً على فريق كبير من الميكروبات ، وخلصت الكثيرين من شرها المستطير .

ولم تفقد عقاقير السلفا أهميتها أو قيمتها بعد اكتشاف « البنسلين » ، و « ستربتومسين » ، و « كلوروميستين » ، و « أريوميسين » ، و « ترامیسین » وغيرها من العقاقير الحيوية ، التى استخرجها العلماء من الأحياء الدنيا وحالفها النجاح فى القضاء على كثير من أنواع الميكروبات التى عجزت أمامها بعض مركبات السلفا . .

ولا عجب فلقد أثبتت التجاب والبحوث الطبية الحديثة أن لفريق كبير من عقاقير السلفا تأثيرات نوعية خاصة على بعض أنواع الميكروبات ، كما برهنت على أنها ذات قيمة لا تبارى فى كثير من ميادين العلاج . .

الهرمونات

هنالك فى جزيرة « موريتيوس » التى تقبع فى المحيط الهندى جنوبى الهند بثلاثة آلاف ميل .. وفى شهر يناير من عام ١٨١٧ كانت ساعات الليل والنهار تمضى بطيئة متثاقلة وأهالى الجزيرة يتطلعون إلى الأفق الشمالى بعيون قلقة شاحبة يرقبون عودة الكابتن « إدوارد براون » ، وقد ملأ سفينته بكميات من الأرز تنقذهم من محنتهم وتدفع عنهم شبح المجاعة الذى كان يهددهم ..

وطال انتظارهم .. ولم يعد الكابتن ! ..

وكانت « هنرييتا سيكوارد براون » زوجة الكابتن المفقود حاملا فوضعت طفلا فى اليوم الثامن من شهر إبريل من ذلك العام .. عام ١٨١٧ وسمته « تشارلس إدوارد براون » ..

وترعرع الطفل ابن البحار الأمريكى الشجاع فى أحضان أمه الفرنسية الجميلة .. ولم تلبث أن نسبته إليها فصار يعرف باسم « شارل براون سيكوارد » ..

وأقبلت الأرملة على أعمال الحياطة والتطريز تستعين بأجرها على تربية وحيدها حتى بلغ الخامسة عشرة من عمره والتحق

بعمل كتابي في أحد متاجر تلك الجزيرة الصغيرة النائية . .

وكان الفتى خيالياً بفطرته فأقبل على الشعر يحاول أن يقرضه ، وعلى القصة يحاول أن يكتبها . . حتى إذا ما بلغ الحادية والعشرين من عمره ونزح مع أمه إلى وطنها فرنسا ، مضى إلى الناشرين بباريس يعرض عليهم قصصه وأشعاره ولكنهم أعرضوا عنها وأفهموه بلباقة أنه آخر من يصلح لأن يكون قصصياً أو شاعراً ! . . .

واتجه شارل فوراً إلى كلية الطب ، وبعد ثمانية أعوام كان قد صار طبيباً ناجحاً يزاول مهنته في باريس ويعاون « كلود برنار » الخالد في تأسيس جمعية علم الأحياء . .

واستهواه البحث العلمي فأقبل عليه وساهم فيه بنصيب وافر حتى اضطرته ظروف فرنسا السياسية إلى الفرار على سفينة شراعية صغيرة حملته إلى أمريكا ! . . .

وفي نيويورك أخذ يستعين على الحياة بتعليم اللغة الفرنسية ، وإجراء عمليات الولادة لقاء أجر زهيد . . ولم يلبث أن تزوج وعاد بزوجته إلى فرنسا . . وهناك أصدر صحيفة طبية ، ثم اضطرته ظروفه إلى الرحيل إلى لندن ليدير مستشفى للمجاذيب !

وما هي إلا فترة وجيزة حتى سافر إلى أمريكا ليكون أستاذاً في جامعة « هارفارد » . . ثم عاد إلى فرنسا مرة أخرى ليقوم بالتدريس في مدرسة الطب ! . .

وتوفيت زوجته ، فتزوج أخرى ، وماتت أيضاً فتزوج ثالثة ! . . . وتعددت رحلاته بين أوربا وأمريكا حتى بلغت ستين رحلة ! . . وبذلك أتيحت له فرصة التعرف إلى معظم الجامعات والمعامل والمستشفيات فى أوروبا وأمريكا . . وكذلك حضور مختلف المؤتمرات والاجتماعات العلمية . .

وتوالت بين ذلك بحوثه الطبية التى لقيت كل تقدير وإعجاب واستحق من أجلها شتى النياشين والدرجات الفخرية . .

وجاء عام ١٨٧٥ ليجد « شارل براون سيكوارد » وقد سيطرت على عقله وتجاربه فكرة البحث عن أسباب الشيخوخة وعلاقة الخصيتين بشباب الذكور ونشاطهم ! . وكان إذ ذاك فى أمريكا وفى مدينة « بوسطن » فمضى يجمع الكلاب الهرمة الهزيلة ويحقنها تحت الجلد بخلاصة حضرها من خصى الخنازير الغينية القوية الشابة . .

وحقن أحد عشر كلباً وظل يراقبها دون أن يلحظ عليها أى تغيير . . ولكنه عندما حقن الكلب الثانى عشر حالفه النجاح ورأى الكلب تبدو عليه بعض مظاهر الحيوية والنشاط ! . .

ولسبب ما لم يحاول « براون سيكوارد » أن يعيد هذه التجربة وأقبل على غيرها من البحوث . . ولكنه مع ذلك لم ينس أمرها وظل يذكر كلابها الاثنى عشر طوال الأعوام التى توالت بعد ذلك . .

وحين احتفل بعيد ميلاده الثانى والسبعين فى عام ١٨٨٩ كان قد صار شيخاً هرماً ، ولكنه مع ذلك لم يكن قد فقد المقدرة على متابعة البحث والتجريب . .

وعادت به ذكرياته إلى تجربة الكلاب ، فقرر أن يعيدها لعله يكشف الستار عن مسببات الشيخوخة ويظفر بسر الشباب . .

وأجرى التجربة الجديدة على الأرانب العجوزة فحالفه النجاح ولاحظ على بعضها تقدماً كبيراً . .

وهنا صمم على إجراء التجربة على نفسه ! . ومضى يحقن جسمه بخلاصة الخصية المستخرجة من خصى الكلاب والخنازير الشابة . . وحقن نفسه بتلك الخلاصة عشر مرات خلال ثلاثة أسابيع . .

وفى أول يونيو من عام ١٨٨٩ وقف أمام أعضاء جمعية علم الأحياء الفرنسية التى ساهم فى تأسيسها وصار رئيسها ومن أعظم علمائها ، فبدأ بوصف مشاعره وحالته الصحية قبل العلاج بخلاصة الخصية . . وكيف كانت الشيخوخة قد هدّت قواه ، وكادت تحول بينه وبين متابعة بحوثه . . حتى إذا ما أتم الحقن أحس بالحياة تدب فى أوصاله مرة ثانية ، وبالنشاط يسرى فى بدنه بالقوة والرغبة فى العمل والاستمتاع بالحياة ! . .

ولكنه لم يلبث بعد انتهاء عملية الحقن بفترة وجيزة أن أحس بهذا النشاط الجديد يفارقه ، وبالشيخوخة تعود إلى بدنه مرة أخرى . .

وذاعت أنباء هذه التجربة فى مختلف أنحاء فرنسا بالرغم من أن أحداً من علماء جمعية علم الأحياء لم يرحب بها أو يعرها اهتماماً ! . .

ولم تلبث أن سيطرت على أفكار الجماهير فاضطر العلماء إلى مناقشتها ، وانقسموا على أنفسهم بين مؤيد ومعارض ومصدق ومكذب . واحتدم بينهم النقاش وتشعب ، فهدأت ضجة الجماهير انتظاراً لما تسفر عنه معركة العلماء فى أمر هذا العلاج الجديد !. . .

* * *

ولم يكن « شارل ادوارد براون سيكوارد » فى الواقع أول من اهتم بالغدد وفكر فى استغلالها فى العلاج . .

فلقد استعملت الغدد والأعضاء الحيوانية المختلفة فى علاج البشر من قديم الزمان . . فكان القدماء يصفون مخ السنجاب علاجاً للصرع ، ومخ البومة علاجاً للصداع ، ومخ الشاة علاجاً للأرق ! . . وكثيراً ما كان يوصف قلب الغزال لمرضى القلب ، ورئة الثعلب علاجاً للسل ، وكبد الذئب والعنز علاجاً للبرقان والاستسقاء ! . .

وكان مريض الحمى يعالج أحياناً بطحال الثعلب ، وكذلك سوء الهضم كانت توصف له حوصلة الكتكوت ! .

كما أن خصى الأرانب والغزال والخيل والخنازير كانت توصف من عهد بعيد للتقوية الجنسية ، ولتيسير عملية الوضع ، وعلاج أمراض المثانةوالأجهزة التناسلية ! . .

ولما تقدم علم التشريح وعرف الأطباء غدد الإنسان وأعضاءه الداخلية كالغدة الدرقية ، والبنكرياس والمبيض والخصية والطحال ، اهتموا بها وحاولوا معرفة فوائدها وأهميتها لجسم الإنسان . .

ومنهم من حاول استئصال الخصيتين فى الديكة والكلاب والخيول والخنازير ليتأكدوا من تأثيرها ويعرفوا مداه ، ويروا بأعينهم كيف تتأثر الحيوانات فتصير كالخصيان والأغوات من بنى الإنسان ! . .

وتتابعت آلاف التجارب والتقارير والنظريات فى هذا المضمار وبعد مضى أربعة أعوام على تجربة « براون سيكوارد » قدم الطبيب الإنجليزى « چورج أوليڤر » إلى العالم الكبير « إدواردشيفر » الأستاذ بجامعة لندن يعرض عليه مادة جديدة إذا أعطى منها مقدار ضئيل لشخص ما تنقلب حالته رأساً على عقب : فيتولاه خوف شديد ، ويصفر لونه ، ويسرع نبضه ، ويتندى جبينه بالعرق البارد ، ثم تنتابه رعدة يعقبها ارتفاع ضغطه ! .

وازداد عجب الأستاذ الكبير حين أنبأه « أوليڤر » أن تلك المادة الغريبة ليست إلا مسحوق الغدة الكظرية . . تلك الغدة الضئيلة التى تقبع فوق قمة الكلية ! . .

فلم يكن عجيباً بعد هذا أن يشهد شتاء عام ١٨٩٣ حركة دائبة فى معمل « شيفر » ، إذ أقبل على الغدة الكظرية يحاول استكناه أسرارها بمعاونة « أوليڤر » . .

ومضت شهور ستة قبل أن ينجحا فى استخلاص عصير من تلك الغدة يحدث نفس التأثير العجيب الذى أحدثه مسحوق الغدة من قبل . .

وفى الوقت نفسه كان بعض العلماء الألمان قد وفّقوا أيضاً إلى تحضير هذا العصير ، وحصلوا على رطل واحد منه استخلصوه من عشرين ألف غدة كظرية ! . .

ولم يلبث الدكتور « چون چاكوب آبيل » الأمريكى ، أن نجح أيضاً فى تحضير خلاصة فعالة من الغدد الكظرية للضأن ، ثم استطاع بعد ذلك أن ينقيها ويحصل منها على مسحوق سماه « إپينفرين » أو المادة المستخرجة من الغدة فوق الكلية . .

ومع ذلك فلم تكن تلك المادة التى حضرها « آبيل » هى المادة الفعالة الصحيحة . . لقد كانت فى حاجة إلى مزيد من التنقية . .

وجاء العالم اليابانى « تاكامين » فوفق إلى طريقة أقل تعقيداً لاستخراج المادة الفعالة من الغدة التى فوق الكلية .. طريقة تشبه إلى حد كبير تلك التى اتبعها « سير تورنر » حين استخلص « المورفين » من « الأفيون » . .

فلقد أضاف « تاكامين » محلول الأمونيا إلى العصير المستخلص من الغدة الكظرية ، وما هى إلا ساعتان حتى بدت فى المحلول بللورات سماها : « أدرينالين » . .

وأقبل الأطباء على هذه المادة الجديدة التى سماها « آبيل » : «إيبنفرين » ، وسماها « تاكامين » : «أدرينالين»، ومضوا يستعملونها مخلوطة بمقادير ضئيلة جداً مع « النوفوكايين » لإحداث تخدير موضعى مأمون لفترة طويلة . .وكذلك استعملوها فى علاج حمى القش والربو ، ولإنعاش القلب إذا ألمّ به هبوط خلال العمليات الجراحية . .

ولا عجب فلقد أثبت هذا الهرمون أو المركب الذى تفرزه الغدة الكظرية الصماء أنه منبه فعال يحفز كل عضو من أعضاء الجسم إلى التنبه والكفاح ! .

وكان الفضل فى تسمية « الأدرينالين » وغيره من المواد الكيمياوية التى تفرزها الغدد الداخلية اللاقنوية أو الصماء باسم « هرمون » ، لعالمين إنجليزيين وأستاذ للغات القديمة . . إذ أن كلمة « هرمون » تعنى باللغة الإغريقية : الحافز أو المنبه ! .

ولم يأت عام ١٩٠٣ حتى كان « الأدرينالين » أول هرمون يوفق الكيمياويون إلى تحضيره صناعياً فى أنابيب الاختبار. إذ نجح الكيمياوى الألمانى « فريدريك سالتز » فى تحضيره من بعض المواد الثانوية المتخلفة من صناعات أصباغ قار الفحم، ولم يكلفه إنتاج الأدرينالين صناعياً إلا نصف تكاليف إنتاج الهرمون الطبيعى باستخلاصه من الغدد الكظرية المتخلفة فى مذابح الحيوان . .

* * *

وكانت بحوث « موريتز شيف » قد أثبتت له فى عام ١٨٥٦ أن الخنازير الغينية تموت إذا استئصلت منها الغدة الدرقية . . ولما تابع تجاربه فى « فرانكفورت » تبين له أنه يستطيع إنقاذ تلك الحيوانات من الموت إذا زرع الغدة المستأصلة وطعمها بها فى أى جزء من أجزاء الجسم تحت الجلد . . وبذلك برهن على أن الغدة الدرقية تقوم فى الجسم بدور أساسى هام تتوقف عليه الحياة . .

وازداد اهتمام الباحثين بتلك الغدة الداخلية الواقعة فى العنق أسفل « تفاحة آدم » وعلى جانبيها . . وتوالت أدلتهم على أهميتها : فهؤلاء الأطفال الذين ضمرت أجسامهم وتشوهت فأصيبوا بالقماءة وكأنهم أقزام ، إنما صاروا إلى ما صاروا إليه نتيجة لكسل الغدة الدرقية وضمورها ! . .

وهؤلاء الذين فقدوا نشاطهم واضمحلت حيويتهم وأصابهم مرض « الجواتر » ، إنما هم ضحايا نشاط غريب ألمّ بالغدة !..

ولم يكن الجراحون السويسريون حتى عام ١٨٧٠ يعرفون طريقة لإنقاذ مرضى « الجواتر » الذى كان منتشراً فى بلادهم لنقص عنصر اليود — الضرورى لإفراز الغدة الدرقية — فى أغذية الناس ومياه شربهم ، إلا باستئصال الغدة نفسها . . ولكن المرضى كانوا لسوء الحظ يتخلصون من « الجواتر » ليتحولوا إلى مخلوقات بليدة ، ضعيفة العقل ، مترهلة الجسم ، بطيئة الحركة ، لا حول لها ولا قوة ! . .

فلم يكن عجيباً أن ترتفع صيحات « موريتزشيف » متهمة الجراحين السويسريين بالقضاء على مرضى « الجواتر » بتلك الجراحات القاسية التى تحرمهم من غدة حيوية أساسية .

وأثبت « شيف » بتجاربه أن وجود الغدة الدرقية فى الرقبة نفسها ليس له أهمية على الإطلاق ، إنما المهم وجودها فى الجسم وفى أى موضع منه ، لأنها ليست إلا معملا صغيراً يقوم فى أى مكان بإنتاج مواد فعالة قيمة تسرى فى الدم إلى مختلف الأعضاء !. .

وفكر « شيف » فى أن يجرب حقن المرضى المستأصلة غددهم الدرقية بعصير استخلصه من غدد الحيوانات المذبوحة .

ومضى يرقب مرضاه بعد الحقن . . وتوالت الساعات

بطيئة حتى بلغت ثمانى وأربعين ساعة ولم يحدث للمرضى أى تغيير . .

ولكن اليوم الثالث أو الرابع أتى ومعه للمرضى النشاط والخلاص من الكسل والثقل والغباء ! .

ولم يطل أمد هذا التحسن بعد وقف الحقن ، وعاد المرضى بعد أيام قلائل إلى ما كانوا فيه من سوء الحال . .

وهنا أدرك « شيف » أنه قد وفق إلى علاج لمرض « الجواتر » أفضل وأسلم من استئصال الغدة . .

ولم يلبث أن نشر نتائج أبحاثه فتلقاها أطباء مختلف البلاد بمزيد من الاهتمام . . فكان الإقبال على عصير الغدة الدرقية المستخرج من غدد الحيوانات المذبوحة ، وكذلك الحبوب والأقراص المصنوعة منه والتى كان لها أثر كبير فى شفاء الكثيرين من مرضى « الجواتر » ، وتخليصهم من متاعبه .

وجاء عام ١٩١٠ وقد سيطرت على الكيمياوى الأمريكى الشاب « إدوارد كندال » فكرة البحث عن الجوهر الفعال فى عصير الغدة الدرقية . . وظل يتابع بحوثه وتجاربه فى مؤسسة « مايو » حتى أثبت فى عام ١٩١٤ أن ذلك الجوهر الفعال يحتوى على عنصر اليود . .

وبينما كان يجرى إحدى تجاربه فى ٢٤ ديسمبر من ذلك العام نسى العصير على النار فترة أطول مما يجب . فهرع إليه

وهو مشفق عليه من التلف وخلط المادة المتخلفة بقليل من الكحول والقلوى . . ثم أضاف إليها شيئاً من حامض الخل . . وترك كل شيء فى مكانه ومضى إلى منزله ليحتفل بليلة الميلاد ! .

وفى صباح العيد بكر إلى المعمل يسرع الخطى فوق الثلوج الناصعة البياض ؛ ولما تناول الآنية التى ترك بها المحلول رأى لأول وهلة مجموعة صغيرة من البللورات الإبرية البيضاء متراصة حول حافتها . .

وتولاه العجب ، وأخذ البللورات يفحصها ويحللها : فإذا بها تحتوى على ٦٠ ٪ من عنصر اليود ، أى على مقدار يفوق ما يوجد فى عصير الغدة . .

وهنا أدرك أن العناية الإلهية قد هدته بالمصادفة إلى خمسين ملليجراماً من مادة جديدة لم يعرفها أحد قبله . .

وأقبل على التجربة يعيدها مستعيناً بكميات أكبر من العصير ، فحصل على كميات أوفر من البللورات التى مضى يجربها فى علاج المصابين بكسل الغدة الدرقية وتقاعسها عن العمل . . فإذا بها تنجح نجاحاً باهراً وتبرهن على أنها الجوهر الفعال للغدة الدرقية وأنها ليست إلا هرموناً جديداً سماه « ثيروكسين » . .

وأقام « كندال » أجهزة ضخمة فى معامل « مايو » لتحضير « الثيروكسين » ، وظل يتابع العمل طيلة خمسة

أعوام استطاع فى نهايتها أن يحصل من ثلاثة أطنان ونصف من الغدد الدرقية المستأصلة من الحلاليف على أوقية واحدة من « الثيروكسين » ! .

فلم يكن عجيباً بعد هذا أن يبقى سعر هذا الهرمون مرتفعاً ويظل العلاج به عظيم التكاليف . . حتى وفق البروفسور « چورج بارجر » والكيمياوى الإنجليزى الشاب « تشارلس روبرت هارينجتون » إلى صنعه وتشييده فى المعمل بنفقات قليلة ، وبذلك أمكن تحضيره بكميات كبيرة وصار من العقاقير النافعة فى علاج بنى الإنسان . .

* * *

ولقد اهتم « چوزيف فون ميرنج » مكتشف « الڤيرونال » بغدة البنكرياس كما ذكرنا من قبل ، ومضى يبحث فوائدها بمعاونة صديقه « أوسكار مينكوڤسكى » الجراح بجامعة « ستراسبورج » . .

وذات صباح من شهر يونيو عام ١٨٨٩ استأصلا ثلاثة أرباع بنكرياس كلبة . . وتركا الربع الباقى وخاطا جروحها ولبثا يرقبان ما يحل بها . . ولكن الكلبة لم تتأثر ، وجاءت سلامتها دليلا على أن بعض البنكرياس قد يجزئ عن كله . .

وشقا بطن الكلبة مرة أخرى بعد ثلاثة أسابيع ، واستأصلا البقية الباقية من البنكرياس . . وفى صباح اليوم التالى مرضت

الكلبة وحل بها ضعف شديد ، فلم تكن تتحرك إلا لتبول مرات ومرات ! .

وتجمع الذباب على بولها ، فتنبه العالمان وأثبت تحليلهما أن البول يزخر بسكر الجلوكوز . .

وتفاقم هزال الكلبة وضعفها ، ولم تلبث أن أصيبت بالتهاب رئوى حاد قضى عليها بعد ثلاثة أسابيع أخرى . .

وهنا أدرك العالمان الألمانيان أن استئصال البنكرياس هو المسؤول عن إصابة الكلبة بالبول السكرى . . ذلك المرض الذى أنهك قواها وسبب لها الهزال وإفراز السكر فى البول ، ثم عرضها لشتى المضاعفات التى انتهت بها إلى الموت . .

وكان هذا كشفاً رائعاً حقاً . . وسرعان ما تأيد بتجربة مماثلة قام بها الدكتور « دومينيكى » بإيطاليا . . وبذلك انزاح الستار عن سر مرض البول السكرى الذى تضاربت فيه أقوال العلماء والأطباء من قديم الزمان . . .

وخطر للجراح « مينكوفسكى » أن يعصر غدة البنكرياس ويحقن كلباً استؤصلت غدته بهذا العصير . . ولكن الكاتب لم يتحسن ونفق ، وفقد « مينكوفسكى » اهتمامه بالموضوع . .

وجاء غيره من أطباء أمريكا وأوربا فاسترعى اهتمامهم تأثير البنكرياس ومضوا يبحثونه ويجربون ... فاقتنع معظمهم وأيقن بوجود جوهر فعال فى خلايا البنكرياس الشبيهة

بالجزائر ، وأنه ذو تأثير واق من مرض البول السكرى . . وسيطر هذا اليقين على البروفسور « شيفر » الذى عاون على اكتشاف « الأدرينالين » ، فسمى هذا الجوهر الفعال الذى تخيله العلماء باسم « أنسولين » ! . .

ويشاء القدر أن يبرز « الأنسولين » من عالم الخيال إلى دنيا الحقيقة على يد طبيب كندى عاد إلى وطنه من الخدمة العسكرية بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها ليعمل بأحد مستشفيات الأطفال فى « تورنتو » . .

ولم يلبث هذا الطبيب الشاب « فريدريك بانتنج » أن عين مساعداً بقسم الفسيولوجيا بالجامعة الغربية فى « أونتاريو » .

وذات ليلة . . أو بتعبير أدق ، فى ليلة ٣٠ من أكتوبر عام ١٩٢٠ وكان يعد محاضرة عن البول السكرى ليلقيها على الطلاب فى اليوم التالى ، ظل يقرأ ساعات طوالاً فى مختلف الكتب والمجلات العلمية ثم انتهى إلى بحث عن البنكرياس كتبه البروفسور « موسى بارون » . . وكان الليل قد أوغل ، و « بانتنج » قد كلت عيناه من طول القراءة . . ولكن شيئاً استرعى انتباهه وأعاد إليه نشاطه : إن « بارون » يقول فى بحثه إن للبنكرياس قناة تصله بالأمعاء . . وأنها إذا ربطت بحيث لا يتسرب خلالها شىء ، فإن البنكرياس يتعرض لتغيرات عجيبة وتتلف بعض أجزائه . . وأن هذا التلف يحدث

فى الأجزاء التى يوجد بها « التريپسين » وهو المادة التى تتلف « الأنسولين » . .

ونشط عقل « بانتنج » وخطر له خاطر . إنّ البنكرياس يحتوى على مادتين فعالتين : « الأنسولين » (وهو الذى لم يكن قد عرفه أحد بعد) ، و « التريپسين » . .

وما دام البنكرياس فى الجسم فإن العلاقة بين هاتين المادتين تظل طبيعية وعلى ما يرام . . حتى إذا ما استؤصل البنكرياس وانفصل عن الجسم نشط فيه « التريپسين » وانقض على « الأنسولين » فيقضى عليه ! . .

وكان هذا خاطراً عجيباً . . ولكنه فسر له ما لاحظه العلماء من قبل عن عدم تأثير الحقن بعصير غدة البنكرياس . . وعلله بأن « أنسولين » العصير يفسد بتأثير « التريپسين » ! . .

وعاد « بانتنج » إلى الكتاب يقرأ الطريقة التى وصفها « بارون » للتخلص من « التريپسين » . . ومضى يكتبها بقلم الرصاص فى مذكراته :

« اربط قنيات غدد البنكرياس فى الكلاب ، ثم انتظر من ستة إلى ثمانية أسابيع حتى تتحلل واستخرج المتخلف واستخلصه » . .

ووجد « بانتنج » فى تلك الكلمات القلائل ذلك المفتاح الساحر الذى استطاع به أن يفض مغاليق أسرار البول السكرى

التى استعصت على البشر فترة طويلة من الزمان . . .

فمضى إلى البروفسور « ما كلويد » يفضى إليه بما جال بخاطره ويطلب معملا خاصًّا يقوم فيه بالبحث وكذلك عشرة كلاب ! . .

ووافق البروفسور بعد أن زوده بنصائحه وتوجيهاته وأوصاه بأن يعتمد دائماً فى بحثه على قياس كمية السكر فى دم الكلاب خلال المراحل المختلفة لتجاربه . .

وفى ربيع ١٩٢١ بدأ « بانتنج » بحثه الخالد يعاونه : « تشارلى بست» وهو طالب طب كان يتقن طريقة تقدير السكر فى الدم . . ومضى يربط عقداً من الخيط حول قناة البنكرياس فى الكلاب الصحيحة . . ثم ينتظر شهرين حتى يتحلل « التريپسين » تماماً ، قبل أن يستأصل البنكرياس ويفريه ويعصره ويحتفظ بالعصير . .

وفى منتصف يوليو بدأ تجربته الأولى فاستأصل من كلب جزءاً من البنكرياس ثم الجزء الباقى . . ولما ساءت حال الكلب وكاد يموت أنفذ إبرة محقنة فى أحد أوردته وامتص قطران من دمه وأعطاها لمساعده لكى يقدر فيها كمية السكر . .

وبعد دقائق أعلن إليه «تشارلى» أن دم الكلب يعج بالسكر وأنه بلغ مائتى ملليجرام فى كل مائة سنتيمتر مكعب من الدم، بينما هو فى الكلب الصحيح لا يزيد على مائة وعشرين ! .

فحقن « بانتنج » أربعين نقطة من عصير البنكرياس الذى حضره بطريقته فى وريد الكلب . . ومضت ساعة أخذ بعدها شيئاً من دمه . . ولم يلبث أن صاح مساعده بعد تحليله صيحة العجب والإعجاب . . لقد هبطت كمية السكر إلى مائة وعشرين ! . .

وهكذا تحققت المعجزة . . واستطاع « بانتنج » أن يحصل على عصير يقاوم ذلك الداء الوبيل . .

وتعددت أبحاثه وتجاربه فعرف أن بنكرياس الأجنة يحتوى على كميات أكبر من « الإنسولين » الفعال ، وأنه لا يحتوى على المواد المتلفة . . فضى إلى المذابح يستخرج غدد الأجنة التى يصادفها فى بعض الحيوانات المذبوحة ويستخرج منها كميات من العصير غنية بالإنسولين . . .

وجاء أسبوع عيد الميلاد ليشهد أول تجربة تجرى على بنى الإنسان بالعصارة البنكرياسية الجديدة . .

وكان المريض فتى فى الرابعة عشرة من عمره يرقد بالمستشفى العام بتورنتو . ولم تمض ثلاثة أسابيع من بدء حقنه بالعصارة الجديدة حتى اختفى السكر من بوله واستعاد صحته وبدا وكأنه ولد من جديد ! . .

ولم يشك هذا الفتى من شيء خلال التجربة إلا من آلام شديدة من تأثير الحقن . . ولا عجب فلقد كانت العصارة

البنكرياسية تحتوى على كثير من الشوائب والمواد التى سببت له تلك الآلام . .

لذا اهتم البروفسور « ما كلويد » بفصل « الأنسولين » الفعال عن تلك المواد المؤلمة وعهد بذلك إلى الكيمياوى الحاذق « برت كوليب » الذى نجح نجاحاً باهراً فى تنقية « الأنسولين » ، وجعل منه مادة لا تؤذى ولا تؤلم ولا تضر ، بل بلسماً لطيفاً فيه لمرضى البول السكرى العافية والنجاة . .

وتجاوبت أنحاء العالم بأنباء هذا الهرمون الجديد الذى فتح أمام المنكوبين بمرض البول السكرى آفاق الأمل فى الحياة . . وتلقى العلماء الكنديون فيضاً من التهانى والتكريم على هذا الاكتشاف العظيم . . ومنح « بانتنج » و « ما كلويد » جائزة نوبل . . فاقتسم « بانتنج » نصيبه منها مع « بست » ، بينما اقتسم « ما كلويد » نصيبه مع « كوليب » . . .

* * *

ولم يأت عام ١٩٢٤ حتى كانت الهرمونات قد احتلت المكانة الأولى فى بحوث معظم العلماء . . وتتابعت أنباؤها من مختلف الأنحاء والأرجاء . .

فهذا « چون چاكوب آبيل » الذى اكتشف «الأدرينالين» يتابع أبحاثه على « الإنسولين » ليحصل على بللوراته النقية . . وهذا « كوليب » الكيمياوى الذى نال فخر تنقية « الأنسولين »

ينجح مع « أدولف هانسون » طبيب « مينسوتا » فى اكتشاف هرمون الغدة جارة الدرقية الذى يمنع التقلصات ويقى العظام . .

وهؤلاء ثلاثة من الباحثين يوفقون — فى جهات متفرقة من أمريكا — إلى الحصول على هرمون جديد سموه « كورتين » . . وهو الواقى من « مرض أديسون » ذلك المرض العضال الذى يصيب مرضاه بالضعف والهزال وتغير الجلد . .

ولم تلبث الغدة النخامية أن أغرت بعض العلماء بارتيادها واكتشاف أسرارها . . وهى من الغدد الصماء تقبع فى أعماق إحدى تلافيف المخ ، ولا يزيد حجمها على حجم واحدة من بذور الباذلاء ! . ولها مع ذلك صولة وصولجان على جسم الإنسان . .

وحاول فريق من العلماء استئصالها من حيوانات التجارب فإذا بها تتعرض لتغيرات وأعراض عجيبة . .

وفى عام ١٩٢٠ أخذ البحث فى أسرار الغدة النخامية يتطور على أيدى عالمين من علماء جامعة كاليفورنيا ، هما الدكتوران « هربرت إڤانز » و « چوزف لونج » . إذ أقبلا على المذابح يحصلان منها على ما يمكن الحصول عليه من الغدد النخامية للحيوانات المذبوحة . ومن الفص الأمامى للغدة أمكنهما تحضير خلاصة جربت على بعض الفئران الكبيرة السن . . ولكنهما لم يصلا إلى نتائج واضحة . .

ولما جرباها على الفئران الوليدة الصغيرة لاحظا أنها تكسبها مقدرة فائقة على النمو . واستمرا على حقن تلك الفئران الصغيرة بخلاصة الفص الأمامى للغدة النخامية . . ومضيا يرقبان بعجب تلك الزيادة الهائلة المطردة فى أوزانها وأحجامها ، والتى جعلت منها عند نهاية التجارب عمالقة بين أخواتها الفئران التى لم تحقن بتلك الخلاصة ! .

ودلتهما ملاحظاتهما على أن الزيادة الغريبة فى وزن الفئران لم تكن ناتجة عن تراكم الدهن فى أنسجتها وإنما عن نمو العظام واستطالتها وثقلها . كما وجدا لتلك الخلاصة تأثيرا واضحاً على الأعضاء التناسلية . .

واهتم العلماء والأطباء بتقرير « إڤانز » و « لونج » الذى أثبتا فيه هذه الملاحظات وقررا فيه علاقة الغدة النخامية بالنمو والأعضاء التناسلية . .

ولم يلبث الدكتوران « فليب سميث » و « إيرل إنجل » من جامعة « ستانفورد » أن أثبتا بتجاربهما أن الغدة النخامية لها تأثير مباشر فى إحداث البلوغ الجنسى ، وأنها إن بقيت فى مكانها قائمة بوظيفتها الطبيعية فإن حياة الحيوان الجنسية تسير سيرها الطبيعى ، أما إذا استؤصلت فإن البلوغ يتأخر أو لا يحدث على الإطلاق ! . .

كما برهنا بالتجربة على أن الحقن بخلاصة تلك الغدة

بعد استئصالها يعيد إلى الجسم طبيعته فيستكمل وظائفه الجنسية.

* * *

وبينما كان هذان العالمان الأمريكيان يقومان بتلك التجارب والبحوث . كان عالمان ألمانيان يحاولان التثبت من اكتشافهما ويتابعان البحث فى اتجاه غريب . .

ولم يلبث أحدهما وهو الدكتور « برنارد زونديك » أن قرر أن تلك المادة الموجودة فى الغدة النخامية والتى تؤثر على الوظائف الجنسية ليست إلا هرموناً تصنعه الغدة ثم يسرى منها فى الدم إلى مختلف الخلايا والأنسجة والأعضاء . . وأنه يصل فيما يصل إلى الكلى فتفرزه فى البول . .

وتساءل زميله الدكتور « سلمار آشهايم » عن الطريقة التى يستطيعان بها اكتشاف ذلك الهرمون فى البول للتثبت من صحة هذه النظرية . .

وسرعان ما اهتديا إلى طريقة تعتمد على حقن بول البالغين فى أجسام الحيوانات التى لم تصل إلى حد البلوغ فإن كان البول يحتوى حقاً على هرمون الغدة النخامية بدا تأثيره بوضوح على صغار الحيوانات ! .

ونجحت التجربة نجاحاً عظيماً لم يخطر لهما على بال . . فلقد حقنا أربعة من الحيوانات الصغيرة ببول أربعة من مرضى المستشفى ، ثم شرحا الحيوانات الأربعة . . فوجدا أن حيوانين

منها قد تطورت غددهما التناسلية ونمت بوضوح ينم عن إدراكهما مرحلة البلوغ ! . .

أما الحيوانان الآخران فقد بقيت غددهما كما هى لم يبد عليها أدنى تأثير ! . .

وحيرتهما هذه النتيجة الغريبة . . وأخذا يبحثان الأمر من جميع الوجوه ، فإذا بهما يكتشفان أن البول الذى حقن به الحيوانان الأولان كان بول امرأتين حاملين ! . .

وأعيدت التجربة على نطاق واسع ، فإذا بها تبرهن على أن بول الحامل فقط هو الذى يحدث ذلك التأثير ويعجل ببلوغ غدد الحيوانات التناسلية . .

وهكذا شاءت المصادفة أن تضع بين أيدى هذين العالمين الألمانيين طريقة جديدة مبتكرة يستطيعان بها اكتشاف الحمل فى مراحله المبكرة وذلك بحقن البول فى صغار الحيوانات ومعرفة تأثيره على الغدد التناسلية . .

وتتابعت تجاربهما فإذا بهما يعرفان أن ذلك التأثير الذى يحدثه بول الحامل إنما يتسبب عن هرمون آخر تفرزه مشيمة الجنين الناشىء ، وليس هرمون الغدة النخامية للحامل ! . .

وتوالت بحوث العلماء بعد ذلك لاستكناه أسرار الغدة النخامية فأثبتوا أنها المسيطرة على مختلف أعضاء الجسم ، وأنها تقرر مصير العملاق والقزم ، وأنها المهيمنة على الغدة

الدرقية والغدة الكظرية وكذلك البنكرياس . . وأنها المسؤولة عن تنبيه الغدد الجنسية وحضها على النمو والعمل . . وأنها المتحكمة فى الحمل والوضع وإفراز اللبن ، وانقباض العضلات وانبساطها وضغط الدم ! . .

فهى الدكتاتور المهيمن على الجسم كله يرسل تعليماته إلى أنحائه المختلفة بوساطة رسله أو هرموناته التى يصبها فى الدم صبًّا ! . .

* * *

لم يبق للعلماء بعد أن عرفوا ذلك السر العظيم إلا أن يوجهوا بحوثهم إلى الغدد الجنسية التى تتحكم فى الذكورة والأنوثة ... وحمل لواء تلك البحوث الدكتوران « إدوارد دويزى » و« إدجار ألن » بجامعة واشنطن ، وكذلك الدكتور « أدولف بوتناندت» فى برلين . .

فوفقوا إلى اكتشاف ثلاث هرمونات تتحكم فى الأنوثة هى: «إسترون»، و« إستريول » ، و« إستراديول » . . واستخلصوها من المبايض أولا ثم أثبتت بحوثهم وبحوث غيرهم وجودها أيضاً فى الأزهار المؤنثة لنبات الصفصاف ، وفى طلع النخيل !...

وأعجب من هذا أيضاً أن تلك الهرمونات الأنثوية وجدت أيضاً فى بول المهر والحمار الوحشى وذكور القردة ! . .

وأثبتت التجارب أن تلك المركبات الكيمياوية الأنثوية

إذا ما حقنت فى أنثى بعد استئصال مبيضيها ، أكسبتها جميع ما فقدته من مميزات الأنوثة . .

فكان هذا إيذاناً بأن يتخذ الأطباء من هذه الهرمونات عقاقير طبيعية تخف لنجدة النساء كلما اختلت الأنوثة فى أجسامهن . . فتشفيهن من كثير من الآلام والاضطرابات والأمراض التى كن يشقين بها .

واكتشف من بعد ذلك هرمون أنثوى جديد هو : « پروجسترون » ، وهو المسئول عن وقف الطمث عند الحمل ومساعدة الجنين على التشبث برحم أمه ، وحفظ الرحم هادئاً طوال أشهر الحمل . .

وتفرز الحامل كميات كبيرة من هذا الهرمون الذى نجح الكيمياويون فى صنعه بمعاملهم من فول الصويا بأقل التكاليف .. ولقد أثبت هذا الهرمون الصناعى قيمة عظمى فى منع الإجهاض وتخفيف آلام الطمث . .

وجاءت البحوث المتعاقبة فكشفت عن نوع ثالث من الهرمونات الجنسية الأنثوية هو « إكوين جونادوتروپين » الذى وجد فى دماء حوامل إناث الخيل ، وأثبتت التجارب أنه ذو مقدرة على حفز المبايض على العمل . .

ولقد ساعد اكتشاف هذه الهرمونات على معرفة سر الأنوثة ومظاهرها وعلاج اضطراباتها المختلفة . . كما أغرى

الكيمياويين على العمل فى هذا الميدان الجديد فكان نجاحهم العظيم فى فصل جميع تلك الهرمونات فى أنقى صورها مع بلورتها واكتشاف تركيبها الكيمياوى ثم صنعها وتشييدها فى أنابيب الاختبار . . .

وكان للكيمياوى الشاب « لمويل ما كجى » فضل البدء باكتشاف هرمونات الذكورة ، حين أعلن فى رسالته التى قدمها للحصول على الدكتوراه أنه استطاع تحضير خلاصة من خصى الثور تستطيع إحداث جميع مظاهر الذكورة ومميزاتها...

ولم تمض أربعة أعوام حتى أعلن « أدولف بوتناندت » أنه استطاع فصل هرمون مذكر نقى سماه : « أندروسترون »

وفى عام ١٩٣٤ استطاع العالم السويسرى دكتور « ليوبولد روزيكا » أن يحضر هذا الهرمون صناعياً من دهن صوف الأغنام ! . .

ولما أثبتت التجارب أن « الأندروسترون » ضعيف التأثير اتجه تفكير العلماء إلى احتمال وجود هرمون مذكر آخر . .

وفى يونيو من العام نفسه استطاع الدكتور « إرنست لكير » من « أمستردام » أن يحصل على بللورات هرمون مذكر جديد من خصى الثيران سماه : « تستوسترون » . . أثبتت التجارب أنه فعال عظيم التأثير ، وأنه هرمون الذكورة الرئيسى .

ولكن استخلاص « التستوسترون » من خصى الثيران

كان صعباً كثير التكاليف ، فتطلعت الأنظار إلى علماء الكيمياء لعلهم يأخذون بأيدى الرجال المحرومين ويهبونهم هرموناً صناعياً فعالا منخفض التكاليف . .

وكان البروفسور « ليوبولد روزيكا » قد دعى لإلقاء بضع محاضرات فى أمريكا ، فودع طلبته ومساعديه بسويسرا وركب البحر إلى الأرض الجديدة . . ولم يكن يشغل باله خلال رحلته إلا « التستوسترون » وتركيبه وطريقة تحضيره .. ولم يكد يضع قدميه على أرض أمريكا حتى كان قد وفق إلى معرفة سر هذا الهرمون ، وأسرع إلى مكتب البرق يبرق إلى مساعديه فى «زيوريخ» بجميع التفاصيل ! .

واجتمع رجال العلم الأمريكيون حول الأستاذ الجليل ليستمعوا إلى محاضرته الأولى عن الهرمونات . . فإذا به يفاجئهم بنبأ غريب . . . ويعلن إليهم أنه قد وفق إلى معرفة سر « التستوسترون » . . وأنه قد توصل إلى طريقة تحضيره صناعياً .. وأن مساعديه يقومون بذلك فى معمله بزيوريخ . .

وكان هذا نجاحاً رائعاً وفتحاً مبيناً فى كيمياء الهرمونات . . تلك المركبات الطبيعية التى تفرزها الغدد الصماء فى الدم ، والتى أصبحت اليوم بفضل جهود العلماء عقاقير نافعة تساهم بنصيب رائع فى توفير الصحة والهناءة لبنى الإنسان . .

العقاقير المشعة

كان اكتشاف « رونتجن » للأشعة السينية حافزاً للعلماء على بحث المركبات المشعة واكتشاف ماهية إشعاعها وسره ومداه . .

فكانت بحوث « هنرى بيكريل » على مركبات «اليورانيوم» تلك البحوث التى أدت إلى اكتشاف « مدام كورى » وزوجها لعنصر « البولونيوم » ، ثم عنصر « الراديوم » الذى أثبت أنه أقوى إشعاعاً من عنصر « اليورانيوم » . .

وتلقى العالم أنباء اكتشاف « الراديوم » بمزيج من العجب والدهشة والاهتمام . . وأقبل علماء الكيمياء والطبيعة فى أمريكا وإنجلترا وفرنسا وسويسرا والنمسا وهولندا وألمانيا على بحث العنصر الجديد الذى استخرجته « مدام كورى » من « البتشبلند » أحد المواد الغفل الغنية بمركبات « اليورانيوم » . .

ولم تمض أشهر قلائل حتى استطاع العلماء تمييز ثلاثة أنواع من الأشعة تنبعث من « الراديوم » : الأشعة الألفية وتتكون من جسيمات دقيقة من غاز الهليوم تمتاز بشحنتها الكهربية الموجبة وسرعتها الفائقة . .

والأشعة البهائية وهى عبارة عن فيض من الإلكترونات ذات شحنة كهربية سالبة . .

ثم الأشعة الجيمية وهى تكاد تشبه الأشعة السينية التى انبعثت من أنابيب « رونتجن » المفرغة من الهواء . .

فمن أين أتت تلك الإشعاعات الثلاث ؟ . .

وأجابت أبحاث العلماء عن هذا السؤال بأن تلك الإشعاعات تنجم عن التحطيم الذاتى البطىء لذرات « الراديوم » ، والذى تتحول خلاله المادة إلى طاقة . . طاقة الإشعاع . .

وتوالت البحوث والتجارب فتبين أن للراديوم تأثيراً متلفاً لأنسجة جسم الإنسان وغيره من الأحياء . . وأغرى هذا بعض الأطباء بتجربته فى علاج فريق من الأمراض الجلدية المستعصية فإذا به ينجح فى القضاء عليها ، ويتيح للجلد فرصة تكوين طبقة سليمة تحل محلها . .

ولما منحت « مدام كورى » بالاشتراك مع زوجها و« بيكريل » جائزة نوبل فى عام ١٩٠٣ كتب إليها الجراح الأمريكى « روبرت أبى » يطلب بعض « الراديوم » لتجربته فى العلاج . . وأجابته إلى طلبه فكان نجاحه فى تسخير « الراديوم » لعلاج سل الجلد وسرطانه ، وكذلك سرطان الأذن والثديين والفم واللسان .

وذات يوم تلقى « أبى » رسالة من « الكسندر جراهام بل »

مخترع التليفون يقترح عليه ابتكار أنابيب صغيرة خاصة يمكن وضع « الراديوم » فيها وإدخاله إلى المواضع العميقة من الجسم التى تصاب بالسرطان ولا تستطيع أشعة « الراديوم » النفاذ إليها من الخارج دون أن تؤذى الأنسجة السليمة . .

ووفق « أبى » إلى صنع الأنابيب الصغيرة التى اقترحها « بل » ونجح فى استعمالها فى علاج الأورام السرطانية الداخلية دون أن تتعرض أجزاء الجسم السليمة للتأثير الإتلافى الذى يصاحب إشعاعات « الراديوم » . .

وفى عام ١٩٠٥ نجح « أبى » فى صنع « كپسولات » دقيقة تحتوى على « الراديوم » وأمكنه بها علاج سرطان الرحم الذى استعصى من قبل على العلاج . .

وبينما كان « أبى » يقوم بتلك البحوث الطبية الرائعة فى أمريكا ، كان الدكتوران « اويس ويكهام » و « هنرى دومينيكى » قد أقاما فى باريس معهداً للعلاج بالراديوم وقاما بتقدير الكميات المناسبة منه للعلاج ، وابتكرا طرقاً لحجب إشعاعاته عن أجزاء الجسم السليمة مع إنفاذها إلى الأجزاء الداخلية المريضة . .

ولم يأت عام ١٩١٠ حتى كان ذلك المعهد قد وفق إلى علاج تسعمائة من مرضى السرطان الذين قصدوا إليه . . فبرهن بذلك على أن الراديوم فى يد الخبراء من الأطباء يؤدى

مع الجراحة والأشعة السينية ، أكبر خدمة لمرضى السرطان . .

وازداد الإقبال على الراديوم ..ذلك العنصر الكيمياوى الغريب الذى تنبعث منه طاقة الإشعاع المستمرة ببطء عجيب يجعله لا يفقد نصف كميته نتيجة لانبعاثها إلا بعد ألف وستمائة عام !

ولكنه ظل نادراً عزيز المنال ، يتطلب استخراج الكميات الضئيلة منه تكاليف باهظة . . فلقد كان سعر الأوقية منه فى عام ١٩١٠ حين منحت « مدام كورى » جائزة « نوبل » الثانية ، حوالى سبعة ملايين من الدولارات ! فى وقت لم تكن فيه تلك الأوقية من « الراديوم » موجودة على الإطلاق ! ! . .

واشتد نشاط البحوث الجيولوجية لاكتشاف مواد غفل تكون أغنى بالراديوم ، وشملت مناطق عدة فى العالمين القديم والجديد . . وتضاعفت الجهود المبذولة فى سبيل استخراجه وتحضيره . . ولكنها مع ذلك لم تفلح فى توفير كميات مذكورة منه ، وظل الراديوم عنصراً نادراً عزيزاً المنال . . .

* * *

ولما رحل الهنغارى « چورج فون هفسى » إلى جامعة مانشستر ليتلقى العلم على « إرنست رذرفورد » عالم الذرة العظيم وأول من اقتحم حصنها وكشف أسرارها . . عهد إليه الأستاذ الكبير ببحث صغير يهدف إلى ابتكار طريقة للتفرقة بين معدن الرصاص العادى ، ومعدن الرصاص المشع الذى

يتخلف من التفجر الذاتى لذرات الراديوم . . وتعددت محاولات « هفسى » ولكنه وجد نوعى الرصاص متشابهين من الوجهة الكيمياوية وكأنهما توأمان . . ولم ييأس ، ومضى يتابع البحث حتى وفق إلى ابتكار جهاز استطاع به تمييز الإشعاعات المنبعثة من الرصاص المشع ، وكذلك مراقبة ذراته وتتبعها عندما تتفاعل مع غيرها من الذرات . .

واندلعت الحرب العالمية الأولى ثم انقضت ، وانتقل « هفسى » من « مانشستر » إلى معهد الطبيعة التجريبى فى « كوپنهاجن » . . وهناك انضم إليه فريق من العلماء البيولوجيين واستعانوا بجهازه على تتبع ذرات الرصاص المشع ، وذرات البزموت المشع ـ الذى يتخلف أيضاً من تفجر ذرات الراديوم ـ وهى تتنقل فى محاليلها داخل الخلايا النباتية وأنسجة الفئران والخنازير الغينية ! .

ونجحت تجاربهم واستطاعوا بها أن يعرفوا كثيراً من أسرار الدورة الغذائية فى النبات والحيوان . . وأغراهم هذا النجاح بالتفكير فى دراسة عناصر أخرى كالصوديوم والفوسفور والحديد والكلسيوم واليود ، ليعرفوا ما تقوم به من عمل داخل الأجسام ويكتشفوا طرق امتصاصها وتأثيرها . .

ولكن كيف يتسنى لهم أن يقوموا بمثل هذه الدراسة وهم لا يعرفون لهذه العناصر توائم مشعة تتخلف من تفجر

« الراديوم » ؟ ! . . كما أنهم لا يستطيعون كسب تلك العناصر خاصية الإشعاع ! . .

* * *

ولقد حاول « إرنست رذرفورد » من قبل تحضير العناصر المشعّة ، بعد أن حالفه النجاح وأصاب الهدف الذى أعيى قدامى الكيمياويين فاستطاع بتأثير الإشعاعات المنبعثة من « الراديوم » أن يحول « النيتروجين » إلى « أكسجين » ! .

وكان « رذرفورد » يأمل أن يكون هذا « الأكسجين » الناتج من التحول قد اكتسب خاصية الإشعاع . . ولكن أمله خاب ووجد « الأكسجين » الجديد لا يختلف عن المعتاد !

واستهوى البحث فى تحويل العناصر كثيراً من العلماء ، حتى كان عام ١٩٣٤ وفيه أعلن عالمان فرنسيان أنهما قد استطاعا تحويل ذرات عنصر « البورون » إلى ذرات من « النيتروجين » بقذفها بدقائق الأشعة الألفية المنبعثة من « الراديوم » . . وأنهما قد استطاعا أيضاً — بالطريقة نفسها — تحويل « المغنسيوم » إلى « سليكون » ، و « الألومنيوم » إلى « فوسفور » . .

ثم قررا أن العناصر الجديدة التى حصلا عليها كانت عناصر ذات إشعاع ، وأن الطاقة تنطلق منها ببطء فتتحول ذاتياً إلى عناصر أخرى ! .

وكان هذا كشفاً رائعاً عجيباً . . لفت الأنظار إلى المعهد العظيم الذى تم فيه الاكتشاف . . معهد «مدام كورى» للراديوم . وإلى ابنتها مارى وزوجها « جان فريدريك چوليو » اللذين كان لهما فضل الاكتشاف ! . .

وكان حقًّا بعد ذلك أن تكون جائزة « نوبل » من نصيب عائلة « كورى » للمرة الثالثة تقديراً لتوفيقها فى تحضير العناصر المشعّة . . .

وتتابعت من بعد ذلك محاولات العلماء لتحضير العناصر المشعّة فحالفهم النجاح ، وتحقق حلم « هفسى » وزملاؤه ولم يعد مستحيلا عليهم أن يحصلوا على تلك العناصر الكاشفة التى يستطيعون بمراقبة إشعاعها أن يدرسوا وظائف مختلف الخلايا فى النبات والحيوان . .

ولكن العناصر المشعّة كانت نادرة قليلة . . وذلك لعجز الأشعة الألفية المنبعثة من « البولونيوم » أو « الراديوم » عن إحداث التحطيم الكافى لتحويل مقادير مناسبة من الذرات . .

وكان العلماء يفكرون ويبحثون عن قذيفة أخرى أقوى من الدقائق الألفية يستطيعون بها تحطيم الذرة وتحويل العناصر على نطاق أوسع . .

وصنعوا لذلك أجهزة كهربائية معقدة التركيب .

واهتم « إرنست أورلاندولورنس » بهذه الأجهزة ، ومضى

يحاول تقويتها ، وظل يجرب فى جامعة « كاليفورنيا » ويبتكر حتى تم له فى عام ١٩٣٠ إقامة « السيكلوترون » ذلك الجهاز الجبار الذى تنطلق فيه قذائف ذرية قوية تحطم الذرات أو تفلقها أو تحولها إلى غيرها ! .

ولم يأت عام ١٩٣٤ حتى كان « لورنس » قد نجح بجهازه فى تحضير كميات وافرة من العناصر المشعّة أو النظائر المشعّة كما يسميها الكيمياويون . .

ولكنه لم يكن طبيباً ليهتم باستغلال جهازه فى التطبيب والعلاج . . لقد كان عالماً طبيعياً يهدف إلى استغلال جهازه فى الكشف عن أسرار الذرة الخفيّة ومعرفة كنهها المجهول ! ! . .

واقتنص الفرصة أخوه الأصغر « چون » وكان طبيباً . . فانضم إليه يراقب أبحاثه وأخذ يحذره من الإشعاعات الألفية والنيوترونات المنبعثة من « السيكلوترون » . . واقترح عليه فيما اقترح أن يدرسا تأثيرها على الفئران . . فإذا بالتجارب تثبت أن تلك الإشعاعات قد تتلف وقد تقتل . . وأن الواجب يقضى بحماية جميع من يعملون بقرب « السيكلوترون » من إشعاعاته الفتاكة ! . .

واتجه « چون » بعد ذلك ببحوثه إلى تلك العناصر المشعّة التى ينتجها أخوه . . وفكر فى استغلال إشعاعاتها فى شتى أنواع العلاج . . فالفوسفور المشعّ مثلا يحقن فى الجسم ليترسب فى العظام ويرسل عليها وابلا من إشعاعاته ينقذها مما تعانيه . .

وكذلك الصوديوم واليود وغيرهما تنتشر فى الأنسجة المختلفة وتداويها بإشعاعاتها . .

وحانت له الفرصة ذات يوم وكان يبحث مع زملائه بجامعة كاليفورنيا أمر مرض الدم الأبيض أو « اللوكيميا » . . وهو مرض يملأ الدم بالكرات البيضاء ولم يصادف علاجه بالأشعة السينية أو الراديوم إلا نجاحاً ضئيلا . . .

وطاف بعقل « چون لورنس » خاطر عجيب : إنّ العناصر المشعّة تمتاز من الراديوم بقصر الفترة التى تحتفظ فيها بمقدرتها على الإشعاع . . فبينما يظل الراديوم يطلق إشعاعاته أمداً طويلا ، لا يستمر إشعاع الصوديوم المشعّ أكثر من ١٢ ساعة . . وبذلك يكون أقل منه خطراً إذا حقن فى الجسم . .

وأسرع بمعاونة زميل له يحقن اثنتين من مرضى «اللوكيميا» بالصوديوم المشعّ . . ولكن شيئاً من التحسن لم يحدث وظل تعداد الكرات البيضاء مرتفعاً ! . .

وهنا تذكر أن « اللوكيميا » تتسبب عن اضطراب فى نخاع العظام يدفعه إلى إنتاج كميات هائلة من الكرات البيضاء . أى أن العظام هى المسؤولة عن ذلك المرض . . فلماذا لا يجرب حقن المرضى بالفوسفور المشعّ ليسرى فى دمائهم ويستقر فى العظام ويطلق إشعاعاته على منبع الاضطراب ؟ ! . .

ونجحت التجربة وأنقذ الفوسفور المشعّ كثيرين من

مرضى « اللوكيميا » الذين يئسوا من الشفاء . .

وأثبتت التجارب المتوالية أنه ذو قيمة لا تبارى فى إنقاذ الحالات المزمنة . . ولكنها أوضحت أنه لا يشفيها شفاء تامًّا بل يقف تفاقمها ويتيح للمرضى معيشة مريحة سهلة دون أن يحدث لهم الحقن به أى متاعب أو التهابات . .

وكان هذا حدثاً جديداً فى دنيا العلاج أغرى العلماء بتجربة العناصر المشعّة فى علاج كثير من الأمراض المستعصية واستغلالها فى دراسة وظائف أنسجة الجسم وأعضائه . .

فأخذ بعضهم يدخل محاليل العناصر المشعّة إلى أجسام الحيوانات عن طريق الفم أو الحقن ويرقب سيرها وامتصاصها بجهاز « جايجر » الذى يحس بإشعاعاتها ويرصدها أينما اتجهت أو سارت . .

وأدت هذه التجارب إلى ابتكار طرق علمية جديدة استطاع بها الباحثون أن يسخروا العناصر والمركبات المشعّة فى دراسة أمراض القلب والصرع والأنيميا والبول السكرى وتأثير مختلف المركبات والعقاقير عليها . . مما كان له أثر كبير فى إزاحة الستار عن كثير من أسرار الجسم ووظائفه وأمراضه وغيرها من المعضلات التى ظلت فى طى الغموض والإبهام فترة طويلة من الزمان . . ولقد نجح الأطباء أيضاً فى استغلال اليود المشعّ فى علاج أورام الغدة الدرقية واضطراباتها إذ

يحقنونه فى الجسم فيسرى فيه ويستقر فى الغدة ويصليها وابلا من إشعاعاته الشافية . .

واليوم تتجه البحوث الطبية إلى ابتكار أنواع من العناصر والعقاقير المشعَّة التى يمكن حقنها فى الجسم لتستقر فى الأورام السرطانية الداخلية فقط ، فتقضى عليها وتنقذ المصابين بها . . .

وبذلك يتم النصر على السرطان ، وتستكمل قصة العقاقير فصلا جديداً من فصولها الرائعة . . .

أهم مراجع الكتاب

١ — قصة الميكروب : الأستاذ الدكتور أحمد زكى
٢ — النباتات الطبية والعقاقير النباتية : الأستاذ الدكتور إبراهيم رجب فهمى (بالإنجليزية)
٣ — أساطين العلم الحديث : الأستاذ فؤاد صروف
٤ — الهرمونات : الدكتوران محمد رشاد الطوبى وفؤاد خليل
٥ — A History of Medecine : Douglas Guthrie
٦ — Magic in a Bottle : Milton Silverman
٧ — Poison : Hugo Glaser
٨ — Men Against Death : Paul de Krauf
٩ — The Doctor Explains : Ralf. H. Major
١٠ — Behind the Doctor : Logan Clendening

موضوعات الكتاب

دار المعارف

تقدم إلى الآباء والأمهات مجموعة :

في غياب الطبيب

بإشراف الدكتور سليمان عزمي

سلسلة من الكتب الصحية الطبية

يحتاج إليها كل إنسان ولا يستغني عنها كل منزل .

صدر منها

الكتاب الأول

صحة الطفل

بقلم الدكتور حبيب صادر

اقرأ

عباس محمود العقاد

الصّديقة بنت الصّديق

دار المعارف بمصر

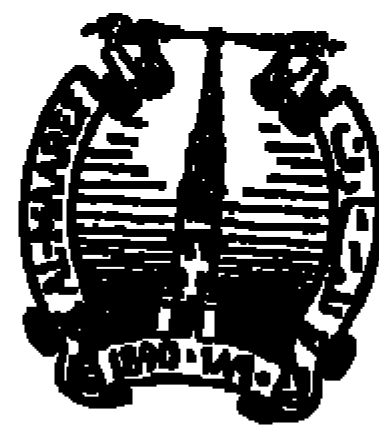
الصّدّيقة بنت الصّدّيق

عباس محمود العقاد

الصدّيقة بنت الصدّيق

اقرأ ١٢٥
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ١٢٥ – يونيه ١٩٥٣



٥

المرأة العربية

كانت نظرة العرب إلى المرأة نظرة طبيعية مرتجلة

ونعنى بالنظرة الطبيعية المرتجلة أنها النظرة التى لا يشوبها إحساس دخيل من وهم العقائد أو حكم التشريع ، ولكنها تمضى على الفطرة التى توحيها ضرورة الساعة أو ضرورة البيئة ، وتختلف على حسب اختلاف هذه الضرورات .

فالعرب لم يضربوا اللعنة قط على المرأة فى جاهليتهم الأولى ، لأن اللعنة التى ضربت على المرأة فى القرون الأولى وامتدت إلى القرون الوسطى إنما جاءت من الإيمان بالخطيئة التى انحدرت بآدم وحواء من نعيم الفردوس ، وأصبحت المرأة ملعونة موصومة بالنجاسة والشر عند بعض الناس لأنهم ألقوا عليها تبعة الشهوات التى تثيرها فيهم وجعلوها حبالة الشيطان ، مذ كانوا يحسون بغوايته الخفية كلما أحسوا بغواية الشهوة الحيوانية ، ومناطها المرأة قبل غيرها من هذه الأحياء .

فالعرب لم ينظروا قط إلى المرأة هذه النظرة ، ولم يحكموا عليها قط بالنجاسة والأصالة فى الشر والخباثة ، لأنهم لم يعرفوا الخطيئة بهذا المعنى فى عهد الجاهلية .

كذلك لم يعرفوا التشريع الموضوع الذى يحكم عليها بالاستعباد والحطة المتفق عليها فى المنزلة الاجتماعية ، وإنما عرف هذا وأشباهه عند الرومان قبل الإيمان بالخطيئة وقبل الإيمان بالدين ، لأنهم كانوا أصحاب ملك عريض لا غنى لهم فيه عن ترتيب الحقوق والمعاملات بين أبناء المجتمع وبناته كافة . فلما رتبوا هذه الحقوق نظروا إلى المرأة فى زمانهم نظرتهم إلى كل ضعيف تابع لغيره . ولم يلاحظوا فى ذلك عنتاً خاصاً بها ولا ضغينة « جنسية » موجهة إليها دون غيرها . لأنهم نظروا هذه النظرة بعينها إلى أبنائهم الصغار وإلى القاصرين منهم على الإجمال . فعاملوهم معاملة الضعفاء وأعطوهم من الحقوق ما يعطاه الضعفاء ، وهم مع ذلك فى عزة الأقارب والأبناء .

هذه النظرة أيضاً لم يعرفها العرب فى جاهليتهم الأولى ، لأنهم لم يضطروا إلى وضع تشريع كامل لدولة كاملة . ولكنهم تركوا أنفسهم على سجيتها كما تختلف بها عاداتها ومأثوراتها . وارتجلوا معاملة المرأة ارتجالا كما تدعوهم إلى ذلك ضرورة البيئة أو ضرورة اللمحة الحاضرة . فربما عاملوها معاملة الرقيق المستضعف فى بعض الأحيان ، وربما نسبوا إليها الأبناء دون الآباء من الرجال فى أحيان أخرى .

والمرجع فى كل أولئك إلى أحوال المعيشة العامة فى الجزيرة العربية .

وخلاصتها السريعة أنها أحوال نزاع شديد على المرعى وموارد الماء ، لقلة المرعى والماء وكثرة طلاب هذا وذاك

وهذا النزاع الشديد يجعل القدرة على « حماية الذمار » مقدمة على كل قدرة ، لأنها مسألة تتعلق بها الحياة والفناء

وهو كذلك خليق أن يجعل المرأة فى بعض الأحوال كلاً ثقيلا على عواتق ذويها ، لأنها تستنفد القوت ولا تشترك فى حمايته والذود عنه .

وهذا الذى يفسر لنا كثيراً من النقائض العجيبة فى الآداب العربية ، لأنها — عند الرجوع بها إلى أسبابها — لا تحسب من النقائض ولا تزال متشابهة متقاربة فى الأصول .

فمن ذلك مثلا أن الحرب نشبت بين بنى بكر وبنى تغلب أربعين سنة لأن البسوس ابنة منقذ أضافت رجلا فضرب كليب ناقة ذلك الرجل وهو فى ضيافة البسوس ، فأقسم ابن أختها جساس لها « ليقتلن غداً جمل هو أعظم عقراً من ناقة جارك » وقتل كليباً سيد بنى تغلب فى ثأر تلك الناقة ، أو من أجل كرامة امرأة فى ناقة جارها .

وإلى جانب ذلك يعلم القارئ أن قبائل من العرب كانت تدفن بناتها فى طفولتها فراراً من عارها أو إشفاقاً من نفقتها

ويلوح أنهما نقيضان لا يلتقيان .

والواقع أنهما غير نقيضين ، وأن البيئة التى تدعو إلى

إحدى الخصلتين حقيقة أن تدعو إلى الأخرى .

فإن آداب الحماية تجعل المرأة أحق شيء بأن يحمى وأن يغار عليه الحماة ، لأنها أمس بالرجل من أرض المرعى ومن ماء البئر ومن الجمل والناقة ، فمن فرط فيها فما هو بقادر على حماية شيء من هذه الأشياء .

ومن هنا فرط الغيرة على العرض وإيثار الموت للبنت على العار

وإذا رجعنا إلى الأصل في « آداب الحماية » وهو النزاع الشديد الذى أوجبه شح الأرض بالرى والطعام ، فالحاجة إلى القوت خليقة أن تغرى بالقسوة المهينة وأن توسوس للمعوزين في سنوات الضيق بالتخلص ممن يستنفد القوت ولا يعين على تحصيله أو الذود عن موارده ، ونعنى بهن البنات الزائدات عن حاجة القبيلة في تلك السنوات .

وربما ظن بعضهم أن الوأد كله من مخافة العار كما قال البحترى وهو يعزى بنى حميد ذلك العزاء العجيب عن فقد فتاة :

أتبكى من لا ينازل بالسيـ ـف مشيحاً ولا يهز اللواء

ويختم عزاءه بقوله :

ولعمرى ما العجز عندى إلا أن تبيت الرجال تبكى النساء

فقد قال في تلك القصيدة :

لم يئد كثرهن قيس تميم عيـــلة ، بل حمية وإباء

يشير إلى قيس بن عاصم سيد بنى تميم الذى أقسم ليئدن كل بنت ولدت له لأن ابنته اختارت صاحبها الذى سباها على العودة إلى أهلها . فكلام البحترى إن صدق فإنما يصدق على قيس وأمثاله . ولكنه لا ينفى أن العرب وجد فيهم من يئد البنات عيلة — أى إشفاقاً من النفقة — كما وجد فيهم من يئد البنات أنفة من العار . وآية ذلك أن صعصعة بن ناجية كان يشترى البنات من آبائهن ليستحييهن فيقبلون ذلك ويبيعونهن راضين عن بيعهن ، حتى قيل إنه افتدى ثمانين ومائتى وليدة بالشراء . ولو كان آباؤهن يئدونهن خشية العار وحده لما أغنى عنهم إقصاؤهن وهن على قيد الحياة ، ولحق بهم فى بيعهن عار لا يقبله من يأنف من العار .

والقرآن الكريم يقول : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق »

ونخرج من هذا جميعه بأن هذه النقائض الظاهرة مصدرها واحد ، وهو النزاع على الرزق وما أوجبه من تقديس فضائل الحماية والدفاع عن الحرمات . فهذا المصدر يفسر لنا وأد البنات خشية الإملاق كما يفسر لنا وأدهن خشية العار ، ويفسر لنا احتقار البكاء على المرأة كما يفسر لنا إعزاز جارها حتى لتنشب الحرب أربعين سنة غضباً من إصابة ناقة فى جوار خالة رئيس ، ويرجع كله إلى نظرة طبيعية تجرى مع الحوادث فى مجراها ، فلا يشوبها وهم من عقيدة دينية ولا يخالطها قيد من أحكام التشريع .

* * *

ومن لوازم هذا النزاع الشديد فى مظهر آخر من مظاهر البادية العربية أنه جعل المرأة عاملة نافعة فى حياة الأسرة وحياة القبيلة ، لأن المعيشة الضنك التى كان يعيشها البدوى فى صحرائه المجدبة تأبى عليه الترف والبذخ ولا تتسع لإسراف المدنى الذى ينفق ما ينفق على المرأة ولا أرب له عندها غير المتعة والمسرة ، ولا عمل لها عنده غير الراحة والزينة . فكانت المرأة العربية — فى البادية خاصة — تعمل كل ما تستطيع أن تعمله لخدمة أسرتها وقبيلتها ، وتعلم كل ما تستطيع أن تعلمه لإتقان عملها وتجويد خدمتها . فكانت ترعى الإبل والشاء وتمخض اللبن وتغزل الصوف وتصنع الخيام وتضمد الجراح وتطب لنفسها فى شؤون الحمل والولادة وتحذق من هذه الشؤون ما تجهله المرأة الحضرية فى كثير من أمم العصر الحديث ، وتعينها على ذلك حاجتها إلى تطبيب نفسها وقيامها على رعى الأحياء التى تلازمها فى غدوها ورواحها وفى صحتها ومرضها وفى حملها وولادتها وفى اختيار الأصلح والأجدى لنسلها ونتاجها .

سئلت فاطمة بنت الخرشب : أى بنيك أفضل ؟ فقالت : « والله ما أدرى . إنى ما حملت واحداً منهم تُضعا ولا ولدته يتنا ولا أرضعته غيلا ولا منعته قيلا ولا أنمته تئدا ولا سقيته هدَبداً

ولا أطعمته قبل رئة كبدا ولا أبتّه على مأقة » .

ومعنى الحمل التضع ما كان قبيل الحيض ، والحمل الوضع ما كان على أثره ، وكلاهما مكروه عند العرب لاعتقادهم أنه يشوب النطفة بما يفسدها أو يضعفها فلا تسلم مع هذا الإفساد أو الضعف صحة الجنين .

ومعنى الولادة اليتن أن يولد الطفل منكساً ، فتعسر ولادته وقد تصاب عظامه .

ومعنى الإرضاع غيلا أن ترضع المرأة طفلها وهى حامل فلا يخلص اللبن للغذاء المفيد .

ومعنى الإرضاع قيلا أن ترضع المرأة طفلها عند اشتداد حر القيلولة فتنقع غلته ولا تعرضه لأذى الإرواء بالماء ، وهو فى البادية قليل الصفاء .

ومعنى النوم تئدا أن ينام الطفل فى موضع صعب أو وخم يؤرقه ويوبقه بوخامة هوائه .

ومعنى المدبد اللبن المتكبد ، وإطعام الطفل الرئة أو الكبد يثقل على جوفه لصعوبة هضمها على معدته الصغيرة .

أما المبيت على مأقة فهو المبيت على غضب وكمد ، وهو ضار بكبار الرجال فضلا عن صغار الأطفال .

وقد رويت عن نساء العرب صفات أخرى للحمل والرضاعة تشبه هذه الصفة فى جملة معناها ، وهى صفات لا يشترط

أن تطابق العلم الحديث فى جميع تحليلاته وتفصيلاته بل حسبها على سذاجتها أن تدل على طب معروف فى علاج الحمل والولادة والرضاع ، وأن الأمر فى هذه الشؤون لم يكن عند المرأة العربية هملا متروكاً للمصادفات ، كما يشاهد ذلك فى بيئة الكثير من الحضريات المعاصرات .

* * *

إلا أن الشظف الذى كان يعم الجزيرة العربية ويذكى فيها ذلك النزاع الشديد على الرزق لم يكن خلواً من الجوانب التى يرق فيها ويلطف وتسرى منها الرقة واللطف إلى العلاقة بين الرجال والنساء ، فتنعم المرأة بالرفق الذى يرفع من مكانتها ويهذب من معاملتها فى سائر البيئات الإنسانية لا فى الجزيرة العربية وحدها .

وأهم هذه الجوانب جانب النشأة فى بيئة الحضارة وجانب النشأة فى بيئة السيادة .

فالحضارة تصقل الطباع وتهذب حواشى النفوس وتغنى القبائل عن القتال وعن ثورة الغضب للذمار المهدد بالليل والنهار ، وأول ما يظهر هذا الصقل والتهذيب فى العلاقة بين الرجل والمرأة لأنها العلاقة التى تمتحن بها الكياسة وآداب الخطاب .

والسيادة تعلم السادة أن يعنوا بمكان بناتهم من العزة والرخاء ، فلا يسلمونهن لمن ينزل بهن عن منزلة العقائل المبجلات

اللواتى يغنين فى بيوتهن عن الخدمة المسفة والعيش الذليل .

ولهذا كان سادة العرب يختارون الأزواج لبناتهم ثم لا يكتفون باختيارهم حتى يشركوهن فى الرأى ويدخلوهن فى المشورة ، ومن أنباء ذلك التى استفاضت فى الأدب العربى أن الحارث بن عوف المرىّ قدم على أوس بن حارثة الطائى خاطباً فدخل أوس على زوجته ودعا ببنته الكبرى فقال لها : يا بنية ! هذا الحارث بن عوف سيد من سادات العرب قد جاءنى طالباً خاطباً وقد أردت أن أزوجك منه فما تقولين ؟ قالت : لا تفعل . قال : ولم ؟ قالت : لأنى امرأة فى وجهى ردة وفى خلقى بعض العهدة ، ولست بابنة عمه فيرعى رحمى ، وليس بجارك فى البلد فيستحى منك ، ولا آمن أن يرى منى ما يكره فيطلقنى فيكون على وعليك من ذلك ما فيه .

فصرفها ودعا بابنته الوسطى وعرض عليها ما عرضه على الكبرى . فقالت : إنى خرقاء وليست بيدى صناعة ولا آمن أن يرى منى ما يكره فيطلقنى ! .

فلما دعا بأختها الصغرى قالت : « . . ولكننى والله الجميلة وجهاً الصناع يداً الرفيعة خلقاً الحسيبة أباً ، فإن طلقنى فلا أخلف الله عليه بخير ! » .

وهذه الفتاة الصغرى — واسمها بهيسة — هى التى تزوجها

الحارث وزفت إليه ، فأنكرت منه أن يدخل عليها فى ثياب العرس والحرب قائمة بين عبس وذبيان فلا يشغله عن الطيب والزفاف أن يصلح بينهما . . . فأكبر منها زوجها هذه الحكمة وسعى فى الصلح بين الحيين حتى استجيب إليه .

وممن جاءت الأنباء على اختلاف الروايات باستشارتهن في الزواج هند بنت عقبة أم معاوية بن أبي سفيان . وقد خطبها سيدان من قومها فاستخبرت أباها عنهما فقال يصفهما : « أما أحدهما ففي ثروة وسعة من العيش ، إن تابعته تابعك ، وإن ملت عنه حط إليك ، تحكمين عليه فى أهله وماله . وأما الآخر فموسع عليه منظور إليه فى الحسب الحسيب والرأى الأريب ، مِدْره أرومته وعز عشيرته ، شديد الغيرة لا ينام على ضعة ولا يرفع عصاه عن أهله » .

فقالت : « يا أبت ! الأول سيد مضياع للحرة ، فما عست أن تلين بعد إبائها وتضيع تحت جناحه إذا تابعها بعلها فأشرت وخافها أهلها فأمنت ؟ ساء عند ذلك حالها وقبح عند ذلك دلالها . فإن جاءت بولد أحمقت ، وإن أنجبت فمن خطأ ما أنجبت ، فاطو ذكر هذا عنى ولا تسمه على بعد ! وأما الآخر فبعل الفتاة الخريدة الحرة العقيلة . وإنى لأخلاق مثل هذا لموافقة . فزوجنيه » .

ويلوح من تكرار هذه الأنباء أن استشارة البنات فى

أمر زواجهن كان سنة من السنن المرعية بين سادات العرب لا يشذ عنها إلا القليل .

* * *

ومن البديه أن هذه العادات والآداب التى تنشأ من بيئة الوطن ومناخه تعم الأمة برمتها ولا يقع فيها التفاوت إلا ما لا بد منه بين فرد وفرد ، أو بين طبقة وطبقة ، على المثال الذى قدمناه

بيد أنك قد ترى فى الأمة طائفة من عليتها أو بيتاً من بيوتها يخيل إليك أنهم خصوا من دونها بصفوة هذه الآداب ونقاوة هذه العادات .

أو يخيل إليك أن آداب الأمة كلها إنما كانت تحضيراً مقصوداً لهذه الطائفة أو لهذا البيت ، يأخذون منه بالخلاصة المصفاة واللباب المختار .

فإذا صح هذا الوصف فى قبيلة من قبائل العرب فهو أصح ما يكون فى قبيلة بنى تيم ، ثم فى بيت أبى بكر الصديق الذى كان فى موضع الذؤابة من هذه القبيلة

فقد اجتمعت لبنى تيم خلاصة الآداب التى نجمت من فرائض الحماية والذود عن الذمار ، ثم تناولتها بالصقل والتهذيب بيئة السيادة وبيئة الحضارة .

وكان بيت الصديق على التخصيص مثلا فى هذه الآداب جميعها يحتذى به بين الحواضر العربية .

لأن سيادة هذا البيت لم تكن سيادة طغيان وقتال ، ولكنها كانت سيادة شرف وأمانة ، وكانت حصته فى الجاهلية من مقاوم الشرف حصة الوفاء بالمغارم وضمان الديون ، وعمله الأكبر فى الجاهلية يدور على التجارة ومعاملة الناس ولا يدور على البأس والإكراه

فنشأ البيت كله على الرفق والدماثة ورقة الحاشية ، واشتهر بتدليل نسائه وبناته حتى قيل — كما جاء فى الأغانى — إنهن كن أحظى خلق الله عند أزواجهن . وكانت عند الحسين ابن على رضوان الله عليهما أم إسحاق بنت طلحة ، فكان يقول ، « والله لربما حملت ووضعت وهى مصارمة لى لا تكلمنى »

وندر من أبناء الصديق رضى الله عنه من لم يكن له مع امرأته شأن يذكر فى باب المحبة بين الأزواج :

فعبد الله أكبر أولاده بنى بعاتكة بنت زيد العدوية فهام بها وشغل عن خاصة أمره وعامته ، حتى نصح له أبوه بطلاقها فطلقها وهو كاره . ثم أدركه النـــدم فنظم فيها القصائد ومنها

أعاتك لا أنساك ما ذر شارق ... وما لاح نجم فى السماء محلق
أعاتك قلبى كل يوم وليلـــة ... لديك بما تخفى النفوس معلق
ولم أر مثلى طلق اليوم مثلهـــا ... ولا مثلها فى غير شىء تطلق

وأخوه عبد الرحمن نفله عمر بن الخطاب ليلى ابنة الجودى

من حسان غسان الموصوفات بالقسامة والجمال فلازمها ولم يفارقها فترة إلا نظم الشعر فى الحنين إليها ، ومن قوله فيها :

تذكرت ليلى والسماوة بيننـــا فما لابنة الجودى ليلى وماليا
وأنى نلاقيها ! بلى . ولعلها إذا الناس حجوا قابلا أن توافيا

وأفرط فى التعلق بها حتى لامته شقيقته السيدة عائشة رضى الله عنها وما زالت به حتى جفاها ، فعادت تلومه فى جفائها وتقول له : « أفرطت فى الأمرين . فإما أن تنصفها ، وإما أن تجهزها إلى أهلها » . فجهزها إلى أهلها .

ومن ذرية الصديق « ابن أبى عتيق » صاحب عمر بن أبى ربيعة شاعر الغزل المشهور ، وكان يسمع بالجفاء بينه وبين الثريا فيركب من مدينة إلى مدينة ليصلح بينهما ، ولا يترجل عن مطيته حتى يتم الصلح على ما يرومه .

وهو مع هذا كان يتحرج من نزوات عمر ويسأله : ألم تخبرنى أنك ما أتيت حراماً قط ؟ فيقول : بلى ! فيستخبره عن قوله :

وما نلت منها محرماً غير أننـــا كلانا من الثوب المورد لابس

ثم لا يتركه حتى يجيبه بما يدفع شكه ويرده إلى حسن ظنه

* * *

فآداب الرجال والنساء فى بنى تيم كانت مثالا للرعاية التى تظفر بها المرأة العربية فى بيئة السيادة وبيئة الحضارة .

ولكنها لم تزل عربية فى قرارها ، ولم تنقطع عن آداب الأمة التى جعلت عرضها أحق شىء بالحماية ، وأقمن حصن أن تمنعه وتغار عليه .

فكان أبو بكر نفسه مثلا من أمثلة الغيرة بين أهله وقومه ، وقد قال ابن سيرين : كان أغير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر . وروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن نفراً من بنى هاشم دخلوا على زوجته أسماء بنت عميس فكره دخولهم عليها وشكاهم إلى النبى عليه السلام فقام على المنبر فقال : لا يدخلن رجل بعد يومى هذا على مغيّبة إلا أن يكون معه رجل أو اثنان

ولما شبب عمر بن أبى ربيعة بعائشة بنت طلحة التيمية تجمع فتيان تيم فأنذروه لئن تعرض لها بعد ذلك ليقتلنه شر قتلة . فأقسم لا عاد .

وعائشة هى التى كانت تعاتب فى كشف وجهها فتقول : « إن الله وسمنى بميسم جمال أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضله عليهم ، فما كنت لأستره . والله ما فىّ وصمة يقدر أن يذكرنى بها أحد »

فهو دلال لا ينسى الصيانة ، ورفق لا ينسى الغيرة ، وآداب سيادة وحضارة لا تنسى الأصول المعروفة فى آداب البداوة

وفى هذه البيئة التى تحوطها الحمية والرعاية نشأت ربة هذه الدراسة وموضوع هذا الكتاب : عائشة بنت الصديق رضى الله عنها

ولكنها تفردت برعاية لم تشركها فيها ولائد هذه البيئة . فقد تربت على النعمة والخير ، وتدربت على العزة والكرامة ، وتعلمت القراءة التى لم يكن يتعلمها من نجباء الأبناء فى بيوت السادة إلا القلة المعدودة .

فصح أن يقال إن الرعاية التى ظفرت بها ربه هذه الدراسة كانت هى خلاصة الكرامة التى هيأتها لبناتها حمية البداوة ، وصقلتها مع الزمن شمائل الحضر ومآثر الشرف والسيادة .

المرأة المسلمة

جاء الإسلام فبدأ من النهاية التى انتهت إليها آداب الحضارة والسيادة ، وهى خلاصة العرف الذى تعارف عليه سادة الحضر فى معاملة المرأة العربية .

إلا أنه جعل هذا العرف حقاً مكتوباً على الرجال لكل امرأة من كل طبقة ، ولم يقصره على عقائل البيوتات كما كان مقصوراً عليهن فى آداب الجاهلية بحكم الاصطلاح والعادة ،

يتبعه من يرضاه ويهمله من يأباه

ثم زاد على هذا العرف منزلة من الرعاية لم تصل إليها أرفع النساء فى أرفع البيوتات قبل الدعوة المحمدية ، لأنه جعلها مناط التكليف ووجه إليها الخطاب فى كل شيء كما وجهه إلى الرجال . إلا ما هو من خصائص عمل الرجال فى العرف المستقيم

فالمرأة فى شريعة الإسلام إنسان مرعىّ الحقوق والواجبات...

« ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف . وللرجال عليهن درجة »

وكل امرأة أو فتاة — من العلية أو السوقة — لا يصح زواجها حتى يرجع إليها فيه « فلا تنكح الأيم حتى تستأمر ولا البكر حتى تستأذن » . . . وعلامة إذنها السكوت كما جاء فى بعض الأحاديث .

ولها أن تملك ما تشاء وأن تبيع وتشترى ما تشاء ، وأن تشترك فى الإرث وكان حراماً عليها ، لأنها لا تحمل الدرع ولا تضرب بالسيف . بل كان من حق الرجل أن يتخذها هى ميراثاً ينتقل إليه كرهاً كما يرث الخيل والإبل والحطام . فأبطل الإسلام ذلك حيث جاء فى القرآن الكريم « يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً »

وقضى بأن تبايع النساء كما بويع الرجال ، فلا تغنى عن مبايعتهن مبايعة آبائهن وأزواجهن وأوليائهن . ونص القرآن

الكريم على ذلك حيث جاء فى سورة الممتحنة « يا أيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم » .

وأبى الإسلام إلا أن يكفل لها حسن المودة كما كفل لها حسن المعاملة ، وأن يوسع لها من حقوق البر والعطف كما وسع لها من حكم الشريعة . فأوصى المسلمين أن يستقبلوا ولادتها بالرضى ، وزجر الذين يستقبلونها على غيظ وحرد . . . « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب . ألا ساء ما يحكمون » .

ومن الآداب القرآنية أن يغالب الرجل كراهتها إذا تغير قلبه من نحوها عسى أن يثوب إلى حبها أو يكون فى احتمالها خيرٌ له ولها :

« وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » .

وكانت وصايا النبى (ص) على منهاج أوامر القرآن فى إنصاف المرأة ورعايتها ، فكان عليه السلام يقول : « خيركم خيركم للنساء » . . . و « . . . ما أكرم النساء إلا كريم

ولا أهانهن إلا لئيم »

وأسند الوصاة بها فى بعض الأحاديث إلى وحى جبريل حيث قال :

« ما زال جبريل يوصينى بالنساء حتى ظننت أنه يحرم طلاقهن » .

والتعليم الذى كان فى بيوت السادة فلتة لا يقاس عليها بين الرجال فضلا عن النساء جاء الإسلام فجعل « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » واستحبه عليه السلام حتى للإماء حيث قال : « أيما رجل كانت عنده وليدة فعلمها فأحسن تعليمها ، وأدبها فأحسن تأديبها ، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران » .

* * *

هذه هى المنزلة التى تبوأتها المرأة فى الشريعة الإسلامية .

وهذه هى المعاملة التى أوجبتها آداب الإسلام على المسلمين كافة ، وهى أرفع من كل أدب ترقت إليه الجاهلية فى الجوانب التى تهذبت فيها معاملة المرأة بين ذوى السيادة والحضارة من أهلها ، وأضيفت إليها على عهد الإسلام جوانب شتى لم يكن للمرأة فيها أيسر نصيب من رعاية أو إنصاف .

ومهما يكن من الرأى فى موقف العصور الحديثة من المرأة — وهو ما نعرض له فى ختام هذا الكتاب — فالذى

لا ريب فيه أن الإسلام قد رفعها درجات فوق أرفع منزلة بلغتها بين العرب أو بين الأمم الأخرى ، وأن المسلم الذى يعمل بدينه يوليها من البر فوق ما طلبته لنفسها ، لو أنها كانت فى زمان يطلب فيه النساء لأنفسهن حقاً من الحقوق .

* * *

ولم تكن تلك غاية المرتقى .

فإن الفرائض الدينية تطاع ولا تطاع ، وهى على هذا موكلة بالتعميم الذى يستوى فيه جميع المسلمين المخاطبين بالتكليف . وإنما طاعة التكليف فضيلة تعلوها فضائل الاختيار والرغبة والاشتياق إلى الإنجاز ، كأن الإنجاز هو المثوبة التى تغنى عن المثوبة الموعودة . وها هنا تتفاوت المراتب وتترقى الفضائل من التعميم الشائع إلى الامتياز والرجحان ، تستبق النفوس حتى يكون العمل المفروض أمنية محبوبة يؤلم النفس أن تعاق دونها ولا تبلغ الغاية منها

وتلك عليا مراتب الأنبياء .

وهى المرتبة التى سما إليها صاحب الدعوة الإسلامية بما تهيأ له من تمام الأريحية الإنسانية وملاك الفطرة النبوية

فالحق أن محمداً عليه السلام لم يفرض على نفسه الشريفة محاسنة المرأة كما تفرض الأوامر السماوية على من يطيعها ولا مسرة له فى طاعتها ، ولكنه حاسنها فطرة كما حاسن كل

مخلوق حى ولا سيما الضعفاء . وجعل البر بها مقياس المفاضلة بين أخلاق الرجال وعنوان المنافسة فى طلب الخير والكمال . فقال غير مرة : « خيركم خيركم للنساء » .

وبلغ من ذلك أنه يأوى إلى البيت « فيكون فى مهنة أهله فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة » وأنه استحب خدمة الزوجة فى منزلها فقال : « خدمتك زوجتك صدقة » وكان أكيس رجل فى معاملة أهل بيته ، يشفق أن يرينه غير باسم فى وجوههن ، ويزورهن جميعاً فى الصباح والمساء ، وإذا خلا بهن « كان ألين الناس ضحاكاً بساماً » كما قالت عائشة رضى الله عنها .

ومن المبالغات المألوفة فى تناهى الرحمة أن يقال « إنه أرحم به من أمه وأبيه »

لكنه عليه السلام كان حقاً أرحم بأهله من آبائهن وأمهاتهن حتى الذين اشتهروا بالحدب الشديد على ذوى الرحم كأبى بكر الصديق رضوان الله عليه .

فنى الأحاديث عن عائشة أنها قالت : « كان بينى وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم كلام . فقال : من ترضين أن يكون بينى وبينك ؟ أترضين بأبى عبيدة بن الجراح ؟ قلت : لا . ذلك رجل هين لين يقضى لك . قال : أترضين بأبيك ؟ قلت : نعم . فأرسل إلى أبى بكر فجاء ، فقال :

اقصصى ! فقلت : بل اقصص أنت . . . فقال : هى كذا وكذا . . . فقلت اقصد ! فرفع أبو بكر يده فلطمنى وقال : تقولين يا بنت أم رومان اقصد ؟ من يقصد إذا لم يقصد رسول الله ؟ فجعل الدم يسيل من أنفى ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا لم نرد هذا . . . وجعل يغسل الدم بيده من ثيابى ، ويقول : رأيت كيف أبعدك الله منه . . . »

وكان بره بمن مات من أزواجه أكرم من بره بمن يعشن معه ويراهن كل يوم . فلما ماتت زوجته الأولى خديجة رضى الله عنها حزن عليها وسمى العام الذى قبضت فيه « عام الحزن » ووفى لذكراها طوال حياته ، حتى لقد كانت عائشة تغار منها وهى فى قبرها أشد من غيرتها من زوجاته اللواتى يعشن معها فى كنفه ، وقالت له يوماً . هل كانت إلا عجوزاً بدلك الله خيراً منها ؟ فقال لها مغضباً : « لا والله ؛ ما أبدلنى الله خيراً منها . آمنت بى إذ كفر الناس ، وصدقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى الله منها الولد دون غيرها من النساء »

وإن هذا الوفاء لذكرى الزوجة الغابرة لخليق أن يرضى المرأة — حين تنسى غيرتها — أشد من رضاها عن مكاشفتها بالتفضيل فى حياتها لجمالها وشبابها ونعيم عشرتها وصفائها

* * *

ونحن لا نعتسف التوفيق والترتيب حين نقول عن ربة هذا الكتاب – عائشة بنت الصديق – إنها لوحظت فى آداب العرب والإسلام كأنها الوجهة التى اتجهت إليها هذه الآداب فى طريق الارتقاء والتهذيب .

فمن قسمتها فى آداب العرب النسائية أنها نشأت فى خلاصة تيم الذين اشتهروا بظرف الرجال وتدليل النساء

ومن قسمتها فى الإسلام أنها ملكت حقوق المرأة المسلمة ، وتجاوزتها فملكت الحظوة التى يضفيها على نسائه نبى كريم ، يتجاوز الحقوق المفروضة صعدا فى معارج الكمال ، وكانت هى بعد هذا صاحبة الحظوة الأولى بين هؤلاء النساء .

إنها لمجدودة من بنات حواء

ولهذا الجد السعيد شأن أى شأن فى تاريخها الذى اتصل بتاريخ الإسلام

المرأة الخالدة

إن المرأة التى اجتمعت لها خلاصة الرعاية فى آداب أمة من الأمم لذات شأن فى تاريخ قومها لا يسهو عنه باحث موكل بدراسة التاريخ أو دراسة الآداب .

وأعظم من ذلك شأن المرأة التى كُتبت لها خلاصة الرعاية فى دين من الأديان ، والتى اشتركت فى سيرة النبى المرسل بذلك الدين ، ونقلت أحاديثه فى أحكام شريعته وخطرات ضميره ، ولقيت عنده الحظوة التى لم تلقها واحدة من النساء .

والسيدة عائشة رضى الله عنها هى هذه ، وهى تلك .

هى المرأة التى لوحظت فى آداب الأمة العربية كأنما استخلصت لها هذه الآداب لتظفر منها بالرعاية الأولى .

وهى المرأة التى قال عنها النبى عليه السلام إنها أحب الناس إليه ، وتلقى الأعقاب عنها مئات الأحاديث التى عرفوه بها فى دينه ودنياه .

وكلاهما شأن عظيم يبوئ الإنسان بين قومه مكاناً ملحوظاً من جوانب التاريخ .

ولكن السيدة عائشة مع هذا وذاك تهم الباحثين والمؤرخين لسبب آخر غير هذين السببين ، أو للسبب الآخر المتمم لهذين السببين ، لأنها المرأة فى تكوينها الأصيل الذى خلقه الله منذ خلق حواء ، أو هى المرأة التى تتمثل فيها الأنثى الخالدة التى لا تحتويها أمة واحدة ولا يستأثر بها زمان واحد ، لأنها استمدت من طبائع الإنسانية كل ما قدر لها من دوام

وهذا هو جانب الاهتمام الصميم بكل عظيمة وكل عظيم فهما يقل القائلون فى غرض المؤرخ من سير العظماء

فالحقيقة التى لا ريب فيها عندنا هى أن الغرض الأول أو الغرض الذى تنتهى إليه جميع الأغراض – هو توثيق الصلة بين الإنسانية وبين عظمائها وعظيماتها والنفاذ إلى الجانب الإنسانى من كل نفس تستحق التنويه والدراسة .

وما من علامة هى أصدق دلالة على السيرة الناجحة من هذه العلامة .

فنحن نعلم أننا سائرون على الجادة فى التعريف بصاحب السيرة أو صاحبتها إذا نظرنا فرأينا أننا قد وصلنا من تلك السيرة إلى صميم الإنسان .

ونحن نعلم أننا تائهون فى الطريق إذا نظرنا فلم نجد بين أيدينا إلا سرابيل العظمة وأقواس النصر ومواكب الرهبة والخشوع

نحن إذا فهمنا النبى نبياً وكفى فإنما وصلنا بين ضميره وضمائرنا وبين محراب العبادة عنده ومحراب العبادة عندنا .

ونحن إذا فهمنا البطل بطلا وكفى فإنما وصلنا بين قدرته وقدرتنا وبين ضخامته بالقياس إلينا وضآلتنا بالقياس إليه .

ونحن إذا فهمنا الرئيس رئيساً وكفى فإنما وصلنا بين مركزه فى الأمة ومركزنا وبين الحقوق التى له والواجبات التى عليه ، والحقوق التى لنا والواجبات التى علينا .

ولكننا إذا فهمنا النبى إنساناً فقد فهمناه كله وفهمناه على حقيقته التى تعنينا وتعقد له أواصر القرابة فيما بينه وبيننا ،

لأننا وصلنا بين الإنسان فيه والإنسان فينا .

وكذلك البطل ، وكذلك الرئيس ، وكذلك كل ذى شأن يستحق البحث فيه .

هم غرباء حتى يقال . هذا هو الإنسان ! فإذا هم الأقربون الذين ترضينا عظمتهم لأنهم منا ونحن منهم ، ولأنهم خالدون خلود الإنسان من وراء الأقوام والأزمان

والسيدة عائشة رضى الله عنها مثل من أمثلة الأنوثة الخالدة فى جميع أقوامها وجميع عصورها .

فضلها فى الكتابة عنها أنها كتابة عن تلك الأنوثة التى نلمحها حولنا ونلمحها من قبلنا فى كل أنثى .

وأنها ترينا النبى فى بيته فترينا الرجل الذى ارتفع بالنبوة إلى عليا مراتب الإنسانية ، ولكنه مع هذا هو الرجل فى بيته كما يكون الرجال بين النساء على سنة الفطرة المعهودة من آدم وحواء .

وفضلها على الجملة أنك تقرأ من أخبارها ما تقرأ فلا تزال تقول بعد كل خبر ترويه أو يرويه غيرها : أجل هذه هى الأنثى الخالدة فى كل سمة من سماتها .

هذه هى الأنثى الخالدة فى غيرتها ، وهذه هى الأنثى الخالدة فى دلالها ، وهذه هى الأنثى الخالدة فى كل ما عرفت به الأنثى من حب الزينة وحب التدليل والتصغير وحب التطلع

وحب المكايدة والمناوشة ، ومكاتمة الشعور والتعريض بالقول وهى قادرة على التصريح .

وكل لون من ألوان الغيرة التى تتراءى فى طبيعة المرأة فهو باد فى خبر من أخبار السيدة عائشة ، كأوضح ما يبدو وأصدق ما يكون فى طبائع النساء .

والغيرة فى طبائع النساء ألوان :

تغار المرأة على قلب الرجل الذى تحبه ولو شغلته الذكرى ولم تشغله المودة الحاضرة ، لأنها تعلم من هذا أنها لم تشغل قلبه كله ، وهى تأسى على كل ما يفوتها من شواغل ذلك القلب ، ولو لم تكن ثمة منافسة محذورة .

وتغار المرأة من المرأة الجميلة وإن لم تنافسها على رجل تحبه ، وتغار من شريكتها فى رجلها كائناً ما كان حظها من الجمال ، وتغار من كل مزية غير الجمال ما كان فيها سبيل إلى الحظوة فى القلب الذى تريده لها ولا تطيق المزاحمة عليه

و « الأنثى الغيرى » فى جميع هذه الألوان من الغيرة النسائية ماثلة هنالك فى سيرة عائشة كما روتها هى وكما رواها غيرها ، ما من فارق بينها وبين سائر النساء إلا الأدب الذى ينبغى لها والحق النبوى الذى هى جاهدة جهدها أن توقره وترعاه

كانت السيدة خديجة متوفاة منذ سنوات يوم بنى النبى بالسيدة عائشة

ولكن السيدة عائشة كانت تغار منها غيرة لم تنطو على مثلها لشريكاتها اللواتى يعشن معها ، لأنها شغلت قلب النبى بعد وفاتها فلم يزل يذكرها ويحب لحبها من كان يزورها أو يراها

وكان عليه السلام يبر بعض العجائز فسألته السيدة عائشة فى ذلك فقال : إن خديجة أوصتنى بها . . . فقالت مغضبة : خديجة . خديجة . . لكأنما ليس فى الأرض امرأة إلا خديجة

وعلى حلم رسول الله ربما غضب أحياناً من ثورتها على ذكرى خديجة ، فغضب فى هذه المرة وتركها فترة ثم عاد وأمها — أم رومان — عندها فقالت له أمها : يا رسول الله ؛ مالك ولعائشة ؟ إنها حديثة السن وأنت أحق من يتجاوز عنها . فلم يدعها حتى أخذ بشدقها معاتباً وهو يقول لها : ألست القائلة كأنما ليس على وجه الأرض امرأة إلا خديجة !

وسألته مرة : ما تذكر من عجوز حمراء الشدقين قد بدّلك الله خيراً منها ؟ فأسكتها قائلا : « والله ما أبدلنى الله خيراً منها . آمنت بى حين كذبنى الناس ، وواستنى بمالها حين حرمنى الناس ، ورزقت منها الولد وحرمته من غيرها » .

أما شريكاتها اللواتى كن يعايشنها فى بيت النبى فربما كانت تغار من إحداهن لطعام يستطيبه النبى عندها فضلا عن الغيرة من الجمال أو الملاحة

تعود عليه السلام أن يستطيب العسل الذى تهيؤه له زينب بنت جحش وهى من أجمل أمهات المؤمنين وأحظاهن عنده فأجمعت رأيها مع صديقتها حفصة بنت عمر أن يبغضاه فى عسلها وقالت فيما روته عن نفسها: « . . . فتواطأت أنا وحفصة أيتنا دخل عليها فلتقل له : أكلت مغافير ؟ وهى طعام من صمغ حلو ولكنه كريه الرائحة ، ولم يكن أبغض إلى النبي عليه السلام من رائحة كريهة . . . فلما دخل عندها رسول الله قالت . إنى أجد منك ريح مغافير . قال : لا : ولكنى كنت أشرب عسلا عند زينب بنت جحش فلن أعود إليه !

وقد عرفت زميلتها السيدة صفية بجودة الطهى ، وهى فى الأصل إسرائيلية من أهل خيبر . فنفست عليها السيدة عائشة هذه الإجادة ولم تكتم غيرتها منها بل هى التى روتها ومن حديثها عنها عرفناها . قالت « ما رأيت صانعة طعام مثل صفية . صنعت لرسول الله طعاماً وهو فى بيتى فأخذنى أفكل — أى قشعريرة — فارتعدت من شدة الغيرة فكسرت الإناء ثم ندمت فقلت : يا رسول الله ما كفارة ما صنعت ؟ قال : إناء مثل إناء وطعام مثل طعام »

وهذه غيرتها من زميلات لم يجهرن بالمنافسة والمغايظة وهى بالبداهة دون غيرتها من الزميلات اللواتى كن ينافسنها جهرة ويكاشفن النبى عليه السلام بالشكوى عن تفضيلها

عليهن فى المودة والحظوة ، وعلى رأسهن أم سلمة التى شهدت على نفسها والنبي يخطبها أنها غيور لا تطيق المنافسة ، فكان عليه السلام يجاملها ليذهب غيرتها ؛ وتغضب عائشة من هذه المجاملة على علمها بمكانتها عنده . قالت :

دخل على يوماً رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت :

أين كنت منذ اليوم ؟

قال : يا حميراء كنت عند أم سلمة

قلت : ما تشبع من أم سلمة ؟

فتبسم . ثم قلت : يا رسول الله ألا تخبرنى عنك او أنك نزلت بعدوتين إحداهما لم ترع والأخرى قد رعيت أيهما كنت ترعى ؟

قال : التى لم ترع !

قلت : فأنا ليس كأحد من نسائك . كل امرأة من نسائك قد كانت عند رجل ، غيرى . . .

فتبسم عليه السلام

وإذا كانت أكلة أو شربة عسل تستطاب عند إحدى الزميلات ، أو مجاملة لإحداهن جبراً لخاطر ومداراة لغيرة — تثير هذه المنافسة وتغرى بهذه المؤامرة فليس من العسير أن نفهم كيف تكون الغيرة التى تثيرها الذرية المحبوبة المرقوبة حين يرزقها النبي من إحدى زوجاته وقد حرمها من سائرهن

سنوات ، وهو شديد الكلف بها والتطلع إليها

تلك إذن غيرة لا تمسكها الحدود ولا تكبحها المجاملات

وقد ثارت ثائرتها يوم ولد له عليه السلام ابنه إبراهيم من مارية القبطية ، وكانت على هذه المزية التى امتازت بها جميلة بيضاء ، تغار منها الزميلة لجمالها وصباحتها فوق غيرتها منها لهذه الأمومة التي تفردت بها بين تسع نظيرات

قالت كتب السير : وغارت زوجات النبي ولا كعائشة

لأن عائشة رضى الله عنها كانت صاحبة المكانة الأولى التى ترفعت إليها « ماريا » بأمومتها ، فهى أحق بالغيرة على تلك المكانة من سواها

ولا ريب فى حب عائشة للنبي ولا فى سرورها ورضاها بما يسره ويرضيه ، ولكننا نطالب الطبيعة الإنسانية — والطبيعة النسوية — بما يرهقها إذا نحن ترقبنا منها أن تسر بما يثير غيرتها ، وأن تحب الرجل ثم تسر بما عسى أن يصرف حبها عنه ، أو ينقص سهمها فيه

فمن الطبيعى أن تسر المرأة بسرور الرجل لأنها تحبه

ومن الطبيعى كذلك أن تغار من السرور الذى يحببه إلى غيرها ، لأنها تحبه

وقد يفترق القلبان فى لحظة من اللحظات لأنهما مقتربان أشد اقتراب

وهذا الذى حدث عند مولد إبراهيم من مارية القبطية ، وهى فتية جميلة رضية ، يدنيها من قلب النبى شتى المزايا ، وأولاها هذه المزية التى تربى على كل مزية

فلما رأت عائشة فرح النبى بالوليد الموموق وأحست شغف النبى به جاهدت نفسها أن تغالب غيرتها فلم تقو على هذه المغالبة ، وقال لها يوماً : انظرى إلى شبهه ! . فلم تملك لسانها أن تقول : ما أرى شيئاً . . . وربما أعجبه نمو الوليد ولفتها إلى بياضه ولحمه وترعرع جسمه ، فيعز عليها أن تعجب مثل عجبه ، لأنه هكذا كل طفل يشرب من اللبن ما يشرب إبراهيم !

وكان غضب النبى من غيرتها غضب تأديب وتهذيب ، لا غضب سخط وتأنيب . فكان يعذرها فيما يمسه ولا يعذرها فيما ينبغى لها أن تتوخاه أو تتحراه ، أو فيما يحسن بالمرأة التى احبها هذا الحب أن تقلع عنه وتعرف موضع الملامة فيه

فقلما لامها فى شىء يمسه من غيرتها

ولكنه كان لا يسكت مرة عن مؤاخذتها على فلتات هذه الغيرة التى تمس بها أناساً آخرين . فيؤاخذها مؤاخذة المؤدب الرفيق ولا يدع لها أن تعيد ما آخذها عليه

عابت أمامه زوجته السيدة صفية فذكرت من عيوبها أنها قصيرة . فكره أن تمضى فى حديثها وقال : يا عائشة ؛ « لقد

قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته »

وحكت أمامه إنساناً فلم يعجبه ما يعجب الزوج المحب من هذه الفكاهة التى تسوغ وتستملح فى ذوق كثيرين، ونهاها أن تحكى الناس حكاية استهزاء

* * *

ومن « الأنثويات » الخالدة فى طبيعة المرأة دلالها ومغاضبتها وهى أشوق ما تكون إلى المصالحة وتقصير أمد المغاضبة

وللسيدة عائشة نوادر شتى فى هذا الدلال الذى شابهت به كرائم قومها وزادت عليهن بما بلغته من المنزلة التى لم يبلغنها

غضب النبى من نسائه لكثرة منازعاتهن وإلحافهن عليه بطلب المزيد من النفقة والزينة ، فأقسم ليهجرهن شهراً وشاع بين المسلمين أنه طلقهن جميعاً

وكان لهذه الإشاعة بين المسلمين رجة أى رجة ، لأن تطليق النبى زوجاته جميعاً هو أكبر طارق يتعرض له عليه السلام فى بيته ويمتد أثره إلى القبائل والبيوت التى كانت تجمعه بها صلة المصاهرة . وفى وسعنا أن نتخيل تلك الرجة بين الصحابة إذا علمنا أن صاحباً لعمر بن الخطاب سمع بالنبأ ليلا فأسرع إلى بابه يدقه دقاً شديداً ويسأل عنه فى فزع : أثم هو ؟ فلما خرج إليه قال صاحبه : حدث أمر عظيم . قال عمر : ما هو ؟ أجاءت غسان ؟ قال : لا . بل أعظم منه وأطول .

طلق النبي صلى الله عليه وسلم نساءه

ثم تحرى عمر الخبر من رسول الله فعلم أن الأمر دون ذلك وأن رسول الله إنما أقسم ليهجرهن شهراً . فما لبث أن استأذنه عليه السلام ليبادر إلى المسلمين المجتمعين بالمسجد فينقل إليهم حقيقة النبأ ويذهب عنهم ما خامرهم من الأسى لما بلغهم من طلاق نسائه

ولا ريب أن نساء النبي أنفسهن كانت بينهن للنبأ رجة أشد عليهن من هذه الرجة ، وكان لهذه العقوبة التي لم يعاقبهن بمثلها من قبل أثرٌ في قلوبهن أبلغ من هذا الأثر

فلما انقضت الأيام التي أوعدن بها بدأ بالسيدة عائشة فدخل عليها وهي أشوق ما تكون إلى لقائه . فماذا سمع منها أول ما سمع ؟

قالت : يا رسول الله أقسمت أن لم تدخل علينا شهراً وقد دخلت وقد مضى تسعة وعشرون يوماً !

فقال عليه السلام : إن الشهر تسعة وعشرون

أتراها كانت تنتظر استيفاء الثلاثين ولا تقنع بالهجر تسعة وعشرين يوماً ؟

كلا . فقد عدتهن يوماً يوماً وعلمت ساعة دخول النبي كم مضى وكم بقي على ظنها من أيام العقوبة . ولكنها الأنثى

الخالدة كما أسلفنا ، ولا بد للأنثى الخالدة فى هذا الموقف من مكاتمة ، ولا بد لها من دلال

* * *

ولغط المشركون بقصة الإفك التى سخفوا بها غاية السخف ، فلم تعلم بها السيدة عائشة إلا بعد شهر من شيوعها وهى تملأ أرجاء المدينة

فلما سمعت بها ذهبت إلى بيت أبويها تسألهما عن هذه القصة التى لم يخبرها أحد بشىء عنها وهى فى بيت زوجها الكريم

قالت السيدة عائشة بعد تفصيل ما سمعت : « فبينا نحن على ذلك دخل رسول الله فسلم ثم جلس وتشهد ثم قال : أما بعد يا عائشة فقد بلغنى عنك كذا وكذا . فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه . فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب تاب الله عليه

« فلما قضى رسول الله مقالته قلص دمعى حتى ما أحس منه قطرة . فقلت لأبى : أجب عنى رسول الله ! فقال : والله ما أدرى ماذا أقول لرسول الله

« فقلت لأمى : أجيبى عنى ، فقالت كذلك . والله ما أدرى ماذا أقول لرسول الله

« قلت — وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن —

إنى والله لقد عرفت أنكم سمعتم بهذا حتى استقر فى نفوسكم وصدقتم به ، فإن قلت لكم إنى بريئة ، والله يعلم أنى بريئة، لاتصدقونى . ولئن اعترفت لكم بأمر ، والله يعلم أنى بريئة ، لتصدقوننى . . . وإنى والله ما أجد لى ولكم إلا كما قال أبو يوسف : فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون

« ثم تحولت فاضطجعت على فراشى

« . . . فوالله ما رام رسول الله مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله عز وجل على نبيه فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحى ، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان — أى الدر — من العرق فى اليوم الشاتى

« فلما سرى عن رسول الله وهو يضحك كان أول كلمة تكلم بها أن قال : أبشرى يا عائشة ؛ أما الله فقد برأك

« قالت أمى : قومى إليه

« قلت : والله لا أقوم إليه ، ولا أحمد إلا الله . هو الذى أنزل براءتى »

ولو تجمعت الأنوثة الخالدة فى امرأة واحدة لما كان لها من شأن هو أشبه بها من شأن عائشة فى هذه القصة : ضنوا عليها بكلمة التبرئة التى تلهفت عليها فهى تدعهم يضنون بها كما يشاءون ، ويسكتون أو يتكلمون كما يريدون وتضطجع على فراشها . . . ثم تجىء التبرئة التى تلهفت عليها ،

فيجئ معها الغضب والإدلال بالعزة المجروحة .

« قومى إليه . . . لا والله لا أقوم إليه ! » . . . لم ؟ أهو الذى أغضبها ؟ كلا . ولكنها غضبى ولا بد للغضبى من استرضاء . ومن أولى من الزوج الكريم باسترضائها !

وكم كانت للزوجة المحبوبة من مغاضبات تعرّض بها ولا تظهرها ويبتسم لها النبي لأنها لا تخفى عليه وهى لا تعنى بها أن تخفى عليه !

قال لها عليه السلام يوماً : « إنى لأعلم إذا كنت عنى راضية وإذا كنت على غضبى . فقالت : من أين تعرف ذلك ؟ قال : أما إذا كنت عنى راضية تقولين لا ورب محمد ! وإذا كنت على غضبى قلت لا ورب إبراهيم . قالت : أجل والله يا رسول الله . ما أهجر إلا اسمك . » .

أليس هو أسلوب الأنثى الخالدة فى مغاضبتها وهى تحب من تغاضبه وتعرّض له بالغضب وتعنى أن يفهمه كأنه التصريح الذى لا مواربة فيه

ولابد من المواربة على كل حال

* * *

وما من سمة فى الأنوثة الخالدة غير هذه السمات إلا وجدت السيدة عائشة وقد صدقت فطرتها فيه ، وإن كانت لتروض نفسها تلك الرياضة العالية التى تجمل بزوجة محمد وبنت

الصديق وأم المؤمنين .

فإذا عرضت مناسبة للسن فليس أحب إليها من أن تقول : وكنت جارية حديثة السن ، أو حدث ذلك بالجهل وصغر سني ، وربما راقها أن تختار من الروايات التي ذكروها لها عن سنها أقرب تلك الروايات إلى التصغير وأولاها أن تميزها بين زميلاتها بميزة الشباب

وقد تكون وحدها في بيتها فتعجبها ثيابها وتحب أن تنظر إليها . قالت : « ولبست ثيابي فطفقت أنظر إلى ذيلي وأنا أمشي في البيت وألتفت إلى ثيابي وذيلي . فدخل علي أبو بكر فقال : يا عائشة ! أما تعلمين أن الله لا ينظر إليك الآن ؟ قلت : ولم ذاك ؟ قال : أما علمت أن العبد إذا دخله العجب بزينة الدنيا مقته ربه عز وجل حتى يفارق تلك الزينة ؟ فنزعته فتصدقت به . قال أبو بكر : عسى ذاك أن يكفر عنك »

وهي عائشة كاملة في هذه القصة الصغيرة : هي حواء التي تحب أن تنظر إلى زينتها ، وهي أم المؤمنين التي تحب أن ينظر الله إليها ، وهي هنا أيضاً حواء تطمح إلى زينة أعلى وأغلى

* * *

ولن تعوزنا أسباب الاهتمام بحياة كهذه الحياة ، لأنها المرأة العربية ، والمرأة المسلمة ، والمرأة الخالدة في كل زمان

عائشة

ولدت عائشة لأبي بكر الصديق من زوجته « أم رومان » واسمها زينب أو دعد مختلف فيه ، كما اختلفوا فى نسبها واتفقوا على أنها من كنانة . .

وكانت قبل بناء الصديق بها زوجاً لصاحبه فى الجاهلية عبد الله بن الحارث بن سخبرة ، وولدت له ابنه الطفيل ، ثم مات فخلفه عليها أبو بكر ليحفظ بيت صاحبه وحليفه

ومن المتفق عليه أنها كانت امرأة ذكية ، أسلمت وهاجرت ولقيت عنتاً شديداً فى سبيل دينها وزوجها ، ويروي عن النبي عليه السلام أنه قال : « من سره أن ينظر إلى امرأة من الحور العين فلينظر إلى أم رومان »

وقد اختلفوا فى سنة وفاتها ، من قائل : إنها توفيت فى حياة النبي عليه السلام إلى قائل : إنها عاشت إلى أيام عثمان رضى الله عنه ، والأرجح فى رواية البخارى أنها عاشت إلى أيام عثمان

ولا يعرف على التحقيق فى أية سنة ولدت السيدة عائشة رضى الله عنها : ولكن أقرب الأقوال إلى الصدق وأحراها

بالقبول أنها ولدت فى السنة الحادية عشرة أو الثانية عشرة قبل الهجرة ، فتكون قد بلغت الرابعة عشرة من عمرها أو قاربتها يوم بنى بها الرسول عليه السلام

وجملة ما يفهم من وصفها على التحقيق أنها كانت بيضاء ، فكان عليه السلام يلقبها بالحميراء ، وكانت أقرب إلى الطول لأنها كانت تعيب القصر كما مر فى كلامها عن السيدة صفية . وكانت فى صباها نحيلة أو أقرب إلى النحول ، حتى كان الذين يحملون هودجها خالياً يحسبونها فيه . قالت فى حديث لها مشهور : « . . . وأقبل إلىّ الرهط الذين كانوا يرحلون لى — أى يحملون الرحل على البعير — فحملوا هودجى وهم يحسبون أنى فيه ، وكانت النساء إذ ذاك خفافاً لم يهبلن ولم يغشهن اللحم . إنما يأكلن العلقة من الطعام . فلم يستكثر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه ، إذ كنت مع ذاك جارية حديثة السن »

ثم مالت بعد سنوات إلى شىء من السمنة كما جاء فى كلامها فى حديث آخر : « . . . خرجت مع النبى صلى الله عليه وسلم فى بعض أسفاره وأنا جارية لم أحمل اللحم . فقال صلى الله عليه وسلم للناس : تقدموا ! فتقدموا . ثم قال : تعالى حتى أسابقك . فسابقته فسبقته فسكت . حتى إذا حملت اللحم وكنا فى سفرة أخرى قال صلى الله عليه وسلم للناس :

تقدموا ! فتقدموا . ثم قال : تعالى حتى أسابقك فسابقته فسبقنى فجعل صلى الله عليه وسلم يضحك ويقول : هذه بتلك»

وعلمنا من بعض أحاديثها أنها وعكت مرة فتمزق شعرها . فمن ثم وصيتها على ما يظهر بالشعر حيث تقول : « إذا كان لأحدكم شعر فليكرمه »

وعلمنا من رواة وقعة الجمل أنها كانت جهورية الصوت ، تخطب العسكر من هودجها فى ساحة الحرب فيسمع خطابها

وعلمنا من جملة أوصافها وأخبارها أنها كانت حية الطبع موفورة النشاط كدأب العصبيين من النساء والرجال ، وكان أبوها رضى الله عنه من أصحاب هذا المزاج ولا مراء

والظاهر أنها ورثت عنه كثيراً من خلقه وخلقه على السواء . فقد كان الصديق جميلا حتى جاء فى بعض الروايات أنه لقب بالعتيق لجماله ، وكان نحيلا دقيق التكوين كما هو مشهور ، وكانت فيه حدة طبع مع حدة ذكاء وكان كريماً سريعاً إلى نجدة المعوزين والضعفاء ، وكان صادق المقال لم يؤخذ عليه كذب قط فى الجاهلية ولا فى الإسلام ، وكان ماضى اللسان قديراً على إفحام من يجترئ عليه ، وتشبهه السيدة عائشة فى هذه الخلائق شبهاً كان يوحى إلى النبى عليه السلام كلما سمعها تجيب من يساجلها أن يقول : إنها ابنة أبى بكر ! إنها ابنة أبى بكر !

وقد راضت حدتها زمناً كما كان أبوها يروض حدته طوال حياته ، ولكنها لم تبلغ من ذلك ما بلغه أبوها لمكان الرجل من القدرة والحاجة إلى سياسة الدنيا ، ومكان الفتاة من الضعف ومن الحظوة التى تغنيها عن الصرامة فى مغالبة النفس ومراس الخطوب فى كفاح الحياة

والمعهود فى أخلاق الناس أن الحدة تلازمها سرعة الغضب كما تلازمها سرعة الصفح والنسيان فى معظم الأحيان

وليس فى أخبار السيدة عائشة ما يناقض هذه المشاهدة التى تعم النساء كما تعم الرجال ، فليس مما ينقضها أنها رضى الله عنها بقيت على موجدة من مسألة الإفك طوال حياتها فلم تنس قط مقالة أحد من القائلين أو الساعين فيها . إذ ليس أهول على نفس الفتاة خاصة ولا أوجع لضميرها من مطعن يهدم سمعتها ويعصف بهناءتها ويفقدها الرجل الذى تحبه والمكانة التى تبوأتها ، وأهول ما يكون ذلك على البريئة العزيزة التى يهولها الأمر على قدر ظلمها فيه وعلى قدر نكبتها بما تفقده من العزة والسمعة . فلا يقاس على موجدة السيدة عائشة فى مسألة الإفك سائر خلائقها ودوافع ضميرها . فليس فى غير هذه المسألة ما ينم على شىء يتجاوز الحدة العارضة إلى الضغينة الباقية

حدث مسروق الهمدانى قال : « دخلت على عائشة

وعندهاحسان وهو يرثى بنتاً له ويقول :.

رزان حصان ما تزن بريبة   وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

فقالت عائشة : لكن أنت لست كذلك . فقلت لها : أيدخل عليك هذا وقد قال الله عز وجل (والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم) فقالت : أما تراه فى عذاب عظيم قد ذهب بصره »

وهذا لأن حسان بن ثابت كان ممن نسب إليه شعر فى مسألة الإفك لا يرضى السيدة عائشة

على أنها قبلت عذره كما جاء فى رواية أخرى ونهت عن شتمه ، وذلك فيما رواه يوسف بن ماهك عن أمه حيث تقول : « كنت أطوف مع عائشة بالبيت فذكرت حسان فسببته فقالت : بئس ما قلت أتسبينه وهو الذى يقول :

فإن أبى ووالده وعرضى   لعرض محمد منكم وقاء

فقلت : أليس ممن لعن الله فى الدنيا والآخرة بما قال فيك ؟ قالت لم يقل شيئاً ولكنه الذى يقول :

حصان رزان ما تزن بريبة   وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

فإن كان ما قد جاء عنى قلته   فلا رفعت سوطى إلى أناملى

وقال هشام بن عروة عن أبيه : « كنت قاعداً عندعائشة فمر بجنازة حسان بن ثابت فنلت منه فقالت : مهلا ! فذكرتها كلامه فقالت : فكيف بقوله :

فإن أبي ووالده وعـــرضى   لعرض محمد منكم وقـــاء

ولا شك أن الذى ذكرته السيدة عائشة لحسان لا ينسى ، وأن الذى صفحت عنه بعد ذلك كثير ، وأن حمد الصفح هنا أولى من ملاحظة التذكير والتبكيت

* * *

أما كرم السيدة عائشة فهى فيه إلى النجدة أقرب منها إلى السخاء ، وهى فيه على آسال من أبيها العظيم رضى الله عنه ، تنقذ من الأسر وتغيث من البلاء وتعطى من هو فى حاجة إلى العون العاجل ما تيسر لها العطاء ، وكانت فى كرمها على حال سواء فى أيام النبى عليه السلام حين لا مال لديها إلا القليل الذى هى أحوج إليه ، أو فى أيام الفتوح التى تيسر لها فيها من المال ما لم يكن قبل بميسور

كان لعتبة بن أبى المهلب جارية حبشية اسمها بريرة زوجها على غير رضاها عبداً من عبيد المغيرة فكرهته وأعرضت عنه ، وهى أهل لمن هو أصلح وآدب منه . فرحمتها السيدة عائشة فاشترتها وأعتقتها ، وخاطبت فيها النبى عليه السلام فقال لها ملكت نفسك فاختارى !

وكان زوجها يتعلق بها ويتبعها حيث سارت وهى معرضة عنه ، فتعجب النبى بين أصحابه يوماً من فرط حبه لها وزهدها

فيه ، وقال لها : اتقى الله فإنه زوجك وأبو ولدك ! قالت : أتأمرنى ؟ قال : لا . إنما أنا شافع . فقالت : إذن لا حاجة لى إليه

وما زالت بعد ذلك فى خدمة السيدة عائشة تخلص لها وتذكر لها عطفها عليها ولا تنسى لها جميلها

وقد أعانها على هذا الخلق السمح أنها رزقت القدوة القريبة بسيد المواسين للضعفاء ومعلم الجابرين لكسر القلوب ، فما من شأو بلغته فى هذا المعراج الرفيع إلا ارتفع بها رسول الله إلى أعلى منه وأجمل . كانت عندها فتاة يتيمة اسمها الفارعة بنت أسعد فزوجتها لنبيط بن جابر الأنصارى وسارت معها فى زفافها إلى بيت زوجها . فلما عادت سألها عليه السلام : ما كان معكم لهو فإنه يعجب الأنصارى ؟ هلا بعثتم جارية تضرب بالدف وتغنى ؟ فسألته : ماذا تقول يا رسول الله ! قال : تقول : أتيناكم أتيناكم فحيونا نحييكم . ولولا الذهب الأحمر ما حلت بواديكم ، ولولا الحنطة السمراء ما سمنت عذاريكم »

وحدثت مولاتها أم ذرة — وهى من الثقات — أن ابن الزبير بعث إلى السيدة عائشة بغرارتين فيهما مال يبلغ مائة ألف درهم ، وكانت صائمة فدعت بطبق فجعلت تقسم فى الناس . ثم أمست فقالت : يا جارية هاتى فطرى . قالت أم ذرة . أما استطعت فيما أنفقت أن تشترى بدرهم لحماً تفطرين عليه ؟ فقالت . لا تعنفينى ! لو كنت أذكرتنى لفعلت

وقال ابن سعد عن عروة بن الزبير . رأيت عائشة تصدق بسبعين ألفاً ، وإنها لترقع جانب درعها ، وأيسر ما يستفاد من هذه الروايات على اختلاف مكان رواتها من الثقة أنها رضى الله عنها كانت مشهورة بالكرم والإحسان إلى مستحقيه

وقد كانت بنت أبيها فى أكثر من خصلة واحدة من هذه الخصال النادرة بين الرجال والنساء . ولكنها كانت أشبه ما تكون به فى خصلة الصدق التى بها اشتهر ومن أجلها نعت بالصديق وغلب هذا النعت عليه حتى أوشك أن ينسى الناس اسمه الذى دعاه به أبواه . وقد امتحن صدقها فى مآزق عسيرة البلاء للنفوس فتمحصت عن معدن كريم وعرق سليم ودلت على أصالة هذا الميراث النفيس من أبيها العظيم . ففى الغاشية التى أطبقت على العالم الإسلامى من جراء الخلاف على الخلافة تطايرت الأحاديث الموضوعة من هنا وهناك وتعمد أناس أن يصوغوا من عندهم حديثاً لكل حزب ينصره ويرضيه ويكبت خصمه ويخزيه. وافتنّ الوضاع فى محاكاة الأحاديث النبوية ذلك الافتنان الذى شقى به المحققون للروايات بعد ذلك بسنين ، وكانت السيدة عائشة تشترك فى خصومات المتخاصمين على الخلافة باختيارها أو تساق إلى المشاركة فيها على كره منها ، وكانت هى أول من يُسمع له إذا روت حديثاً يدمغ خصومها ويعزز أنصارها ، ولكنها لم تنقل قط فى كل ما ثبتت نسبته إليها

حديثاً واحداً تمسه الشبهات من قريب أو بعيد ولا تؤيده الأسانيد الأخرى ، ولم تحرف كلمة واحدة إلى غير موقعها طواعية لإغراء تلك النوازع النفسية التى تطيش بالألسنة أو تضلل العقول ، وهو امتحان ليس أعسر منه امتحان فى هذا الباب ، ولهذا كانوا يروون عنها الأحاديث فيقولون : حدثتنا الصديقة بنت الصديق

ومن الصفات التى شابهت فيها أباها الذكاء المتوقد والبديهة الواعية ولم تقصر فيها عن شأوه

بل لا نحسبها قصرت عن شأو واحد من معاصريها بين الرجال والنساء على السواء فى سرعة الفهم وقدرة التحصيل والإحاطة بكل ما يقع فى متناول ذهنها

قال أبو الزناد : ما رأيت أحداً أروى لشعر من عروة ابن الزبير فقيل له : ما أرواك ! قال : وما روايتى فى رواية عائشة ! ما كان ينزل بها شيء إلا أنشدت فيه شعراً

وقد كان عروة بن الزبير أشد الناس حباً لخالته السيدة عائشة وإعظاماً لها وتوقيراً لسيرتها ، ولكن الذى روى عنها من الشواهد الشعرية فى أخبارها التى نقلت إلينا يدل على صدق ما وصفها به من غزارة الحفظ وحسن الاستشهاد

دخل عليها النبي عليه السلام وهى تتمثل بالبيتين التاليين :

ارفع ضعيفك لا يحر بك ضعفه   يوماً فتدركه العواقب قد نما

يجزيك أو يثني عليك وإن من　　أثنى عليك بما فعلت فقد جزى

فقال عليه السلام : لقد أتانى جبريل برسالة من ربى :
« أيما رجل صنع إلى أخيه صنيعة فلم يجد له جزاء إلا الثناء عليه والدعاء له فقد كافأه »

ورأت أباها يجود بنفسه فقالت :

لعمرى مايغنى الثراء عن الفتى　　إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

وعادت تقول :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه　　ثمال اليتامى عصمة للأرامل

ومما يروى أنها أنشدته فى تلك الساعة وهى ولهى لفراق أبيها :

وكل ذى غيبة يؤب　　وغائب الموت لا يؤب

ويؤخذ من بعض ما نقل عنها أنها كانت تسمع شعر زهير وتعجب به ، فقالت لإحدى بناته فيما روى الهيثم بن عدى : « إن الحلل التى كساها أبوك هرماً لم يبلها الدهر »

على أن الفهم والحفظ ملكتان معروفتان للسيدة عائشة كثرت أو قلت الشواهد الشعرية التى وصلت إلينا من أخبارها

فحسبها أنها قد روت للنبى عليه السلام أكثر من ألفى حديث فى مختلف المسائل التى تدخل فيها الأحكام الشرعية والعظات الخلقية والآداب النفسية والأصول التى يرجع إليها فى الدين والعبادة

بل حسبها أن يثبت لها عشر هذا العدد من الأحاديث

النبوية ليثبت لها أنها كانت تفهم وتعى وتحسن الحفظ فيما تنقله بحروفه كما تحسن التعبير فيما تحكيه بكلامها، وأنها تحيط في فهمها وحفظها بكل ما أحاطت به تلك الأحاديث من المعارض والمناسبات.

ومع هذا يروى الثقات أنها كانت تحفظ وتفقه وتفسر ولا يقتصر علمها على وعى الكلمات والعبارات . قال أبو موسى الأشعرى : ما أشكل علينا أمر فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها علماً فيه ، وقال عطاء بن أبي رباح : كانت أفقه الناس وأعلم الناس وأحسن الناس رأياً فى العامة . وقال مسروق الهمذانى : رأيت مشيخة أصحاب رسول الله الأكابر يسألونها عن الفرائض ، وقال عروة بن الزبير : ما رأيت أحداً أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة

ومن الأحاديث التى ترفع إلى النبى أنه قال : خذوا شطر دينكم عن هذى الحميراء ، وهو حديث لم يثبت بالسند الصحيح ، ولكن الحق الذى لا مراء فيه أن المسلمين قد عرفوا الكثير من أمر نبيهم وأمر دينهم من أحاديث عائشة عن زوجها المحبوب عليه السلام

ولا ريب أنها كانت تقتدى بأبيها فى حفظ الأخبار والأنساب كما كانت تقتبس من ميراث أخلاقه وطباعه وملكاته . ويستفاد من بعض المنقول عنها أنها كانت تواقة إلى معرفة كل ما نعرف من تواريخ الأمم غير قانعة بأخبار

الأمة العربية ، ولا بالأخبار التي تعنيها خاصة كأخبار النبي والصحابة والعشيرة الإسلامية ، ومنها خبر النجاشي حين هاجر المسلمون إلى بلاده فأوفد إليه المشركون جماعة منهم يحملون إليه الغوالي والنفائس ليبطش بأولئك المهاجرين أو يردهم إلى قومهم ، فقال : « ما أخذ الله مني الرشوة حين رد على ملكي فآخذ الرشوة منه ، وما أطاع الناس في فأطيعهم فيه »

فخفي على السامعين معنى كلامه هذا حتى بلغ السيدة عائشة ففسرته بما انتهى إلى علمها ، وهو أن هذا النجاشي كان من الأمراء المغصوبين فأقصاه الملك الغاصب وباعه بيع الرقيق ، ثم أعيد إلى ملكه فاقتضى الرجل الذي اشتراه حقه وأبى هذا النجاشي إلا أن يعطوه الدراهم من أموالهم ليجزيهم بصنيعهم ، فذلك إذا يقول . ما أخذ الله مني رشوة حين رد على ملكي فآخذ الرشوة فيه

وهو تفسير لا يعنينا هنا أن نستقصيه من الوجهة التاريخية ، ولكن الذي يعنينا منه شغف السيدة باستطلاع أحوال الأمم كافة حيثما تسنى لها سبيل الاطلاع

* * *

وغزارة الاطلاع بينة — إلى جانب هذا — من لغة السيدة عائشة التي امتزجت بأسلوبها في كل ما نقل عنها ولا سيما الخطب والوصف خاصة . فقد كانت لها مادة من اللغة

لاتتهيأبغير محصول كبيرمن أنباءالعربية التى تستق من أعرق مصادرها

قالت فى خطبة بعد وقعة الجمل تذكر أباها . « . . . وأبى ثانى اثنين الله ثالثهما ، وأول من سمى صديقاً ، مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنه راض ، وقد طوقه وهق[١] الإمامة ثم اضطرب حبل الدين فأخذ بطرفيه وربق[٢] لكم أثناءه فوقذ[٣] النفاق وغاض نبع الردة وأطفأ ما حشت يهود ، وأنتم يومئذ جحظ العيون تنتظرون العدوة وتستمعون الصيحة فرأب الثأى[٤] وأرزم[٥] مسقاه وامتاح من المهواة واجتهر دفن الرواء[٦] حتى أعطن الوارد وأورد الصادر ، وعل الناهل[٧] فقبضه الله واطئاً على هام النفاق ، مذكياً نار الحرب للمشركين ، فانتظمت طاعتكم بحبله فولى أمركم رجلا مرعياً إذا ركن إليه ، يعيد ما بين اللابتين[٨] عركة[٩] للأذاة بجنبه صفوحاً

(١) حبل يجعل فى العنق

(٢) ربقة شده فى الربق وهو حبل فيه عرى

(٣) كسره

(٤) أى رقع الفتق وأصلح الخلل

(٥) أى شده

(٦) امتاح من المهواة أى استق من البئر العميقة واجتهر دفن الرواء أى أخرج خبايا الماء الغزير

(٧) النهل أول الشرب والعلل السق بعد السق

(٨) كناية عن سعة الصدر

(٩) من المعاركة أى الاختيار

عن أذاة الجاهليين ، يقظان الليل فى نصرة الإسلام »

ووصفت أباها فى خطبة أخرى فقالت . رحمك الله يا أبت ! فلئن أقاموا الدنيا لقد قمت الدين حين وهى شعبه ، وتفاقم صدعه ، ورجفت جوانبه . انقبضت عما إليه أصغوا ، وشمرت فيما عنه ونوا ، واستصغرت من دنياك ما أعظموا ، ورغبت بدينك عما أغفلوا ، طالوا عنان الأمر واقتعدت مطى الحذر ، فلم تهتضم دينك ولم تنس غدك ، ففاز عند المساهمة قدحك وخف مما استوزروا ظهرك »

ووقفت على قبره قائلة — وهو كلام يستغرب تنسيق فواصله وترجيع ضمائره ولكنه لا يستبعد على عصره .

« نضر الله وجهك ، وشكر لك صالح سعيك ، فلقد كنت للدنيا مذلاً بإعراضك عنها ، وللآخرة معزًّا بإقبالك عليها ، ولئن كان أجلّ الحوادث بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم رزؤك وأعظم المصائب بعده فقدك ، إن كتاب الله ليعد بالعزاء عنك حسن العوض منك ، فأنا أتنجز من الله موعوده فيك بالصبر عليك ، وأستعيضه منك ، بالدعاء لك . فإنا لله وإنا إليه راجعون ، وعليك السلام ورحمة الله توديع غير قالية لحياتك ولا زارية على القضاء فيك »

وقد كان لها أسلوب فيما يرتجل يناسب موضوعه ، كما كان لها فيما يجوز تحضيره أسلوب يناسب ما يحتفل له بالتحضير .

فلما حكت عن زواجها بالنبي قالت بأسلوب مرسل سهل ولكنه مع ذلك جزل فصيح . « . . . تزوجني رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا ابنة ست سنين ، فقدمنا المدينة فنزلنا فى بنى الحارث بن الخزرج فوعكت فتمزق شعرى فوفى جميمة(١) فأتتنى أمى أم رومان وأنى لفى أرجوحة ومعى صواحب لى وصرخت بى فأتيتها لا أدرى ما تريد بى ! فأخذتنى بيدى حتى أوقفتنى على باب الدار وإنى لأنهج حتى سكن بعض نفسى ، ثم أخذت شيئاً من ماء فمسحت به وجهى ورأسى ، ثم أدخلتنى الدار فإذا نسوة من الأنصار فى البيت ، فقلن على الخير والبركة ، وعلى خير طائر . فأسلمتنى إليهن يصلحن من شأنى فلم يرعنى إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحى فأسلمتنى إليه وأنا يومئذ بنت تسع سنين . . . »

* * *

ومع هذه المادة اللغوية التى تنم عن استقصاء مادة العربية من أعرق مصادرها لا نستغرب ما تواترت به الروايات من علم السيدة عائشة بطب زمانها وما يصح فى زمانها أن يسمى بعلم الفلك والظواهر الجوية لإلمامه بمسالك النجوم ومهاب الأنواء وغير ذلك من معارف البادية والحاضرة فى عصر الدعوة الإسلامية

(١) الجمة مجتمع شعر الرأس

وهكذا ننظر إلى عائشة لنفسها فلا ترى أنها تقصر عن عائشة فى المكان الذى خصتها به الآداب العربية ، ورفعتها إليه الآداب الإسلامية والحظوة النبوية ، لأنه مكان قد استحقته لنشأتها فى قبيلتها ودخولها فى دينها ، واستحقته كذلك بما تميزت به بين أترابها من جمال وفهم ومعرفة وبيان .

زوج النبى

كانت السيدة خديجة رضى الله عنها أول زوجات النبى عليه السلام وأحبهن إليه ، عاش معها زهاء خمس وعشرين سنة ولم يتزوج عليها ولا فكر فى الزواج بغيرها فى حياتها . مع أنه بنى بها وهو فى نحو الخامسة والعشرين وهى فى نحو الثلاثين أو الأربعين ، وبقيت معه إلى أن أوفت على الخامسة والستين

ثم توفيت حوالى السنة العاشرة بعد الدعوة ؟ فلم يعرف عنه أنه حزن على أحد قط أشد من حزنه عليها ، ولا أطال الذكرى لأحد قط بعد وفاته كما أطال ذكراها ، وسمى عام وفاتها « عام الحزن » لأن الحزن لم يفارقه طوال أيامه ، ولم يفارقه — فى الواقع — بقية حياته كلها ، وإن سكنت سورته مع الأيام كما تسكن كل سورة لاعجة مع ذلك العزم الصادق والقلب الصبور

وتزوج بالسيدة عائشة بعد وفاة السيدة خديجة بسنوات

فكان التقابل بين الزوجين من أتم ما تأتى به المصادفة حين تكون المصادفة أحكم من التدبير والتقدير ، ولعل هذا التقابل لم يخل كل الخلو من القصد الخفى وإن لم تتجه إليه النية فى وضوح

ويبدو لنا أن النبي عليه السلام كان أحوج ما يكون إلى هذا التقابل العجيب فى حياته الزوجية

فالفتى اليتيم الذى فجع فى حنان الأمومة منذ طفولته الباكرة لم يكن أنفع له من زوجة كريمة رشيدة كالسيدة خديجة التى أغدقت عليه من حنان الأمومة ما فاته فى بواكير الطفولة ، وأدركه عطفها وهو يعالج من نوازع الدعوة النبوية ثورة مقيمة مقعدة فى سريرة النفس ، لا تزال بين الجلاء والغموض وبين الإقدام والإحجام ، ولا تزال فى هذه الحالة على حاجتها القصوى إلى التثبيت والكلاءة والتشجيع

أما النبي فى الخمسين من عمره فقد كان أنفع له وأبهج لفؤاده أن يغدق حنان الأبوة على زوجته التى تظفر منه بالحظوة والمودة ، وأن يستروح من شبابها وجمالها نعمة تسعده فى جهاده وربيعاً يظلله فى وحشة عمره

كانت خديجة أمًّا ترعاه

ثم كانت عائشة طفلة تنعم بتدليله

وكانت خديجة تسعده بالعقل والحنكة

ثم كانت عائشة تسعده بالطرافة والجمال

وكانت خديجة تصاحبه قبل الدعوة وهو يطلب الأنصار فى طوية النفس قبل أن يطلبهم فى عالم النضال والبلاء

ثم كانت عائشة تصاحبه بعد الدعوة وهو صاحب دين جهر وبهر ، فكانت هى أول سفرائه بالإصهار إلى رجلات العرب ورؤساء العشائر والبيوت

كان تقابلا بين الزوجين الفضليين من أعجب ما تأتى به المصادفة بل من أعجب ما يأتى به التدبير ، وليس هناك تدبير معروف

فالذى نعلمه من خطبة النبي عليه السلام للسيدة عائشة أنها كانت من المصادفات التى لم يتحدث بها قط قبل أن تقترح عليه

نعم إنه عليه السلام قال لعائشة يوما : « أريتك فى المنام مرتين أرى أنك فى سرقة من حرير ويقال : هذه امرأتك ! فأكشف عنها فإنما هى أنت . فأقول : إن يك هذا من عند الله يمضه »

ولكن الحديث يدلنا على مبلغ ما كان فى ضمير النبي عليه السلام من هذه النية ، وقد يفهم منه أنه كان عليه السلام يناجى نفسه الشريفة بأمنيته فى الزواج فطابقت السيدة

عائشة مثال هذه الأمنية ، وكان هذا من بواعث حبه إياها لمطابقة الرؤية ما تمثله فى الرؤيا

فأما الخطبة فالذى نعلمه من الروايات المتواترة أنها جاءت بعد اقتراح من سيدة بارة آلمها ما لحظته من حزن النبى على زوجه العزيزة عليه . فقالت له : أى رسول الله ! ألا تتزوج ؟ فسألها : من ؟ قالت : إن شئت بكراً وإن شئت ثيباً . ثم سألها عن البكر فذكرت عائشة « بنت أحب خلق الله إليك ».. وسألها عن الثيب فذكرت سودة بنت زمعة .فأوفدها إلى بيت أبى بكر وجرت الخطبة بعد ذلك فى مجراها الذى انتهى بالزواج بعد سنوات

هذه السيدة هى خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون من أجلاء الصحابة الذين حرموا الخمر فى الجاهلية وعاش بعد الإسلام عيشة النسك والحكمة . وبقية حديث الخطبة أنها ذهبت إلى أم رومان ــ أم عائشة . فبادأتها بالحديث قائلة : ما أدخل الله عليكم من الخير والبركة ؟ قالت : وما ذاك ؟ قالت : أرسلنى رسول الله أخطب عليه عائشة . فاستمهلتها حتى ترى أبا بكر ، وقيل إن أبا بكر سأل حين بلغه الأمر : وهل تصلح له وهى بنت أخيه ؟ يظن أن المؤاخاة بينه وبين النبى قد بلغت مبلغ القرابة التى تمنع المصاهرة . فكان جواب النبى لها : « قولى له أنت أخى فى الإسلام وابنتك تحل لى »

كما جاء فى هذه الرواية

وإلى هذا الحين لم يكن فى تقدير أحد أن صلة من أوثق الصلات ستنعقد بين النبي وصفيه الحميم . لأن عائشة كانت مخطوبة قبل ذلك لجبير بن مطعم بن عدى من أصحاب أبيها فى الجاهلية . فتحرج أبو بكر من نقض خطبته قبل مراجعته فيما ينويه ، وقال لأم رومان زوجته : والله ما أخلف أبو بكر وعداً قط . ثم لقى أبا الفتى وأمه يسألها فيما ينتويانه . فأقبل الأب على امرأته يسألها : ما تقولين ! فالتفتت الأم إلى أبى بكر وهى تقول متعللة : لعلنا إن أنكحنا هذا الصبى إليك تصبئه وتدخله فى دينك الذى أنت عليه ؟ فلم يجبها وسأل زوجها : ما تقول أنت ؟ فلم يزده على أن أجاب : إنها تقول ما تسمع

فعلم أبو بكر يومئذ أنه فى حل من نقض وعده لمطعم ابن عدى ، واستقبل النبي خاطباً فتمت الخطبة فى شوال سنة عشر من الدعوة قبل الهجرة بثلاث سنوات ، وأصدقها النبي عليه السلام أربعمائة درهم على أشهر الروايات

وتختلف الأقوال فى سن السيدة عائشة يوم زفت إلى النبي عليه السلام فى السنة الثانية للهجرة ، فيحسبها بعضهم تسعاً ويرفعها بعضهم فوق ذلك بضع سنوات

وهو اختلاف لا غرابة فيه بين قوم لم يتعودوا تسجيل

المواليد . إذ قلما يسمع بإنسان — رجلا كان أو امرأة — فى ذلك العصر إلا ذكر له تاريخان أو ثلاثة لميلاده أو زواجه أو وفاته . وقد يبلغ الاختلاف بين تاريخ وتاريخ فى تراجم المشهورين فضلا عن الخاملين عشر سنين

والأرجح عندنا أن السيدة عائشة كانت لا تقل عند زفافها إلى النبى عليه السلام عن الثانية عشرة ولا تتجاوز الخامسة عشرة بكثير

فقد جاءت فى بعض المواضع من طبقات ابن سعد أنها خطبت وهى فى التاسعة أو السابعة ، ولم يتم الزفاف كما هو معلوم إلا بعد فترة بلغت خمس سنوات فى أشهر الأقوال

ويؤيد هذا الترجيح أن السيدة خولة اقترحتها على النبى وهى فى السن المناسبة للزواج على أقرب التقديرات إلى القبول . إذ لا يعقل أنها تشفق من حالة الوحدة التى دعتها إلى اقتراح الزواج على النبى وهى تريد له أن يبقى فى تلك الحالة أربع سنوات أو خمس سنوات أخرى

ويؤيد هذا الترجيح ، من غير هذا الجانب ، أن السيدة عائشة كانت مخطوبة قبل خطبتها إلى النبى ، وأن خطبة النبى كانت فى نحو السنة العاشرة للدعوة

فإما أن تكون قد خطبت لجبير بن مطعم لأنها بلغت سن الخطبة وهى قرابة التاسعة أو العاشرة ، وبعيد جداً أن

تنعقد الخطبة على هذا التقدير مع افتراق الدين بين الأسرتين

وإما أن تكون قد وعدت لخطيبها وهى وليدة صغيرة كما يتفق أحياناً بين الأسر المتآلفة ، وحينئذ يكون أبو بكر مسلماً عند ذلك ، ويستبعد جداً أن يعد بها فتى على دين الجاهلية قبل أن تتفق الأسرتان على الإسلام

فإذا كان أبو بكر رضى الله عنه قد وعد بها ذلك الموعد قبل إسلامه ، فمعنى ذلك أنها ولدت قبيل الدعوة وكانت تناهز العاشرة يوم جرى حديث زواجها وخطبها النبي عليه السلام .

ولهذا نرجح أنها كانت بين الثانية عشرة والخامسة عشرة يوم زفت إليه ، وإنها هى رضى الله عنها كانت تسمع تقديرات سنها ممن كان حولها لأنها لم تقرأها بداهة فى وثيقة مكتوبة ، فكان يعجبها على سنة الأنوثة الخالدة أن تأخذ بأصغرها ، وكانت هى كثيراً ما تدل بالصغر بين أترابها فلا تنسى إذا اقتضى الحديث ذلك أن تقول : وكنت يومئذ جارية حديثة السن ، أو كنت يومئذ صغيرة لا أحفظ شيئاً من القرآن ، إلى أشباه ذلك من أحاديثها فى هذا المعنى

ذلك هو التقدير الراجح الذى ينفى ما تقوله المستشرقون على النبي بصدد زواجه بعائشة فى سن الطفولة الباكرة ،

وكل تقدير غير ذلك فهو تقدير مرجوح

* * *

وقد ملكت ربة البيت الصغيرة بيتها الجديد من اللحظة الأولى لأنها كانت تدل فيه بمكانة الزوجة المحبوبة عند زوجها العطوف ، وبمكانة البنوة الناشئة عند الأبوة الرحيمة ، ومكانة ابنة الصديق العزيز التى أضفى عليها المودة والإيثار ما كان بين النبي والصديق من مودة هى أوثق وأبقى من مودة الرحم ، لأنها مودة الوفاء والإعجاب والإيمان ، أو مودة الحياة وما بعد الحياة .

وقد سجلت لنا السيدة عائشة خطرات نفسها خطرة خطرة ، ووصفت لنا فى بيتها الجديد كل صغيرة وكبيرة وكل ظاهرة وخافية ، ولكنها لم تذكر لنا قط كلمة واحدة تنم عن وحشة الانتقال من بيت إلى بيت ، ومن معيشة إلى معيشة ، ومن ظل أبوين إلى ظل رجل غريب عنها لا تعرف عنه إلا ما تعرفه عن النبي كل صبية مسلمة فى سنها الباكرة . لأن عطف محمد هو العطف الغامر الذى لا يلجئ إلى عطف سواه ، وقد أغنى زيداً عن أبيه وأمه فآثر حياة الأسر مع سيده على حياة الحرية مع أبيه وأمه ، فأحرى بمثل هذا العطف أن يغنى الفتاة التى تأوى إليه فتلوذ منه بعطف زوج وعطف أب وعطف صديق

وتركها على سجيتها تلعب بالعرائس فى بيت زوجها كما كانت تلعب بهن فى بيت أمها وأبيها . وربما جاءها صواحبها الصغار « فينقمعن — كما قالت من رسول الله — فكان عليه السلام يسر بهن إليها ليلعبن معها

وقالت جاريتها بريرة تصفها وهى فى السنوات الأولى من زواجها : « ما كنت أعيب عليها شيئاً إلا أنها كانت جارية صغيرة أعجن العجين وآمرها أن تحفظه فتنام عنه فتأتى الشاة فتأكله »

وكان عليه السلام يتعهدها بما يسرها وإن عجب الصحابة الذين لا يفهمون وقار الدين كما يفهمه ولا تتسع صدورهم لما يتسع له صدره . ودخل عليها أبوها وعندها قينتان تغنيان فى يوم منى والنبى عليه السلام مضجع مُسجى فى ثوبه ، فصاح بها : أعند رسول الله يصنع هذا ؟ . . . فكشف النبى عن وجهه وقال : دعهن فإنها أيام عيد

وكان السودان يلعبون فى يوم من أيام العيد بالدرق والحراب فسألها عليه السلام : تشتهين أن تنظرى ! قالت نعم . قالت « فأقامنى وراءه خدى على خده وهو يقول : دونكم يا بنى أرفدة — كنية الحبشة — حتى إذا مللت قال : حسبك ؟ قلت نعم ! قال فاذهبى »

وربما مر أبوها رضى الله عنه بالبيت فيسمع صوتها

عالياً فى حضرة النبى عليه السلام ، فيدخل غاضباً يتناولها ليلطمها وينهرها قائلا : لا أراك ترفعين صوتك على رسول الله . فينهض عليه السلام ليحجزه ويقول لها بعد خروجه : رأيت كيف أنقذتك من الرجل ؟

وفى مرة من هذه المرات خرج أبو بكر مغضباً ثم عاد فوجدهما قد اصطلحا . فقال لهما أدخلانى فى سلمكما كما أدخلتمانى فى حربكما .

فقال النبى : قد فعلنا

ولم يخف هذا العطف الذى لا نظير له بين الأزواج على السيدة عائشة وهى ما هى فى ذكائها وعلمها ببيوت الصحابة وغيرها . وازدادت به علماً يوم شاركها الزميلات فى بيت النبى وشاءت الدواعى السياسية والدينية أن تتعدد زوجاته وتتعدد صلات المصاهرات بينه وبين قبائل الجزيرة العربية ، فقد عرفت مكانتها وهى بين تسع من الزميلات كما عرفت مكانتها وهى موشكة أن تنفرد فى بيت النبوة ، وكان عليه السلام يعدل بينها وبين زميلاتها فيما يملك العدل فيه . أما ميل قلبه فكان يستغفر الله فيه قائلا : « اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك »

وشكرت له هذا الإيثار وفخرت به فى معارض حديثها كلما بدا لها معرض للشكر أو للتحدث بنعمة الله عليها . فقص

عليها النبي يوماً قصة النسوة الإحدى عشر اللواتى اجتمعن فتذاكرن أوصاف أزواجهن من خير وشر، وكانت الحادية عشرة منهن — وهى أم زرع — محبة لزوجها ، فوصفته بأحسن ما يوصف به الأزواج فى السر والعلانية . فقالت السيدة عائشة : « بأبى وأمى لأنت يا رسول‌الله خير لى من أبى زرع لأم زرع »

وهى القائلة بعد وفاة النبي فى مزاياها التى اختصت بها دون أترابها : « فضلت على نساء النبي صلى الله عليه وسلم بعشر ! لم ينكح بكراً قط غيرى ، ولا امرأة أبواها مهاجران غيرى ، وأنزل الله براءتى من السماء ، وجاء جبريل بصورتى من السماء فى حريرة ، وكنت أغتسل أنا وهو فى إناء واحد ولم يكن يصنع ذلك بأحد من نسائه غيرى ، وكان يصلى وأنا معترضة بين يديه دون غيرى ، وكان ينزل عليه الوحى وهو معى ولم ينزل وهو مع غيرى ، وقبض وهو بين سحرى ونحرى وفى الليلة التى كان يدور علىّ فيها ودفن فى بيتى »

وكان هذا التمييز سر البيت النبوى فى مبدأ أمره ، ثم شاع فى الجزيرة العربية حتى كان صاحب الهدية من المسلمين يؤخرها ليبعث بها إلى النبي وهو فى بيت عائشة

فوقع التغاير الذى لا محيص منه بين الزوجات ، وأرسلن إليه إحداهن أم سلمة فأعرض عن حديثها ثلاث مرات ، فلما

أثقلت عليه قال لها : « لا تؤذيني في عائشة . فإن الوحى لم يأتني وأنا في ثوب امرأة غير عائشة » . . . يريد بالثوب البيت في بعض التفسيرات ، من قولهم ثاب إليه يثوب فهو في الثوب الذى لا يزال يرجع إليه

وتوسلن بالسيدة فاطمة رضى الله عنها لما يعلمن من قبول أبيها لكل شفاعة تأتيه منها ، فقالت له : « إن نساءك ينشدنك الله العدل في بنت أبي بكر » قال لها يا بنية ! ألا تحبين ما أحب ! قالت : بلى . قال : فأحبى هذه . . . يشير إلى عائشة

ويسيرٌ على الزميلات المتنافسات أن يدركن حب النبى لعائشة ويلحظن أنها كانت أحبهن جميعاً إليه وأقربهن جميعاً إلى فؤاده

ولكن الذى لم يكن يسيراً عليهن أن يدركنه أو يلحظنه إنها هى رضى الله عنها كانت أشدهن حباً له ونفاذاً إلى نفسه واتصالا بقلبه ولبه

فكلهن كن يحببنه ويتنافسن على قربه ولو كان فيه التنافس على الموت وفراق الدنيا ومن فيها . وحدثهن يوماً عمن تلحق به بعد فراقه الدنيا فقال : « أسرعكن لحاقاً بى أطولكن يداً » . . . فجعلن يقسن أيديهن وما منهن إلا من تتمنى أن تكون هى صاحبة اليد الطولى . ثم ظهر لهن أن المراد بالطول

هنا طول اليد بالصدقة والعمل الصالح . . . فغبطن زميلتهن زينب بنت جحش ؛ لأنها استحقت اللحاق به لعملها بيدها وإكثارها من الصدقات على مستحقيها

إلا أن الحب الذى يبدو من فطنة عائشة لسرائر النبى أعمق وأقوى . فما منهن من لصقت بنفسه كما لصقت بها ومن نفذت إلى معانيه كما نفذت إليها ومن عاشرته فى روحه وطويته كما عاشرته بروحها وطويتها . وفى كلامها من الشواهد على ذلك ما ليس فى كلامهن على تيسر الوسائل لهن أن يعرفن مثل ما عرفت وأن ينقلن عنه مثل ما نقلت . وليس أدل على اقتراب الحب من هذا الاقتراب الذى امتازت به عليهن . فكان إيثار النبى لها ضرباً من العدل على هذا الاعتبار

لقد كانت تحبه حب المسلمة لنبيها

وكانت تحبه حب الزوجة لزوجها والمرأة لرجلها ، وكانت تعجب بجماله كما تعجب بأدبه وعظمة قدره

وكان يسرها أن تستمع إلى صوته وتصغى إلى ترتيل حديثه كما يسرها أن تستوضح معناه لأنه — كما كانت تقول لسائليها — لا يسرد كسردكم هذا ولكنه « يحدث حديثاً لو عده العاد لأحصاه »

وكانت تغار عليه أشد غيرة عرفتها امرأة على زوجها ، وربما خرج من عندها فى ليلتها فإذا هى تتبعه إلى حيث

ذهب مخافة أن يلم ببيت زميلة من زميلاتها، ووجدته فى ليلة من هذه الليالى قد ذهب إلى المقابر يصلى للشهداء ، ويستغفر لهم ، فعادت إلى بيتها تقول لنفسها : بأبى أنت وأمى . أنت فى حاجة ربك وأنا فى حاجة الدنيا ! . ولكنها لبثت مكروبة الصدر مما خامرها من خاطرها الأول ومن خطأ ظنها . فلما قفل عليه السلام إليها لحظ ما بها فسألها : ما هذا النفس يا عائشة ! فقالت : بأبى أنت وأمى . أتيتنى فوضعت ثوبيك ثم لم تستتم أن قمت فلبستهما ، فأخذتنى غيرة شديدة ظننت أنك تأتى بعض صويحباتى حتى رأيتك بالبقيع تصنع ما تصنع.. وخرج مرة أخرى ثم عاد إليها فإذا هى فى مثل تلك الحالة . فقال: أغرت ؟ قالت: وهل مثلى لا يغار على مثلك ؟ فقال: لقد جاءك شيطانك !

ولم تنس قط أن تتحلى بما يروقه من مرآها . فكانت تلبس المعصفر والمضرج وتتحرى ما يعجبه من الطيب والحلية ودخلت عليها امرأة وهى معصفرة فسألتها عن الحناء فقالت : شجرة طيبة وماء طهور . وسألتها عن الحفاف فقالت لها : « إن كان لك زوج فاستطعت أن تنزعى مقلتيك فتصنعيهما أحسن ما هما فافعلى »

* * *

ومن الجائز — أو ربما كان الواقع — أن زميلاتها أمهات

المؤمنين كن يغرن على النبي مثل غيرتها ويجهدن فى رضائه مثل جهدها . ولكنهن ولا ريب لم يبلغن شأوها فى حبها إياه حين نفهم من الحب ذلك الاقتراب بين النفسين بالبداهة والشعور . وليس فى أحاديثهن عنه مثل ما فى أحاديثها عنه من ذلك الإحساس بالقرب وذلك النفاذ إلى الطوية . وليست المسألة هنا مسألة الكثرة أو القلة فى الأحاديث فربما كان تعليل الكثرة فى أحاديث عائشة عن النبي أنه كان عليه السلام أكثر تحدثاً إليها وارتياحاً إلى مجالستها ومسامرتها . ولكنها مسألة الرفق فى الأداة والخبرة بالمعنى والقدرة على الاستيحاء والشعور الباطن بقلة الحواجز بين النفسين واتصال الحس بينهما واللقانة

ومن البديه أنها لم تبلغ هذه المنزلة فى حب النبي وفهمه طفرة واحدة ولا فى سنة واحدة أو سنتين ، بل لبثت السنوات الأولى من عشرتها له وهى تقترب من الأنس به إلى المعرفة بنفسه وعقله والترقى إلى عظمته ونبله . . . حتى أدركت ما يتاح لها أن تدرك من تلك العظمة التى تعلو على هامتها وهامات الرجال من حولها ، ولكنها هى — ببداهة المرأة وبداهة الحب الأنثوى — كانت تستقرب ما يبعد على غيرها ، وتستعيض ما يفوتها من الفهم الواضح بما يفوتهم من اللقانة الباطنية والوعى المستسر فى الأخلاد

ومضت السنوات الأولى فى عشرة النبى وهى تفقه من أحاديثه ما تيسر لها أن تفقه ولا تقرأ كثيراً من القرآن ، أو كما قالت فى حديث الإفك : كنت « جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن . . والتمست اسم يعقوب فما أذكره فقلت : ولكن سأقول كما قال أبو يوسف فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » .

وقد أمهلها النبى فى هذه السنوات رفقاً بها وإعداداً لفهمها وعزمها ولكنه لم يفتأ رويداً رويداً يشركها فى العبء الذى ينبغى أن تنهض به زوجة النبى وأم المؤمنين وسفيرته الأولى إلى عالم النساء فى عصره وفيما يليه من العصور .

فكانت تحضره إذا بايع النساء أو صلى بهن أو جلسن إليه يسألنه فى أمور الدين وآداب الزوجية ، ويتفق كثيراً أن يعرض عن الجواب حياء فيوكلها بالتفسير والإسهاب حيث يعز الفهم على سائلاته اللواتى يستقصين فى السؤال .

سألته أسماء بنت شكل من نساء الأنصار : كيف تكون الطهارة من المحيض ؟ فقال لها : « خذى فرصة ممسكة فتوضأى ثلاثاً » أو قال تطهرى ثلاثاً . . . فقالت : وكيف أتطهر ؟ قال : سبحان الله ؛ تطهرى بها ، وأعرض بوجهه حياء . فاجتذبتها السيدة عائشة وكفتها عن سؤاله .

وما زالت رضى الله عنها تعى من سنن النبى فى المسائل

النسائية وغير النسائية حتّى احتاج الرجال أن يسألوها ويرجعوا إليها فى كل ما تراجع فيه السنن النبوية من شئون عامة وخاصة . ومن أعم المسائل التى روجعت فيها أن معاوية كتب إليها لتوصيه وترشده فأرسلت إليه تقول : سلام عليك . أما بعد فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من التمس رضاء الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس ، ومن التمس رضاء الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس »

فلم يكن أعجب من سؤال معاوية فى تعميمه إلا حسن الاختيار فى هذا الجواب . وهو ألزم ما يزود به الملوك من وصية وإرشاد .

وقد نهضت السيدة عائشة بأمانة التبليغ والتعليم أحسن نهوض وأوفاه . فتورعت عن كتمان شيء من الأشياء التى تسأل عنها ولها اتصال بقواعد الدين وأصول التطهير وشروط العبادات ونواقض الصلاة والصيام . فأسلوبها فى تبليغ هذه الأحكام هو أسلوب التعليم وأسلوب أم المؤمنين فى خطاب بناتها وبنيها من المسترشدات والمسترشدين . ولم يكن فى مقدورها أن تتوخى أسلوباً غير هذا الأسلوب ولو عرضت لأخص الأمور التى تسكت عنها النساء ، لأنها المرجع الذى لا يغنى عنه مرجع فى سنن النبى ومأثوراته وأعماله . فمن الإخلال بالأمانة النبوية أن تسكت عن سنة مطلوبة يعرضها السكوت للضياع

ولقد تكون هذه السيدة الفضلى التى أفصحت عن كل فتوى نسوية سئلت عنها وهى ما تأذن لعمها فى الرضاع أن يراها إلا بعد مراجعة النبي عليه السلام . فأسلوبها فى تفصيل السنن النبوية والقواعد الشرعية إنما كان فريضة الأمانة وضريبة الوفاء ، ولم يكن شيمة الطبع واللسان .

* * *

ودامت هذه الحياة الزوجية النادرة زهاء تسع سنين إلى أن توفى النبي عليه السلام .

ومن الحق أن توصف بأنها حياة زوجية سعيدة لأننا لا نعرف بين أزواج الهداة والعظماء من ظفرت بأسعد منها أو كانت أرضى من السيدة عائشة عن حياتها .

ففى طوال هذه السنين لم تمتزج هذه الحياة قط بكدر أو مساءة تعود فيها التبعة على أحد من الزوجين

وأخطر ما ألم بهذه الحياة الزوجية فى السنين التسع كلها حديث الإفك الذى سنأتى عليه بعد ، وغضب النبى من زوجاته جميعاً لتنازعهن فى فترة من الزمن وإلحافهن عليه فى طلب المزيد من النفقة والزينة

فأما حديث الإفك فلا يد للزوجين فيه ، وقد امتحنت به أريحية النبي وعطفه على أهله فأسفر عن خير ما تطمح إليه الزوجة من حنو وسماحة وإعزاز

وأما غضب النبي من زوجاته لتنازعهن وإلحافهن فى طلب النفقة فعارض مضى مرة ومضى أمثاله عشرات من المرات فى كل حياة زوجية بين جميع طبقات الناس ، وكان خير درس لأمهات المؤمنين يعلمهن أن يصبرن على ضرورات العيش كما يصبر النبي عليها ، لأنهن قدوة فى القناعة ومغالبة الهوى ولسن بقدوة فى الترف ونعمة العيش . وقد خيرن بعد هذا الدرس بين التسريح والصبر على نصيبهن فاخترن أجمل النصيبين بهن ، وهو الصبر على سنة الأنبياء وأمهات المؤمنين .

ومما لا شك فيه أن السيدة عائشة قد خامرها الأسى فى هذه الحياة الزوجية لشيء لا حيلة لها ولا للنبي فيه ، وهو الحرمان من الذرية التى كانت تتوق إليها كما تتوق كل أنثى ، ولا سيما بعد ما علمت من حب النبي لزوجته الأولى ووفائه لعهدها وترديده لذكراها لأن له البنين والبنات منها

وظهر ألمها هذا حين قالت للنبي وهى حزينة كاسفة : كل صواحبي لهن كنى ! . . . قال فاكتنى بابنك عبدالله ؛ يشير إلى عبدالله بن الزبير ابن أختها أسماء . فجعلت تكتنى به وتحبه ذلك الحب الأموى الذى يستمد القوة من الحنو والشوق والحرمان .

واتفقت الأقوال على أنها رضى الله عنها لم تحمل قط إلا رواية جاء فيها أنها أسقطت ولداً سماه النبي عبد الله فكانت

لهذا تكنى بأم عبد الله

وراقها أن تدعى أم المؤمنين وأن يناديها الناس يا أمه يا أمه ! فكان فى هذا النداء تعزية كما كان فيه تشويق وتذكير .

والمرأة لا يهون عليها فقد الذرية ولا سيما إذا أحبت الزوج الذى تود أن ترزق منه الذرية ، ولكنها إذا التمست التهوين فلن تجد تهويناً أبر بها وأروح لقلبها من شعورها بعطف زوجها عليها ، وأنها بلغت من ذلك العطف ما لا تزيده الذرية التى تتمناها .

* * *

قلنا فى كتابنا عبقرية محمد : « لسنا ندرى لم طالت الفترة التى مضت على أزواج النبى جميعاً بغير عقب . ولكننا لا نستبعد تعليلها باجتماع المصادفات التى لا يندر أن تجتمع فى أمثال هذه الأحوال . فعائشة البكر التى لم يتزوج النبى بكراً غيرها قد مات عنها عليه السلام وهى حول العشرين ، وهى سن قد تبلغها المرأة ولا تلد ، وإن كانت ولوداً فيما بعدها . أما أزواجه الأخريات اللاتى تزوجن قبله فلا نعلم من أخبارهن أنهن أعقبن لأزواجهن الأولين خلفاً غير رملة أم حبيبة وهند بنت أمية المخزومية ، وهذه كانت مسنة يوم بنى بها النبى عليه السلام ، وفى عمر لا يستغرب فيه امتناع

الولادة . فكلهن ما عدا هاتين لم يلدن للنبي ولا لزوج قبله ، واجتماع هذه المصادفة ليس بالعجيبة المعضلة التي يصعب تعليلها إذا تذكرنا أن النبي قد توخى فى اختيارهن تلك الأغراض العامة التي أجملناها فى الفصل السابق ولم يتحر منها النسل خاصة : وهي الإيواء الشريف والمصاهرة . وبعضهن — بل معظمهن — قد لقين من الشدائد والمخاوف وعناء الهجرة البعيدة ما يعقم الولود . فإذا أضفنا إلى ذلك معيشة الكفاف وضريبة العظمة النبوية التي أشرنا إليها على سبيل الاحتمال ، واشتغال النبي فيما بين الخمسين والستين بتعزيز الدين وقمع الفتن ودرء الأخطار — لم يكن فهم تلك الظاهرة الحيوية بالأمر العصى على التعليل » .

وفى صدد الكلام عن عائشة فى كتاب خاص بها يدعونا سياق التحليل والتعليل إلى مراجعة البحث والعلم فى ظواهر حياتها البيتية ، إن كان للعلم كلمة تقال فى هذا الموضوع .

فليس من الغريب أن يتأخر حمل المرأة إلى ما بعد العشرين ثم تلد مرات ، وقد كان من المحتمل — بل الراجح أن السيدة عائشة تجاوزت العشرين حين وفاة النبى عليه السلام

وإذا كان تأخر الحمل إلى ما بعد العشرين لا يطرد لزاماً فى أحوال النساء عامة فهو من العوارض التي تشاهد ولا تستغرب

إذا اتفق لها سبب يرجع فى تعليله إلى العلم والمشاهدة

والعوارض التى نستطيع أن نهتدى إليها فى تاريخ السيدة عائشة هى أنها قد أصيبت فيما دون العاشرة بحمى مزقت شعرها كما ذكرت هى فى بعض أحاديثها ، وأنها كانت توعك من حين إلى حين كما يفهم من قولها فى حديث الإفك : « واشتكيت حين قدمنا المدينة شهراً والناس يفيضون فى قول أهل الإفك ولا أشعر بشىء من ذلك . . . ويريبنى فى وجعى أنى لا أعرف من رسول الله اللطف الذى كنت أرى منه حين أشتكى . . . فأخبرتنى بقول أهل الإفك فازددت مرضاً إلى مرضى » . . . وقط علمنا من حديث الإفك أنها إذا فوجئت بخبر محزن أو مغضب تصاب بحمى نافض كما يصاب الذين تعاودهم حمى البرداء فى هذه الحالات .

والأطباء الذين سألتهم عن هذه الحمى التى تسقط الشعر وتتجدد لها معاودة تنهك الجسم رجحوا أنها البرداء (الملاريا) أو التيفويد ، والأولى أرجح . لأنها كانت فاشية بأعراضها المعروفة بين أهل المدينة فى أيام الهجرة .

قالت السيدة عائشة : « لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وهى أوبأ أرض الله أصاب أصحابه منها بلاء وسقم ، وصرف الله ذلك عن نبيه صلى الله عليه وسلم ، وأصابت أبا بكر وبلالا وعامر بن فهيرة ، فاستأذنت رسول الله صلى الله

عليه وسلم فى عيادتهم وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب فأذن لى ، فدخلت عليهم وهم فى بيت واحد . فقلت : كيف تجدك يا أبت ؟ فقال :

كل امرىء مصبح فى أهلـــه والموت أدنى من شراك نعله

فقلت : والله ما يدرى أبى ما يقول

ثم دنوت من عامر فقلت : كيف تجدك يا عامر ؟ فقال :

لقد وجدت الموت قبل ذوقـــه إن الجبان حتفه من فوقه
كل امرىء مجـــاهد بطوقـــه كالثور يحمى أنفه بروقه

قلت : والله ما يدرى عامر ما يقول

وكان بلال إذا أقلعت عنه الحمى يرفع عقيرته ويقول :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة
بواد وحـــولى إذخر وجليل(١)
وهل أردن يوماً ميـــاه مجنة
وهل يدنون لى شامة وطفيل(٢)

قالت عائشة . فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقلت : إنهم ليهذون وما يعقلون من شدة الحمى .

---

(١) نباتات فى وادى مكة أحدهما وهو الإذخر طيب الرائحة والآخر الثمام

(٢) جبلان بمكة

فقال : اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد ، وصححها وبارك لنا فى صاعها ومدها وانقل حمّاها فاجعلها بالجحفة » وهى قرية فى الطريق من مكة إلى المدينة

فإذا كانت حمى البرداء قد أصابت السيدة عائشة فيما دون العاشرة وظلت عقابيلها تعاودها فأيسر ما يقال هنا أننا حيال عارض ذى بال يلتفت إليه فى تعليل ما أسلفنا

وسألت أفاضل الأطباء فى ذلك فقالوا : إن هذه الحمى لا تعطل الحمل ضرورة ولكنها قد تعطله من طريق إضعاف الجسم كله حتى يتغلب على عقابيلها

قلت : وإذا أضيفت إليها معيشة الكفاف ؟

وإنما سألتهم هذا السؤال لأن المتواتر عن معيشة النبى عليه السلام فى بيته أنه كان لا يشبع من خبز البر أو الشعير ثلاث ليال متواليات ، وأنه لم يشبع من خبز وزيت مرتين فى يوم واحد ، وأنه هو وأهله كانوا لا يصيبون من المطاعم إلا بمقدار ما يدفع الجوع

فكان من جواب الأطباء أن عقابيل الحمى وقلة الغذاء من الأسباب التى لا يعدوها النظر فى بحث هذا الموضوع ، فإذا صحت مع هذا رواية السقط فهى دليل على أثر تركته الحمى يعترض وظيفة الحمل والولادة

وأيا كانت هذه العوارض فهى كل ما لدينا من أسباب

المراجعة العلمية التى تعلل لنا حرمان السيدة عائشة رضى الله عنها من نعمة الذرية . نلمّ بها لأن الإلمام بها لا غنى عنه فى هذا المقام

* * *

وأية كانت علة هذا العارض فالأمر الذى لا شك فيه أنه لم يكدر صفو المودة والبر بين النبى وأهله ؛ وأنه لم يمنع هذه الحياةالزوجية أن تكون قدوة للمقتدين فىالعطف وأدب المعاشرة . وكانت هى العروة الوثقى كما وصفها النبى عليه السلام . فإذا سألته السيدة عائشة بين الفينة والفينة مدلة بمكانها عنده وعطفه عليها : كيف حال العروة يا رسول الله ؟ قال : على عهدها لا تتغير

أما العلاقات البيتية التى فرضتها هذه الحياة الزوجية على السيدة عائشة رضى الله عنها فقد كانت على أحسن ما تتسنى العلاقات بين أناس تجمعهم معيشة واحدة

فهى وزميلاتها كن يتغايرن ويتنافسن لا محالة كما تتغاير النساء فى كل مكان ، ولكنهن لم ينسين قط أنهن نساء نبى يتأدبن بأدبه ويتطلعن إلى رضاه ويفزعن من غضبه

فقصارى ما سمعناه من فلتات الغيرة على لسان السيدة عائشة أنها كانت تقول عن السيدة خديجة « إنها عجوز حمراء الشدقين » ثم يعاتبها النبى فتندم ولا تعود إلى مثل هذه

المقالة . . . أو أنها عابت السيدة صفية مرة فقالت إنها قصيرة . . . فاستكبر النبي هذه الكلمة وقال لها إنها لتمزج البحر إذا مزجت به . فلم تعد إلى مثلها

وعلى ما كان بين عائشة وزينب بنت جحش من التنافس الشديد فى الجمال والزلفى سنحت لزينب سانحة تقول فيها ما تقوله الضرة المحنقة فلم ينبس فمها بكلمة باطل . وذلك إذ سألها عليه السلام فى حديث الإفك فاستعاذت بالله وقالت « أحمى سمعى وبصرى والله ما علمت إلا خيراً »

وأحست سودة إحدى زميلاتها أمهات المؤمنين أنها أسنت وضعفت فتركت ليلتها لعائشة راضية ، وقالت عائشة تشكرها : « ما رأيت امرأة أحب إلى أن أكون فى مسلاخها من سودة »

فكل ما روى لنا من تغاير زوجات النبي إن ذكرنا أنهن نساء من طينة الأنوثة الخالدة فلن ينسينا أنهن نساء نبي يتأدبن بأدبه ولا يجاوزن بالغيرة ما يجمل بهن فى كنفه ورعايته ، وإن تسع أخوات شقيقات من أب واحد وأم واحدة ليقع بينهن من شحناء الغيرة إذا اجتمعن فى بيت أسرتهن أضعاف ما روى لنا من غيرة زوجات النبي فى عشرتهن الطويلة

* * *

أما قرابة النبي فأعزها قدراً عنده قرابة السيدة فاطمة وزوجها

وبنيها وكانت الصلة بين السيدة عائشة وبينهم جميعاً على أكمل ما ترضاه السجية الإنسانية فى كل صلة من قبيلها

فالسيدة فاطمة كانت أحب الناس إليه عليه السلام كما هو العهد بأبوته الشريفة التى تشمل الناس جميعاً بالحنان والمودة فضلا عن بناته وبنيه . وسئل — كما قالت عائشة مرة — : من أحب الناس إليك ؟ فقال : فاطمة ! ثم سأل : ومن الرجال ؟ فقال زوجها

وفاطمة بعد أم السبطين اللذين كان عليه السلام يلاعبهما ويلاطفهما ويوصى بهما ويسميهما ولديه وهو مشوق إلى إنجاب الأبناء ، وهى كذلك بنت خديجة التى نفست عليها عائشة قديم مكانتها وطويل وفاء النبى لذكراها

فالسيدة فاطمة والسيدة عائشة شريكتان فى قلب واحد تتنافسان عليه . ولكنها شركة بين كريمتين .

ومن أثر هذه المنافسة أن أمهات المؤمنين أوفدن السيدة فاطمة إلى النبى ليعدل بينهن وبين عائشة فقبلت الوفادة

وربما خطر للسيدة عائشة أن علياً رضى الله عنه قد تأثر بهذه المنافسة يوم سأل النبى فى حديث الإفك فقال :

« . . . لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير »

ومن الصدق للتاريخ وللطبع الإنسانى أن نلاحظ هذه الأمور ، لأن الطبع الإنسانى لن يدع حقوقه على أبنائه ولن

يكون الإنسانُ من لحم ودم إلا إذا كان فيه للحم والدم نوازعهما التى لا فكاك منها . وإن راضها أدب النبوة ونبل العشيرة فثابت إلى أكرومة تجمل بالكرام

فالصلة بين عائشة وقرابة النبى قد كانت صلة الأدب والتجمل والمجاملة ، ولكنها كانت فى مجال لا يغيب فيه التنافس على العطف والإعزاز .

والمثل هنا أيضاً قدوة المقتدين فى الأسر العليا التى عرفها التاريخ ، سواء منهم من أخذ بأدب الدين أو بأدب الدنيا

وهى على الجملة « حياة زوجية » سعيدة نزلت منها السيدة عائشة منزلة الزوجة المدللة فى طوال أيامها ، ثم منزلة الشريكة المعينة فى عبء التبليغ والرسالة ، وبلغت من الثقة بها فى هذه المعونة حمادى ما تبلغه شريكة حياة . فحفظت من تعليم النبى ما لم يحفظه أحد ، وحفِظ عندها النبى أغلى الودائع من بعده . صحف الكتاب وسنته المشروعة لتابعيه .

حديث الإفك

حديث الإفك هو حديث القصة التى أشاعها بعض المنافقين عن السيدة عائشة (رضى الله عنها) وعلى رأسهم عبد الله بن أبى بن سلول زعيم المدينة الموتور الذى لم ينس قط حقده على النبى ولا على الإسلام والمسلمين .

وحديث الإفك هذا هو الحديث الذى اجتمعت له كل بواعث الفضول والوشاية التى تغرى ألسنة الناس بالخوض فى أمثال هذه الأحاديث ، ولو كانت من نسج الخيال واختراع القصاص .

فمن دأب الناس قديماً أن يتطلعوا إلى الأسرار ، ويكثروا القيل والقال فى الوشايات .

وهم أشد تطلعاً إليها وكلفاً بالقيل والقال فيها إذا اشتملت على وشاية من وشايات الرجال والنساء ، ولولا كلفهم بهذا لما اخترعت لهم القصص والروايات التى يقرأون فيها أخبار رجل لا وجود له وامرأة لا وجود لها ، وهم يعلمون أنهما من نسج الخيال

ولكنهم أشد من ذلك تطلعاً إليها وكلفاً بالقيل والقال فيها إذا هى تعلقت بعظماء الرجال وعظماء النساء .

ثم يبلغ التطلع أشده والكلف حده إذا كان لأحد من الناس غرض فى ترويج الإشاعة واللغط بها ، والاسترسال فى ذيولها وحواشيها

فإذا كان هذا الغرض على اتصال بالعصبيات القومية والعقائد العامة التى تصطرع حولها الأهواء وتضطرم فيها الضغائن ويطول فيها جدل المصدقين والمكذبين ، ونزاع المحبين والمبغضين . فقد اجتمعت للقصة — كما قلنا فى صدر هذا الفصل — كل بواعث الفضول والوشاية ، وأحاطت بها كل مغريات اللغط والتشهير

وهذا الذى حدث بحذافيره فى حديث الإفك الذى تولى كبره زعيم الخزرج فى المدينة عبد الله بن أبى بن سلول

فهو حديث وشاية عن رجل وامرأة

وهما أعظم الرجال وأعظم النساء

وفى اللغط به غرض قوى لأكبر زعماء الخزرج فى زمانه ، وغرض قوى لكل من يبغى المساس بالنبى ، وبالإسلام كله من طريق المساس بنبى الإسلام

ولولا ذلك لما سُمع بحديث الإفك ، ولا استحق أن يُصغى إليه ، لأنه أوهى وأسخف من أن يطول فيه تصحيح وتفنيد .

وكأى من رئيس فى قومه وُتر كما وتر ابن سلول ، واشتمل قلبه على البغض كما اشتمل قلب ابن سلول على بغض النبى ،

وأحب أن يهدم دعوة من الدعوات كما أحب ابن سلول أن يهدم دعوة الإسلام . لكنه مع كل هذا يتورع عن رجم المحصنات بالباطل ويمسك لسانه عن الخوض فى وشايات الدنس لأنها مسبة لا تجمل بمروءة الكرام .

إلا أن ابن سلول لم يكن من هؤلاء الرؤساء المتورعين المترفعين . ولم يكن له من أخلاقه ما يعصمه أن يكذب وأن ينافق وأن يداهن . وأن يصطنع الوشاية ويلغ فى الأعراض . لأنه كان مطبوعاً على النفاق مشهوراً به بين أصحابه وخصومه على السواء .

كان زعيم الخزرج بالمدينة فكان ينافس زعماء الأوس بها فى إرضاء النبى والترلف إليه ، ثم يخلو بأعداء الإسلام فيؤلبهم على المسلمين ويسول لهم قتل النبى ويوغر صدورهم على هذا الدين الجديد ، وكل منتصر له وكل منتسب إليه .

وقبيل حديث الإفك بأيام قليلة كانت فئة من الأنصار والمهاجرين تستقى . فتنازع رجلان منهما على الماء كما يحدث على كل بئر وفى كل مورد يكثر حوله القصاد . فلم يدعها ابن سلول تنقضى دون أن يثير فيها الثائرة التى ود أن تعصف بالمسلمين أجمعين . وقال مستهولا : أو قد فعلوها ؟ والله ما أرانا وجلابيب قريش هذه إلا كما قيل : سمن كلبك يأكلك . أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز من الأذل .

وأقبل على من حضره من قومه يحرضهم ويقول لهم : هذا ما فعلتم بأنفسكم . . . أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم . وأما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير دياركم ! !

ونمى الحديث إلى النبي عليه السلام ، فأسرع إليه ابن سلول يقسم ويبالغ فى القسم أنه ما نبس بحرف منه .

فالخوض فى الوشايات والولوغ فى الأعراض هو أشبه شيء بأخلاق هذا الرجل الذى مرد على النفاق وأصبح وأمسى حياته كلها بين الدس والاختلاق ، وله من الوتر العظيم الذى وتر به شفيع عند طبعه السقيم ، لأنه أضاع الملك والتاج بظهور الإسلام .

قال أسيد بن حضير زعيم الأوس يسأل النبي عليه السلام ألا يدع المدينة لعبد الله بن سلول : يا رسول الله ارفق . فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه . فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً »

فلا جرم يكون له غرض أى غرض فى ترويج حديث الإفك واتخاذه مطعناً فى الإسلام من وراء الطعن فى كرامة نبي الإسلام . ولهذا لم يلبث أن أفلتت منه نيته فظهرت من بوادر لسانه فى الكلمة التى قالها حين مرت به السيدة عائشة على جمل يقوده صفوان بن المعطل ، فقد حكى عنه أنه سأل : من هذه ؟ فقيل : عائشة . قال : امرأة نبيكم باتت مع

رجل حتى أصبحت ثم جاء يقودها .

وإن غرض ابن سلول هذا لهو بعينه غرض كل متشبث بحديث الإفك إلى يومنا هذا ، ليتخذ منه سبيلا إلى الطعن فى الإسلام ونبى الإسلام ، وبخاصة بين المبشرين من المستشرقين

فمن هؤلاء من غلب عليه أدب التربية فاستبعد حديث الإفك كما فعل موير Muir حيث قال بعد الإشارة إليه : « إن سيرة عائشة قبل الحادث وبعده لتوجب علينا أن نعتقد براءتها من التهمة »

ومنهم من نقل الحكاية وخلطها بالمعجزات التى لا يصدقها غير المسلم ، كما فعل وشنطون ارفنج فى سيرة النبى عليه السلام ، فلم يقطع بنفى صريح ، وترك الباب مفتوحاً للأقاويل

ومنهم من جاوز الحقيقة فى وصف ما جاءت به الروايات ، فزعم أن السيدة عائشة ابتعدت عن النبي يوماً كاملا قضته فى صحبة صفوان ، خلافاً لما جاء فى قصة نقلت إلينا عن حديث الإفك ، ونعنى به ردويل صاحب ترجمة القرآن حيث عرض لهذا الحديث فى حاشية من حواشيه على سورة النور

وهؤلاء مع هذا هم أشد المستشرقين تقية وحذراً فى تعرضهم لهذا الحديث .

لكن المبشرين المحترفين لم يتقوا هذه التقية ولم يحذروا هذا

الحذر ، بل جزموا بصحة الحديث وقال بعضهم إن محمداً استنزل الآيات فى سورة النور ليحمى سمعة زوجته ويدين الوشاة بالعقاب الذى ورد فى تلك السورة . وجهلهم بالقرآن هو الذى أوقعهم فى تلك الفرية الوضيعة التى يخبطون فيها على غير علم بمصادرها ومواردها ، فإن سورة النساء وهى سابقة لسورة النور قد نصت على الأربعة الشهود فى إثبات الزنا :

« واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا »

وآخرون من أولئك المبشرين المحترفين رجعوا إلى تاريخ الغزوة التى جرى بعدها حديث الإفك ليقولوا إن الليلة كانت غير قمراء ، وإن البحث عن العقد الضائع فيها عسير . مع أن الاختلاف على سنة الغزوة — فضلا عن شهرها وليلتها — كثير يتراوح بين السنة الرابعة والسنة السادسة وما بعدها ، فجاءوا هم وأخذوا بالقول الذى يعجبهم ويعينهم على فريتهم . وهم حتى فى هذا مغرضون متعسفون ، لأن ابتداء المسير إلى الغزوة فى الثانى من شعبان لا يمنع أن الجيش قضى أياماً فى ذهابه وإيابه ، وعاد والليلة قمراء فى صحو البلاد العربية . ولو كان فى الأمر محل اعتراض من هذه الناحية لما فات الذين حضروا الغزوة وشهدوا النور والظلام فى تلك الليلة ، وهم قصاص

الأثر وأصحاب القمر فى الحل والسفر ، وفيهم من يحرص على التشهير كحرص هؤلاء المبشرين .

ومن الإسفاف أن نتتبع هؤلاء الوشاة فى كل ما خبطوا فيه من إثم وكل ما رجموا به من ظن . كأن أخلاق الناس وحقائق التاريخ رهن بما يتمحلونه ووقف على ما يختلقونه . وما كانت وشاياتهم تلك بحثاً يستند إلى رأى أو ظناً يعتمد على قرينة ولكنها كانت كذباً لا يليق بالمؤرخ وسوء نية لا يليق بالإنسان ، وخسة فى حق امرأة شريفة لا تليق بالرجل الكريم .

وإنما أومأنا إلى ضروب من تلك الوشايات لنعلم أن الحذر واجب هنا على قدر ضخامة الأغراض التى تخلق الوشاية وتنطلق فى ترويجها إلى أيامنا هذه ، وإلى ما بعد هذه الأيام ، ما دام فى الدنيا أناس يستبيحون أن يجترئوا بالشبهات على امرأة لا ذنب لها إلا أنها زوج نبى يريدون التشكيك فيه .

على أننا من الجهة الأخرى نبرئ السيدة عائشة من هذه المظنة ولا نعتمد فى التبرئة إلا على الفهم الذى يفهمه المسلم ومن لا يدين بالإسلام ، ويقبله صاحب الدين ومن لا يأخذ بدين من الأديان ، لأن براءتها ليست من الخفاء بحيث لا يقام عليها الدليل إلا من وحى السماء .

وكفى دليلا هنا أن ليس على الظنة بها أقل دليل

* * *

نشأ حديث الإفك بعد عودة النبي من غزوة بني المصطلق، وقد كان مسير الجيش فى عودته من هذه الغزوة مضطرباً أشد الاضطراب ، لشيوع الفتنة بين المسلمين وأتباع عبد الله ابن أبى بن سلول رأس المنافقين وزعيم الخزرج أقوى قبائل المدينة ، والرجل الذى جامله النبي عليه السلام كل مجاملة كريمة فلم يقلع عن نفاقه ولم يدع قط فرصة من فرص الكيد والسعاية .

فى طريق العودة من غزوة بنى المصطلق نجم ذلك الخلاف الذى أشرنا إليه على السقاية من بعض الآبار . فصاح صائح : يا للخزرج ! وصاح الآخر : يالكنانة . يا لقريش ! وشهر الفريقان السلاح فخرج النبي غاضباً لهذه العصبية التى كره أن يحييها الخلاف فى جيشه وسأل : ما بال دعوى الجاهلية ؟ ثم قال : دعوها فإنها منتنة

واغتنم عبد الله بن أبىّ الفرصة فطفق يحضأ فى النار ويصيح فى كل من لقيه : « ما رأيت كاليوم مذلة . والله إنى لقد ظننت أنى سأموت قبل أن أسمع هاتفاً يهتف بما سمعت . أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز من الأذل . حتى قال لأتباعه . لم ترضوا بما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم أغراضاً للمنايا فقتلتم دونه – يعنى النبي – فأيتمتم أولادكم وقللتم وكثروا فلا تنفقوا عليهم حتى ينفصلوا من عند

محمد » إلى آخر ما قال وبلغ النبي عليه السلام

وشاع الخبر فأذن النبي عليه السلام بالرحيل فى ساعة لم يكن يرحل فيها لشدة الحر ، وسأله أسيد بن حضير : يا نبي الله ! لقد رحلت فى ساعة منكرة ما كنت تروح فى مثلها ؟ فقال : أما بلغك ما قال صاحبكم ! يشير إلى كلام ابن سلول

ثم سار الجيش سيراً حثيثاً وجعل النبي عليه السلام يضرب راحلته بالسوط فى مراقها ليستعجلها ؟ وانقضى اليوم وليلته وصدر من اليوم التالى حتى آذتهم الشمس ، ثم نزل الناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض حتى وقعوا نياما .

ولما أخذوا فى المسير هاجت ريح شديدة كادت تدفن الركب وخطر لبعض الجند أن عيينة بن حصن ربما أغار على المدينة فى هذه الغاشية لانقضاء مدة الموادعة بينه وبين المسلمين . فكان هذا من دواعى العجلة واضطراب مواعيد الرحيل.

ثم دنا الليل وهم على مقربة من المدينة فأناخ الركب للراحة وذهبت السيدة عائشة لبعض شأنها ثم تفقدت عقدها وهى راجعة فإذا به قد انسل منها فحبسها التماسة هنيهة ، ثم عادت إلى مكان هودجها فإذا بهم قد احتملوه وهم يحسبونها فيه ، لخفتها . وتهيب الجند الذين يرحلون لها أن ينادوها أو يستوثقوا من وجودها .

فأقامت حيث هى وظنت أنهم سيرجعون إليها لا محالة إذا أحسوا غيبتها .

وكان صفوان بن المعطل على ساقة الجيش يتخلف عنه ليلتقط ما يسقط من المتاع . وربما كان النبى عليه السلام يعهد إليه فى ذلك لأنه كان ثقيل النوم لا يستيقظ حتى يأخذ الجيش فى المسير ، وقد شكته امرأته إلى النبى لأنه ينام ولا يصلى الصبح قبل طلوع الشمس .

فكان عليه السلام يعلم ذلك منه ويقول له : إذا استيقظت فصل !

وقد يحسن هنا أن نوجه شكوى امرأته إلى بعض معانيها . كأنها أرادت بثقل النوم كناية عن أمر آخر لا تفصح عنه . إذ قيل عن صفوان هذا إنه كان « حصوراً » لا يأتى النساء ، وسمع وهو يقسم بعد حديث الإفك أنه ما كشف عن كنف امرأة قط . .

فلما نهض صفوان ليتبع الجيش فى ساقته رأى سواداً على البعد ثم عرف السيدة عائشة فجعل يسترجع ويعيد استرجاعه : إنا لله وإنا إليه راجعون : إنا لله وإنا إليه راجعون . . . كأنه ينبهها بالاسترجاع لأنه يتهيب التحدث إليها . ثم قرب البعير وقال : أمه . قومى فاركبى ، وأخذ بزمام البعير يقوده حتى أدرك الجيش فى نحر الظهيرة .

حدث هذا وابن سلول لم يفرغ من دسيسته الأولى التى أزعجت الجيش وأوقعت الاضطراب فى حركاته ومواعيد رحيله ومبيته، فسنحت له الفرصة للقيل والقال لا يضيعها الرجل الذى عز عليه أن تنقضى مشاجرة بين أجيرين على الماء دون أن يثير فيها تلك الثائرة الهوجاء ، وراح يقول : والله ما نجت منه ولا نجا منها ، وأطلق لسانه فى حديث الإفك على الطريق وبعد العودة إلى المدينة ، عسى أن يوقع بين النبى وأقرب الأصدقاء إليه أبى بكر الصديق ، أو يفلح فى تشكيك المسلمين فى كرامة نبيهم ، أو يقيم بين قومه الخزرج وسائر المسلمين شغباً يقعون فيه عصبية له وأنفة من هوانه ، فينتقض أمر الإسلام من أوس وخزرج وأنصار ومهاجرين.

قالت السيدة عائشة فى بعض ما روى عنها : « وقدمنا المدينة فاشتكيت شهراً والناس يفيضون فى قول أصحاب الإفك ، ووصل الخبر إلى النبى وإلى أبوى ولا أشعر بشىء من ذلك ، وكان يريبنى أنى لا أعرف من رسول الله صلى الله عليه وسلم اللطف الذى كنت أرى منه حين أشتكى . إنما يدخل على فيسلم وعندى أمى تمرضنى . ثم يقول : كيف تيكم ؟ ثم ينصرف . فذاك الذى يريبنى . حتى خرجت بعد ما نقهت فخرجت معى أم مسطح وهى بنت خالة أبى بكر . . . وعثرت أم مسطح فى مرطها فقالت : تعس مسطح ! . . .

قلت لها : بئس ما قلت : أتسبين رجلا شهد بدراً ؟ . . . قالت : يا هنتاه ؛ أو لم تسمعى ما قال ؟ قلت : وما قال ؟ فأخبرتنى بحديث أهل الإفك . فازددت مرضاً على مرضى ، ورجعت إلى بيتى فمكثت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم . ثم دخل رسول الله وقال بعد أن سلم : كيف تيكم ، فاستأذنته أن آتى بيت أبوى وأنا أريد أن أتثبت الخبرَ من قبلهما . فأذن لى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجئت أبوى ودخلت الدار فوجدت أم رومان فى السفل وأبا بكر فوق يقرأ . فقالت أمى : ما جاء بك ؟ قلتِ لأمى : يغفر الله لك . تحدث الناس بما تحدثوا بهِ ولا تذكرين لى من ذلك شيئاً ؟ قالت : يا بنية ! هونى عليك . فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها . . . فاستعبرت وبكيت ، فسمع أبو بكر صوتى فنزل فقال لأمى : ما شأنها ؟ فقالت : بلغها الذى ذكر من شأنها ففاضت عيناه . وبكيت تلك الليلة والليلة التى بعدها وأبواى عندى يظنان أن البكاء فالق كبدى . . فبينا نحن على ذلك دخل علينا رسول الله فسلم ثم جلس وتشهد وقال : أما بعد يا عائشة فإنه قد بلغنى عنك كذا وكذا . فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تعالى

تاب الله عليه . . . فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قلص دمعى حتى ما أحس منه بقطرة ، وقلت لأبى : أجب رسول الله ! قال : والله لا أدرى ما أقول . فقلت لأمى : أجيبى ، فقالت كذلك والله ما أدرى . . . ثم قلت : لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر فى نفوسكم ، فلئن قلت لكم إنى بريئة والله يعلم أنى بريئة لا تصدقونى . ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أنى منه بريئة لتصدقنى . فوالله لا أجد لى ولكم مثلا إلا قول أبى يوسف عليه السلام : فصبر جميل والله المستعان. ثم تحولت فاضطجعت على فراشى وما كنت أظن أن الله ينزل فى شأنى وحياً يتلى . . . وكنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا فى النوم يبرئنى الله بها . وعند ذلك قال أبو بكر رضى الله عنه : ما أعلم أهل البيت من العرب دخل عليهم ما دخل على . والله ما قيل لنا هذا فى الجاهلية حيث لا يعبد الله فيقال لنا فى الإسلام . . . فأخذ رسول الله ما كان يأخذ عند نزول الوحى ، فسجى ووضعت له وسادة من أدم تحت رأسه ، فلما سرى عنه إذا هو يضحك وإنه لينحدر منه العرق مثل الجمان ، فجعل يمسح العرق عن وجهه الكريم وكان أول كلمة تكلم بها : يا عائشة ؛ أما إن الله قد برأك . فقالت أمى : قومى إليه . قلت : والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله . وتناول رسول الله درعى فدفعت يده فأخذ

أبو بكر النعل ليعلونى بها . فمنعه رسول الله وهو يضحك ويقسم عليه ألا يفعل . . . »

إلا أن النبي عليه السلام قضى فترة من الوقت قبل ذلك وهو فى قلق شديد لا يدرى ماذا يفعل . واستشار الصحابة فقال له عمر بأسلوبه الحاسم : من زوجها لك يا رسول الله ؟ قال : الله تعالى ! قال : أفتظن أن الله دلس عليك فيها ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم ! . ودعا علياً وأسامة بن زيد ليستأمرهما فى فراق أهله . فقال أسامة بن زيد : أهلك يا رسول الله ولا نعلم إلا خيراً ، وقال على : يا رسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير . وإن تسأل الجارية – يعنى بريرة – تصدقك . فدعا بها وسألها : أى بريرة ! هل رأيت من شىء يريبك ؟ قالت : والذى بعثك بالحق ما رأيت عليها أمراً أغمضه أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجينها فتأتى الداجن فتأكله . وسأل زينب بنت جحش وهى أحب نسائه إليه بعد عائشة فقالت : أحمى سمعى وبصرى . ما علمت إلا خيراً . والله ما أكلمها وإنى لمهاجرتها ، وما كنت أقول إلا الحق .

وفى خلال ذلك كان عليه السلام يتأذى بحديث الإفك فخطب المسلمين قائلا : أيها الناس ! ما بال رجال يؤذونى فى أهلى ويقولون عليهم غير الحق ؟ . . ولقد ذكروا رجلا

ما علمت عليه إلا خيراً ولا يدخل بيتاً من بيوتى إلا وأنا حاضر ولا غبت فى سفر إلا غاب معى يقولون عليه غير الحق . . فقال أسيد بن حضير : يا رسول الله . إن يكونوا من الأوس نكفيكهم وإن يكونوا من إخواننا من الخزرج فمرنا أمرك . فوالله إنهم لأهل أن تضرب أعناقهم . فوثب سعد بن عبادة وصاح به كذبت لعمر الله ما تضرب أعناقهم . أما والله ما قلت هذه المقالة إلا أنك قد عرفت أنهم من الخزرج ، ولو كانوا من قومك ما قلت هذا . وهم به أسيد بن حضير وتساور الناس حتى كادت تكون فتنة ، لولا أن أدركهم النبى بحسن توفيقه .

* * *

هذه خلاصة حديث الإفك بحذافيره كما بقى لنا فى مصادره التى يعتمد عليها اليوم كل باحث فى موضوع هذا الحديث ، كائناً ما كان ظنه بالإسلام أو النبى وأهله .

وفى وسع القارئ أن يعرف قيمة هذه الوشاية من نظرة واحدة ، فهى على التحقيق وشاية لا قيمة لها عند منصف يلمس من ورائها تربة الكيد والوقيعة التى نبتت فيها ، إذ هى تربة وبيئة تنضح بسخائم الخصومة الدينية والسياسية ومساوئ الخبث والكذب والنفاق . وخليق بها أن تبعث الشك فى كل حديث ينبت بين طياتها ولو زعموا له من الأسانيد والشبهات

أضعاف ما زعموا لهذه الوشاية الواهية . وليس لها من سند ولا شبهة إلا أن السيدة عائشة تأخرت فى الطريق هنيهة حين تحرك العسكر على حين فجأة ، وقد كانت الرحلة كلها كثيرة المفاجآت فى مواعيد النزول والرحيل

تلك شبهة لا تكفى للشك فى امرأة من عامة المسلمين الخارجين للجهاد فى حضرة نبي الإسلام . إذ لو كانت كل امرأة تتأخر فى الطريق تؤخذ بالتهمة فى دينها وعرضها لكانت التهم فى الأعراض أهون شىء يخطر على بال

بل لو تأخرت كل امرأة فى الركب غير السيدة عائشة لجاز أن تلحق بها شبهة من هذا التأخير . لأن الركب لم تكن فيه امرأة غيرها يهابها الموكلون بهودجها أن ينادوها ليتأكدوا من وجودها ، ولم تكن فيه امرأة أخرى تهاب الرقبة من جيش المسلمين كما تهابها وهى زوج النبي وبنت الصديق ، وقد كان أبوها يحمل راية المهاجرين فى تلك الغزوة بعينها .

وعلى الذى يقبل وشاية كتلك الوشاية الواهية أن يروض عقله على تصديق أمور كثيرة لا موجب لتصديقها ، لأنها تفتقر إلى كل دليل والأدلة على ما يناقضها كثير

عليه أن يصدق أن صفوان بن المعطل كان رجلا لا يؤمن بالنبي ولا بأحكام الإسلام

وأن يصدق أن السيدة عائشة كانت — وهى زوج النبي —

لا تؤمن به ولا تعمل بدينه

ولا دليل على هذا وذاك

بل الأدلة على إيمان صفوان وإيمان عائشة تجرى فى كل سياق وردت لهما سيرة فيه

فصفوان كان مسلماً غيوراً وكانت غيرته فى حادثة الماء التى تصاول فيها المهاجرون وأتباع ابن سلول هى التى عرضته لهجاء حسان بن ثابت ، ولعلها هى التى بغضته إلى ابن سلول فتمادى من أجل ذلك فى اتهامه ، وقد حضر الغزوات ومات شهيداً ولم يذكر قط بسوء

والسيدة عائشة آمنت بكل كلمة قالها النبى وحفظتها حفظ من يتبرك بها ولا يغفل عنها . ومن إيمانها بصدق هذه الكلمات أنها اشتبكت فى خصومات دامية تثير الحفائظ وتهون عليها أن تحارب خصومها باختلاق الأحاديث التى تزرى بهم وتبطل دعواهم لوكانت ترتاب فى صدق الأحاديث كلها . ولكنها لم تبح لنفسها قط شيئاً من ذلك ولم تذكر حديثاً قط على غير وجهه الذى تؤيده الروايات الأخرى . وقد كانت فى طريقها إلى وقعة الجمل بعد وفاة النبى بزهاء ثلاثين سنة ، فنبحتها كلاب على مقربة من ماء فى بعض الطريق ، فسألت : أى ماء هذا ؟ قال الدليل : هو ماء الحوأب . فأجفلت إجفالة مروعة وصاحت بحيث يسمعها أدلاؤها : إنا لله وإنا إليه

راجعون ، وضربت عضد بعيرها فأناخت وأبت أن تتحول من مكانها . فلما سئلت فى ذلك قالت : إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وعنده نساؤه : ليت شعرى أيتكن تنبحها كلاب الحوأب ؟ . ردونى . ردونى والله أنا صاحبة ماء الحوأب . وما زال الركب مقيما فى ذلك المكان يوماً وليلة وهى مصرة على الرجعة وهم يزعمون أن الدليل قد أخطأ وأن المكان غير المكان الذى تخشاه ، ولم يزل عبد الله بن الزبير يقنعها ويهدئ من روعها وهو ابن أختها وأحب الناس إليها وبه تكنى فى أشهر الروايات ، وهى تأبى المسير إلا أن تعود إلى مكة . حتى أرسلوا إليها من يصيح فى الركب : النجاء . النجاء . قد أدرككم على بن أبى طالب . فأذنت لهم فى المسير بها وقد أخافتها الصيحة وخامرها الشك فى كلام الدليل .

هذا وليس معها فى الركب من سامعى ذلك الحديث غيرها ، فكيف تغدر بالنبى زوجة تصدقه هذا التصديق ولا تأمن أن ينكشف سرها بوحى من الله ؟

ومن هى تلك الزوجة بعد هذا ؟ هى بنت الصديق الذى لم يوصم بيته بوصمة فى الجاهلية كما قال حتى يوصم بهذه الوصمة الكبرى فى الإسلام ومع نبى الإسلام .

إن أقوى الأدلة لا يحسم الشك هنا فضلا عن تلك الوشاية الواهية ويبقى على من يقبلهـــا أن يسأل نفسه بعد هذا : كيف

نشأت علاقة صفوان المزعومة ؟ أفى تلك الليلة بعينها ؟ فكيف اجترأ الرجل على مفاتحة أم المؤمنين وهم يتهيبون المناداة عليها فى هودجها ؟ بل كيف تخطر له هذه المفاتحة وهو لا يشك فى إيمانها بزوجها وليس له علم قبل ذلك بخبيئة صدرها ؟ وإذا اجترأ هذا الاجتراء هوساً منه كيف يصدق العقل أن امرأة النبى وبنت الصديق تكون هكذا لقطة لأول لاقط يصادفها ؟ إن التى تكون كذلك لا يخفى سرها حتى يكشفه حديث الإفك ويقتصر الحديث فيه على صفوان

أما إن كانت العلاقة المزعومة قبل ذلك فكيف خفيت بين الضرائر والحساد وقالة السوء من المنافقين ؟ وما أغناهما إذن عن المجازفة فى الطريق وعن الكارثة التى تنكشف للجيش كله فى نحر الظهيرة ؟

كل أولئك سخف لا يقبله إلا من يفترى بوشاية أو بغير وشاية وسواء فيه منافقو المدينة ومن يصنع صنيعهم من المؤرخين فى العصر الحاضر لأنهم لا يؤمنون بنبى الإسلام ، بل هؤلاء أنذل وأغفل . لأنهم يؤمنون بمريم والمسيح وكان عليهم أن يعصمهم عاصم من هذا الإيمان

* * *

إن تفنيد حديث الإفك له موضع فى كتابنا هذا لأنه حادث فى تاريخ السيدة عائشة له أثر فى الإسلام والشريعة

الإسلامية ، وله أثر فى ضميرها لم يفارقها طوال حياتها ، وربما كان له أثر فى موقفها من تاريخ الإسلام ترتبط به ذيوله على نحو من الأنحاء ، ولولا ذلك كله لما استحق من المؤرخ كبير التفات .

بعد النبي

عاشت السيدة عائشة بعد النبي ستاً وأربعين سنة ، وتوفيت وهى فى نحو السبعين من عمرها ، سنة ثمان وخمسين للهجرة

وقد توفى النبي عليه السلام فى بيتها وفى يوم زيارتها ، ودفن بالمكان الذى كان ينام فيه

وقد علم كثير من الناس عند اشتداد المرض به أنه مرض الوفاة ، ولكنه كان قد صحا بعض الصحو قبيل وفاته حتى استأذنه أبو بكر فى الخروج إلى بيته بالسنح ، وتفرق المسلمون متفائلين وهم يرجون الخير ويبعدون عن خواطرهم نذير الخوف . فلما قبض عليه السلام بعد ذلك روعت عائشة أيما روع وتعاظمها الخطب أن تملك صبرها وهو يموت بين سحرها ونحرها ، فنسيت لهول الساعة ما ينبغى لها أن تستقبل به هذا الوداع الذى لا يتكرر ولا تهونه سابقة وداع مثله : إنها أم

المؤمنين التى لبثت السنين بعد السنين تلقنهم ما لقنها النبى من سداد التجمل ووقار الحزن فى الملمات . . . إذا هى تنسى كل ذلك ساعة فقده وإذا هى امرأة والهة بين النساء تلتدم وتضرب وجهها : وقالت : « . . . وجدت رسول الله صلى الله عليه وسلم يثقل فى حجرى ، فذهبت أنظر فى وجهه فإذا بصره قد شخص وهو يقول : « بل الرفيق الأعلى من الجنة » قلت : خيرت فاخترت والذى بعثك بالحق . وقبض بين سحرى ونحرى ودولتى ولم أظلم أحداً . فمن سفهى وحداثة سنى أنه صلى الله عليه وسلم قبض وهو فى حجرى ؛ ثم وضعت رأسه على وسادة وقمت ألتدم مع النساء وأضرب وجهى »

ولم تشهد دفنه عليه السلام بعد وفاته بيومين ، لأن المسلمين كان قد بلغ من تنافسهم فى حبه أن يتولى كل فريق منهم مراسم دفنه على ما تعود فى بلده وبين أهله . وكان أهل مكة يسوون قاع القبر وأهل المدينة يقوسونه . فبعث العباس بن عبد المطلب رجلين يدعو أحدهما أبا عبيدة بن الجراح ويدعو الآخر أبا طلحة ، وأولهما يضرح كأهل مكة والآخر يضرح كأهل المدينة . فعاد صاحب أبى طلحة به ولم يعد صاحب أبى عبيدة . فحفر اللحد على طريقة أهل المدينة وتولى القائمون على الجثمان الكريم دفنه بعد انقطاع المودعين عند هزيع من الليل . قالت عائشة وفاطمة رضى الله عنهما : « ما علمنا

بدفنه صلى الله عليه وسلم حتى سمعنا صوت المساحى من جوف الليل »

وما برحت منذ تلك اللحظة تلازم تلك البقعة الخالدة ولا تفارقها إلا للعمرة أو الحج أو لزيارة قريبة ، وقلما كانت تزور .

واتخذت سكنها فى الحجرة المجاورة لقبره وهى لا تحسب أنها قد فارقت منه غير مشهد جثمانه . فقد كانت تزوره زيارة الأحياء . ودفن أبوها إلى جواره بعد سنوات فكانت تزورهما كذلك زيارة الأحياء . فلما دفن معهما عمر جعلت بعدها تنتقب وتلبس ملابس الحجاب وهى تزور أولئك الأصدقاء المتجاورين ، كأنهم بقيد الحياة .

وكانت فى أوائل العقد الثالث على أكبر تقدير عند وفاته عليه السلام فعاشت فى صحبته زهاء عشر سنين وعاشت فى ذكراه زهاء خمسين سنة . وحسبنا من شعور الناس بجلال تلك الذكرى فى نفسها أن أحداً لم يخطر له خاطرة عن السيدة عائشة تجيز التفكير فى حياة زوجية أخرى كأنه خاطر حرمته قداسة تلك الذكرى وهيبة ذلك الوفاء ، فضلا عن الحكم بتحريمه فى سورة الأحزاب على سبيل التشريع .

ولم تكن حياة السيدة عائشة فارغة فى خلال تلك السنين الطوال من لدن فارقها زوجها العظيم وهى تجاوز العشرين

إلى أن فارقت الدنيا وهى تقارب السبعين . لأنها فى حدة نفسها ورفعة مكانها لا تقبل الفراغ . فما هو إلا أن هدأت ثائرة الفتنة بعد وفاة النبى عليه السلام وتوفر المسلمون على تحصيل مراجع الدين حتى كانت هى المرجع الأول فيما حفظ عندها من آى القرآن وما حفظته من السنن والأحاديث ، وحتى كان بيتها مثابة الزوار من أبنائها وبناتها ، يدعونها يا أمة ! ومنهم من هى فى سن بناته الصغريات ، وياله من دعاء محبب إلى الأسماع .

وكانت إذا فرغت من تلقين الأحاديث وجواب السائلين تأوى إلى الصلاة والتسبيح فى جوار الضريح . أو تعمل فى مهنة البيت ذلك العمل الذى كان النبى عليه السلام يسرها بمساعدتها فيه .

ومن أهم الأشياء التى ينبغى أن تلاحظ فى حياة السيدة عائشة بعد النبى عليه السلام أنها قضت خلافة أبى بكر وعمر وهى لا تشعر بأن مكانها فى عهد النبى قد تغير أو بأن أمراً من أمور السياسة العامة يدعوها إلى التعرض له راضية أو ساخطة . حتى كانت خلافة عثمان فتغيرت هذه الحال ، وكان لتغييرها دلالة كبيرة وأثر كبير .

فى عهد أبى بكر كانت أمور السياسة العامة تجرى على أحكام الدين وتركن منه ومن أصحابه إلى سند ركين ،

وكان الخليفة أباها وهو أول من يدعوها بأم المؤمنين .

وفى عهد عمر كانت أمور السياسة العامة تضطرب أو تسكن ولكنها فى كلتا الحالتين لا تنشعب ولا تؤذن بانصداع ، وكان عمر أهيب خليفة عرفه الإسلام وأحب خليفة إلى عائشة رضى الله عنها . سرت صداقة الأبوين أبى بكر وعمر إلى بنيهما فكانت عائشة وحفصة أصدق صديقتين تتفقان وتتكاشفان كلما وقع الخصام فى بيت النبى عليه السلام وحفظت له أجمل الشكر لموقفه من حديث الإفك حين شاوره النبى فقال له : إن الله هو الذى زوجكها وإنه سبحانه وتعالى لم يدلس بها عليك . وتم هذا الشكر حين ولى الخلافة فرعى لها المكانة الأولى بين المسلمين ، وخص بيت النبى بالحصة العليا من الحفاوة والعطاء .

فمضى العهدان – عهد أبى بكر وعمر – وليس فى الحياة الخاصة ولا فى الحياة العامة ما يشعرها بتغيير أو ينزع بها إلى نوازع السياسة ، وما تعارض منها أو جنح إلى التحزيب والتأليب .

ثم تغيّرت الأمور فى عهد عثمان

ولولا هذا التغيير لما عرف للسيدة عائشة نصيب من السياسة العامة بعد موت النبى ، وهو الموقف الذى تحولت بها الأحوال إليه بعد اجتناب السياسة العامة قرابة عشرين سنة ، على غير سابقة له فى سيرتها الأولى .

فى السياسة العامة

قلنا فى الفصل السابق إن السيدة عائشة لم تقض حياتها فارغة خلال السنين الطوال التى انقضت بعد وفاة النبى عليه السلام . « لأنها فى حدة نفسها ورفعة مكانها لا تقبل الفراغ »

فأما حدة نفسها فمن السهل بعد إلمامة يسيرة بمزاجها وتكوينها الذى يشبه تكوين أبيها أن نعرف كيف يتعذر الفراغ على هذه السليقة الحية التى نشط بها المزاج العصبى ولم يقعد بها الترهل والإعياء .

وأما رفعة مكانها فهى أحرى أن تشغلها عن الفراغ مريدة له أو غير مريدة ، لأنها تعودت أن يؤبه لها طوال حياتها ، ولم تتعود قط أن تكون غفلا فى بيئتها ، وهى أرفع بيئة بين قومها .

نشأت عزيزة فى آلها وذويها ، عزيزة فى بيت أبيها ، عزيزة فى أعز البيوت العربية بعد زواجها . فمن الحق لها ولنشأتها ، ومن الواجب لها ولنشأتها أن يؤبه لها طوال حياتها ، وألا يكون فراغها بمثابة الإغضاء عنها .

هذه حقيقة لو التفت لها ولاة الأمر كما ينبغى فى حينها

لسلمت السياسة العامة فى ذلك الحين من جرائر الخطأ الذى وقعت فيه .

ولا بدع فى تقرير تلك الحقيقة ولا فى تعظيم خطرها والتنبيه إلى تبعاتها .

فما من دولة قط إلا قد اتخذت لها أصولا مرعية فى سياسة أقطابها ومراسم كبرائها وكبيراتها توافق ما لهم أو لهن من الشأن فى الدولة ، وما يكون لميولهم أو ميولهن من الآثار فى السياسة العامة ، أو السياسة العليا على التخصيص ، وهى أصول لم تغفل مرة إلا كان لها أثر غير منظور ولا محسوب له حساب فى توجيه الأمور .

وقد كانت « أصول » السياسة العليا فى معاملة السيدة عائشة ، رعاية لمكانتها وسليقتها ، أن تظل بالمكان الذى يستفاد فيه من عملها وعلمها وأن تعرف لها مهمتها الكبرى فى تقرير السنة النبوية ، أو تبويب الدستور الإسلامى كما يؤخذ من أحاديث النبى ومأثوراته وعاداته ، فى معيشته وعباداته ، وكان هذا وحده عملا خليقاً أن يشغل أيام السيدة عائشة على أحسن الوجوه الصالحة لها وللمسلمين وللدولة الإسلامية

كان هذا واجباً لها وجوب الحق ووجوب المصلحة ووجوب السياسة .

وكان هذا الواجب « أصلا مرعياً » من أصول السياسة

العليا أيام أبى بكر وعمر سواء قصدا إليه أو ذهبا فيه مذهب البداهة ومقتضيات الأمور . . .

ولكنه خولف أو عدل عنه بعد الخليفتين الأولين . خولف أو عدل عنه لأسباب يرجع بعضها إلى حكومة عثمان ، وبعضها إلى طوارئ الزمن ، وبعضها إلى السيدة عائشة على اختيار منها أو على ما تحولت بها إليه دوافع الأحوال .

* * *

جاء الخطأ الأول فى هذه السياسة من القائمين بالأمر فى حكومة عثمان ، وكان خطأ عجيباً حقاً لأنه لا يفهم على وجه من وجوه المصلحة ولا تدعو إليه ضرورة من ضرورات الدولة ، ونعنى به نقص العطاء الذى كان مقدوراً للسيدة عائشة فى عهد الفاروق ، أعدل من لاحظ العدل فى تقسيم الأعطية على حسب المراتب والحقوق .

إن نقص عطاء السيدة عائشة كان يكون سائغاً عندها وعند المسلمين والمسلمات إذا دعت إليه حاجة فى خزانة الدولة ، ولكنه لا يسوغ ولا تستريح إليه نفس والأموال تتدفق على خزانة الدولة بالألوف التى يحار فيها الإحصاء ، وغنائم أفريقية وحدها تبلغ مليونين ونصف مليون من الدنانير ، فيعطى خمسها لبنت الخليفة وزوجها مروان بن الحكم ، وغير ذلك من القطائع والأعطية التى يخص بها القريبات والقريبون ولا يضبط لها حساب .

إن الغضب من هذا لن يكون غضب الحريص على مال .
ولم تكن السيدة عائشة خاصة ممن يحرص على مال أو يبذله في ترف أو يخزنه للمكاثرة والادخار . فما سمع عنها قط أنها أنفقت المال في غير الكفاف من الرزق والإحسان إلى المعوزين، وما تركت بعدها بقية تدل على حرص ولا ادخار

ولقد كانت تنكر التزيد من الثراء على الصحابة الأجلاء وإن كان من التجارة والحسب الموروث . فكان عبد الرحمن ابن عوف — وهو مثل من أمثلة عدة — وافر الثراء على عهد النبي عظيم السخاء في خدمة الدين . ودخلت له عير إلى المدينة فيها سبعمائة بعير تحمل البر والدقيق والطعام ، فارتجت لها المدينة وسمعت رجتها في بيت عائشة ، فما نجا به من لومها إلا أنه ذهب إليها يشهدها أن العير بأحمالها وأحلاسها وأقتابها في سبيل الله .

فغضب السيدة عائشة من نقص العطاء لم يكن غضب الحريص على مال والطامع في ادخار ، ولكنه كان غضباً عادلاً من غضاضة لا حاجة إليها ولا حكمة فيها ، ولا تستريح إليها النفس بتعليل مقبول

وشاع النقد والسخط من ولاة عثمان وحواشيه ، وكثر القيل والقال في مخالفتهم للدين وتوسعهم في اقتناء الدور والحطام

ومثل من الأمثلة العدة في هذا الباب تولية الوليد بن عقبة

أخى عثمان لأمه خلفاً لسعد بن أبى وقاص على الكوفة وهو من أعلام الصحابة المحبوبين بين جلة المسلمين

وكان الوليد متهماً بالخمر ، وشاع فى المدينة أنه أم الناس يوماً فى صلاة الصبح وهو سكران . فلما فرغ التفت وقال : هل أزيدكم ؟ فإنى أجد فى نفسى نشاطاً ؟

ولم يكن عجيباً أن يلجأ الشاكون منه إلى بيت عائشة فيمن لجأوا إليه من كبار الصحابة وهم غير قليلين وإنما لجأوا إليها بعد أن قدموا على الخليفة فتبرمت بهم حاشيته وبرأوا الوليد عنده مما اتهمه به أهل مصره . فقال لهم : أكلما غضب رجل منكم على أميره رماه بالباطل ؟ لئن أصبحت لكم لأنكلن بكم . فاستجاروا ببيت النبى وعائشة فيه

ثم أصبح عثمان « فسمع من البيت صوتاً وكلاماً فيه بعض الغلظة فقال مغضباً : أما يجد مراق أهل العراق وفساقهم ملجأ إلا بيت عائشة ؟ فسمعته ، فقيل إنها رفعت نعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت : تركت سنة رسول الله صاحب هذه النعل ؟ . . . وتسامع الناس فجاؤوا حتى ملأوا المسجد . فمن قائل : أحسنت ، ومن قائل : ما للنساء وهذا ؟ حتى تحاصبوا وتضاربوا بالنعال ، ودخل رهط من أصحاب رسول الله على عثمان وناشدوه الله أن يعزل أخاه »

لم يكن من شأن هذه السياسة من حاشية عثمان أن تكف

السيدة عائشة عن نقد الولاة وقبول الشكاة . بل قربت هذه السياسة بينها وبين اللاجئين إليها . فلما شكا الناس من والى عثمان — فى مصر — عبد الله بن أبى سرح — واتهموه بقتل رجل ممن شكوه إلى الخليفة فزعت وفود المصريين إلى بيت عائشة فأرسلت إلى الخليفة تندد بواليه وتقول له : تقدم إليك أصحاب رسول الله وسألوك عزل هذا الرجل فأبيت ، فهذا قد قتل منهم رجلا فأنصفهم من عاملك

وجعل وفود المصريين يلقون المصلين بالمسجد فى أوقات الصلاة ويبسطون لهم ظلامتهم وشكايتهم إلى أم المؤمنين وكبار الصحابة ، فألحف كبار الصحابة على الخليفة فى إنصافهم ، وأثمرت غلطات الحاشية ثمرتها فى توجيه الشاكين إلى طلب المزيد من حماية أم المؤمنين ، فاختاروا محمد بن أبى بكر — أخاها — ليخلف عبد الله بن أبى سرح حين خيرهم الخليفة فيمن يؤثرونه للولاية بعده . وقعت الطامة بعد ذلك بتدبير لا تعلم جليته حتى الآن ، وإنما الرأى الراجح أنه من تدبير مروان بن الحكم على غير علم من عثمان ونصحائه المخلصين

ذلك أن الوفود القافلة إلى أمصارها عثرت فى طريقها بغلام يحمل كتاباً فى أنبوبة من رصاص وفيه أنه « إذا أتاك

محمد بن أبى بكر ومن معه فاحتل فى قتلهم وأبطل كتابه وقر على عملك حتى يأتيك رأيى فى ذلك إن شاء الله » .

فأعقب هذا الكتاب ما لا بد أن يعقبه من الأثر فى نفوس الصحابة وفى نفس السيدة عائشة وفى نفوس الوفود المتجمعة من الأمصار ، وقذف بالفتنة القائمة يومئذ فى طريق غير مأمون .

وظاهرٌ من هذا العرض السريع أن اختلال الأحوال فى عهد عثمان هو الذى تحول بالسيدة عائشة عن موقفها الأول من حكومة أبى بكر وعمر إلى موقف الاشتراك فى السياسة العامة والمجاهرة بالنقد الشديد لحكومة عثمان وولاة عثمان وحاشية عثمان .

بل هو الذى جعل لها مهمة تطلبها وتسعى إليها ، وهى مهمة الوساطة بين الشعب والخليفة أو مهمة الحماية لمن يجهرون بالشكوى ويخافون عقباها .

فلولا الحمق الذى اشتهرت به حاشية عثمان لما تركت السيدة عائشة فى مكانتها العليا من الأمة الإسلامية وهى تشعر أنهم قد أنزلوها من الرعاية والمبالاة دون منازل بناتهم وزوجاتهم وأصحاب القرابة والزلفى لديهم .

ثم تمادى الأمر فلم يقبلوا من المسلمين أن يلوذوا ببيتها

ويفزعوا إلى جوارها ، ولو تناولوا الأمر بالرفق لاستفادوا من لياذهم بذلك البيت وفزعهم إلى ذلك الجوار

وكانت الطامة الكبرى أن تأتمر الحاشية الحمقاء بحياة أخيها وتنفذ إلى مصر من يأمر واليها بقتله وهو قادم من قبل الخليفة لولاية الحكم فيها

ومن المحقق عندنا أن الخليفة نفسه براء من هذه الدسيسة التي يتورع عنها مثله في بره وتقواه . فإن الرجل الذي تورع عن إهراق قطرة دم في سبيل الدفاع عن حياته والخطر محدق به من جميع جهاته لن يأمر بسفك دم ابن صديقه وزميله ، ولا ذنب له إلا أن الشاكين ندبوه للولاية حين سألهم عمن يختارونه فأجابهم لما ندبوه إليه .

ولكن ما الذي أصاب الجاني المدبر للدسيسة ؟ ولمَ نجا من العقوبة ؟ ولمَ لم يكشف للملأ لولا أنه من رجال الحاشية وإن رجال الحاشية هم الذين ستروه وأنقذوه ؟ وماذا لو أن الغلام الذي كان يحمل الأمر بالقتل وصل إلى مصر ولم يعترضه الشاكون في الطريق ؟ ألم يكن القتل نافذاً في محمد بن أبي بكر كأن الكتاب قد صدر من الخليفة بغير خلاف ؟

فهذه الحاشية الحمقاء قد بدأت بالغض من مكانة السيدة عائشة لغير ضرورة محتومة ولا حكمة مفهومة ، وانتهت بالتآمر على قتل أخيها لغير ذنب جناه ، وسلكت في خلال ذلك

مسلكاً تأباه السيدة عائشة من الحاكمين وغير الحاكمين ، وهو مسلك الإسراف والتهالك على الحطام .

فغير عجيب أن يكون للسيدة عائشة موقف عداء من تلك الحاشية وأن تنادى على رأس المنادين بتبديل حكمها وتأليب الناس عليها ، وأن تضيق ذرعاً بعثمان لأنه يمضى حيث مضت تلك الحاشية فى جنفها وغلوائها .

قيل إنها تربصت به حتى أقبل يخطب الناس فدلت قميص النبي ونادت : « يامعشر المسلمين ! هذا جلباب رسول الله لم يبل وقد أبلى عثمان سنته ».

ولم تذكر الحاشية الحمقاء مكانة السيدة عائشة وأمان جوارها وما يرجى من الخير فى شفاعتها إلا بعد فوات كل فرصة وضياع كل أمل واستعصاء كل تدبير . .

فلما حوصر عثمان وحيل بينه وبين الزاد والماء ذهبت أم حبيبة إلى داره — وهى زميلة للسيدة عائشة من أمهات المؤمنين — فاعترض الثوار بغلتها وكانت معها إداوة ماء تخفيها . قالوا : ما جاء بك ؟ قالت : إن وصايا بنى أمية عند هذا الرجل ، فأحببت أن أسأله عنها لئلا تهلك أموال الأيتام والأرامل : وكانت أم حبيبة أموية من آل أبى سفيان ، فاجترأ الثوار عليها وقالوا : كاذبة ؟ وقطعوا حبل البغلة بالسيف ، فنفرت وكادت تسقط عنها ، فتلقاها كرام الناس فأخذوها

وذهبوا بها إلى بيتها .

وكانت السيدة عائشة قد كرهت المقام بالمدينة وهى على هذه الحال من الفتنة الطاغية ، فتجهزت للحج واستصحبت أخاها محمداً فأبى وتخلف بالمدينة .

عند ذلك لجأ مروان بن الحكم — وهو رأس البلاء — إلى جوار السيدة عائشة التى كان يغرى عثمان بها لاحتماء الناس ببيتها ، فقال لها : يا أم المؤمنين ! لو أقمت كان أجدر أن يراقبوا هذا الرجل . . . فقالت : أتريد أن يصنعوا بى كما صنعوا بأم حبيبة ثم لا أجد من يمنعنى ؟ لا والله ولا أعير ولا أدرى إلى ما يسلم أمر هؤلاء .

وفى رواية أخرى أن مروان هذا تذكر الجود بالمال فى ذلك المأزق الميئوس منه فذهب إلى السيدة عائشة يستبقيها لتصلح الأمر فقالت : قد فرغت من جهازى وأنا خارجة للحج . . . قال عندئذ : فيدفع لك بكل درهم أنفقته درهمين ! فلم تملك عائشة نفسها على ما جاء فى هذه الرواية أن تقول : « لعلك ترى أنى فى شك من صاحبك ؟ إما والله لوددت أنى أطيق حمله فأطرحه فى البحر ! » .

وليس أكثر ولا أغرب من الأحاديث التى نسبت إلى عائشة فى خلال هذه الفتنة قبل خروجها من المدينة وبعد خروجها منها . وأشد هذه الأحاديث وأقساها أن بعضهم

سمعها تقول : « اقتلوا نعثلا فقد كفر » وأنها كانت تسأل من تلقاه أن يخذل الناس عن عثمان وشيعة عثمان .

فأما الصحيح من هذا كله فهو أنها كانت تنقم من حكومة عثمان وتتمنى لها الزوال .

ويجوز الشك بعد ذلك فى كثير من نصوص الأحاديث التى نسبت إليها بصدد هذه الفتنة . لأن بنى أمية مثلوا بأخيها محمد بن أبى بكر عند دخولهم مصر أبشع تمثيل . فقتلوه ظمآن ووضعوه فى جوف حمار ميت ثم شووه . وهذا بعد أن جروه من رجله فى أسواق مصر وأشهدوا على مثلته السفلة والصبيان . ثم أرسلوا قميصه الذى قتل فيه وهو بدمه إلى المدينة . فلبسته نائلة زوجة عثمان ورقصت به ، وشوت أخت معاوية ابن حديج خروفاً وأهدته إلى السيدة عائشة فى ذلك العيد — وهى توصى الرسول أن يقول لها : هكذا كان شى أخيك ! فما أكلت السيدة عائشة بعدها شوياً قط وأقسمت لا تأكله حتى تلقى الله .

فلما تسامع الناس بأنباء هذه المثلة الشنعاء غضبوا للسيدة عائشة أن يشمت بها ولاة الدولة الجديدة هذه الشماتة وخاف الأمويون من جرائرهم وندم عقلاؤهم على ما كان من سفهائهم ، واحتاجوا إلى المبالغة فى تشويه نصيب عائشة من فتنة عثمان ، فأضافوا بألسنتهم وألسنة أتباعهم وصنائعهم أقاويل وأباطيل

تمتزج بما نسب إلى السيدة عائشة ، فلا يعرف منها الخالص والمشوب ، ولا يسهل النفاذ من بينها إلى موقع المبالغة والتلفيق

وخليق بنا أن نزداد حذراً من هذه المبالغات على قدر أصحاب المصلحة فى قبولها . وقد اتفق على تكبير نصيب عائشة من التحريض على عثمان مصدران متناقضان ، وهما مصدر أصحاب معاوية ومصدر الشيعة أصحاب على : يريد الأولون ما قدمناه من تخفيف وزرهم فى المثلة بأخيها والحيف عليها ، ويريد الآخرون أن يبطلوا موقفها من مطالبة على بدم عثمان ، وأن يثبتوا براءة على من دم الخليفة القتيل ومشاركة عائشة فى هجمة قاتليه . فضلا عن مصلحة القاتلين أنفسهم فى التعلل بهذا السند الذى يعفيهم من لوم كثير .

* * *

كذلك بدأت السيدة عائشة مشاركتها الأولى فى السياسة العامة وهى إلى الاضطرار أقرب منها إلى الاختيار

أما مشاركتها الثانية فقد كان اختيارها فيها أكثر من اضطرارها ، فإنها تلقت خلافة على من مبدئها بالسخط والمقاومة ، وأذنت لبعض الطامحين إلى الخلافة أن يتوسلوا بجاهها ويشركوها معهم فى خصوماتهم ، وكان أكرم لهم ولها لو أنهم جنبوها هذه الخصومة وأنزلوها بحيث يعتصم بها الفريقان ويستوى فى جيرتها العسكران ، فتركوا لها مندوحة

للمراجعة يوم دعاها الدعاة بعد تفاقم الفتنة إلى السعى بينهم بالتوفيق .

وأصوب ما قيل فى هذا المعنى مقال ذلك الفتى السعدى الذى تصدى للزبير وطلحة فقال لهما : أما أنت يا زبير فحوارى رسول الله ، وأما أنت يا طلحة فوقيت رسول الله بيدك ، وأرى أم المؤمنين معكما فهل جئتما بنسائكما .

نعم لقد أصاب ذلك الفتى من بنى سعد حين أقام الحجة عليهما بهذا السؤال الذى يغنى عن كل جواب ، فما من أحد يلومهما أن يوافقا السيدة عائشة فى الرأى أو توافقهما فيه ، وإنما الملام الذى لا محيص عنه أن يتجاوزا النداء برأيها إلى الخروج بها فى حومة قتال ، وهما لم يخرجا إليها بالمحارم والأزواج .

كانت فى طريقها إلى مكة يوم لقيت ابن عباس موفداً من قبل عثمان ليتلو على الحجاج كتابه ويطلب النصفة بينهم وبين الثائرين عليه ، فاقترحت عليه أن يخذّل الناس عن عثمان وأن يشككهم فيه ، ورشحت للخلافة طلحة بن عبيد الله لأنه « اتخذ على بيوت الأموال والخزائن مفاتيح . فإن يل الخلافة يسر بسيرة ابن عمه أبى بكر رضى الله عنه »

قال ابن عباس : يا أمه ! لو حدث — أى اعتزال عثمان — ما فزع الناس إلا إلى صاحبنا . . . قالت : إيهاً عنك . لست أريد مكابرتك ولا مجادلتك .

وألفت نفسها فى مكة بين العثمانية والأموية يوم نزلت بها قبيل مقتل عثمان : فعن لها أن ترجع إلى المدينة لتدرك الأمر قبل فواته ، ولكنها سمعت فى الطريق ببيعة على فقالت فيما رواه عبيد بن أبى سلمة وهو من خؤولتها : ليت هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لصاحبك . مشيرة إلى السماء والأرض ، ثم صاحت بركبها : ردونى ! ردونى ! وجعلت تتوعد فى الطريق : أن تطالب بدم عثمان . . . فقال لها عبيد ابن أبى سلمة : ولم ؟ والله إن أول من أمال حرفه لأنت . ! قالت : « إنهم استتابوه ثم قتلوه . وقد قلت وقالوا . وقولى الأخير خير من قولى الأول » .

وما لبث فى مكة قليلا حتى تجمع فيها كل ناقم على علىّ بن أبى طالب من أعدائه ومنافسيه ، فقضت أيامها بمكة بين العثمانية والأموية والولاة الذين أحسوا بزوال الدولة والثروة الذين أوجسوا من حساب الخليفة الجديد ، ولحق بهم طلحة والزبير وكلاهما طامح إلى الخلافة يائس من الأنصار فى المدينة . فاتفقوا جميعاً على كلمة واحدة لا اتفاق بينهم فيما عداها . وهى المطالبة بدم عثمان ، لأن المطالبة به تغنيهم عن القدح فى الخليفة الجديد ، وليس الاتفاق على القدح فيه بمستطاع .

كذلك لذلك ارتفعت الصيحة بدم عثمان .

وفى هذه البيئة غلبت على السيدة عائشة نية الخروج

إلى البصرة بتلك الدعوة التى اتفقوا عليها ، وأكبر الظن أنها كانت وشيكة أن تحجم عن الخروج إليها لولا غلبة البيئة واجتماع الأصوات من حولها على نداء واحد . فإنها ما عتمت فى الطريق أن صدمت أول صدمة حتى همت بالرجوع ثم أصرت عليه لولا احتيالهم فى إقناعها بمختلف الحيل .

عبروا بماء الحوأب فنبحتهم كلابه ، وسألوا أى ماء هذا ؟ فقال الدليل : هذا ماء الحوأب . فصرخت بأعلى صوتها قائلة : إنا لله وإنا إليه راجعون . إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وعنده نساؤه : ليت شعرى أيتكن تنبحها كلاب الحوأب . ثم ضربت عضد بعيرها فأناخته وهى تقول : أنا والله صاحبة كلاب الحوأب طروقاً . ردونى . ردونى . ردونى . وأقامت يوم وليلة لا تريم مكانها ، حتى جاءوا لها بخمسين رجلا من الأعراب رشوهم فشهدوا أنهم جازوا الماء ، وقالوا لها : مهلا يرحمك الله فقد جزناه . ثم صاح عبد الله بن الزبير : النجاء . النجاء . فقد أدرككم على بن أبى طالب . فأذنت لهم فى المسير بعد امتناع شديد .

* * *

ونعتقد أن وقفتها عند ماء الحوأب لم تكن آخرة التردد من جانبها فى أمر القتال . فإننا فى الواقع لم نقرأ بين أخبار وقعة الجمل المتشبعة خبراً واحداً ينم على عزمة قتال مبيتة لغرض

مرسوم . ويؤخذ من كلامها لأبى الأسود الدؤلى حين أشخصه إليها عامل علىّ بالبصرة ، أنها كانت تستبعد خروج أحد من المسلمين لقتالها . فقد سألته : أفتظن يا أبا الأسود أن أحداً يقدم على قتالى ؟ وكان أبو الأسود رجلا صعب المراس فى نصرة علىّ فأجابها : والله لتقاتلن قتالا أهونه الشديد وكان مما قاله لها قبل ذلك : ليس على النساء قتال ولا لهن الطلب بالدماء ، وإن علياً لأولى بعثمان منك وأمسُّ رحماً فإنهما أبناء عبد مناف .

ولم تزل بالبصرة على هذا التردد كلما اشتبك أتباعها وأتباع عثمان بن حنيف والى على عليها . فتحاجزوا عن الحرب غير مرة فى المربد وفى دار الرزق ، ونادى أصحاب عائشة بالكف عن القتال بعد أن تورط فيه الفريقان بدار الرزق نهاراً كاملا من الصباح إلى الغروب كثر فيه القتلى والجرحى من الجيشين .

ثم أنفذ على بن أبى طالب رسوله القعقاع بن عمر إلى طلحة والزبير وعائشة فبدأ بعائشة وسألها : أى أمه ! ما أشخصك وما أقدمك هذه البلدة ؟ قالت : أى بنى . الإصلاح بين الناس . قال : فابعثى إلى طلحة والزبير حتى تسمعى كلامى وكلامهما . فبعثت إليهما . فجاءا . فقال لهما : إنى سألت أم المؤمنين ما أقدمها فقالت الإصلاح بين الناس . فما تقولان أنتما ؟ أمتابعان أم مخالفان ؟ قالا : متابعان ! قال . فأخبرانى

ما وجه هذا الإصلاح ؟ فوالله لئن عرفناه لنصلحن ، ولئن أنكرناه لا يصلح . فذكرا قتلة عثمان وحكم القرآن . قال : لقد قتل بالبصرة ستمائة رجل فغضب لهم ستة آلاف واعتزلوكم وخرجوا من بين أظهركم ، وطلبتم حرقوص بن زهير فمنعه ستة آلاف . فإن تركتموهم كنتم تاركين لما تقولون ، وإن قاتلتموهم والذين اعتزلوكم فأديلوا عليكم فالذى حذرتم أعظم مما تراكم تكرهون ، وإن أنتم منعتم مضر وربيعة من هذه البلاد اجتمعوا على حربكم وخذلانكم نصرة لهؤلاء . . . فسألته عائشة : فماذا تقول أنت ؟ قال : إن هذا الأمر دواؤه التسكين... فإن أنتم بايعتمونا فعلامة خير وتباشير رحمة ودرك بثأر ، وإن أنتم أبيتم إلا مكابرة هذا الأمر واعتسافه كانت علامة شر وذهاب هذا المآل . فآثروا العافية ترزقوها وكونوا مفاتيح الخير كما كنتم ولا تعرضونا للبلاء فتعرضوا له فيصرعنا وإياكم .

قالوا : قد أصبت وأحسنت ، فارجع . فإن قدم على وهو على مثل رأيك صلح الأمر . ثم أقر على وساطة رسوله وأشرف القوم على الصلح لولا أن حبط هذا المسعى بسفاهة السفهاء من العسكرين فترامى هؤلاء وهؤلاء وجمحت الفتنة جماحها الذى خرجت به من أعنة الرؤساء .

ولم ييأس الفريقان بعد هذا من وساطة الصلح ، ولم يكن

التردد من شأن عائشة وحدها ، بل كان أنصارها جميعاً يترددون ولا يستقرون على صنيع . وقد قال لها الزبير يوماً : ما كنت فى موطن منذ عقلت إلا وأنا أعرف فيه أمرى غير موطنى هذا . قالت : ما تريد أن تصنع ؟ قال : أريد أن أدعهم وأذهب .

وربما تقابل الخصمان وجهاً لوجه فتناصحا على مسمع من العسكرين تناصح الإخوان . . . نادى على خصمه الزبير يوماً : يا زبير ارجع . فقال : وكيف أرجع الآن وقد التقت حلقتا البطان(١) ؟ وهذا والله العار . . . قال على : يا زبير ارجع بالعار قبل أن تجمع العار والنار .

فرجع . وأهاب به ابنه عبد الله يستثيره : أحسست رايات ابن أبى طالب وعلمت أنها تحملها فتية أنجاد ؟ قال : قد حلفت ألا أقاتله . قال : كفر عن يمينك وقاتله .

وبينما هم فى تقديم وتأخير ومشاورة ومثاورة أقبل لعب ابن سور إلى عائشة فقال لها : أدركى . فقد أبى القوم إلا القتال . لعل الله أن يصلح بك . فركبت وألبسوا هودجها الأدراع . وتعالت الضجة من هنا وهناك فسألت : ما هذا ؟ قالوا : ضجة العسكر . قالت : بخير أو بشر ؟ قالوا : بشر . إذ

---

(١) البطان حزام الدابة والتقاء الحلقتين كناية عن التهيؤ للركوب والمسير

كان القتال قد نشب بين الفريقين من تصارع الغوغاء وتدافع الغلاة وإفلات الأعنة من الرؤساء .

ويبدو لنا من جملة الوقائع أن حملة الجمل كانت حملة اندفاع ولم تكن حملة تدبير وتقدير ، ولا كان أحد من دعاتها يملك زمامها ويتجه به إلى مصير معروف .

وإلا فما يكون ذلك المصير ، إن أصحابها لم يريدوا بها أن يفسدوا الأمر على على بن أبى طالب ليصلحوه لمعاوية ، فليس منهم زعيم من حزبه والعاملين لدولته .

ولم يتفقوا على ولاية واحد منهم بعد هزيمة على إن تمت هذه الهزيمة ، وليست هى بالمركب الذلول .

إنما هى حملة تهويل وسعى إلى المقاسمة فى الأمر على وجه من الوجوه التى أشاروا إليها قبل مفارقتهم المدينة : فيتولى بعضهم العراق وبعضهم اليمن ، ويصبح الأمر شركة أو « شورى » بينهم وبين الخليفة ، على قولهم الذى عبروا به عن طلب الولاية فى بعض الأحاديث بينهم وبينه .

وفهم الحملة كلها على هذا الوجه أقرب ما نراه لفهم السيدة عائشة فى موقفها من القتال ومن السياسة العامة على الإجمال .

نعم إن فهم مأساة الجمل هى وسيلتنا إلى فهم السيدة عائشة ، لأننا نعرف مصادرها ومواردها ومبلغ الأخطار المنظورة

من ورائها عند الهجوم عليها فنعرف النية التى جنحت بالسيدة عائشة إلى الدخول فيها ، وهى كل ما يعنينا من تاريخ تلك المأساة فى هذا السياق .

والذى يبدو لنا من تلك الحوادث التى لخصناها فيما تقدم أن مأساة الجمل لم تكن عند السيدة عائشة إلا دفعة من دفعات الحدة التى طبعت عليها ، قدحتها المفاجأة وأوقدتها كثرة المغريات بعداوة على فى بيئة لم يرتفع فيها صوت لغير أعدائه ، ومهدت لها حوادث الماضى تمهيدها الذى رسم لها الوجهة واندفع بها عن هذه الخطة دون غيرها .

فمن تمهيد الحوادث الماضية أن طلحة والزبير وعلياً لم يكونوا غرباء عن السيدة عائشة ولم تكن هى غريبة عنهم بميولها وسوابق شعورها .

فطلحة من بنى عمومتها ومن بنى تيم قبيلتها وقبيلة الخليفة الأول أبيها .

والزبير زوج أختها أسماء ، وابنه عبد الله ابنها الذى اختارته لكنيتها فى بعض الروايات ، فكانت تكنى من أجله بأم عبد الله .

وعلىّ أقرب الناس إلى بيت النبى وزوج ابنته وأبو حفيديه وصاحب الرأى الذى لا ينسى فى حديث الإفك وهو نصيحته للنبى بتطليقها .

ومن الحق أن تقول إن الشعوز الذى تكنه السيدة عائشة لعلى من جراء هذه النصيحة شعور طبيعى لا غرابة فيه .

فلا ريب أن علياً رضى الله عنه قد أخطأه التوفيق فى تلك النصيحة . إذ لم يكن من الإنصاف أن تطلق عائشة لشبهة لغط بها المنافقون وطلاب الوقيعة بين النبى وأصحابه . ولن يفهم الناس من تطليقها إلا أن النبى قد أدانها وأنف من معاشرتها ، ولن يصيبها ذلك وحدها بل يلصق بها وبأبيها وآلها وصمة لا تمحى فى زمانها ولا بعد زمانها ، وقد يتعدى الأمر عائشة وآلها إلى الإسلام كله فيتخذ المنافقون من صدق حديثهم الذى أفكوا به مطعناً فى صدق الدين ونبيه ، وهذا كله إلى أن الإدانة بمثل تلك الشبهة لا توافق التحرز الشديد الذى قضى به الدين فى هذه القضايا ولو مست من هن دون عائشة فى القدر والثقة . فما نحسب علياً قد سها عن هذا كله وهو ينصح إلى النبى بتلك النصيحة إلا لفرط الغيرة على تنزيه سمعة النبى وبيته ، واستكباره فى هذا الصدد أن يقال ما يقال ولو لم يكن ثم برهان على ما قيل .

وما من أحد يجهل الشعور الذى تقابل به النساء نصيحة كتلك النصيحة . فأقل ما يقال إنه شعور لا غرابة فيه .

ثم ها هى ذى مسألة الخلافة والترشيح لها من بين عظماء الصحافة الذين بقوا على قيد الحياة بعد موت أبى بكر وعمر وعثمان ،

ومن هؤلاء الصحابة على وطلحة والزبير . وكلهم قد ندبوا للاجتماع فى بيت عائشة لاختيار واحد منهم للخلافة ، وقال لهم عمر يومئذ : « إنى نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم ، وقد قبض رسول الله وهو عنكم راض ، وإنى لا أخاف الناس عليكم إن استقمتم ، ولكن ما أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس . فانهضوا إلى حجرة عائشة فتشاوروا واختاروا رجلا منكم » .

وكان جائزاً أن يقع الاختيار فى بيت عائشة على طلحة أو الزبير لأنهما وكيلان من وكلاء الشورى .

ثم انقضت خلافة عثمان وتجددت المسألة كرة أخرى على النحو الذى شهدته عائشة قديماً فى بيتها . فمع من يكون شعورها ؟

إن طلحة والزبير مرشحان للخلافة منذ اثنتى عشرة سنة ، وقد تكرر اختيار الخليفة من غير بنى هاشم حتى أصبح فى رأى بعضهم كالعرف الذى يجرى عليه التقليد . وليس لعلى سند قاطع من القرآن أو السنة يبطل ذلك العرف ويسقط حجة طلحة والزبير . فإذا كانت السيدة عائشة أميل إلى فريق طلحة والزبير بشعورها وسابقة رجائها فليس ذلك كما أسلفنا بغريب ولا بمخالف للمعهود فى طبائع الناس .

على أننا لا نريد بما تقدم أن نسوغ موقف السيدة عائشة

من وقعة الجمل وخصومات الخلافة ، وإنما أردنا تفسير شعورها على الوجه الذى لا غرابة فيه ، ولم نرد تسويغه فى نظر العقل ولا فى نظر التاريخ .

فعلى قد أخطأه التوفيق فى نصيحته .

وعائشة قد أخطأها التوفيق فى مكافحته من أجل هذه النصيحة ، وإن كانت لا تلام على أنها كانت تتمنى الخلافة لسواه .

ولكننا إذا ذكرنا هذا كان علينا أن نذكر معه أن السيدة عائشة ندمت على موقفها من يوم الجمل أشد ندامة ، فكانت تقول بقية حياتها : ليتنى مت قبل يوم الجمل، وقالت مرة : ليت كان لى من رسول الله صلى الله عليه وسلم بنون عشرة وثكلتهم ولم يكن يوم الجمل . وكانت كلما خاض الناس فى حديث ذلك اليوم تبكى حتى تبل خمارها .

وعلينا أن نذكر أنها صانت خصومتها عن كل كلمة نابية فى حق على رضى الله عنه ، فلم تتهمه بدم عثمان ولم تتجاوز بالتهمة بعض من بايعوه ، وقالت عنه غير مرة إنه الصوام القوام ، وإنه أحب الناس إلى رسول الله .

وعلينا أن نذكر أن المغريات بالاندفاع فى هذه الغاشية كثيرة : حدة فى الطبع ، ومفاجأة تبتدر الحدة ، وبيئة مطبقة

بالعداء لعلى ، وسعى حثيث من أقرب الناس إليها وأقربهم إلى إقناعها .

وإنها مع هذا أقدمت على مورد مبهم لا يتضح الشر فيه ، وترددت هنالك بين إقدام وإحجام ، واعتقدت أن الأمر لا يفضى إلى قتال . وأصغت إلى دعوة الإصلاح ودعت إليه .

وهو حادث لا بد له من عبرة .

وإن عبرته لأحق عبر التاريخ الإسلامى بالتسجيل .

حقوق المرأة

فى حياة السيدة عائشة ميزان صادق لحقوق المرأة فى عصرها ، وقد يقاس عليه الميزان الصادق لحقوق المرأة فى جميع العصور .

فالحياة البيتية وما يتصل بها من حياة التربية والتعليم ومعونة الرجل فى واجباته العامة هى خير ما تتولاه المرأة من الأعمال .

والسياسة — ولا سيما السياسة فى عصور الاضطراب — هى المجال الذى يحسن بها اجتنابه ولا يرجى لها التوفيق فيه . وقد

تؤدى فيه هنالك الخير إذا التزمت منه جانب المسالمة وكانت لها وسيلة إليها . أما جانب الرئاسة والإشراف فلا طاقة لها به ولا يأتى لها أن تتولاه إلا نقلت إليه شؤون البيت ومزجته بما يهمها من أواصر القرابة والمعيشة الزوجية .

فالسيدة عائشة كانت ربة بيتها وشريكة زوجها ، وكان زوجها العظيم يعينها فى شئونه ويكون فى مهنة البيت ما دام فيه . وكانت هى تعينه على شؤون الهداية والإصلاح كلما وسعتها المعونة فيها ، وقد لقنت الناس ما تلقنته منه فأحسنت التلقين .

وهذا فى جملته هو قوام الحقوق بين الجنسين .

ولكنها على ذكائها وعلمها ، وعلى أنها فى بيت الرئاسة نشأت وفى بيت الرئاسة عاشت ، وأنها تعودت أن يؤبه لها وتسمع كلمتها ، قد تحولت بها طوارئ العصر إلى السياسة العامة ، فكانت فيها طوعاً لأواصر البيت ودواعى المودة والنفور التى توحيها ، ولم تكن مثلا يقتدى به فى توجيه الأمور العامة كما كانت مثلا للنساء كافة وهى ربة بيتها وشريكة زوجها .

بل هى قد كانت أول مثل يستشهد على صواب الحقوق التى عرفها الإسلام للنساء : « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة » .

فلم تأت العصور بعد ذلك بإنصاف للمرأة أصوب من هذا الإنصاف .

فليس المهم أن تساوى الرجل فى كل شىء وأن يكون لها مثل حقوقه ومثل واجباته . لأن المماثلة مع الاختلاف ليست هى الصواب وليست هى الإنصاف .

ولكن المهم أن تكون حقوقها مساوية لواجباتها ، وأن يكون لها مثل ما عليها ، وألا تظلم فى حياتها الخاصة والعامة شيئاً ، ولا يفوتها عمل تصلح له وتحسن أداءه وتغنى فيه غناء الرجل ولا يغنى فيه الرجل غناءها .

وقوام ذلك كله أنهن « لهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة » .

وهى الدرجة التى ينفرد بها الرجال حيث تبطل المشاركة فى الملكات والأعمال .

وإنما كان هذا قوام الإنصاف فى حقوق الجنسين لأنه حكم قائم على الواقع الذى لا يتغير اليوم ولم يتغير قط ولن يتغير فى الغد مهما تتغير أحكام الشرائع وأقاويل أصحاب الأقوال والآراء .

وكل حكم قائم على إنكار الواقع أو المغالطة فيه فهو جهالة تنكشف لا محالة فى يوم من الأيام ، وإن لم تنكشف كانت كالداء المكتوم أو بل ما يكون وهو مجهول .

والواقع أن الرجل والمرأة مختلفان .

وأن اختلافهما حقيقة علمية وحقيقة تاريخية وحقيقة حسية ، وحقيقة تعرف بالعقل والبداهة .

فالمرأة تخالف الرجل فى وظائف الغدد وفى تكوين الأعضاء وفى شواغل الذوق والإحساس .

والمرأة تخالف الرجل فى أعمالها وتكاليفها منذ القدم فى جميع الشعوب ، ومن قال إن هذه المخالفة من فعل الرجال وسيطرتهم وليست من فعل الطبيعة وسيطرتها فقد قال إنها من فعل الطبيعة وليست من فعل الرجال .

والمرأة تخالف الرجل فى القدرة حتى حين تشاركه فى العمل الذى تفردت به منذ زمن طويل . فهى منذ زمن طويل تزاول الطهى والحياطة والتجميل والولادة وتندب الموتى وتشيعهم بالبكاء والتعديد ، ولكنها لا تبلغ شأو الرجل فى هذه الصناعات إذا وقعت المزاحمة بينهما فى إحداها . فالطاهى يفوق الطاهية ، ومبدع الأزياء يفوق مبدعتها ، والطبيب المولد مقدم على الطبيبة المولدة ، وكل ما نظمته النساء من الرثاء لا يوازن قصيدة من الرثاء الجيد فى شعر الرجال .

والمرأة تخالف الرجل ولا بد أن تخالفه على سنة الفطرة التى عمت الأحياء . فإن سنة الفطرة لا ترمى إلى توحيد العمل بل إلى توزيعه وتنويعه ، ولا تجعل جنسين ليشتركا فى حقوق

واحدة وواجبات واحدة ، بل تجعلهما جنسين ليختلفا فى الحقوق كاختلافهما فى الواجبات .

هذه هى الحقيقة الماثلة بين أعيننا ، وعلى أساسها ينبغى أن تنبنى المذاهب والآراء .

أما الذين يضعون المذاهب والآراء ثم يفسرون الحقيقة على موافقتها فأولئك على باطل ، ولن تقوم للباطل قائمة فى عالم الطبيعة .

ومن أمثلة المذاهب التى تفسر الحقيقة على موافقتها مذهب الشيوعيين فى التسوية الكاملة بين الرجل والمرأة . فهم يريدون أن يهدموا الأسرة لأن الأسرة فى زعمهم أصل الاستغلال وإن الاستغلال قائم على الاختلاف بين حقوق الرجل وحقوق المرأة ، ولها يجب أن يبطل هذا الاختلاف وأن تتقرر المساواة بين الرجال والنساء فى جميع الأحوال وجميع الأعمال .

وهذا تسخير للحقيقة فى سبيل الرأى ، وهو وحده كفيل بالقضاء على المذهب الشيوعى واقتساره عاجلا أو آجلا على موافقة الحقيقة التى يريد هو أن يقتسرها على هواه .

* * *

فليس الإنصاف إذن أن يتساوى الرجل والمرأة فى جميع الحقوق والواجبات وهما مختلفان هذا الاختلاف الظاهر للعيان . الماثل للعلم والحس منذ كان الإنسان ، بل قبل أن يكون الإنسان

حيث يختلف الذكر والأنثى فى عالم الحيوان .

ولكن الإنصاف الذى يجتمع فيه حكم الفطرة وحكم الآداب الإنسانية هو أن تأخذ من الحقوق كفاء ما عليها من الواجبات وأن تعطى حقوقها وتسأل عن واجباتها بالمعروف « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف » لا بالإرهاق والإذلال . فهنالك تهذيب الإنسان إلى جانب حكم الفطرة ، وهما خير مناط لإنصاف الشرائع والآداب .

* * *

وليس من الحيد عن سواء التفكير أن يستطرد الفكر هنا إلى سؤال لا بد أن يخطر على البال ، وهو السؤال عن تعدد الزوجات : أهو من الإنصاف ؟ أهو من الكرامة والمعروف ؟ أهو من سنة الفطرة وتهذيب الإنسان ؟

واعتقادنا نحن أن المثل الأعلى للزواج هو الزواج بين رجل وامرأة يتحابان ويمتزجان بالجسم والروح ولا يفترقان مدى الحياة .

ولكننا نعتقد مثل هذا الاعتقاد أن المثل الأعلى لم يخلق قط لتفرضه القوانين على جميع الناس .

إنما المثل الأعلى هو الحالة النادرة التى تتيسر كلما تيسر الكمال أو تيسرت مقارنة الكمال .

وليست هذه بالحالة التى تفرضها القوانين على كل رجل وكل امرأة من جميع مراتب التفكير والتهذيب .

فإنما تفرض القوانين ما يستطاع بين عامة الرجال وعامة النساء ، وما تسمح به أخلاق الزوجين وضرورات المعيشة التى لها عليهما سلطان مسموع كسلطان الأخلاق .

ولا حاجة إلى فرضها على الأمثلة النادرة بين صفوة الرجال وصفوة النساء ، لأن هذه الأمثلة النادرة فى غنى عن تعليم القوانين .

والإسلام لم يقل إن تعدد الزوجات هو المثل الأعلى .

ولم يفرضه على كل مسلم ، ولم يحمده من كل مسلم ، ولم يخله من شرط عسير هو العدل فى المعاملة وإن تعذر العدل فى المحبة ، ولم يفعل إلا أنه وضع التشريع فى موضعه الذى يحسب فيه حساب المثل النادر والمثل الشائع ، ولم تأت بعده شريعة حلت هذه المشكلة بغير الهرب منها أو المغالطة فيها ، كما هو الواقع الملموس فى الأمم التى تحظر تعدد الزوجات ولا تحظر المعيشة مع الخليلات ، أو معاملة النساء كمعاملة العجماوات .

وفى المجتمع الإنسانى حالة يكثر فيها عدد النساء ويقل عدد الرجال ، ولم تستطع الحضارة التى ينعون باسمها تعدد الزوجات أن تمنع تلك الحالة أو تبطل عواقبها . فلا نزال فى كل جيل نشهد حرباً من الحروب العالمية التى تنجلى عن ثلاثين أو أربعين مليوناً من الفتيات أو الأرامل بغير قرناء .

وقل ما شئت فى تعدد الزوجات فهو خير من التبذل الوبيل ، أو من إعطاء المرأة محلا فى المصنع بديلا من محلها فى البيت والأسرة .

وقد ينطلق الهوس بالمساواة إلى أبعد من هذا المدى فيسأل سائل : وهل يجوز للمرأة تعديد الأزواج كما يجوز للرجل تعديد الزوجات ؟

وجواب ذلك أنه بحكم الفطرة لا يجوز .

لأن الرجل يستطيع أن يؤدى واجب الأبوة مع تعدد زوجاته ، ولا تستطيع المرأة أن تؤدى واجب الأمومة لأربعة أزواج أو لزوجين اثنين .

كذلك له هو من حق مراقبتها والسهر عليها أكثر من حقها هى فى مراقبته والسهر عليه .

لأنها تستطيع أن تخدعه بولد ليس من لحمه ودمه ، أو تخدعه فى أمس شعور به بعد شعوره بكيانه .

ولكنه هو لا يستطيع أن يخدعها بولد ليس من لحمها ودمها ، وأن يصيبها بمثل هذا المصاب الأليم الذى ليس آلم منه ولا أفجع فى نكبات النفوس .

وهنا محل عادل للدرجة التى للرجال على النساء ، كالعدل فى محل تلك الدرجة عند التفرد بحق تعديد الزوجات وعند التفرد بحقوق تخالف حقوق النساء ، تبعاً للخلاف فى التركيب والتكوين .

* * *

على أن البحث فى حرية الزوجة والبحث فى حرية المرأة مسألتان اثنتان لا مسألة واحدة .

لأن الآراء على تناقضها تلتقى فى مسألة حرية الزوجة عند ملتقى واحد وهو تقييدها بحقوق الزوج كائناً ما كان الرأى فى قداسة الزواج . فالذى لا ينكر الخيانة ينكر السرقة والاغتصاب ، والذى لا يؤمن بالعاطفة الخاصة يؤمن بشروط القسمة بين الشريكين . ومما لا جدال فيه أن الزواج شركة لها شروطها ، وأهون ما يقال فى تلك الشروط أنها كشروط الشركة فى المال ، فلا يجوز للزوجة أن تختلس من حقوق شريكها ولا أن تسرق نصيبه المقسوم بينهما على السواء ، وهنا الملتقى بين القائلين بالوفاء والقائلين بالمحافظة على حصة الشريك .

ولكن المسألة التى ينطلق فيها الغلو إلى غاية مداه هى مسألة البحث فى حرية المرأة على التعميم بمعزل عن علاقة البيت وعلاقة الزواج .

فمن أدعياء الحرية فى عصرنا هذا من يرى أن حرية المرأة التى لا زوج لها هى إباحة مطلقة لا يقيدها واجب من الواجبات ، وإن القيود الجنسية التى اصطلحت عليها الأمم منذ القدم إن هى إلا اعتساف من الأديان أو من الكهانات « الطوطمية » قبل

الأديان ، ويعنون بالطوطمية تقديس بعض الأحياء واعتبارها سلفاً للقبيلة يضمها فى نسب واحد ويحرم على أتباعه المزاوجة كما تحرم الآن بين الإخوة والمحارم .

وتمادى بعض هؤلاء فاستكثروا القيود الجنسية على الحيوانات الدنيا ، وزعموا أنها لا تتقيد بموسم للمزاوجة إلا لوفرة الثمرات فى ذلك الموسم وامتلاء الجسم فيه بفيض من الحيوية يدعوه إلى طلب الذرية . قالوا : وإذا توافر الطعام على طول العام للدواجن من الحيوانات نسيت قيود الموسم وطلبت المزاوجة أنى تيسرت لها من أيام العام .

وهذا كلام لا يعنينا أن نخوض فى تفاصيله وأن نتوسع فى تفنيده ، ولكننا نلاحظ عليه عرضاً أن السر فى موسم المزاوجة أعمق جداً من الطعام وأحوج إلى الفهم جداً من هذا النظر القصير .

وإلا فلماذا تتوافر الثمرات فى ذلك الموسم ؟ ولماذا يكون من خصائص ذلك الموسم أن يزيد قوة التوالد فى النبات ولا يكون من خصائصه أن يزيد قوة التوالد من باب أولى فى عالم الحيوان ؟ وما بال الحيوانات التى تأكل الأحياء وتجدها طول السنة تجرى فى موسم المزاوجة على سنة الحيوانات التى تأكل النبات ؟ وما بال الأسماك فى البحار تقصد إلى الأنهار القصية للمزاوجة خلال فترة واحدة وهى فى موسم متشابه من الأطعمة طوال العام ؟

إن سر التوالد لأبعد جداً من أن يحده ذلك النظر القصير ، لأنه هو بعينه سر الحياة .

وأيا كان القول فى الاختلاف بين الدواجن والأوابد فى موسم المزاوجة فالأمر الذى يتفقان فيه أن الحيوان لا يقارب الأنثى وهى حامل ولا يطلب المزاوجة للعبث والمجون .

فالحيوان نفسه لا ينطلق من جميع القيود فى علاقاته الجنسية .

ومن السخف أن نرد قيود الأخلاق الجنسية فى الإنسان إلى اعتساف الطوطمية والكهانة .

لأن الأخلاق كلها — جنسية أو غير جنسية — قائمة على ضبط النفس أو على وجود الضوابط الأدبية فى بنية الإنسان .

والطعام — مثلا — مباح لا يتعلق به عرض ولا شرف ولا تزييف نسب ولا اختلاس ذرية ؛ ولكن الإنسان الذى لا يضبط شهوته أمام إغراء الطعام حيثما أصابه ، إنسان مهين ولو كان طعامه من كسب يديه .

وإنما كان ضبط النفس لازماً فى الشؤون الجنسية — لزومه فى كل شهوة من الشهوات — لأنه قيمة أخلاقية يطلبها الرجل فى المرأة وتطلبها المرأة فى الرجل ، ويطلبانها معاً فى الذرية التى ترث منهما هذه الفضيلة .

وإذا نفر الرجل من المرأة التى تنطلق مع أهوائها وتتهافت على شهواتها فهو لا ينفر منها لأنها خالفت الدين أو خالفت لطوطمية كما يزعمون ، ولكنه ينفر منها فطرة لأنها مخلوق معيب فى تكوينه سليب من الضوابط السليمة التى تناط بها جميع الأخلاق .

فالدين لم يعتسف هذه الضوابط اعتسافاً لغير علة ولغير مزية ، ولكنه شرعها وهى فى أصول الفطرة القويمة لأنها مزية فى أخلاق الفرد ومزية فى أخلاق النوع ، وما كرامة نوع يعرف الإباحة ولا يعرف ضوابط الشهوات ! .

ترجع قيود الجنس إلى أصول الحياة ، ولا ترجع إلى اعتساف من دين أو شريعة .

ولو لم تكن فى تلك القيود مصلحة للفرد ولا للنوع كله لكانت فيها دلالة على قدرة ضابطة فى النفس هى قوام كل طبيعة مهيأة للغلب فى ميدان الحياة .

وترجع قيود الجنس إلى مرجع آخر قريب من هذا المرجع فى ينبوعه الأصيل ، وهو أن العلاقة بين الذكر والأنثى هى علاقة بين شخصية وشخصية ، وليست علاقة بين جسدين أو عضوين ، وآية ذلك هذا السباق الخالد الذى تترقى به الأحياء جميعاً ، لأنه يوكل الانتخاب الجنسى بأكمل المحاسن وأندر الصفات ، ويجعل « الشخصية المتكاملة » هى الهدف

الذى يتجه إليه ذلك السباق .

وأصدق من أدعياء الحرية هؤلاء طبيعة المرأة التى لا تخدعها ، فإنها لتعلم من قرارة وجدانها أن طلاقتها بخس لقيمتها ، إذا كان معنى الطلاقة أن تسعى هى إلى الرجل ولا تتركه يسعى إليها ، ومن قبل المرأة فى عالم الإنسان كانت الأنثى فى عالم الحيوان جائزة للمنافسة والسباق ، ولم تخلق لها وسيلة واحدة من وسائل الاقتحام التى ميز بها الذكور .

وخلاصة ذلك كله أن حقوق المرأة لم تكن قط مسألة فرد ولا مسألة أمة أو مجتمع موقوت ، ولكنها كانت ولن تزال مسألة النوع الإنسانى بأسره ، فلا مناص فيها من الضوابط التى تعبر عن مصلحة النوع وتتجاوز المصلحة العاجلة والغرض القريب .

ولهذا تصدق الأديان لأنها تنطق بلسان الفطرة السليمة ، وتكذب المذاهب التى تحسب أن ضوابط الجنس فى المرأة والرجل من اعتساف الأديان ، لأن الإباحة التى تنادى بها هذه المذاهب تدل على جهل بالفطرة ، وهى تنادى نداءها باسم العلم والمعرفة الحديثة ، وهنا فلنحسب للقدم مزيته الأولى إذ هو قدم الفطرة الباقية ، وهى أسبق إلى المعرفة الصادقة من كل حديث .

دار المعارف

تقدم إلى الآباء والأمهات مجموعة :

في غياب الطبيب

بإشراف الدكتور سليمان عزمي

سلسلة من الكتب الصحية الطبية

يحتاج إليها كل إنسان ولا يستغني عنها كل منزل .

صدر منها

الكتاب الأول

صحة الطفل

بقلم الدكتور حبيب صادر